سلسلة قراءات معاصرة(3)

محمد رباعــة

التصور الإسلامي

لله و الحياة و الإنسان

دار القبس للنشر الإلكتروني
ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس
الهاتف: 78 ـ 73 ـ 20 ـ 0662

(رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة 286

الإهداء : الى شيوخنا و أساتذتنا الأفاضل ، أبو الأعلى المودودي ، الشهيد سيد قطب ، الدكتور الشهيد سعيد رمضان البوطي ، الذين علمونا كيف نفهم القرآن الكريم و كأنه ينزل الآن . رحمهم الله و أسكنهم فسيح جناته .

الطبعة الإلكترونية الأولى ، سبتمبر 2019

طبعة الكترونية جديدة منقحة و مزيدة

المقدمة

الحمد لله و كفى ، و الصلاة و السلام على النبي المصطفى ، و رضي الله عن الصحابة الكرام و أمهات المؤمنين الطاهرات ، أما بعد فقد ظلت فكرة صياغة و إعداد كتاب حول التصور الإسلامي لله و الحياة و الإنسان تراودني و تدور في ذهني و تلح علي ، منذ عدة سنوات ، و كنت في كل مرة أتجاهل الموضوع و أتردد ، و أقمع الآماني و الأحلام ، كما كنت متخوفا من مجرد الإقتراب من هذه المواضيع و معالجتها ، لأنها تتعلق بدراسة قضية هي من أخطر القضايا العلمية و الفكرية الإسلامية ، التي تحدد نظرة الإسلام كدين سماوي و كعقيدة و شريعة لله و الكون و الحياة و الإنسان ، و هي المحاور التي تتضمن الغوص في كثير من الأمور الغيبية و المتشابهات ، و هي نفس المحاور و المواضيع التي تاه فيها أجدادنا المنظرون و الفلاسفة و الكتاب قديما و حديثا ، و حدث بينهم خلاف فكري طويل و عريض نشأت على إثره العديد من المدارس العقائدية ، أهمها على الأطلاق ، المعتزلة ، و الأشاعرة و الماتريدية ، و السلفية ، و الشيعة و الخوارج ، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لتنزيل مجموعة من الخواطر و الإنطباعات التي تشكلت مع الأيام و ترسخت في الذهن نتيجة مطالعاتي المكثفة في العقيدة و الفلسفة و علم الكلام بشقيه القديم و الحديث ، و التي إمتدت على مدار أربعين سنة ، و قد تجنبت معالجة الموضوع بطريقة تقليدية كما تناولتها كتب العقائد ، أي إستعراض و شرح أركان الإيمان الستة المعروفة في القرآن و السنة ، و فضلت دراسة و تقديم العقيدة الإسلامية كتصور بشكل و أسلوب جديدين ، و حاولت عرض المواضيع و المحاور و الوحدات الفكرية بطريقة غير مألوفة لدى القراء ، على الأقل في دراسة موضوع العقيدة الإسلامية ، و أفتخر أنني تأثرت و إستفدت كثيرا من كتاب الأستاذ الشهيد سيد قطب التصور الإسلامي و مقوماته ، و كتاب الشهيد الدكتور سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية من ناحيتي شكل و طريقة عرض المادة ، و بالمضمون بدرجة أقل ، و لأول مرة اعتمدت على مراجع منشورة بصيغة ال PDF و كتبته مباشرة على الكومبيوتر دون الحاجة الى مخطوط يدوي ، ربحا للوقت ، و جاء الكتاب في ستة فصول هي ، التصور الإسلامي ، طبيعته و خصائصه ، الله جل جلاله ، توحيد الحاكمية ، الكون ، الحياة ، الإنسان ، في الفصل الأول تناولنا موضوع التصور ، تعريفه ، طبيعته و خصائصه ، و في الفصل الثاني ، حاولنا تقريب مفهوم الألوهية الى ذهن القارىء بأسلـــوب بسيط و مباشـــر ، دون الخـــــوض كثيرا في

الخلافات العقائدية التاريخية بين المدارس ، و في الفصل الثالث تناولنا موضوع الحاكمية بإعتبارها بعدا أساسيا من أبعاد التوحيد و أكدنا أن قضية الحكم أو الإمامة العظمى هي قضية كبرى و أساسية و أصلية أي من أصول الدين ، و ليست من الفروع كما يتوهم بعض الكتاب المعاصرين ، لأنها تتعلق بتوحيد مصدر المرجعية أي التصورات الفكرية و الفلسفية ، و السلطة و السيادة ، و التشريعات و القوانين و القيم الأخلاقية و المثل الإنسانية ، و إلا تحول الإسلام الى مجرد علاقة روحية بين العبد و ربه ، و في الفصل الرابع و الخامس عرضنا موضوعي الكون و الحياة واعتمدنا فيهما بصفة كلية على الموسوعة العلمية التي أعدها الدكتور ماهر أحمد الصوفي ، و التي جمع فيها بين الحقائق العلمية و الدينية ، و في الفصل الأخير تناولنا بشيء من التفصيل محور التصور الإسلامي للإنسان ... و هذا الكتاب كما ذكرت سابقا هو مجرد خواطر و إنطباعات و أفكار و آراء ، تكونت لدي نتيجة لمطالعاتي في كتب و مراجع الفكر الإسلامي القديم و الحديث ، و لست أزعم أنها دراسة أكاديمية محكمة ، بقدر ماهي محاولة متواضعة لمعالجة قضايا و محاور عقائدية إسلامية بأسلوب بسيط و معاصر ، و تقريب الأفكار و المعلومات الى القراء الجزائريين من الشباب غير المتخصص في العلوم الإسلامية و للأمانة العلمية و التاريخية أذكر بأن الأستاذ المسلم الهندي أبو الأعلى المودودي كان له شرف إستعمال كلمة التصور في كتاباته و هو الذي أدخلها في متون الفكر الإسلامي الحديث ، ثم تأثر به و نقلها عنه ألأستاذ الشهيد سيد قطب ، هذا و قد يجد القارىء الكريم بعض الأخطاء و الهفوات التي لم ننتبه إليها رغم ، تصحيح الكتاب عدة مرات ، و كل عمل إبن أدم هو منتوج ناقص و الكمال لله سبحانه و تعالى فنعتذر مسبقا عن تلك الأخطاء إن وجدت و التي قد لا تؤثر على روح الكتاب بصفة عامة . أتمنى أن يتقبل الله الرحمن الرحيم ، عملنا هذا قبولا حسنا و يجعله وقفا في سبيله ، و علما ينتفع به ، و صدقة جارية ، تنفعنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، و الحمد لله أولا و أخيرا .

محمد رباعــة بومرداس في 10. سبتمبر . 2019

الفصل الأول (1)

التصور الإسلامي

طبيعته و خصائصه

اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِـي الأَرْضِ مَن ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَـلْـفَـهُـمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{255}

آمَنَ الرّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رّبّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِـاللّـهِ وَمَـلآئِـكَـتِـهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّـنَـا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{285}

ـ معنى التصور

من تصور الشيء ، أي مثله حتى كأنه ينظر إليه ، و تصور الشيء بالشيء تشبيها به ... في اللغة الفرنسية التصور لفظة مشتقة من فعل لاتيني يعني إحضار الشيء ومثوله أمام العين أو في الخيال بواسطة الرسم أو النحت أو اللغة و التصور هو استحضار الأشخاص أو الأشياء إلى الذاكرة أو الذهن .

- المعنى السيكولوجي :

يدل التصور على استحضار موضوع غائب إلى الذهن، موضوع غير واقعي أو يتعذر إدراكه مباشرة ولكن وعيه أو تصوره ذهنيا ممكن ، والتصور نتاج عملية تفاعل بين المعطى النفسي والمعطى الاجتماعي ، في ديداكتيك العلوم مجال يعنى بتدريس واكتساب المفاهيم العلمية ... أصبحت كلمة تصورات كثيرة التداول بعد استعارتها من مجالها المعرفي الأصلي السيكولوجيا .ـ ـ تعبر التصورات عن المعطيات المعرفية الشخصية الأولية قبل أي تعليم أو تعلم علمي منظم ، وهذه التصورات هي بمثابة أنظمة وظيفية وفعالة يستعملها الشخص لشرح الظواهر الملاحظة، وللإجابة عن الأسئلة المطروحة عليه تتميز التصورات بتنوعها وببطء تحولها، الشيء الذي يعرقل، في بعض الأحيان، اكتساب المفاهيم العلمية ـ منقول عن الإنترنات بتصرف يسير ـ و التصور في حقيقته هو ما يرسمه الإنسان أو يصوره في ذهنه عن الأشياء و المخلوقات و الحوادث التي لم يرها في حياته ، و لا يمكنه أن يراها ، دون أن يكون لديه خلفيات أو معلومات و لو بسيطة عن تلك الأشياء أو المخلوقات قد تساعده على رسم صورة تقريبية لها ، و أول من أدخل فكرة التصور الإسلامي في الفكر الإسلامي الحديث هو الأستاذ الهندي أبو الأعلى المودودي ، و تأثر به الأستاذ سيد قطب ، و هو مصطلح فلسفي حديث ، شاع إستعماله لدى العلماء و المفكرين و المنظرين في العالم الإسلامي .

ـ العقيدة: كلمة عقيدة غير مذكورة في القرآن الكريم و لا في السنة النبوية الشريفة ، و هي مصطلح إستعمله الكتاب و المنظرون بداية من العصر العباسي الذي عرف بعصر النهضة الفكرية الإسلامية ، و أصل الكلمة هو فعل عقد ، يعقد ، عقدا ، بمعنى أبرم أو وقع أو أمضى بالنسبة للعقود ، و نظم بالنسبة للإجتماعات ، فنقول مثلا عقد أو نظم إجتماعا أو مؤتمرا ، و العقد بكسر العين يؤدي معنى آخر ، هو ما تضعه المرأة على رقبتها للزينة ، و كان المصطلح الجديد بصيغة الجمع ـ العقائد الإسلامية ـ ثم تغيرت الصيغة فأصبحت مفردة مؤنثة العقيدة الإسلامية و هي مرادفة لمعنى التوحيد و بالمصطلح القرآني الإيمان و العقيدة في معناها البسيط و المباشر هي عقد يبرمه الإنسان مع الله من يوم بلوغه درجة التكليف ، تنفيذا للعهد الذي قطعه الإنسان الأول مع الله سبحانه و تعالى ، عقد ليس كبقية العقود و العهود و المواثيق التي يوقعها البشر مع بعضهم ، و هي في تعريف الفلاسفة مجمل التصورات حول الأمور الغيبية ، و التصور في معناه البسيط ، هو أنك ترسم صورة معينة لأشياء مادية أو معنوية لم ترها من قبل أو يستحيل ان تراها بالعين المجردة و التصور في علم النفس التقليدي المتأثر بالنزعة التجريبية يرى أن الصورة هي بقايا الإدراك التي تستمر ماثلة في الشعور ، على أساس أن الصورة الذهنية عمادا ماديا يتمثل في آثار الإدراك المنقوشة في خلايا الدماغ ، فتكون الصور الذهنية عندئذ شبيهة بالصور الشمسية التي نحتفظ بها في دفتر خاص للذكرى ، و فعلا فإن التصور فكرة تمثل مظهرا من مظاهر الواقع يجردها الفكر ، و هذه الفكرة المجردة فكرة عامة ، مثل فكرة الإنسان ، فالإنسان ليس زيدا ولا عمر و لا بكر ، إنما هو مفهوم عام يشمل هؤلاء كما يشمل جميع الناس ، و ينظر علماء المنطق إلى التصور من جهتين ، جهة المفهوم و جهة الماصدق ـ الوجيز في الفلسفة ـ محمد يعقوبي ـ ص ، ١٩٢ و ٢١٣ فالعقيدة الإسلامية إذن هي مجموعة تصورات و أفكار يكتسبها الإنسان سواء فطريا عن طريق التقليد و يلتقطها من الواقع بالنسبة للأميين ، أو من خلال الدراسة و البحث و المطالعة ، فتشكل خلفيته الفلسفية و الفكرية و تحدد موقفه .

ـ الإنسان و العقيدة: الإنسان هذا المخلوق العجيب و مهما كانت أحواله و ظروفه الإجتماعية و الثقافية و السياسية ، سيظل في حاجة إلى عقيـــــدة سليمة

مستوحاة من مصادر موثوقة و سليمة ، فالعقيدة الصحيحة و الإيمان الصادق و العميق حاجة ضرورية للإنسان كحاجته للماء و الهواء ، و العقل البشري مهما أوتي من علم و حكمة ، عاجز عن إنتاج عقيدة صالحة ثابتة و مقنعة للروح و للنفس و الجسد ، يمكنها أن تحقق للفرد السعادة في الدنيا و الآخرة ، و لذلك فهو بحاجة دائمة إلى الوحي ، إلى مرجعية دينية و فكرية ربانية صادرة عن قوة غيبية قاهرة و رحيمة و قادرة على كل شيء ، هذه القوة هي الله ﷻ ، و قد أثبت العلم الحديث أن بمخ الإنسان جهاز صغير و دقيق مهمته إستقبال الموجات الكهرومغناطيسية التي تحتوي إشارات و رموز تتعلق بعلاقة الإنسان بربه الكريم

ـ خصائص التصور الإسلامي: يتميز التصور الإسلامي عن مختلف التصورات الوضعية البشرية بعدة خصائص و مزايا ، و هي الربانية و الوضوح و البساطة و الواقعية ، التوازن و الوسطية ، و الثبات ، و التناسق مع الفطرة ، و الإقناع و الشمول ، فهو عقيدة ربانية المصدر صادرة من لدن عالم الغيب و الشهادة ، الحكيم الخبير ، موثوقة و صادقة تتميز بمصداقية عالية ، واضحة المعالم و بسيطة يمكن فهمها و إستيعابها بسهولة مهما كانت مستويات العلم و التفكير ، واقعية بمعنى انها غير خيالية فتعجز العقول عن إدراك أبسط مدلولاتها و معانيها ، ثابتة لا تتغير و لا تتحول و لا تتبدل ة غير قابلة للتطوير و التحديث كما هو الشأن بالنسبة للتصورات و الإيديولوجيات و الفلسفات البشرية ، التي تنقض بعضها البعض ، حيث رأينا على سبيل المثال كيف أزاحت الحداثة فكرة الوجودية التي تغنى بها الغرب و أذنابه في الشرق طويلا ، ثم جاء مشروع ما بعد الحداثة ليقضي على فكرة الحداثة و مكوناتها ، و غدا سيخترع الفكر الغربي مشروعا أو فكرة أخرى تصبح بعدها ما بعد الحداثة في خبر كان ، و كذلك الأمر بالنسبة للمدارس و الإتجاهات الأدبية ـ . . و هي تصورات فكرية تتناسق مع فطرة الإنسان لأنهما صادرين من مصدر واحد و هو الله ، فالذي خلق الإنسان و ركز فيه الفطرة و العقل و القلب و رزقه القدرة على التفكير و التحليل و التمييز بين الخير و الشر و النار و الماء و الحق و الباطل ، هو الله الذي صمم العقيدة الإسلامية بكل مكوناتها ، و بالمقابل فإن التصورات الأخرى سواء مما بقي من الأديان السماوية كاليهودية و المسيحية ، أو التصورات الوضعية أو الفلسفات القديمة و الحديثة تحمل في أحشائها بذور فنائها لأنها تصطدم بالفطرة السليمة في أول الطريق ، فكيف يقتنع العقل مثلا بأن الله ﷻ هو

ثالث ثلاثة ، او أن المسيح عليه السلام ، هو إبن الله ، و هي كذلك تصورات شاملة و كاملة تغطي كل المجالات التي تخطر على بال الإنسان ، و لا تترك للعقل البشري ثغرات أو مساحات فارغة يسير فيها على غير هدى و لا كتاب منير فيتيه و يغرق في فضاءات من الخيال ، و يصاب بالدوار أو الجنون ، هي تصورات شاملة تجيب على كل تساؤلات البشر و تحل كل العقد و الإشكاليات بأفكار و أجوبة واضحة سهلة و بسيطة ، تصورات ربانية المصدر تستطيع النفاذ إلى العقول و القلوب و الأرواح بيسر و هدوء ، و تحتوي على كل مقومات الإقناع و القبول ، و لكن مع ما يتميز به التصور الإسلامي من خصائص و مميزات ، عن بقية التصورات البشرية التي أنتجها الإنسان و صنعها البشر لأنفسهم خدمة لمصالحهم و أهدافهم البشرية التافهة ، هناك مناطق و مساحات إستأثر الله بعلمها و أخفاها عن البشر ، لأن الله خالق البشر عالم الغيب و الشهادة يعلم بأن تلك الغيبيات التي إستعصت على العقول منذ غابر العصور ، ليست من مستلزمات الوظائف التي إختارها الله للإنسان و كلفه بها في الدنيا ، و أهمها العبادة و الخلافة و الإعمار ، و لذلك فمن العبث إهدار الطاقة و الجهد و ربما المال في البحث في تلك الغيبيات كالبحث في كنه و طبيعة و شكل الذات الإلهية ، و تفاصيل و كيفيات صفاته و أفعاله سبحانه و تعالى ، و الروح ، و أسرار الحياة و الموت ، و طبيعة البرزخ ، فهذه مواضيع مغلقة و يستحيل على العقل البشري أن يصل فيه إلى نتيجة مهما بلغ من درجات العلم و الرقي و التطور التكنولوجي ، و هو الذي لم يتمكن حتى الآن من معرفة القليل من اسرار الجسم و النفس و الروح ، و طبائع المادة كالضوء و الكهرباء .

ـ ركائز التصور الإسلامي

يعتمد التصور الإسلامي بصورة أساسية على مجموعة من الركائز و الأساسيات التي وردت في القرآن الكريم ، بإعتباره المصدر الأول للعقيدة و الشريعة و الفكر الإسلامي ، حيث وردت عدة آيات كريمات محكمات تحدد أركان العقيدة الإسلامية بكل دقة ووضوح و هي ـ **الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و القضاء و القدر** ــ منها أوائل و آخر سورة البقرة

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} البقرة 285

(.... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) البقرة {4}

و هناك عنصرا أخر من عناصر العقيدة و هو اليوم الآخر ، ذكر منفردا في مدخل سورة البقرة و في سور كثيرة ، أما الحديث النبوي فجمع كل عناصر العقيدة .

الم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{4} أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{5}

أما موضوع القضاء و القدر خيره و شره ، و هو مسألة مهمة في التصور الإسلامي و في العقيدة و الفكر ، و الركن الأخير من أركان العقيدة الإسلامية ، فلم يرد في القرآن الكريم بشكل صريح ، بإعتباره أحد مقومات التصور الإسلامي ، و لكن وردت آيات كثيرة تتحدث عن موضوع القضاء ، بمعنى آخر ، و قريب من المعنى الأصلي ، منها قوله سبحانه و تعالى

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } البقرة117

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }آل عمران47

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً } الأحزاب 36

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } غافر68

(هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) غافر 68

و نلاحظ دائما أن فعل قضى يأتي مقرونا بكلمة أمرا ، أما كلمة القدر فقد وردت في القرآن الكريم بصيغ و معان مختلفة

{ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } البقرة 236

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } يونس5

{اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاّ مَتَاعٌ }الرعد26

{مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ إِنّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحج 74

{الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فَقَدّرَهُ تَقْدِيراً } الفرقان2

{مّا كَانَ عَلَى النّبِيّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنّةَ اللّهِ فِي الّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مّقْدُوراً }الأحزاب38

{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَاء لّلسّائِلِينَ }فصلت10

{وَفَجّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ }القمر12

{إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر49

{إِلَى قَدَرٍ مّعْلُومٍ } المرسلات22

{ وَالّذِي قَدّرَ فَهَدَى } الأعلى 3

إِنّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ{2} لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ{3}

فالعقيدة الإسلامية هي مجمل التصورات الذهنية و المشاعر التي يكونها الإنسان المسلم عن الله و الحياة و عالم الغيب ، من خلال التواتر الفطري و التقليد و إن كان إجماع النخبة المسلمة منذ عصور على التقليل من شأن إيمان المقلد ، في المسائل العقائدية ، و يعتبرون العلم بها و إدراكها و إستيعابها بشكل جيد مع أدلتها التفصيلية فرض عين على كل مسلم في مجتمع مسلم يفترض أن نسبة الأمية فيه صفر لأن الله عز و جل أكد على هذه الفكرة في أكثر من موضع في القرآن الكريم

{شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاّ هُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }آل عمران 18

{فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَاللّـهُ يَـعْـلَـمُ مُتَقَلّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ }محمد19

و قضية القدر هي من الموضوعات التي أعيت العلماء و المنظرين منذ القرن الثاني الهجري

ـ إشكاليات مزمنة

عندما نحاول إستعراض موضوع التصور الإسلامي لله و الحياة و الإنسان سنلتقي حتما بعدة قضايا معقدة ، لم يتم حسمها من طرف النخب العلمية و الفكرية الإسلامية منذ عصر التدوين على الأقل ، و هي الإشكاليات التي فرقت الأمة أحزابا و شيعا و نتجت عنها مدارس فكرية و عقائدية ، تتصارع بينها ، و سبب هذه الإختلالات الفكرية هو بطبيعة الحال إختلاف طبائع البشر في فهم النصوص ، خاصة تلك التي تحمل أكثر من معنى و تتحمل أكثر من دلالة و هي على الإجمال ، صفات الله ، كلام الله ، خلق القرآن ، و سنحاول إستعراض بعض تلك الإشكاليات و ليس كلها بإختصار شديد يتناسب مع طبيعة و حجم الكتاب .

ـ الآيات المتشابهات: و هي مجمل الآيات غير المحكمة التي تحتمل عدة تفسيرات و تأويلات ، و إختلفت النخب الإسلامية على مر العصور ، و بالضبط منذ القرن الثاني الهجري ، حول مفهومها و دلالتها ، و إنقسم المسلمون إلى فرق و مذاهب و مدارس ، و قد وضحت الآية الكريمة من سورة آل عمران أن القرآن الكريم فيه آيات محكمات يفهمها كثير من الناس ، و أخر متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله سبحانه و تعالى و

قد توقف المسلمون عند منتصفها ، و إختلفوا حول مكان الوقف ، هل هو قوله تعالى إلا الله ، أم و الراسخون في العلم ، فالذين رأوا أن مكان الوقف هو عند كلة الله ، جمدوا عقولهم عند حدود النص و رفضوا أي تأويل للأيات المتشابهات و إعتبروا المأولين ضالين ، و منهم فئة متشددة حرمت تأويل تلك الآيات ، و فريق آخر رأى بأن مكان التوقف في تلك الاية الكريمة هو قوله سبحانه و تعالى و الراسخون في العلم و في الحقيقة و بما أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف و هو حمال أوجه ، اي يمكن للآية الواحدة أن تتحمل معان و دلالات مختلفة ، فإن كلا الفريقين على صواب ، لكن غير الصواب أن ترمي الذي يخالفك الرأي بالضلال أو تحاول أن تلغي عقله و تفرض عليه رأيك أو رؤيتك ، و من هذا الخلاف في تفسير آية أل عمران و الإختلاف حول مكان التوقف في القرأءة ، نشأت فرقتين أو مدرستين عقائديتين ، ثم إتبعتهما مدارس أخرى تقع أحيانا وسط الفريقين

هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{7}

و أغلب الظن أن التوقف المعقول يكون عند كلمة الله و ما يعلم تأويله إلا الله و كما قال سيدنا العباس ترجمان القرأن رضي الله عنه فإن في القرآن الكريم أيات محكمات يعرف معناها كل الناس ، و آيات و كلمات لا يعرف معناها إلا العرب الذين واكبوا نزوله على الرسول ﷺ و آيات متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله ، و الموقف الذي عليه إجماع الأمة الإسلامية من الآيات المتشبهات ، خاصة تلك المتعلقة بصفاته الله و أفعاله و أحواله هي

. قراءتها كما هي دون تفسير أو تأويل أو تمثيل ، و مثل هذه الآيات تفهم من خلال ، التذوق و الإحساس و الإدراك الخفي و هو معنى ـ مروها كما هي ـ

. تأويلها حسب قواعد البلاغة العربية المعروفة كالمجاز و الكناية . من دون إسراف في التأويل ـ حيث أن القرآن الكريم و هو كلام الله ، و كل كلام يحتمل الحقيقة أو المجاز كما يقول علماء اللغة ، و هّذه حقيقة علمية لا ينفع نكرانها أو تجاهلها

و يمكن أن نقدم المئات من الأمثلة ، لكن سنقتصر على مجموعة من الآيات الكريمات التي خضعت للتأويل عند السلف الصالح ، ليتأكد الناس من الخطأ العظيم الذي إرتكبه الإمام إبن تيمية عندما لم يعترف بالمجاز ، و رفض إخضاع بعض الآيات للتأويل الذي ينسجم مع قواعد البلاغة العربية، و يؤكد ان مذهبه الخاطىء هو مذهب السلف الكرام قبل ظهور الفرق و المذاهب ، حيث نجد تلميذه الوفي المحدث الكبير و صاحب التفسير الراقي الشيخ إبن كثير يخالف أستاذه في هذه القضية ، و يقوم بتأويل عدة آيات في تفسيره منها على سبيل المثال قوله تعالى في سورة الذاريات **(و السماء خلقناها بأيد و إنا لموسعون)** يقول الشيخ إبن كثير بالحرف الواحد يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوي و السفلي و السماء بنيناها أي جعلناها سقفا محفوظا رفيعا بأيد أي بقوة ، قاله إبن عباس ، و مجاهد ، و قتادة ، و الثوري ، و غير واحد تفسير إبن كثير ، الجزء ٦ ، ص ، ص 250، نشر دار الثقافة . الجزائر ، ١٩٩٠ و غني عن التعريف أن الشيوخ الأربعة الذين ذكرهم إبن كثير لدعم تفسيره للآية المذكورة هم رواد التفسير من السلف الصالح ، و أكثر من ذلك هم المؤسسون الأوائل لمدارس التفسير ، بحيث لم يكونوا بطبيعة الحال نسخة مكررة عن بعضهم ، فيقال عند الحديث عن تاريخ علم التفسير مدرسة إبن عباس ، ومدرسة قتادة فالتأويل إذن كان موجودا في عصور الصحابة و التابعين و تابعي التابعين ، و ليس صحيحا أن مذهبهم هو البعد عن التأويل و إلتزام الصمت حيال معظم الآيات الكريمة التي قد تبدو من المتشابهات ، و ليس كل المتشابه قد يخضع للتأويل ، و لكن القليل من الآيات المتشابهات التي تحتاج فعلا من المسلم التوقف عندها و تمريرها كما هي و هو مذهب السلف الكرام ، و في الخلاصة أن السلف الصالح الذين يختفي ورائهم الشيخ إبن تيمية ، كانوا يؤولون بعض الآيات و يتوقفون عند أخرى ، و يفسرون المحكمات حسب رؤيتهم و خلفيتهم و أذواقهم ، و من الآيات المتشابهات التي تتطلب التأويل الإجباري ، نذكر هذه العينة الكريمة من الآيات القرآنية

{وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأنعام155

{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } الأعراف26

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2

{أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم35

{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } المؤمنون18

{خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }الزمر6

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد25

فكلمة أو فعل أنزلنا يختلف معناها حسب السياق العام للآية ، ففي بعض الآيات يتعلق الإنزال بأشياء معنوية و في آيات أخرى بأشياء مادية ، ففي الآية ١٥٥ من سورة الإنعام ، الآية ٢ من سورة يوسف ، و الآية ٢٢ من سورة الحديد ، و غيرها من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن نفس الموضوع ، يتعلق الأمر بإنزال القرآن الكريم ، قبل ان يصبح عبارة عن كتاب يمكن لمسه و تصفحه و إستعماله ، أي أصبح لديه طبيعة مادية ، فتفسير الآية هنا يحتم تأويلها حسب مقتضيات البلاغة العربية ، و أهل التفسير يتفقون على أن المقصود بإنزال القرآن أو الكتب السماوية الأخرى ، هو الوحي بها إلى الأنبياء

أما الآية ٢٦ من سورة الأعراف ، و الأية ٢٥ من سورة الحديد ، فتتناولان قضية مادية ملموسة يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، و تتعلق باللباس ، و الميزان ، فكيف يتم تفسير اللباس و الميزان ؟ السادة المفسرون بمختلف إتجاهاتهم الفكرية ، في العصور القديمة و في عصرنا الحالي يتفقون على تفسير أو تأويل إنزال اللباس ، ب تسخير مواد و مخلوقات تساعد الإنسان على حياكة و صنع لباس يستر به نفسه و يحمي جسده من حر الصيف و قر الشتاء ، و ليس المراد إنزال لباس جاهز، كما يتفقون على تفسير أو تأويل كلمة الميزان و هو شيء مادي يعرفه كل الناس ب صفة العدل ، و هي من الصفات الإضافية للأنبياء و الرسل ، و نبينا محمد ﷺ قال لذلك الأعرابي الذي لم يعجبه ما تحصل عليه من الغنيمة و من يعدل إذا لم أعدل ، أما كلمة أو فعل أنزلنا فيتم تأويلها بفعل الخلق أو التسخير أي خلقنا لكم أو سخرنا لكم ، أما في الآية ٦ من سورة الزمر فتصبح المسألة أكثر وضوحا ، لأن الأمر يتعلق هنا بإنزال ثمانية أزواج من الأنعام ، فليس معقولا للعقل البشري بصفة عامة و الإسلامي بصفة خاصة أن يفهم الآية حسب ظاهر النص ، أو ان يمررها كما هي ، كما ليس معقولا أن نفهم الآية ذلك الفهم الساذج المضحك الذي لا يمكن تصور منظره على الإطلاق و هو إنزال الأنعام من السماء ، الواحدة تلو الأخرى كما ينزل الله جل و على المطر و الثلج و البرد ، فالإنزال بطبيعة الحال كما ورد في الآية ٦ من سورة الزمر هو الخلق و التسخير أي وضع تحت تصرفكم و في خدمتكم و لمنفعتكم ثمانية أزواج من الأنعام يعرفها جميع الناس ، و هناك آيات كثيرة أخرى تحتمل التأويل كقوله ﷻ و إصطنعتك لنفسي ، و لتصنع على عيني - و أصنع الفلك بأعيننا - و آيات اخرى لا يمكن تفسيرها أو تأويلها و لكن يمكن فهمها و إدراك معانيها من خلال الإحساس الباطني و التذوق .

{قُل لاّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } يونس49

{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الّذِينَ ظَلَمُواْ إِنّهُم مّغْرَقُونَ } هود37

{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي } طه41

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ }يوسف54

فكلمة نفسي ترددت كذلك في الآيات السابقة بمعاني مختلفة ، و النفس هي الذات ، و فيه خلاف كبير و عميق بين الفلاسفة حول معنى النفس و الروح و الذات ، و قد ثار جدال طويل و عميق حول الموضوع ، نحن في غنى عنه ، و إذا كان تفسير معنى النفس بالنسبة للإنسان ممكن حقيقة في حدود ما تتيحه اللغة العربية و هي غنية بالأفكار و المعاني و التفسيرات ، لكن كيف نفسر كلمة نفسي كما وردت في الآية ٤١ من سورة طه ، عندما نضع هذه الآية مع الآية ٥٤ من سورة يوسف تتضح لدينا الرؤية بشكل كبير و نستنتج أن كلمة نفسي في سورة يوسف يمكن تفسيرها على حقيقتها و هي النفس البشرية المعروفة ، بمعنى أن الملك قرر أن يستفيد من أفكار و عمل سيدنا يوسف و يسخره لخدمته كمستشار خاص ، و مشرفا عاما على شؤون المملكة بالنيابة عن الملك ، بمعنى آخر أنه يحتكر خدماته لصالح المملكة ، أما بالنسبة لكلمة نفسي كما وردت في سورة طه ، فلا يمكن تفسيرها على حقيقتها لأنها تتعلق بالذات الإلهية المقدسة ، لكن يمكن فهمها باللجوء الى المجاز ، فيكون المعنى التقريبي أنني خلقتك لتكون في خدمتي ، لتقوم بأداء الرسالة و تبليغ الأمانة و الدعوة إلى الله وفق المنهج الرباني الذي يحدده الوحي و هذا المعنى الذي يتبناه جمهور المسلمين من الأشاعرة و الماتريدية و الإباضية و الشيعة ، هو الذي يليق بجلال الله و قدسيته و تنزيهه ، أما الذين يتمسكون بالمعنى الحرفي للكلمة و يفسرونها على حقيقتها و يقولون قال الله نفسي يعني عنده نفس ، لكن بلا كيفية و بلا تشبيه و لا تجسيم ، فإنهم يعقون في التشبيه و التجسيم بشكل أو بآخر ، ونفس التحليل ينطبق على الكلمات المتشابهة عيني ، أعيننا ، وجه

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{39}

{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } المؤمنون27

{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ }هود37

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } الطور48

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ } القمر14

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }البقرة57

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }البقرة59

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً }النساء105

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً } النساء174

{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }الأعراف26

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ }يس28

، فماذا يقول المفسرون عن كلمة عيني كما جاءت في القرآن الكريم بصيغتى المفرد و المثنى ؟ الشيخ إبن كثير السلفي و تلميذ إبن تيمية يقول في تفسير كلمة نفسي التي وردت في الآية ٣٩ من سورة طه قال أبو عمران الجوني تربى بعين الله ، و قال قتادة تغذى على عيني و يقول في تفسير كلمة أعيننا التي وردت في سور ، المؤمنون ، هود ، الطور القمر و أصنع الفلك ، يعني السفينة ، بأعيننا ، أي بمرأى منا ، و وحينا أي تعليمنا لك ما تصنعه و يقول في تفسير الآية ٤٨ من سورة الطور و أصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، أي أصبر على أذاهم ولا تبال بهم ، فإنك بمرأى منا و تحت كلائنا ، و الله يعصمك من الناس و في تفسير الآية ١٤ من سورة القمر تجري بأعيننا أي بأمرنا بمرأى منا و تحت حفظنا و كلائنا ، أنظر تفسير إبن كثير طبعة دار الثقافة الجزائر ، ١٩٩٠ . و لنرى ماذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، العلامة السعودي السلفي المعاصر في تفسير كلمتي نفسي و أعيننا ؟ و إصطنعتك لنفسي أي اجريت عليك صنائعي و نعمتي ، و حسن عوائدي و تربيتي ، لتكون لنفسي حبيبا مختصا ، و هكذا نجد أن المفسرين المحسوبين على الإتجاه السلفي القديم و الحديث لم يجمدوا عقولهم عند ظاهر النص الذي يؤدي حتما إلى التشبيه و التجسيم ، كما أن كل المفسرين في الإتجاه الآخر أي الذين تبنوا العقيدة الأشعرية من الشيخ الطبري إلى محمد الطاهر بن عاشور ووهبة الزحيلي الذي إنتهى من صياغة تفسير القرآن الكريم و قدمه للعالم الإسلامي قبل رحيله عن هذه الدنيا منذ سنوات قلائل ، وقفوا من تلك الآيات الكريمات موقفا معتدلا ، و فسروا الأيد بالقدرة و القوة ، و العين أو العيون ، بالرعاية اللطيفة الشاملة الممزوجة بالمحبة و العطف و الرحمة ، و الوجه بالذات ، و هذه الكلمات التي إصطنع حولها خلاف عظيم من طرف بعض المنتسبين للإتجاه السلفي و هي نفسي ، عيني ، أعيننا ، وجه الله تختلف معانيها كما ذكرنا سابقا بحسب موقعها في النص ، و كلمة وجه تتخذ أحيانا المعنى الحقيقي للوجه و هو مقدمة رأس الإنسان او الحيوان و يتكون من الجبهة و العينين و الأنف و الفم ، و قد تأتي بمعنى الذات الإنسانية كما في الآية ١١٥ من سورة البقرة ، أما عندما تتحدث عن وجه الله فتعطي معان مختلفة كذلك كما هو واضح من الآية ١١٥ من سورة البقرة ، و الآية ٨٨ من سورة القصص ، و الأية ٣٨ من سورة الروم ، و الآية ١١٢ من سورة البقرة تتحدث عن وجه الإنسان كناية عن ذات الإنسان ، و إسلام الوجه معناه الإستسلام الكلي للإنسان جسدا و روحا ، و بكل جواره لله و التـــزامه بتعاليمه محبة

و إخلاصا و إيمانا و إحتسابا و إقتناعا ، أما في الآية ١١٥ من نفس السورة ، يعبر الوجه عن الله الذي هو موجود في كل مكان ،

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة112

{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمّ وَجْهُ اللّهِ إِنّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }البقرة115

{قَدْ نَرَى تَقَلّبَ وَجْهِكَ فِي السّمَاء فَلَنُوَلّيَنّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنّ الّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنّهُ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ }البقرة144

{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }القصص88

{فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لّلّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }الروم38

{وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }لقمان22

{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن27

{إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9

و معظم أهل التفسير قديما و حديثا يؤكدون أن كلمة وجه عندما تطلق على الله عز وجل فهي تعني بالضرورة الذات الإلهية الكريمة ، فيريدون وجه الله تعني أنهم لا يبتغون سوى رضا الله و قبوله للعمل الصالح ، و يبقى وجه ربك بعد فناء العالم يعني بقاء الله الحي الذي لا يموت ، و عندما نحاول مجرد المحاولة فهم كلمة وجه على ظاهرها و نقول ليست كوجوه البشر ، و نفهم العين على أنها عين ليست كأعين البشر ، فسوف نقع في التشبيه دون أن ندري من حيث أردنا التنزيه ، فالتأويل أرحم

ـ أحاديث الآحاد: يتفق أغلبية العلماء و الكتاب على أن أحاديث الآحاد لا يصح الإستدلال بها في القضايا العقائدية الرئيسية الأركان الستة مثلا ، و لكن يمكن إستغلالها في المسائل الإضافية التي لا تنقص و لا تزيد في إيمان المرء ، و هي أصلا لا تدخل في موضوع العقيدة لكن العديد من الكتاب يستدلون بها في مسائل ذات علاقة بموضوع العقيدة ، مثلا مواضيع الجن ، و شكل الدابة و ياجوج وماجوج و نزول سيدنا عيسى و المهدي المنتظر ، و حديث الأحاد مشكوك في صحته من حيث النص و من جهة الرواة ، لأنه لم يبلغ درجة الصحة التي يشترطها علم الحديث ، و في القرآن الكريم قوله تعالى **(إن الظن لا يغني من الحق شيئا)** و موضوعات العقيدة الإسلامية ليست رواية أو قصيدة أو دراسة نقدية ، أو تحليل سياسي ، الخطأ فيه ممكن و مغفور و طبيعي لأنه لا يؤثر كثير على علاقة الإنسان بربه ، أما العقيدة فهي عقد و عهد و ميثاق مع الله ، يتطلب بناء أركانه و مواده و فقراته على أسس علمية و معرفية صحيحة و سليمة و متينة و دقيقة **(فأعلم أنه لا إله إلا الله)** و العلم هو المعرفة الصحيحة و اليقينية التي لا يعتريها شك ، هناك طائفة تنسب نفسها إلى السلف الصالح و تحاول إحتكار الإسلام ، لا ترى مانعا في إعتماد أحاديث الآحاد في موضوعات العقيدة ، مع يقينها التام أن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم أو الخبر اليقيني ، فيرد عليها خصومها من التيارات الأخرى بالقول لماذا قرر الله سبحانه و تعالى شاهدين عدلين للإعتراف بالدين ، و إثبات الطلاق ، و أربعة شهداء لإثبات جريمة الزنى ، قبل نحن نصا عن رسول الله ﷺ ينقله شخص واحد مهما كانت ثقتنا فيه ، و إثبات الدين أو الطلاق أو الزنى لا يقبل بشهادة شخص واحد و لو كان عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ؟ كانت تلك أمثلة بسيطة عن الإشكاليات التي تحيط بالعقيدة الإسلامية ، و هناك قضايا كثيرة إختلف حولها المسلمون منذ القرن الثاني الهجري ، و أدت الى ظهور الفرق و المذاهب و المدارس الإسلامية و هي بطبيعة الحال تدل على ثراء و تنوع الفكر الإسلامي ، و قدرة العقل المسلم على الإبداع و التفكير الإيجابي ، و مرد هذه الإختلافات في وجهات النظر هو كما ذكرنا سابقا ، إختلاف العقول الإسلامية في تفسير و فهم و حتى تأويل النص الشرعي المبثوث في أهم مصدرين للفكر الإسلامي و هما القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة ، و الموقف من أحاديث الآحاد يبدو لي واضحا وضوح الشمس ، و معظم علماء الأشاعرة في القديم و الحديث لا يستدلون به في قضايا العقيـــــدة

و من أهم أقطاب المدرسة العقائدية الأشعرية ، بعد المؤسس ، القاضي أبو بكر الباقلاني ، و الشيوخ عبد القاهر البغدادي ، و إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ، أستاذ حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، و السيوطي ، و الإمام الفيلسوف إبن حزم و غيرهم كثير ، أما في العصر الحديث فنجد أن أكبر الجامعات الإسلامية ، كالأزهر الشريف و الزيتونة و القرويين ، و جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة ، تتبنى العقيدة الأشعرية ، بحيث تخرج من هذه الجامعات كبار العلماء و المشايخ و الدعاة و المفكرين ، محمد الغزالي ، الشعراوي ، سعيد رمضان البوطي ، يوسف القرضاوي ، و تأثر بهذه العقيدة الوسطية المعتدلة العديد من المفكرين الإسلاميين المستقلين الذين لم يدرسوا علوم الدين دراسة أكاديمية في الجامعات أو الكليات ، حسن البنا ، سيد قطب ، ومالك بن بني .

ـ الآشاعرة ... و أدعياء السلفية و المداخلة

السلفية الأصيلة هي منهج فكري و عقائدي و سلوكي ، يمتد إلى عصر السلف الصالح قبل ظهور المذاهب و الفرق التي اختلفت فيما بينها في بعض الأصول و في الكثير من الفروع ، و عصر السلف يبدأ من وفاة الرسول ﷺ الى نهاية القرن الثالث الهجري تقريبا و هو العصر الذي بدأت فيه إرهاصات الخلاف العقائدي و الفقهي تظهر إلى الوجود ، وبهذا المعنى فإن كل المسلمين بغض النظر عن إتجاهاتهم العقائدية و الفقهية سلفيون ، و السلفية كما يقول فيلسوف الإسلام في العصر الحديث الشيخ رمضان البوطي رحمه الله ـ هي مرحلة زمنية مباركة و ليست مذهبا إسلاميا ، و إذا كان هذا الذي قلناه واضحا ، و ما أخاله يخفى على أحد ، فإن من الخطأ بمكان ان نعمد إلى كلمة ـ السلف ـ فنصوغ منها مصطلحا جديدا ، طارئا على تاريخ الشريعة الإسلامية و الفكر الإسلامي ، الا و هو السلفية ، فنجعله عنوانا مميزا تندرج تحته فئة معينة من المسلمين ، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوما معينا و تعتمد فيه على فلسفة متميزة ، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلامية جديدة ،في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة و المتعارضة بشكل مؤسف في هذا العصر ، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها و ميولاتها ، بل تختلف عنهم حتى بمزاجها النفسي و مقاييسها الأخلاقية ، بل إنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا أن إختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها ، بدعة طارئة في الدين ، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة و لا الخلف الملتزم بنهجه ، فإن السلف رضوان الله عليهم ، لم يتخذوا من معنى هذه الكلمة بحد ذاتها مظهرا لأي شخصية متميزة ، أو أي وجود فكري أو إجتماعي خاص بهم يميزهم

عن سواهم من المسلمين ، و لم يضعوا شيئا من يقينهم الإعتقادي أو إلتزاماتهم السلوكية و الأخلاقية في إطار جماعة إسلامية ذات فلسفة و شخصية فكرية مستقبلة ، بل كان بينهم و بين من نسميهم اليوم بالخلف ، منتهى التفاعل و تبادل الفهم و الأخذ و العطاء ، تحت سلطان ذلك المنهج الذي تم الإنفاق عليه و الإحتكام إليه ، و لم كن يخطر في بال السابقين منهم و لا اللاحقين بهم أن حاجزا سيخلق ، ليرتفع ما بينهما ، بصنع طائفة من المسلمين فيما بعد ، و ليقسم الأجيال الإسلامية إلى فريقين ، يصبغ كل منهما بلون مستقل من الأفكار و التصورات و الإتجاهات ـ كتاب السلفية ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ،ص ١٣ و ١٤ ـ فالسلفية بالمفهوم و التصور و السلوك الذي نراه اليوم في مختلف أرجاء العالم الإسلامي و حتى في أوساط المسلمين المقيمين في مختلف الدول الغربية ، هي بدعة ، و فكرة خارجة عن الإطار العام للإسلام ، هذه قناعة توصل إليها شيخ الإسلام رمضان البوطي منذ سنوات ، و اليوم و نحن في الثلث الأخير من سنة ٢٠١٨ و بعدما ظهرت معلومات جديدة و من مصادر عربية و غربية رسمية تؤكد تورط ما يسمى بالتيار السلفي بصفة عامة ، مع بعض الإستثناءات القليلة ، و ما يسمى بالفصيل المدخلي ، في مؤامرة عالمية على الإسلام ، صاغتها عقول أمريكية و صهيونية و يتم تنفيذها من طرف مخابرات المملكة العربية السعودية ، هدفها الأول و الأخير هو التشويش على التيارات الإسلامية الأخرى ، التي تنتشر في الساحة الإسلامية العالمية بصفة عامة ، و تلك التي تتبنى ما يسمى بالإسلام السياسي ، و تناضل منذ سنوات بمختلف الطرق و الأساليب الهادئة ، من أجل إعتماد الإسلام كمرجعية فكرية و فلسفية و مصدر أساسي للتشريع بصفة خاصة ، و الغريب في الأمر أن هذه الطائفة التي تدعي إنتسابها إلى الفكر الإسلامي السلفي ، تهاجم كل التيارات و الجماعات الأخرى التي تحتلف معا في بعض القضايا العقائدية و الفكرية ، و لم تكتف بذلك بل قامت بإحياء خلافات فكرية قديمة لم يعد لها وجود فعلي على أرض الواقع ، كالحديث عن المعتزلة و المرجئة و الجهمية و الخوارج ، و عندما يعالجون موضوع التصوف ، لا يفرقون بين التصوف السني الصحيح ، و التصوف البدعي الفلسفي المتأثر بالأفكار الوافدة من اليونان و الهند ، و لذلك نؤكد أن ما يسمى اليوم بالسلفية او المدخلية ما هي في حقيقة الأمر سوى مذهب عبثي و فكر شاذ ، لا علاقة له بالإسلام الصحيح عقيدة و شريعة ، أنتج لضمان سيطرة العائلات الحاكمة في عدد من دول الخليج ، و للتصدي لأية محاولة لإستعادة الحاكمية بمفهومها الواسع ، و بأي شكل كانت و هي حلم و آمل المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي ،

الفصل الثاني (2)

{59} أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ{60} أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{61} أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ{62} أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{63} أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {64} قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{65} بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ{66} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ{67} لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{68} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ{69}

إسم للذات الإلهية الكريمة ، و هو الرب ، و الله في التصور الإسلامي هو الله كما وصف ذاته العلية في القرآن الكريم ، أصدق مصدر رباني لإستقاء العقائد الإسلامية الصحيحة و الفكر الإسلامي السليم ، و قد حارت عقول الفلاسفة و أهل الفكر منذ الزمن الأول في معرفة ذات الله ، لكن الرسول الكريم ارشدنا إلى ترك الخوض في مسألة الذات العلية ، ونهانا عن تضييع الوقت و الجهد في البحث في مسألة أخفاها الله عن رسله و عباده لحكمة يريدها و لا نعلمها نحن البشر الضعفاء ، و في نفس الوقت أرشدنا البشير النذير إلى معرفة الله من خلال مخلوقاته العجيبة و نعمه الكثيرة ، و أسرار الخلق و الكون و الحياة و الموت ، و الإستدلال على وجود الله أمر قد لا يعجز العقل البشري ، و في الأنفس و الآفاق الكثير من الدلالات الواضحة و الآيات الناطقة و المعجزات المبهرة ، التي تدل على وجود الخالق سبحانه و تعالى ، لكن الإشكالية العميقة التي أرقت عقول الفلاسفة و الحكماء و المفكرين منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ، هي رغبة العقل البشري في الوصول إلى معرفة طبيعة و كنه الذات الإلهية و شكلها و صورتها ، لكن كل الأبحاث و الجهود التي أعيت البشرية لم تصل إلى أية نتيجة ، لأن هذه العقول أختارت أن تشتغل في منطقة ممنوعة على العقل البشري ، و محمية بقدرة العلي الكبير الذي ميز الإنسان عن بقية مخلوقاته بالعقل ، لكن هذا العقل غير مؤهل بطبيعته للوصول إلى معرفة طبيعة ذات الله ، و لذلك أقر العارفون بالله مبدأ حكيما و هو قولهم ـ مهما خطر على بالك فهو ليس كذلك ـ بمعنى أن كل التصورات البشرية التي يتخيلها العقل البشري أو يرسمها في ذهنه عن الذات العلية هي خاطئة بالمرة ، فما هي الحكمة وراء ذلك ؟ لا توجد إجابة مقنعة ، و العقل البشري و حتى الإسلامي عجز عن الوصول إلى السر أو الحكمة من وراء ذلك ، و لهذا يرشدنا البشير النذير إلى تغيير إتجاه النظر و التفكير من الذات الإلهية طبيعتها و شكلها ، إلى التأمل في آيات الله المبثوثة و الأنفس و الافاق و التدبر في نعمه الكثيرة التي لا تعد و لا تحصى .

ـ التصورات الوضعية لله جل جلاله: عرفت البشرية في عصورها البدائية القديمة أشكالا مختلفة من التصورات العقائدية ، فقد عبد الأقدمون الظواهر الطبيعية القاهرة و اللطيفة ، كالرعد و الشمس و القمر ، كما عبدو الحيوانات و الحجارة ، وصنعوا لأنفسهم آلهة النور و الظلام ، و آلهة الخير و الشر ، و لما وصلوا إلى مرحلة متقدمة من التفكير الفلسفي العميق لم يتمكنوا من الوصول إلى إنتاج عقيدة سليمة مقنعة ، و لذلك نجد عقائد كبار الفلاسفة لا تبتعد كثير عن التصورات البدائية التي شاعت في أوساط العامة ، و كما يقول الأستاذ

العقاد في كتابة ـ الله ـ فإن علماء مقارنة الأديان يرون أن هناك ثلاثة أطوار مرت بها الأمم البدائية في إعتقاداتها بالآلهة و الأرباب و هي التعدد ، و التميز ، و الترجيح و الوحدانية ، و أعتقد ان الأستاذ العقاد المتأثر بالفكر الغربي الأنجلوسكسوني ، أغفل حقيقة كبرى و أزلية قد لا تغيب عن ذهن عامة الناس البسطاء ، و هي أنه مع بداية الخلق ، كان الميثاق و العهد بين الله و أولى الطلائع البشرية التي إعتنقت التوحيد ، قد تكون البشرية عادت إلى طبيعتها الأولى و تخلت عن التوحيد الصافي بمرور الزمن ، فهذا ممكن و قد أشار إلى هذه الفكرة أو الحقيقة القرآن الكريم في أكثر من موضع ، و مع ذلك ننقل حرفيا ما قاله الأستاذ العقاد في كتابه ـ الله ـ عن تطور نظرة البشرية في عقائدها ، مع التأكيد أن الفترة الأولى التي واكبت وجود الإنسان الأول ، و بنص القرآن كانت فترة توحيد ، يقول العقاد ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى ـ و هي كما ذكرنا مرحلة ما بعد التوحيد ـ تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات و قد تتجاوز العشرات إلى المئات ، و يوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور و تقبل الصلوات و القرابين ، و في الدور الثاني و هو دور التمييز و الترجيح تبقى الأرباب على كثرتها و يأخذ رب منها في البروز و الرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة و تعتمد عليه في شؤون الدفاع و المعاش ، و إما أنه يحقق ـ لعباده ـ و الأصح هو الذين يعبدونه ـ مطلبا أعظم و ألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها ، مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، و يحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها و صاحب عرشها ، ، ، و لم تكن أرباب الأمم الماضية في جميع أطوارها نوعا واحدا أو مثلا لفكرة واحدة ، و لكنها أنواع شتى هي

1 ـ أرباب الطبيعة: او الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة و قواها كالرعد و البرق و المطر و الفجر و الظلام و الينابيع و البحار و الشمس و القمر و السماء .

2 ـ أرباب الإنسانية: و هي الأرباب التي تقترن بأسماء ألأبطال و القادة المحبوبين و المرهوبين ، و يحسبهم ـ الناس ـ من القادرين على الخوارق و المعجزات .

3 ـ أرباب الأسرة : و هم الأسلاف الغابرون ، يعبدهم ابناؤهم و أحفادهم ، و حسب راي العقاد الذي لا نتفق معه ، فإن هذه المرحلة هي أرقى المراحل في تاريخ العقائد ، و التي مهدت و أهلت البشرية لإعتناق عقيدة التوحيد الصافية النقية ، فسعوا الى

إحياء ذكراهم بالحفلات و المواسم المشهودة ، كما يحي الناس ذكرى الموتى في هذا الزمان و يزورونهم بالأقوات و الألطاف .

4 ـ أرباب المعاني : كرب العشق ، و رب الحرب ، و رب الصيد ، و رب العدل و رب الإحسان و رب السلام .

5 ـ أرباب البيت: كرب الموقد و رب البئر و رب الطعام .

6 ــ أرباب النسل: و الخصب و هي على الأغلب الأعم في صورة الإناث و يسمونها بالأمهات الخالدات ، و قد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة

7 ــ آلهة الخلق: التي ينسب إليها خلق السموات و الأرض و الإنسان و الحيوان .

8 ــ الآلهة العليا : و هي آلهة الخلق التي تدين عبادها بشرائع الخير و تحاسبهم عليها و تجمع المثل العليا للمحاسن و الأخلاق ، و تضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء ـ ع كتاب الله للأستاذ العقاد ــ و في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا التخبط و العمى الذي رافق البشرية ، عندما طال عليها الأمد و قست القلوب ، فتخلوا عن عقيدة التوحيد الربانية الصافية ، و إعتنقوا عقائد و أفكار وضعية ما أنزل الله بها من سلطان ، و في الخطاب الإسلامي تأكيدات كثيرة على

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }الأعراف70

{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ }الشعراء71

{أَلَا لِلّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }الزمر3

{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً }نوح23

أن توحيد الخالق في ذاته و صفاته و أفعاله هي العقيدة الأولى التي عرفها الإنسان الأول ، و تأكدت هذه الحقيقة في القرآن الكريم في عدة آيات ، و هذا لا يمنع من القول ان البشرية في طريقها الطويل قد مرت بمراحل متدرجة في علاقتها بالله ، لكن وقع ذلك بعد طول الزمن و الإختلاف حول المفاهيم و المبادىء الأساسية للعقيدة السليمة ، فالمصريون القدامى عبدوا الموتى ، فاعتنوا بقبورهم و بنوا

{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }الشورى14

عليها الأهرامات و المقامات كما عبدوا ملوكهم و ساداتهم الأحياء ، خاصة ومن الفراعنة . أما الهنود فتأثروا بعقائد البابليين ، فعبدو إله النور و إله الظلام ، كما

{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } هود97

{فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ }الشعراء44

{أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ }غافر37

جمعوا بين عبادة الأسلاف و الظواهر الطبيعية و الحيوانات ، و آمنوا بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود ، و إنتهى بهم المطاف إلى عبادة بوذا الذي ظهر بينهم قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح عيسى عليه السلام ، و إلى يومنا هذا مازلت طوائف من الهنود يعبدون البقر أما الفرس أو المجوس فأشتهروا بعبادة اله النور ، مترا و هو عندهم رمز للخير عكس الهنود الذين يعتبرونه أله الشر ، كما إهتموا بعبادة الشمس و النار و تقديسها ، و تأثروا بتعاليم زرادشت الخرافية ، و أما البابليون بجناحيهما ـ الساميون و الشمريون ـ فإتفقا على عبادة ما يسمونه ب الأرباب الكبرى كإله النور و يسميه . الساميون ـ شمس ـ و يسميه الشمريون ـ أنو ـ و الزهرة آلهة الحب التي يسميها الشمريون عشتار التي أصبحت أيقونا في أشعار العلمانيين المعاصرين من الشعراء العرب ، و نصل إلى اليونان بلد الفلسفة و الإباحية و الإلحاد ، فنجد أنهم بالرغم مما وصلوا إليه في عالم الفلسفة و الفكر ، لم يتوصلوا إلى إنتاج عقيدة سليمة ، واضحة المعالم ، نقية المبادى ، صافية و معقولة ، لأن تصميم و إنتاج العقيدة ليس من طبيعة الإنسان ، و لا من صميم وظيفته أو مهمته في الحياة

ـ عقائد اليونان: ميز الله سبحانه و تعالى الشعب اليوناني أو على الأقل نخبة مختارة منه ، بميزة العقل المفكر و المحلل ، في عصر يعترف المؤرخون المنصفون من كل الإتجاهات و العصور و الأوطان ، أنه عصر جاهلي بدائي بإمتياز ، و لذلك يتعجب الإنسان لظهور الفلسفة و الفكر في تلك البلاد ، و ميلاد عباقرة كبار أمثال سقراط و أفلاطون و أرسطو ، لكن هل توصلت الفلسفة اليونانية إلى معرفة الله و الإيمان به ؟ و هل توصلوا إلى إنتاج تعاليم و مبادىء إجتماعية و أخلاقية ترشد حياتهم اليومية نحو الخير و الصلاح ؟ أبدا ... و كما إنتشر الفكر الفلسفي و الإبداع الأدبي و بلغا مرحلة متقدمة لم تعرفها البشرية في أي عصر من العصور القديمة ، و صل اليونانيون نخبة و شعبا إلى مرحلة متعفنة من الإباحية و العري و الفساد الأخلاقي ، لم تعرفه كذلك البشرية في مختلف العصور ، لدرجة أنهم عبدوا ـ الأماكن الحساسة و المثيرة من جسم الإنسان ، رجلا أو إمراة ـ و من الجانب العقائدي كان الإلحاد و عدم الإعتراف بالله سبحانه و تعالى هو العقيدة السائدة في البلاد ، و قد تطورت عقائد اليونانيين و تنوعت كما يقول الأستاذ العقاد في كتابه ـ الله ـ أما تاريخ العقيدة في بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب الأوليمب الذين خلدوا في أشعار هوميـر و هوزيود ، فعبدوا الأسلاف و الطواطم و مظاهر الطبيعة ، و مزجوا هذه العبادات بطلاسم السحر و الشعوذة ، و إستمدوا من جزيرة ـ كريت ـ عبادة النيازك و حجارة الرواسب ، و شاعت بين الإغريق عبادة أرباب ـ ألأوليمب ـ كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة و تنظيم العبادات ـ كتاب الله الأستاذ العقاد ص ٧٨ يتصرف يسير ، و عرف اليونانيون أسماء كثيرة للألهة المزعومة ـ زيوس ، ديوس ، أرتيميس ، أفروديت ، أدونيس ، ديونسيس ، جيا آلهة الأرض ، كاوس إله الفضاء ، و تروي الأساطير اليونانية أن الإله زيوس قتل أباه كرنوس و ضاجع إبنته و هجر سماءه ، ليطارد عرائس العيون و البحار ، و يغازل بنات الرعاة في الخلوات ، و غار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر و الهلاك ، و ضن عليه بسر النار فعاقب المارد برومثيوس لأنه قبس له النار من السماء ، و لم يتصوره خالقا للدنيا أو خالقا للأرباب التي تساكنه في جبل الأوليمب و تركب معه متن السحاب ، فهو على الأكثر والد لبعضها و منافس لأنداده منها ، و تعوزه أحيانا رحمة الآباء و نبل العداوة بين الأنداد . المصدر السابق بتصرف ، و هكذا ظل اليونانيون الإغريق يتأرجحون بين العقائد الوضعية المليئة بالسخافات و الأساطير و الأفكار التي لا يستسيغها العقل البشري و إنتهوا إلى وثنية و إلحاد ، بقيت مظاهـــــرها حتى الآن .

ـ عقائد اليهـود: اليهود أو بني إسرائيل أو العبرانيين ، جنس من البشر بعث الله فيهم الأنبياء و الرسل ، ليهدوهم إلى طريق الرشاد و يصصحوا عقائدهم الفاسدة التي ورثوها عن الآباء و الأجداد ، لكنهم إشتهروا بقتل الأنبياء و الرسل و قد أشار لقرآن الكثير إلى هذا الموضوع في أكثر من آية ، و تطورت عقائد اليهود من

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } البقرة47

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ }المائدة70

التوحيد الأصيل إلى عبادة الأسلاف و الحيونات ،و الأشجار الى الوثنية ، و معلوم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد أرسله الله بعقيدة التوحيد ، حيث سعدت البشرية لفترة طويلة بدين التوحيد ، لكن العبرانيون ورثة سيدنا إبراهيم ، ما لبثوا أن تخلوا عن التوحيد الخالص ، و إعتنقوا عقائد أرضية خاصة عبادة الأوثان ، و في زمن النبي موسى عليه السلام إغتنموا فرصة غيابه و صنع لهم السامري عجل له خوار فعبدوه و قد جاء في الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثاني ، كما يشير الأستاذ العقاد ـ أن حزقيا ملك يهودا أزال المرتفعات و كسر التماثيل و قطع السواري و سحق حية النحاس التي عملها موسى ، لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ، و جاء في الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول أن إحدى زوجات النبي داوود عليه السلام ـ ميكال ـ أخذت الترافيم و وضعته في الفراش و وضعت لبدة المعزى تحت رأسه و غطته بثوب ـ و المعروف أن الترافيم بصيغة الجمع هي تماثيل على صورة البشر تقام في البيوت و تحمل في السفر ، و يرمز بها إلى الله ، المصدر السابق ـ و بعد مجيىء موسى عليه السلام مدعوما بكتاب الله فيه نور و برهان و هو التوراة ، لم يتخل العبرانيون عن عقائدهم الفديمة الفاسدة و قد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في عدة مواضع .

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }آل عمران65

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ }المائدة70

{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } المائدة43

{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } المائدة44

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ } المائدة66

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } المائدة68

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }المائدة78

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } الجمعة5

بالرغم من وضوح عناصر العقيدة في التوراة بإعتباره كتابا مقدسا و منزلا من عند الله ، و أن الديانة اليهودية هي في حقيقتها الأصلية ديانة توحيد ، فإن تصورات اليهود و القدامى و المعاصرين لله سبحانه و تعالى يشوبها خليط من التشبيه و التجسيم ، فهم يصورون الله جل و على في صور و أوضاع و حالات مخلة و شبيهة بصور و أوضاع الإنسان ، فهو أحيانا يرتدي ثيابا رياضية و يجلس على العرش و يضع رجلا على رجل ، و أحيانا أخرى ينزل إلى الأرض ليمارس طقوس الحب مع زوجاته و عشيقاته و حبيباته ، سبحان الله و تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، و كما

يقول الأستاذ العقاد فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة تحول لأنها بدأت تصور الإله على صورة إنسان يأكل و يشرب و يتعب و يستريح و يغار من منافسيه ، و يخص قبيلته وحدها بالبركة و التشريع ، و قرنت هذه الصور تارة بعبادة الأصنام ، و تارة بعبادة الموتى أو آثارهم أو الظواهر الطبيعية .

ـ التصورات المسيحية لله

يختلف المسيحيون أو النصارى في تصوراتهم لله ، إختلافا عظيما ، فإنقسموا إلى عدة فرق متناحرة ذكرها الدكتور محمد المسيري في كتابه أصول النصرانية و هي

ـ **الملكانية:** و هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم ، يقولون أن الكلمة إتحدت بجسم المسيح ، و المسيح ناسوت جزئي و ليس كلي أي يجمع بين الطبيعتين البشرية و الإلهة و قد ولدت مريم عليها السلام إلها أزليا و هذه الفرقة هي حصاد مجمع نيقية عام ٣٢٥م .

ـ **النسطورية:** نسبة إلى نسطور الذي حكم في زمن المأمون و تصرف في الأناجيل برأيه ، و قال إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة ، الوجود و العلم و الحياة ، و هي ليست زائدة على الذات و لا متحدة معها .

ـ **اليعقوبية:** و هم أتباع يعقوب ، و قالوا بالأقانيم الثلاثة ، و تحول الكلمة إلى لحم و دم ، فصار الإله هو المسيح ، و منهم من قال ظهر باللاهوت و الناسوت ، و زعموا أن المسيح جوهر واحد ، و أقنوم واحد ، إلا أنه من جوهرين ، جوهر الإله القديم و جوهر الإنسان المحدث ، تركبا فصارا جوهرا واحدا ، هو إنسان كله و إله كله

بعد ذلك إختلفوا ، فالملكانية و اليعقوبية قالوا أن الذي ولد من مريم عليها السلام هو الإله ، و النسطورية قالوا هو الإنسان التام ثم إتحد مع الإله فصار إلها تاما و إنسانا تاما ، كما إختلفوا في قضية صلب و قتل المسيح عليه السلام ، فبالنسبة للملكانية فقد تم الصلب و القتل على الناسوت و اللاهوت ،و عند النسطورية على الناسوت فقط ، أما الطائفة اليعقوبية فقالت بأن الصلب و القتل تم على الجوهر الذي هو من جوهرين و مصدر الخلاف بطبيعة الحال هو الولادة غير الطبيعية و غير العادية للسيد المسيح عليه السلام ، فالموقف هو الذي يحدد طبيعة التصور ، فهناك طائفة من النصارى تعتبر طبيعة المسيح هو الله و أخرى تعتبـــره إبن الله .

اللّٰه في القرآن الكريم

القرآن الكريم هو المصدر الأساسي و الصحيح للعقيدة الإسلامية ، كما هو مصدر الفكر و التشريع و الأخلاق ، و هو يعرض موضوع الألوهية عرضا بسيطا سهلا واضحا من دون تعقيد ، و يقدم نفس الموضوع بأساليب و أشكال مختلفة تخاطب مستويات العقل البشري من الأدنى إلى الأعلى ، و يجادل الكفار و المشركين و الملحدين بالحجج الدامغة التي تشد الأنظار، و يفند تصوراتهم الضالة و أفكارهم البالية و الساذجة التي ورثوها عن آبائهم و أجدادهم ، و إعتنقوها بصورة آلية دون تحليل او تفكير ، و كما رأينا في الفصول السابقة فقد تدنى مستوى تفكير البشرية منذ عصورها الأولى إلى مستويات منخفضة و ساذجة و بدائية فيما يتعلق بقضية الألوهية ، فوصلوا إلى الحضيض حيث تعلق الإنسان بالحجر و الشجر و بعض الحيوانات و إتخذها إلها يعبده ، القرآن الكريم و هو المصدر الأساسي للعقيدة في اللّٰه ، يقدم تصورا واضحا وجليا لا لبس فيه عن اللّٰه ، يرتكز في كثير من الأحيان على توجيه أنظار الناس و عقولهم و قلوبهم الى آثار الخالق في الكون و الحياة و الإنسان ، و يصرفهم عن التفكير في ذاته العلية الكريمة التي تبقى سرا عظيما إستأثر اللّٰه بعلمه و لم يتعبدنا به ، لتبقى علاقة الإنسان باللّٰه و نظرته إليه يحددها الإحساس و الذوق و الإيمان الصادق و العمل الصالح ، فالإحساس بوجود اللّٰه نعمة كبيرة لا يشعر بها سوى المسلمون الذين رزقهم اللّٰه إيمانا قويا صادقا و فطرة سليمة شفافة يكتشفون من خلالها قوة اللّٰه و رحمته و عفوه و مغفرته ، فيعيشون حياتهم مع اللّٰه في الليل و النهار و في كل الأوقات فيذكرون اللّٰه قياما و قعودا و على جنوبهم ، و ذكر اللّٰه في تصوري ليس هو بالضرورة النطق بعبارات التسبيح المعروفة و إن كان ذلك نوع اصيل و شرعي من الذكر ، ذكر اللّٰه هو أيضا أن تتذكره في كل المواقف و الظروف و الحالات ، في السراء و الضراء ، و ذكر اللّٰه في كل الأوقات يمنح المسلم راحة نفسية و إطمئنان و ثبات و يفتح بصيرته و يلهمه الحلول و القدرة على التحمل و التصرف في المواقف الحرجة ، و ليس يوجد في الكون كتاب يعرفك على اللّٰه و يقدم لك تصورا واضحا عن الألوهية كما القرآن الكريم ، كتاب لا ريب فيه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، تنزيل من حكيم عزيز ، كتاب كريم تعهد اللّٰه سبحانه و تعالى بحفظه من التحريف و التزوير ، هو المعجزة الخالدة لنبينا محمد ﷺ النبي الخاتم الكريم

{اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِـي الأَرْضِ مَن ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَـلْـفَـهُـمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }البقرة255

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مّنكِرَةٌ وَهُم مّسْتَكْبِرُونَ } النحل22

{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنّمَا هُوَ إِلـهٌ وَاحِدٌ فَإِيّايَ فَارْهَبُونِ }النحل51

{اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى }طه8

{إِنّنِي أَنَا اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلَاةَ لِذِكْرِي }طه14

{إِنّمَا إِلَهُكُمُ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَسِعَ كُلّ شَيْءٍ عِلْماً }طه98

{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّي إِلَهٌ مّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ } الأنبياء29

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتّقُونَ }المؤمنون23

{اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْـمِصْـبَـاحُ فِـي زُجَاجَةٍ الزّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مّبَارَكَةٍ زَيْـتُـونَـةٍ لّـا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }النور35

{يَا أَيّهَا النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّهِ يَرْزُقُكُم مّنَ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ }فاطر3

قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ{1} اللّهُ الصّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لّـهُ كُـفُـوَاً أَحَدٌ{4}

و القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الصحيح لمعرفة الله سبحانه و تعالى و كل الغيبيات التي عجز العقل البشري عن الوصول إليها ، في الآية ٢٥٥ من سورة البقرة يخبر الله عباده أن هو الله الذي لا إله غيره ، و دين الإسلام هو الدين الذي بعثت به كل الرسل و الأنبياء من سيدنا نوح إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ هو دين التوحيد الخالص فالله واحد لا شريك له و لا إله غيره ، التوحيد هو أهم خصائص التصور الإسلامي ، و أهم مكونات العقيدة الإسلامية ، التي تنبثق منها كل التصورات الفكرية و الأدبية ، و المنهج الإسلامي الشامل للحياة في مختلف أبعاده السياسية و الفكرية و الإقتصادية و الإجتماعية و الأخلاقية ، في نفس الآية وصف جميل و راق لعدد من صفات الله ، فهو الحي الذي لا يموت ، حياته عز و جل حياة ذاتية لم تنبثق من مصدر آخر ، كحياة البشر التي تحتاج إلى خالق ، حياة أزلية أبدية ليس لها مبدأ و لا منتهى ، متجردة و مترفعة عن كل معاني و خاصيات الزمان و المكان ، و هو القيوم أي القائم بكل شؤون الحياة و البشر و الكون يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى لا تأخذه سنة و نوم ـ و حقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته و جزئياته في كل وقت و في كل حالة حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورها ، و حين يسبح بخياله المحدود مع ما لا يحصيه عددا من الذرات و الخلايا و الخلائق و الأشياء و الأحداث في هذا الكون الهائل ، و يتصور بقدر ما يملك قيام الله سبحانه و تعالى عليها ، و تعلقها في قيامها بالله و تدبيره إنه أمر لا يتصوره الإدراك الإنساني ، و ما يتصوره منه ، و هو يسير هائل يدير الرؤوس و يحير العقول ، و تطمئن به القلوب له ما في السموات و ما في الأرض ، بما أنه هو الله الذي لا إله غيره ، فهو الذي خلق كل شيء في السموات و الأرض ، من بشر و شجر و حجر و غيرها من المخلوقات التي نعرفها و التي لا نعرفها ، و ما دام أنه هو خالق كل شيء فهو المالك لكل شيء في السماوات و الأرض فهي الملكية الشاملة ، و مفهوم من مفاهيم الألوهية فالله الواحد هو الحي الواحد هو القيوم الواحد المالك الواحد من دون شك لكل شيء في السماوات و الأرض ، و ملكية الله لما في السموات و الأرض هي ملكية عامة دائمة و مطلقة و غير قابلة للزوال أو الإندثار أو القسمة أو التوريث ، لا تنفي الملكية الجزئية أو المجازية للبشر لبعض الأشياء ، لكن ملكية البشر تختلف بحكم طبيعتها عن ملكية الله ، فهي مجرد حيازة جزئية قابلة للزوال

و الأندثار و التقسيم ، و الله سبحانه و تعالى حي قيوم فهو لا يغفل و لا ينام ، أي لا تطرى عليه سبحانه و تعالى تلك الأحوال التي تطرى على البشر و الحيوانات كالنوم مثلا أو إحدى مقدماته أو عوارضه كالسهو و الغفلة ، و كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة التي تسمى آية الكرسي عددا من صفاته التي تتميز عن صفات الخلائق بالديمونة و الشمول و العموم و المطلق و عدم الزوال أو الإندثار، فهو حي لا يموت قيوم على كل شيء ليل نهار و في كل وقت ، لا يغفل و لا ينام ، يذكر سبحانه و تعالى في نفس الآية صفات جليلة أخرى هي الشفاعة ، صفة جميلة توضح مقام الألوهية و مقام العبودية و تفصل بينهما بحدود لا يمكن للبشر تجاوزها ، فالله هو الله الخالق الرازق المحي و المميت هو رب كل شيء و مالك كل شيء في هذا الوجود ، و ما دام الله جل جلاله يتصف بكل الصفات الجليلة فهو الله الذي يستحق من البشر الخضوع و العبادة ، و الشفاعة مقام عظيم من مقامات الألوهية ، غير ممكنة لأي شخص مهما كان مقامه عند الله سوى ، بترخيص من الله و إذن منه و في الحدود التي يرسمها الله لعباده ، و علم الله واسع لا حد له علم ما كان يكون لوكان كيف يكون ، علمه شامل مطلق محيط بكل شيء لا تعزب عنه مثقال حبة في الأرض و لا في السماء ، علم و يعلم بكل حركة أو همسة في الكون كله ، و علمه سبحانه و تعالى يشمل ماضي الإنسان و حاضره و مستقبله ، و في مقابل علم الله الشامل المحيط بكل شيء في السماء و الأرض ، فإن علم الإنسان مهما أوتي من مواهب و قدرات عقلية و ذكاء ، يبقى و يظل علم نسبي ناقص و قليل و جزئي و ضئيل و لا يشكل إلا قطرة ماء في محيط أو ذرة في الهواء أو أقل من ذلك بالنسبة لعلم الله الشامل المحيط بكل شيء **(و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** و كل ما إستطاع الإنسان إكتسابه من معارف و علوم و أفكار ، فهي هبة ممنوحة من الله العليم القدير لعبده المسكين ، هبة قد تساعده على تحقيق العبودية لله و أداء الأمانة و تعمير الأرض و القيام بدوره في الخلافة أحسن قيام ، و العلم الجزئي بالأشياء منحة يعطيها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الصالحين و الكافرين و المشركين ، فكما رزقهم الحياة بنفس الصور و الأشكال مع بعض التفاوت و الإختلافات ، رزقهم العلم ووزعه عليهم بنسب معينة لحكمة قد يصل البشر لمعرفه كنهها و أسرارها و قد تبقى من أسرار الغيب التي لا يعلمها إلا الله العليم الحكيم

و العلم هبه الله إلى البشر من أول يوم خلق فيه سيدنا آدم عليه السلام ، حيث علمه الأسماء كلها في مشهد عظيم يشبه الإمتحان أو المسابقة الفكرية أو العلمية بين الملائكة مخلوقات الله التي تحفظت بأدب شديد ووقار عظيم على خلق الإنسان ، لأنها عرفت بحكم تجارب سابقة أنه يفسد فيها و يسفك الدماء وكان المخلوق الجديد هو آدم عليه السلام ، يقول سيد قطب ـــ و مع ذلك يفتن الإنسان بذلك الطرف من العلم ، الذي أحاط به بعد الإذن ، يفتن فيحسب نفسه إلها و يكفر فينكر أن لهذا الكون إلها ، و إن يكن هذا القرن العشرون قد بدأ العلماء حقا إلى التواضع ـ و هكذا فإن الله سبحانه و تعالى قد ذكر في آية الكرسي التي يحفظها كثير من الناس أنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا شريك له و لا معين و لا مساعد ، و هو حي لا يموت ، علمه لا حدود له محيط بكل شيء علم ما كان يكون لو كان كيف كان يكون ، و علم الإنسان بالقياس إلى علم الله قطرة من بحر أو ذرة من رماد ، ما يتعلمه أو يعلمه الإنسان من علوم و معارف قلت أو كثرت ، هي هبة و نعمة يتكرم بها الرحمن الرحيم ، العليم الخبير على عباده ، و القائم بشؤون الكون أرضه و سماءه و كل ما يدب فيه من الذرة إلى الصاروخ ، لا يغفل و لا ينام ، يملك السموات و الأرض و كل ما فيهما ، و لا يطرأ عليه أي تعب أو عجز و هو العلي صاحب الرفعة و المقام الكريم ، العزة و الجلال و الكبرياء ، و في القرآن الكريم تتكرر الآيات التي تذكر البشر المساكين بوحدانية الله ، و التوحيد هو دين كل الأنبياء

{اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }البقرة255

و الرسل ، و معظم السور و الآيات التي نزلت بمكة المكرمة و هو ما يسمى بالقرآن المكي تناولت قضية التوحيد و جادلت الكفارو المشركين بأسلوب رائع و بيان راق و فندت دعاواتهم الباطلة و حججهم الضالة ، و القرآن المدني لا يخلو هو أيضا من السور و الآيات التي تعرضت بالتفصيل إلى هذه القضية الهامة بالنسبة لعلاقة الإنسان بربه الكريم ، فبالنسبة لمشركي قريش يؤكد الله سبحانه و تعالى وحدانيته و ينفي الثنائية في صور جمالية بيانية رائعة تساير طبيعة و مستـــــوى تفكير عرب

الجاهلية ، الإسلام دين التوحيد و الوحدانية ، يرفض بإصرار و إلحاح التثنية أو الثنائية كما يرفض عقيدة التثليث التي إخترعها النصرانيون المزيفون ، التثنية أي عبادة إلهين إثنين عقيدة وثنية ورثها اليونانيون عن الأمم السابقة و تعلقوا بها ، و عقيدة التثليث هي أيضا من بقايا العقائد الوثنية ، و بدل من أن تؤثر النصرانية الحقيقية و الأصيلة في عقائد اليونان و الرومان تأثرت هي بعقيدتهم الوثنية ، و الله سبحانه و تعالى عندما يذكر في كتابه العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه قضية العقيدة بصفة عامة و موضوع التوحيد بصفة خاصة ، يتوجه بخطابه إلى جميع البشر ، و ليس إلى المسلمين فقط ، و يستعمل منطقا تدريجيا سهلا و بسيطا و يخاطبهم قدر عقولهم ، ففي الآية ٢٢ من سورة النحل ربط جميل بين التوحيد و الإيمان بالآخرة ، و أمراض القلوب و الأخلاق ، أما الآية ٥١ من نفس السورة فتحتوي على أمر و تأكيد على مبدأ وحدانية الله و فيها تحذير شديد اللهجة للذين يعبدون مع الله إله آخر

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ }النحل22

{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }النحل51

أما إدعاء الألوهية من طرف البشر العاجزين فمسألة خطيرة جدا يتناولها الخطاب القرآني بكثير من الحسم و الحزم في العديد من الآيات الكريمة ، و يتوعد الأدعياء الكذابين بالخلود في جهنم و يعتبرهم من الظالمين و الظلم في القرآن الكريم يأتي أحيانا مرادفا للكفر أو الشرك ، و التوحيد قضية مصيرية كانت ضمن برنامج عمل و أجندات الرسل الكرام ، بداية من سيدنا نوح عليه السلام ، و هي كما ذكرنا سابقا ليست قضية تهم المسلمين فقط با هي مسألة مصيرية تعني جميع البشر ، و في الآية ٣ من سورة فاطر يتغير الخطاب القرآني و يتجه الى مخاطبة القلوب ، قلوب البشرية الضالة و يربط مسألة التوحيد مع موضوع الرزق ، الرزق الذي يشكل هاجس كل إنسان يعيش على هذه الأرض ، فالذي يرزقك من غير حساب ، و يرزقك من حيث لم تحتسب ، بل الذي ضمن لك رزقك من أول يوم ولدت فيه إلى آخر يوم في حياته هو الله الواحد الذي لا إله غيره و لا شريك له ، فكيف لا تعترف

بوحدانيته أيها الإنسان المغرور الظالم لنفسه ، في الاية ٣ من سورة فاطر و غير ها من الآيات الكريمة المبثوثة في القرآن الكريم يتوجه الخطاب القرآني إلى لفت إنتباه الإنسان في كل زمان و مكان إلى أن الله واحد و هو الرزاق الكريم ، و الرزق و تدبير المعاش و شؤون الحياة مسألة مهمة لا يعرف أسرارها و مفاجآتها سوى الذين يكابدون في هذه الحياة ليلا نهار من أجل تدبير لقمة العيش للأسرة و الأطفال ، و من خلال التجارب العديدة في الأعمال الحرة الخاصة يدرك الإنسان كيفية تدخل العناية الإلهية و تسعفه في لحظات تقترب من اليأس و القنوط ، حيث يعيش الإنسان أجمل لحظات عمره و هو يرى بأم عينيه كيف تنزل رحمة الله و يأتيه الرزق .

{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } الأنبياء29

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ }المؤمنون23

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }فاطر3

و الله في القرآن الكريم هو نور السموات و الأرض ، و النور هو النور الذي يعرفه جميع الناس ، و يمكن أن يكون نور لا يعرفه البشر ، و في الحديث النبوي الشريف الذي تحدث فيه النبي المصطفى ﷺ عن المعراج و عندما سئل عن رؤيته لله جل و على قال هو نور ، أنى أراه ، و هذه الآية رقم ٣٥ من سورة النور يتجاهل تفسيرها المفسرون و يمرون حولها مرور الكرام ، و هي آية صريحة وواضحة و يمكن فهمها على الظاهر دون تأويل ، و فيه يحاول الخطاب القرآني تقريب الموضوع إلى الأذهان بإستعمال تقنية التصوير الفني و تجسيم الحدث أو المثل ، فنور الله كما ذكرت الآية الكريمة ، مثل مشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية و لا غربية ، يكاد زيتها يضيء من اللمعان دون أن تمسه النار ، و هو إذن نور على نور ، كل هذه الوسائل و الأشياء التي ذكرت في الآية الكريمة و هي ـ المشكاة ، المصباح ، الزجاجة ، الكوكب ، الشجرة المباركة ـ هي في ذاتها مصنوعة من نور ، و النور هو أيضا رمز للإسلام

الدين الواضح الجلي ، في عقيدته و عباداته و معاملاته و أخلاقه ، و للأستاذ سيد قطب خواطر جميلة حول الآية ٣٥ من سورة النور . في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٥١٨ ، نختار منها هذه الفقرات مع تصرف يسير- و ما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادىء الوضيء فيغمر الكون كله ، و يفيض على المشاعر و الجوارح ، و ينسكب في الحياة و الجوانح، و حتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ، و حتى تعنقه و ترشفه العيون و البصائر،، النور الذي منه قوامها و منه نظامها ، فهو الذي يهبها جوهر وجودها و يودعها ناموسها ، مثل نوره كمشكاة ، ، ، هو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ، و يرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس حين يقصر على تملي الأصل ، و هو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه و آفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير ، و من عرض السماوات و الأرض إلى المشكاة و هي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح فتحصر نوره و تجمعه فيبدو قويا متألقا - الزجاجة كأنها كوكب دري ، هنا يصل بين المثل و الحقيقة ، بين النموذج و الأصل ، حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير ـــ و في القرآن الكريم أكثر من ١٢٠٠ آية تتحدث عن الألوهية و توحيد الله ، تارة بأسلوب الأمر المباشر الحاسم و تارة أخرى بأسلوب يخاطب القلب البشري بتوجيه تفكيره إلى أشياء بسيطة يراها و يسمعها و يتعايش معها كل لحظة و حين ، و بطبيعة الحال لا يمكننا في هذه الكتيب الصغير الحجم عرض كل الآيات الكريمة ، و نكتفي بتلك النماذج التي ذكرناها و هي تكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد ، خاصة و نحن نتوجه بداية في هذه الصفحات للمسلمين الذين يؤمنون بالله و رسوله و يؤدون الشعائر و يلتزمون بالإسلام كل حسب طاقته و قوته .

{اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } النور35

لا إله إلا الله هي الحقيقة الكبرى

لآ إله إلا الله هي كلمة التوحيد الأولى و تأشيرة الدخول إلى الإسلام ، و هي الكلمة التي يرددها المسلمون في اليوم و الليلة مئات المرات في الآذان و الصلاة و الإستغفار ، مقرونة ب الجزء الثاني من الشهادة و هي محمد رسول الله ، و كلمة التوحيد أو الشهادة ليست مجرد كلمات و حروف نرددها بطريقة آلية صباح مساء ، و هي ليست شعار يرفعه المسلمون في السراء و الضراء و حين البأس ليعلنوا للآخرين أنهم مسلمون ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ليست مجرد كلمات كالكلمات ، هي كلمات و حروف أي نعم ، بسيطة من حيث الشكل و الصورة ، لكن أبعادها ومدلولاتها تفوق أكثر مما يتصوره كثير من الناس ، لا إله إلا الله هو إعلان بسقوط كل الأرباب و الأصنام و الأوثان البشرية او التي صنعها البشر، و الإعتراف بوجود إله واحد و رب واحد لا شريك له و لا شبيه و لا مثيل له ، هو الله يتصف بكل صفات الكمال و الجلال و الجمال ، و كل الصفات الإيجابية و منزه عن كل الصفات السلبية ، يتجلى جماله و جلاله في أسمائه الحسنى و في مخلوقاته و بدائع صنعه ، كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله عقد أبرمه الإنسان مع الله في بداية الحياة الدنيا يقر فيه الإنسان بوحدانية الخالق في ألوهيته و ربوبيته و صفاته و أفعاله و حاكميته ، لا إله إلا الله محمد رسول ، إلتزام مادي و معنوي بالخضوع لله طاعته و تنفيذ أوامره و إجتناب نواهيه ، لا إله إلا الله محمد رسول الله هي الكلمة الفاصلة بين الإسلام و الجاهلية في كل زمان و مكان ، هي الكلمة التي تضع حجابا حائلا بين المسلمين و الكفار ، وهي التي تميز الأمة الإسلامية عن الأمم الأخرى المشركة و الكافرة و الملحدة ، و وراء كلمة التوحيد من دون شك إلتزامات و تبعات مادية و معنوية ثقيلة قد يستهين بها كثير من الناس ، و النطق بالشهادتين ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله شرط للدخول في دين الإسلام بالنسبة لغير المسلمين ، أما المسلمون بالفطرة أو بالولادة أي الذين ولدوا لأب مسلم فإنهم كبقية البشر يولدون على الفطرة ، يولدون مسلمين بصورة آلية ، لكن إيمان المقلد كما يقول العلماء مشكوك فيه ، و لذلك و من باب الإحتياط يردد المسلمون بين لحظة و أخرى كلمات التوحيد و يجددون دينهم و توبتهم كل مرة أسوة بنبيهم الكريم محمد ﷺ الذي نصح المسلمين بترديد كلمة التوحيد أعظم كلمة في الوجود .

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير معنى لا إله إلا الله ـ كانت مفرق الطريق في التصور و الإعتقاد ، كذلك كانت مفرق الطريق في الحياة و السلوك ، إن الذي يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الذي لا إله إلا هو ، الحي الواحد الذي لا حي غيره ، القيوم الواحد الذي به تقوم كل حياة أخرى و كل وجود ، و هو الذي يقوم على كل حي و كل موجود ، الذي يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد ،لابد أن يختلف منهج حياته عن الذي تغيب في حسه تلك التصورات التائهة المشوهة ، فلا يجد في ضميره أثرا لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة في حياته ، إنه مع التوحيد الخالص لا مكان لعبودية إلا الله ، و لا مكان للإستمداد و التلقي إلا من الله ، في الشريعة و النظام و في الأدب و الأخلاق ، و الإقتصاد و الإجتماع ، و لا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شان من شؤون الحياة و ما بعد الحياة ، أما في تلك التصورات الزائفة المنحرفة المهزوزة الغامضة ، فلا متجه و لا قرار و لا حدود لحرام أو حلال ، و لا لخطأ أو صواب ، في شرع أو نظام ، في أدب أو خلق ، و في معاملة أو سلوك ،فكلها إنما تتحدد و تتضح عندما تتحدد الجهة التي منها التلقي ، و إليها التوجه ، و لها الطاعة و العبودية و الإستسلام ، و من ثم كانت هذه المواجهة بذلك الحسم في مفرق الطريق ، و من ثم كان التميز و التفرد لطبيعة الحياة الإسلامية ، لا لطبيعة الإعتقاد وحده ، فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق إنبثاقا من حقيقة هذا التصور الإسلامي عن التوحيد الخالص الجازم ، التوحيد الذي لا يستقر عقيدة في الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية في الحياة ، من تلقي التوحيد و الشريعة من الله في كل شأن من شؤون الحياة و التوجه كذلك إلى الله في كل نشاط و كل إتجاه ـ في ظلال القرآن م ١ ص ٣٦٧ ـ كلمة التوحيد لاإله إلا الله محمد رسول الله و هي مفتاح الدخول في الإسلام ، و باب التوبة و الرجوع إلى الطريق المستقيم ، أمانة و مسؤولية ضخمة و تبعاتها على الصعيد الشخصي و الجماعي كثيرة و خطيرة ، و إذا كانت تبعاتها بالنسبة للمسلم العادي هي التفسير العملي لمدلولاتها على الأرض و في الواقع من خلال الإلتزام بمتطلبات التصور الإسلامي من عبادات ومعاملات و سلوكات ، فإن تبعاتها بالنسبة للحكام المسلمين تتجاوز تلك الإلتزامات إلى إستمداد التصور الفلسفي و الفكري لنظام الحكم و التشريعات و القوانين من القرآن الكريم و السنة النبوية و تطبيقها في الواقع ، فليس معقولا ان يزعم الحكام العرب

أنهم مسلمون حقا و يشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمد عبده و رسوله و يقيمون الشعائر و لكنهم بالمقابل يطبقون قوانين و تشريعات علمانية موروثة عن الإستعمار أو مستوردة من الشرق أو الغرب .

ـ خصائص التوحيد الإسلامي:

توحيد الله في ألوهيته و ربوبيته و أسمائه و صفاته و أفعاله و توحيد الحاكمية ، ليس خاصا بالإسلام فقط ، بل هو أحد أهم خصائص كل الديانات السماوية ، و هو الوظيفة او المهمة الأولى التي كلف رسل الله و انبيائه بتبليغها إلى الناس في كل زمان و مكان ، و في القرآن الكريم تأكيد على هذه القضية بشكل متكرر و ملفت للإنتباه ، و جوهر الأديان السماوية كلها هو الإسلام لكن التغيير في التعبير لا ينقص من مدلول الكلمة شيئا، فمن سيدنا نوح إلى خاتم الرسل محمد ﷺ كان جوهر الرسالة واحد و الأمر واحد ـ الله لا إله إلا هو **(أعبدوا الله و لا تشركوا به) (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قومي أعبدوا الله ، مالكم من إله غيره) الأعراف 59 (و إلى عاد أخاهم هود قال ، يا قومي أعبدوا الله مالكم من إله غيره)** الأعراف ٦٥ **(و إذ قال الله يا عيسى أأنت قلت للناس أتخذوني و أمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ..... ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي و ربكم)** الأنبياء ٢٥

و يقوم التصور الإسلامي على أساس وجود الوهية و عبودية ، الوهية ينفرد بها الله سبحانه و تعالى و تتميز بخصائص و مقومات تليق بمقام الألوهية ومنزهة عن التشبيه أو المماثلة لخصائص البشر ، و عبودية خاضعة لله لها خصائصها البشرية ، و طبيعتها البشرية و سلوكاتها البشرية التي تختلف إختلافا كليا عن طبيعة الألوهية ، و التصور الإسلامي للألوهية هو التصور الوحيد الذي تضمن خصائص و مكونات تتوافق مع فطرة الإنسان و عقله و تفكيره ، و لا يتصادم مع العقل ، تصور واضح و بسيط يستطيع أي إنسان مهما كان مستواه الثقافي أو العلمي أن يستوعبه و يهضمه لأنه مبني على حقائق الوجود ، و كل ما في الوجود من كائنات و مخلوقات ، و التسيير العجيب لهذا الكون الفسيح ، و ظاهرة الولادة و الموت ، كلها حقائق تنبض بالنور الإلهي و تؤكد وحدانية الله العليم الحكيم الكبير المتعال

ـ مراتب الإيمان

الإيمان في أبسط تعريف له ، هو النطق بكلمة التوحيد المتضمنة نصي الشهادين و التصديق الجازم و الإعتقاد الكامل بالقلب و العقل و تطبيق متطلبات الإيمان من الشعائر التعبدية و المعاملات و الأخلاق ، و الإيمان يزيد و ينقص حسب الحالة النفسية و الظروف العامة المحيطة به، فالذي يعيش مثلا بجوار بيت الله أو قرب المسجد النبوي ، ليس كمن إضطرته الظروف للعيش في كبريات عواصم الفسق و الفجور العالمية ، أو مدن الشيطان ، باريس ، روما ، لندن ، و غيرها ، و الذي يقرأ كتاب الله بتدبر و خشوع ، و يصلي الفرائض و النوافل و يقوم أدنى من الليل أو ثلثه ، ليس كمن يقضي نهاره أو ليله مع المواقع الإباحية و تفاهات الحضارة الغربية ، و لذلك نجد المسلمون يجددون إيمانهم في شهر رمضان فيحرصون على أداء صلاة الفجر في وقتها سواء في المسجد أو البيت ، و تجد المساجد عامرة بالمصلين في كل الأوقات ، و يكثر المسلمون من الصدقات و الأعمال الخيرية ، و بمجرد ما ينتهي شهر رمضان يعودون لما كانوا عليه من الكسل و التفريط في أداء الواجبات الإسلامية اليومية و كأنهم يعبدون الله في شهر رمضان فقط ، و إيمان العلماء في كل مجالات العلم و المعرفة ، ليس كإيمان العامة ، حتى أن الإجماع يكاد ينعقد على بطلان إيمان المقلد ، أي المتدين بالفطرة كالشيوخ و العجائز و سائر الناس الأميين ، فالإيمان الصحيح يتطلب معرفة يقينية صحيحة و سليمة و من مصادر موثوقة و آمنة ، و قضية زيادة الإيمان و نقصانه قضية بسيطة لها ما يؤيدها كثير من أيات الذكر الحكيم و مع ذلك خاض فيها العلماء و المفكرون الإسلاميون من كل الأجيال ، فأختلفوا حولها إختلافا عظيما ، و معرفة الله سبحانه و تعالى مراتب و مقامات يتفاوت فيها الناس في قوة الإيمان .

1 ـ أولا الأنبياء: هم أكثر الناس إيمانا و تقوى و إلتزاما ، لأنهم على علاقة شبه مباشرة مع الله الخالق البارىء ، من خلال الوحي .

2 ـ علماء الدين: الذين حفظوا القرآن الكريم و درسوا علوم الدين دراسة أكاديمية معمقة و تخرجوا بشهادات عليا ، و أصبحوا من الناشطين في المجال الديني من كبار العلماء و الدعاة و المفكرين و الأساتذة الذين جمعوا بين العلم و الإيمان .

3 ـ الأساتذة و العلماء: المتخصصون في مختلف العلوم الكونية حيث لاحظنا إقبالا كبيرا على الدخول في الإسلام في السنوات الأخيرة من طرف ، أساتذة و علماء من كل الأجناس ، منهم الذين قضوا أعمارهم باحثين في المخابر ، و في مقدمتهم عالم الفضاء الروسي يوري غاغارين الذي كان أول إنسان يزور القمر، فإكتشف هناك أن كرة معلقة في السماء تحتوي على نسبة معينة من البياض يشبه الفراغ ، و لما عاد إلى الأرض نظم ندوة صحفية و طلب حضور علماء الأديان السماوية اليهودية و المسيحية و الإسلام ، و علماء الفلك و الجغرافيا ، و بدل أن تكون رحلته إلى القمر هي محور الندوة بدأ هو بسؤال رجال الدين عن الكرة التي وجدها معلقة في السماء بين الشمس و القمر ، فلم يستطع العلماء اليهود و لا المسيحيون و لا علماء الفلك و خبراء البيئة و الجغرافيا تكوين تصور بسيط عن الحالة التي رآها غاغارين في الفضاء ، لكن بالنسبة للعلماء المسلمين كانت الإجابة جاهزة و سهلة و واضحة و مقنعة ، تلك الكرة المعلقة في الفضاء هي الأرض ، وما رآه غاغارين من شبه فراغات هي نسبة أو مساحة الماء على الأرض ، أي المحيطات و البحار ، في شهر أواخر سنة ٢٠١٨ أعلنت السيدة الأمريكية التي قامت برحلة إلى الفضاء عن إسلامها بمجرد نزولها إلى الأرض ، لكن وسائل الإعلام الغربية التي يتحكم فيها اليهود الصهاينة ، لم تهتم بالموضوع بشكل جيد ، و تابعتها وسائل الإعلام العربية و الإسلامية التي هي في الحقيقة مجرد صدى للإعلام الغربي ، كما دخل في الإسلام

{ إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مّن بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } فاطر41

خلال الربع الأخير من القرن العشرين ، و بداية الألفية ، العديد من المفكرين و الفلاسفة الغربيين و رجال الدين المسيحي ، بعد رحلة طويلة من البحث و الإطلاع العميق على مصادر التصور و الفكر الإسلاميين ، منهم على سبيل المثال الطبيب المفكر الفرنسي موريس بوكاي ، و رجاء غارودي ، و الألماني هوفمان ، و التصورات الإسلامية الراقية و الجميلة تخترق القلوب قبل العقول في المجتمعات الراقية و الأوساط العلمية و الفكرية ، بصورة تلقائية خاصة بعد أحداث ال ١١ سبتمبر ٢٠٠٣ التي أرادها الصهاينة إنقلابا ضد الإسلام ، فكانت فتحا ربانيا مبينا

و الإيمان بالله درجات و مستويات أيضا ، فالنطق بالشهادتين ، هو جواز عبور و سفر من ضفة التيه و الغفلة و الضياع و الظلمات ، ضفة مضطربة مخيفة و مربكة للنفسية الإنسانية ، متعبة ، و محبطة للمعنويات ، مهما كان مستوى الماديات مرتفع و متوفر بكميات كثيرة و أشكال و أنواع متعددة ، رأينا ذلك في السويد و النمسا و هولندا و كل الدول الغربية التي بلغت مستوى خرافيا من الرفاهية المادية ، كيف يتحول الإنسان عن طبيعته بعدما يعود في الليل إلى بيته ، رأيناه مع كبار من يسمون بنجمات السينما و التلفزيون ، اغلبهن ختمن حياتهم بالإنتحار، رأينا تلك الحالات البائسة في خاتمة كبار المفكرين و الفلاسفة الغربيين ، فقد اصيب العديد منهم بالجنون و منهم من إنتحر ووضع حدا لحياته ، لماذا يا ترى وصل الغرب إلى هذه الوضعيات النفسية و المعنوية الخطيرة ، رغم ما توفر لديه من خيرات الدنيا و رغم ما توفره له التكنولوجيا الحديثة من وسائل و تقنيات تساعد على العيش الكريم و الحياة السعيدة ؟ الجواب سهل و بسيط جدا ، و هو في متناول كل إنسان يفكر بشكل جيد و يتابع و يحلل و يقارن بين المعطيات المتوفرة ، الإنسان الغربي يعيش في تناقض شديد بين المادة و الروح ، إستطاع التقدم المادي الهائل في كل الميادين أن يمنحه كل ما يحتاج إليه من ماديات ووسائل ترفيه و إتصالات ومرافق الحياة السعيدة ، لكنه لم يستطع أن يوفر له الحد الأدنى من الغذاء الروحي الذي يحدث التوازن النفسي للإنسان و يشعره بقيمة وجوده في الحياة الدنيا و مصيره بعد الممات ، الإنسان في الغرب مسكين يتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض ، و يعاني من الأمراض النفسية و العصبية ، و عندما يزور الشرق الإسلامي و هو في حالته النكدة يبتهج بأجواء التضامن و التعاون التي تسود المجتمعات الإسلامية رغم بعدها عن الإسلام و تمسكها بالقليل من الإلتزامات، ، الحضارة الحديثة مع الأسف الشديد أهملت الجانب الروحي في الإنسان ، و ركزت فقط على توفير الماديات ، رغم إعترافنا بأن الغرب بلغ درجة عظيمة من الرقي المادي الذي أصبح في بعض جوانبه متاحا للإنسانية جمعاء ، فالإيمان حاجة ضرورية كالماء و الهواء و هو مستويات و درجات ، يبدأ بمفتاح الدخول الى حضيرته بالنطق بالشهادتين ، و ينتهي بالإحسان و هو ذروة الفعل الإيماني ، لاإله إلا الله محمد رسول الله هي تأشيرة الدخول إلى الإسلام ، و بمجرد النطق بها واعيا بمدلولها و تداعياتها

و تبعاتها يصبح مسلما له ما للمسلمين من حقوق و عليه ما عليهم من واجبات ، لكن هل الإكتفاء بترديد كلمتي الشهادة و هي مفتاح التصور الإسلامي ، و رخصة الدخول إلى حظيرة الإيمان ، دون الإلتزام بتبعاتها من صلاة و صيام و زكاة و حج و معاملات و أخلاق ، بالنسبة للمسلم العادي و البسيط ، و الفريضة الكبرى و هي الخلافة و تحكيم الشريعة و تطبيق النظام الإسلامي في الأرض ، بالنسبة للمسؤولين الكبار كرؤساء الدول و الحكومات ، و هي التبعات و الواجبات التي تفرضها طبيعة الدين ، يعتبر الإنسان مسلما ؟ هذه المسألة كغيرها من المسائل تاه فيها أجدادنا و إختلفوا حولها إختلافا عظيما و تشتت شملهم فرقا و جماعات ، و جوهر الخلاف هو المعصية ، معصية الله ، فالذي ينطق بالشهادتين واعيا بمفهومها و مخرجاتها و تبعاتها ، ثم لا يلتزم بالحد الأدنى من الواجبات الدينية كالصلاة و الصيام ، على الأقل ، لأن الزكاة و الحج عبادتان تتطلبان بعض الشروط الأخرى و هو توفر النصاب ، أو القدرة المالية ، و تارك الصلاة و الصوم ، في كل المذاهب الإسلامية عاص معصية كبيرة ، و من هنا جاء الخلاف ، لكن نصوص شرعية محكمة تؤكد على أن دخول الإنسان في الإسلام يتم عادة من خلال النطق بالشهادتين أمام جماعة من الناس نطقا واعيا و مدركا لمراميها ، يشكل إعترافا بوحدانية الله في ألوهيته و ربوبيته و صفاته و أفعاله و بمحمد نبيا و رسولا ، ثم يتبعها بصورة آلية الإيمان بالملائكة و الكتب السماوية و الرسل و اليوم الآخر و القضاء و القدر خيره و شره ، و نفس النصوص تقريبا تؤكد على التحفظ و الإحتياط في إخراج الناس من الإسلام و من هنا تأتي الفكرة التي أسميها ـ الإسلام النسبي ـ لتكون بديلا موضوعيا عن التكفير الذي شاع في السنوات الأخيرة دون تريث أو تثبت ، حيث أصبح بعض الناس يملكون صكوك الغفران و يوزعونه على الناس كيف ما شاؤوا، و يا ليت سهامهم توجهت نحو التيارات العلمانية و الإلحادية المدسوسة بين صفوف المسلمين ، لكنهم يركزون سهامهم المسمومة نحو إخوانهم من التيارات الإسلامية التي تخالفهم في بعض القضايا الفرعية ، نعم كل النصوص الشرعية الموثوقة تؤكد أن مفتاح الدخول في الإسلام هو النطق بالشهادتين ، و أن الإيمان هو تصديق بالفؤاد و نطق باللسان و عمل بالجوارح ، و في القرآن الكريم دائما يأتي ذكر الإيمان مقرونا بالعمل الصالح ، أو بتحديد عبادات و معاملات معينة و حتى السلوكيات الجميلة

ـ الإسلام النسبي

الإسلام النسبي هو إعتماد نسب أو درجات معينة في تحديد نوعية المسلمين و هي في الحقيقة فكرة مأخوذة من القرآن الكريم و من نص الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد فيه الرسول الكريم ﷺ على أن الزواج هو نصف الدين ، صحيح أن الله خلق البشر بصور مادية بدنية و جسمية متشابهة ، و كأنهم صور طبق الأصل ، بغض النظر عن إختلاف البيئة أو المحيط او الوضع الإجتماعي و الإقتصادي ، فكل البشر مخلوقين على شكل واحد سواء كانوا رجالا أم نساء ، فشكل الإنسان هو نفسه منذ خلق الله سيدنا آدم من طين و جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، لم يتغير و لم يتبدل و لم يتطور ، و دعك من نظرية التطور الدروينية التي لم يعد لها أي وجود على الصعيد العالمي بعدما أثبت العلم الحديث أنها نظرية خاطئة من أساسها ، لسبب بسيط و هو أن تطور مخلوق من شكل إلى شكل غير ممكن و مستحيل و تقتضي فناء أو إنقراض المخلوقات التي تطورت أو تغيرت بالفعل إلى أشكال أخرى ، و إذا كان البشر متشابهون في الصورة العامة أي شكل الجسم و مكوناته الرأس الوجه ، العينين ، الفم ، الأذنين ، اليدين ، القدمين إلخ ، و في المكونات النفسية أو العصبية و الأحاسيس و المشاعر ، الفرح الحزن الغضب إلخ فهم مع ما وفرت لهم القدرة الإلهية من تشابه في الصفات الجسمية و النفسية يتفاوتون فيما بينهم و تختلف أشكالهم و صورهم ، هناك الطويل و القصير ، و السمين و النحيل ، كما يختلفون في صور وجوههم بين الجمال الباهر و العادي و القبح ، فالله خلق البشر درجات أي أنواع متشابهة في الشكل أو الصورة العامة ، ومختلفة في بعض التفاصيل و الجزئيات ، و كما يختلفون في الشكل و الصفات الجسمية و النفسية ، يختلفون و يتفاوتون في درجة التدين و الإلتزام بالواجبات التي هي من تبعات و شروط العقد المبرم مع الله بمقتضى النطق بالشهادتين و الإعتراف لله بالألوهية و الربوبية و الحاكمية ، و إذا كان الرسل و هم خير البشرية و صفوتها الممتازة صنفهم الله سبحانه و تعالى في خانات و مراتب و درجات متفاوتة فكذلك البشر ، و هذه المسألة تحيلنا إلى قضية أخرى شائكة حارفيها أجدادنا و تعلق بنسبة الإيمان أو منسوبه في عقل و فكر و روح و جسم الإنسان ، الإيمان مشاعر و أحاسيس مبنية على قناعات فكرية تغمر الجسم و تسري في كيان الإنسان و تملأ روحه و جوانحه ، و القلب و العقل ، و هو قابل للإرتقاء و العلو ، أو النقصان و الهبوط

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... } البقرة253

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } الأنعام132

{ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } الإسراء21

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } الزخرف32

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }الأحقاف 19

{ .... يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }المجادلة11

و الآيات التي تؤكد أن الإيمان قابل للزيادة و النقصان ، و الصعود و الهبوط ، تتأثر زيادته و نقصانه و صعوده و هبوطه بحالات الإنسان ، قوته و ضعفه ، خشيته و تقواه ، أو إستهتاره و لا مبالاته ، نظرته إلى الحقائق الإسلامية الكبرى ، الى قضايا مرعبة للقلب و العقل و الروح و مربكة و مخيفة للجسد ، بمجرد سماعها ، الموت ، الحياة ، اليوم الآخر ، الحساب ، العقاب ، الصراط ، تجمع الخلائق حفاة عراة ، و سماعه للأيات التي ترهب العقول و القلوب و الأرواح و تدكها دكا و هي كثيرة في القرآن الكريم **(كلا إذا دكت الأرض دكا دكا و جاء ربك و الملائكة صفا صفا) (يوم يفر المرء من أخيه و صاحبة و بنيه) (ذلك اليوم الحق فمن شاء إتخذ إلى ربه مقاما)** فالإيمان يزيد و ينقص ومن خلال منسوبه أو نسبته تتحدد درجة إسلام المرء ، فالذي يكتفي بالنطق بالشهادتين ، او الذي يعتبر نفسه مسلما بالفطرة و النسب ، ثم يتقاعس عن أداء الواجبات الدينية الضرورية كالصلاة و الصيام مثلا ، أو الذي يعبد الله في شهر رمضان فقط ، و يعصيه سائر أيام السنة ، ليس كالذي يلتزم بالفرائض و السنن و الفضائل ، الصلاة و الصيام و الزكاة

{الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مّن يَقُولُ أَيّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمّا الّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }التوبة124

{ إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ } الأنفال2

{هُوَ الّذِي أَنزَلَ السّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلّهِ جُنُودُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً }الفتح4

{الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173

درجة الإيمان إذن هي التي تحدد نسبة الإسلام لدى الإنسان ، وكلما زاد الإيمان زاد الإلتزام من الناحيتين اللتين يسميها الفلاسفة و أهل التصوف السني الحقيقي ـ التحلي و التخلي ـ فعندما يتزوج المرء المسلم مثلا يكون قد حقق ٥٠ في المائة من الإسلام ، و هذا بنص الحديث النبوي الشريف ، أما النصف الآخر من الإسلام ، فتغطيه الواجبات الأخرى كالصلاة و الصيام و الزكاة و الحج ، و بقية السنن و الفضائل ، مع الشهادتين تمثل ال ٥٠ في المائة البقية و عند تقسيم هذه النسبة على مختلف الواجبات و السنن و الفضائل ، نجد أن النسبة قد تتراوح بين ٥ و ١٠ في المائة و بهذه الطريقة نستطيع أن نصنف نوعية المسلمين حسب النسب التي يملكونها ، فالذي يكتفي بالنطق بالشهادتين و لا يلتزم حتى بآداء الصلاة ليس له من حظ الإسلام سوى ١٠ في المائة ، و أنا أعرف و الناس يعرفون أن هناك عبادا بلغوا من الكبر عتيا و ماتوا دون أن يركعوا لله ركعة واحدة و دون أن يسجدوا له سبحانه سجدة في حياتهم ، و نعرف عائلات و أسر بكاملها ليس فيهم شخص يصلي ، و لذلك يكون التفاوت بين الناس ، فالمسلم الملتزم بآداء الفرائض منذ وصل مرحلة التكليف ، و يحافظ على السنن الفضائل المشهورة ، و يتعبد بقراءة ورد يومي من القـــرآن

ليس كالذي لم يدخل المسجد مرة في حياته ، و الذي أكرمه الله بالمال الحلال فهو يزكيه كل سنة و يتصدق منه على الفقراء و المساكين ، وأدى فريضة الحج و يقوم بآداء العمرة كلما أتيحت له الفرصة ، ليس كالذي منعته ظروفه المادية عن القيام بالحج أو العمرة و هما كما يعلم الجميع عبادة مالية و بدنية ، و هناك بعض الأعمال البسيطة قد تساعد على رفع ميزان حسنات المرء و هي ذكر الله بصفة عامة و الصلاة على النبي محمد ﷺ و في كتب الأذكار تفاصيل مهمة حول هذا الموضوع ، فالإيمان إذن درجات و مستويات ، و الإسلام كذلك درجات و مستويات ، تتحدد تلك المستويات و الدرجات بمدى إلتزام الإنسان و بمستوى تدينه

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الأحقاف19

و بمستوى أخلاقه ، و غني عن البيان و التذكير أن الحديث النبوي المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب و الذي سأل فيه جبريل الرسول ﷺ قد حدث ثلاث مراتب هي الإيمان و الإسلام و الإحسان ، فمرتبة الإيمان تتعلق بجوانب التصور و الشعور والإدراك و تستجيب للذوق و تلبي حاجات نفسية و روحية ، أما الإسلام فيرتبط بالجانب العملي و لذلك لم سئل الرسول ﷺ عن الإيمان و دون الدخول في تفاصيل و تعقيدات فلسفية أجاب بتلقائية و بأسلوب بسيط فقال أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسلة و اليوم الآخر ، و بالقضاء و القدر خيره و شره ، أما الإسلام فهو شهادة أن لا إله إلا الله و إقام الصلاة و صوم رمضان و إيتاء الزكاة و حج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا ، أما الإحسان فهو مرتبة راقية و مرحلة سامية تجمع بين الإيمان العميق ، بين المشاعر و الأحاسيس و الأرواح و القلوب ، و بين التطبيق العملي لمقتضيات الإيمان ، حتى تصل درجة عالية من اليقظة و الإحساس بقربه تعالى و أنسه و مراقبته ، الإحسان هو درجة عالية من السمو الروحي و الإرتقاء في مدارج السالكين و طريق الأولياء و الصالحين ، و في القرآن الكريم آيات كريمات تحدد درجات و مستويات التدين و الإلتزام الإيمان .

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } فاطر 32

ـ الإيمان و الحياة

لماذا صنع الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسول بعرب الجاهلية الذين أسلموا المعجزات ، و حولهم من مجرد بشر لا قيمة معنوية لهم مستعبدين تارة من الفرس و أخرى من الروم ، إلى رجال من طبيعة أخرى و من طينة مغايرة تماما ؟ مالذي حول عرب الجاهلية الذين كانوا يعبدون الأوثان و يأكلون الميتة و يشربون الخمر و يأتون الفواحش ما ظهر منها و ما بطن ، و يأكل القوي منهم الضعيف و يدفنون بناتهم أحياء خشية العار أو سوء المآل ، و جعل منهم في فترة وجيزة من عمر الزمن سادة العالم ، إنتصروا على الروم و الفرس في معارك حاسمة و أصبحوا قادة البر و البحر ؟ ما الذي صنع عمر بن الخطاب ، و غير طبيعته و سلوكه و شخصيته من إنسان عاد مجرد إسم في قائمة البشر إلى ثاني شخصية عالمية بعد الرسول محمد ﷺ ؟ لا شك أن الإجابة سهلة و بسيطة إنه من دون شك الإيمان بالله ، لكن أي إيمان ؟ ما شكله ؟ ما طبيعته ؟ و لماذا لم يصنع التاريخ من المسلمين الحاليين أقصد من يسمون بحكام العرب ، ملوك و رؤساء العرب و المسلمين ، ما صنع الإيمان بخالد بن الوليد ، و إبو عبيدة بن الجراح ، و عمر بن عبد العزيز و محمد الفاتح ، و صلاح الدين الأيوبي و غيرهم من رجال التاريخ الإسلامي العريق الذين تركوا بصماتهم واضحة و ناصعة ، لا شك ان طبيعة الإيمان و قوته و وقعه و تأثيره و قدرته على تشكيل الشخصية و قيادتها و توجيهها ، هو الفارق بين الرجال و الرجال ، و لذلك يتساءل المسلمون البسطاء و النخب اليوم ، ذلك السؤال المحير لماذا صنع الإيمان بالمسلمين الأوائل المعجزات و قادهم من نصر إلى نصر و من فتح إلى فتح ، حتى وصلت خيولهم شواطىء المحيط الهادي و مشارف فرنسا ، بينما رؤساء و ملوك العرب و المسلمين و هم أمة يقترب عدد سكانها عن المليار نسمة ، و تملك مجتمعة إمكانيات مادية و بشرية هائلة ، لم تتمكن من جمع شتاتها و الإنتصار على عدوها الأزلي ـ إسرائيل ـ بل لأكثر من ذلك ان حكام العرب و ساستها يتسابقون في التقرب من أمريكا و إسرائيل ، الأمر من ذلك ان حكام العروش الكرطونية بالخليج تجاوزوا كل الخطوط الحمراء و تخلوا بصورة نهائية عن القضية الفلسطينية ، وتركوا إخوانهم المسلمين الفلسطينيين في مواجهة غير متكافئة مع الجيش الصهيوني المدجج بأحدث الأسلحة الفتاكة ، فقط لأن أغلبية

الشعب الفلسطيني اختار التغيير و الإلتفاف حول حركة حماس التي تتبنى أفكار و أدبيات الإخوان المسلمين ، هكذا فجأة تغيرت مواقف حكام الخليج و دول ما كان يسمى بالمحور ـ مصر ، الأردن ، من القضية الفلسطينية العادلة ١٨٠ درجة ، لماذا تغيرت مواقف الأنظمة العربية بهذا الشكل ، ، أعيد و أكرر أن الإجابة سهلة و بسيطة جدا ، نجدها في حديث المصطفى ﷺ حب الدنيا و كراهية الموت ، هذه هي الإشكالية .. و هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل بعض حكام العرب ، يتخاذلون عن نصرة القضايا العربية و الإسلامية العادلة في كل مكان من العالم الإسلامي ، حتى مشكلة المسلمين في بورما ـ ميرامار ـ و رغم الإضطهاد العنيف و التقتيل الجماعي و إغتصاب النساء و قتل الشيوخ و العجائز و الأطفال ، على مرأى و مسمع العالم كله ، في عصر لم يعد فيه إمكانية لإخفاء الحقائق أو التعتيم عليها ، حتى هذه القضية التي لا تؤثر في مستقبل العائلات الحاكمة في الخليج لم تلق الإهتمام اللازم من الإعلام العربي المتصهين ، و لم تحرك قلوب ملوك و أمراء الخليج النائمون في العسل ، حب الدنيا و كراهية الموت ، هكذا عبر سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ عن هذه القضية ، فالإيمان إذن و كما ذكرنا في الفقرات السابقة مستويات ، و مراتب ، و مقامات ، يقوى و يرتفع منسوبه فيرتفع بالإنسان إلى مقام الأنبياء و الملائكة ، فحينئذ يمتطيها كالجواد و يقوده الى صناعة المعجزات المادية أو المعنوية ، و يهبط و يتدنى و ينخفض منسوبه فيتحرج الإنسان الى الدرك الأسفل ، و يخرج عن طبيعته البشرية و تتغير شخصيته إلى النقيض ، و يروح يتصرف تصرفات لا تستقيم مع العقل أو المنطق ، و يتخبط في الأرض كالأعمى ، أعمى البصر و البصيرة ، و إلا كيف نفسر مواقف و تصرفات بعض الحكام و المسؤولين العرب من المشرق العربي خاصة ، نعرف منذ زمان و كنا لا نصدق ما يقال انهم صناعة أمريكية و مجرد موظفين لدى البيت الأمريكي برتبة ملوك و أمراء ، لكن رغم ذلك كانت المواقف محسوبة بشكل دقيق تراعي على الأقل مشاعر الراي العام الإسلامي ، أي الشعوب الإسلامية ، و تحترم الموقف الإسلامي العام ، لكن و منذ بداية ثورات الربيع العربي في موجتها الأولى ، و هي ثورات شعبية عربية تلقائية إستهدفت قلع جذور الحكام العرب الطغاة و إعادة السلطة و السيادة إلى الشعب حقيقة و ليس مجرد شعار أو مادة في الدستور ، ثورات الربيـــع العربي

حركات شعبية لا علاقة لها بأي جهة خارجية ، لا أمريكا و لا إسرائيل ، حركة شعبية فاجأت العالم و أذهلت أجهزة مخابراته التي تعتقد انها تتحكم في كل ما يدور في السماء و الأرض ، حيث ليس لأمريكا و لا إسرائيل أية مصلحة أو فائدة مادية أو معنوية في مخرجات و مآلات الثورات العربية ، و حكام الخليج و بعض الدول العربية يدركون من دون شك أن النظام العربي الحالي الذي سيطر على العالم الإسلامي قرابة القرن من الزمن قد إنتهى عمره الإفتراضي ، فلم تعد النخب العلمانية اتي حكمت طيلة تلك المدة بقادرة على إقناع الشارع العربي بقدرتها على تحقيق التنمية و الرفاهية و السيادة و العزة و الكرامة ، الإيديولوجيات الوطنية و القومية التي تستقي من الفكر العلماني الغربي مرجعيتها و تشريعاتها ، إنتهى زمانها ، المواطن العربي من المحيط إلى الخليج يتطلع إلى نظام إسلامي يوفر العدالة الإجتماعية الحقيقية ، و يحقق التنمية الشاملة و الرفاهية ، و يأمل أن يتحول العالم الإسلامي بما يملكه من ثروات و إمكانيات مادية و طاقات بشرية الى قوة عسكرية و إقتصادية و إجتماعية و ثقافية عالمية ، كتلة ثالثة تحفظ التوازن بين الشرق و الغرب ، لماذا أصبحت كوريا ، و سنغافورة و الهند ، و الصين ، و اليابان و هم محسوبين على العالم الثالث إلى دول متقدمة رغم أنهم لا يملكون ما يملكه العالم الإسلامي من طاقات و إمكانيات ؟ لماذا لم يتمكن العالم الإسلامي ككتلة واحدة من تحقيق الإكتفاء الذاتي في أبسط مقومات الحياة ، الخبز و الحليب ؟ لماذا لم يستطع حكام المسلمين صناعة إسلحة نووية تعيد توازن الرعب مع إسرائيل و أمريكا ؟ كل هذه القضايا التي تبدو من أول وهلة انها مسائل سياسية ليس لها أية علاقة بموضوع العقيدة أو التصور الإسلامي ، هي في الحقيقة من بعض آثار العقيدة السليمة و الإيمان القوي و التصور الصحيح ، المسلمون الآن يتطلعون إلى نظام إسلامي عادل معتدل متوازن ، و حكام الخليج و بعض لدول العربية الذين وقفوا في وجه الثورات العربية حتى لا تمتد لتحرق خيمهم الكرطونية ، يدركون أن تغيير النظام العربي الحالي ليس في صالحهم ، و أن الديمقراطية و الإنتخابات الحرة النزيهة ستأتي لا محالة بالتيار الإسلامي ، و هذا صحيح لكن ما هو التيار الإسلامي ؟ هل هو تنظيم سياسي قادم من المريخ ؟ أليسوا بشرا يصيبون و يخطؤون ؟ لماذا لا نمنحهم فرصة ليجربوا ليخرجوا من مرحلة

التنظير و المعارضة والعمل السري و الصراع السياسي أو العسكري ، إلى مرحلة إدارة الدولة ، فإن نجحوا و حققوا إنجازات محترمة فلله الشكر و الحمد ، و إن عجزوا عن تحويل أطروحاتهم النظرية إلى واقع يسير في الأرض يراه الناس و يلمسونه ، فالإرادة الشعبية كفيلة بإزاحتهم من الطريق و إستبدالهم بغيرهم ، ثم هنالك مشكلة أساسية قد يغفل عنها كثير من الناس و تتعلق بالسؤال الجوهري التالي ، لماذا و كيف جاءت التنظيمات السياسية الإسلامية إلى الوجود ، لتقدم نفسها بديلا عن النظام العربي العلماني المترهل العميل لأمريكا و إسرائيل ؟ فالأنظمة العربية هي المسؤولة بداية عن إنتاج التيارات الإسلامية السياسية و غيرها ، عندما تخلت طواعية و دون ضغط من أية جهة ، عن النظام الإسلامي الرباني ، و لو كانت تلك الأنظمة العربية و الإسلامية العلمانية التي تسيطر على الحكم منذ أكثر من نصف قرن إعتمدت الإسلام مرجعية سياسية و فكرية و الشريعة الإسلامية مصدرا أساسيا للتشريع لما وجدت الأرضية الخصبة التي تنمو فيها التنظيمات الإسلامية المعارضة للأنظمة ، و التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية ، فالإسلاميون طالبوا منذ سنوات الأنظمة العربية بالرجوع إلى الإسلام ، و الحكم بما أنزل الله و التخلي عن الفكر العلماني و التشريعات الموروثة عن الإستعمار أو المستوردة من الخارج ، و الإسلاميون ليسوا عشاق كراسي و لا طلاب مناصب و لا يرغبون في العمل السياسي ، طالما أن الحياة السياسية تسير وفق ما يرضى الله و رسوله ، فللسياسة أهلها و أصحابها ، وللإيمان دور كبير في الحياة بصفة عامة و الحياة السياسية بصفة خاصة ، و لوكان الحكام العرب مؤمنون حقا بالله و رسوله و باليوم الآخر، إيمانا عميقا صادقا و راسخا ، لما تخلوا عن تطبيق شريعة الله ، و الإيمان قوته و منسوبه و حجمه في عقل و قلب و روح الإنسان هو الذي يصنع الفارق ، و الإيمان القوي الذي بلغ درجة اليقين هو الذي جعل من عرب الجاهلية الذين اسلموا سادة العالم ، و هو الذي حول بعض القادة المماليك العبيد كصلاح الدين الأيوبي و قطز و الظاهر بيبرس إلى أبطال و قمم شامخة ، و لو كان حكام الخليج و أقصد على وجه التحديد السعودية و الإمارات و الكويت ، مؤمنون حقا بالله و رسوله و اليوم الآخر ، لما تأمروا على الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي ، و قدموا رشاوى للجنرال عبد الفتاح السيسي من أجل الإنقلاب على رئيس منتخب يعرف الجميع انه نظامه

سيكون خطوة في سبيل العودة إلى النظام الإسلامي، في إنتظار تحقيق حلم الشعوب الإسلامية في الوحدة و عودة الخلافة الإسلامية باي شكل من الأشكال ، و يكاد يكون هناك إجماع من طرف العلماء و المفكرين و المنظرين الإسلاميين على أن الأنظمة السياسية التي تسيطر على العالم الإسلامي حاليا ، بغض النظر عن طبيعة النظام ، جمهوري أو ملكي أو غير ذلك فهي أنظمة بعيدة عن الإسلام ، جيث أن الإسلام لا يشكل سوى واجهة أمامية ليس إلا ، و قد نعود لموضوع الحكام المسلمين عندما نتناول قضية الحاكمية بالتفصيل ، و ما قلناه عن الحكام المسلمين ، يقال عن الشعوب الإسلامية التي جرفها تيار المادة و اصبح الإيمان بالنسبة لها مجرد تنافس حول بعض الشكليات و الإلتزام ببعض الشعائر داخل المساجد ، أما خارج اسوار بيوت الله فليس هناك لا إيمان و لا إسلام ـ طاق على من طاق ـ و للشعوب المسلمة دورهام و مسؤولية كبيرة في الضغط على الحكام و المسؤولين من أجل العودة التدريجية للنظام الإسلامي و تبني الإسلام كخلفية سياسية و فلسفية للنظام و الشريعة الإسلامية مصدرا أولا للتشريع ، فالأمة او الشعب أو المجتمع هو صاحب السيادة و السلطة يمنحها لمن يشاء عبر صناديق الإنتخاب ، في إطار عقد مكتوب أو معنوي ، بينها و بين من يتولون مناصب المسؤولية و الحكم ، و الخطاب الإسلامي كما ورد في القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة في أكثر من آية ، و كثير من الناس يعتقدون أنهم غير معنيين بمشكلة الحكم في العالم الإسلامي ، و أن المسؤولية يتحملها الحكام و الملوك و الأمراء ، في الدنيا و يحاسبون عليها في الآخرة ، نعم إستنتاج صحيح و لكن لا ينفي مسؤولية الشعوب الإسلامية في التفريط في حقها الطبيعي و التنازل عن سيادتها و سلطتها لصالح حكام و مسؤولين خانوا الله و رسوله و خانوا آماناتهم ، ، فللإيمان قوته و حجمه و تأثيره الذي يحدد قوة أو ضعف علاقة الإنسان حاكما أو محكوما بالله تعالى و قوة الإيمان تولد و تنمي ملكة التقوى ، و مراقبة الله تعالى عز و جل .

{ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } آل عمران104

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... } البقرة143

ـ العبودية لله ـ ـ ـ قمة التحرر و الإستقلالية

كم كانت البشرية في طفولتها الأولى ساذجة و غبية و مغفلة ـ ـ ـ عندما نقضت عهدها مع الله بعدما طال عليها الأمد ، و غرقت في عبادة الموتى من ألآباء و الأجداد و كم كانت البشرية ساذجة و غبية و مغفلة ، عندما تخلت عن عبادة رب العباد الخالق المصور المحي و المميت و عبدت آيات الله في الكون و دلائل وجوده و قدرته و صنعته العجيبة ، من القمر و الشمس و مختلف الكواكب ، و كم كان أهل اليونان ، منشأ الفلسفة و التفكير الحر ، و قلعة الجدل و التأمل و التحليل و المنطق ساذجين و أغبياء و مغفلين ، عندما لم يهتدوا لعبادة الواحد الأحد ، فعبدوا جسد المرأة و رسموها في كل أوضاعها المخلة بالحياء و صنعوا لها تماثيل و زرعوها في الأماكن و الساحات العامة ليراها جميع الناس ، و كم كان اليهود سذج و أغبياء و مغفلين و هم يقولون على الحي المعبود الغني الكريم أنه فقير و أن يده مغلولة وأن عزير إبن الله ، و إخترعوا لأنفسهم إله يشبه البشر ، بل هو نوع من البشر سيبرمان ، ذو نوعية ممتازة ، يشترك مع البشر في كل الصفات ، خالفوا عقيدة التوحيد الصافية النقية التي جاء بها موسى و من قبله كل الأنبياء و المرسلين الذين بعثهم الله لليهود .فاليهودية في أصلها هي ديانة سماوية توحيدية ، و التوراة في نسخة الأصلية قبل أن تتعرض لتحريف و التزوير كتاب سماوي أنزله الله سبحانه و تعالى على سيدنا موسى ليكون كتاب رحمة و هداية و شريعة لليهود و كم كانت أغلبية النصارى سذج و أغبياء و مغفلين عندما تركوا عبادة الله الواحد الأحد ، و إخترعوا عقيدة التثليث التي تحير العقول و تصيب الرؤوس بالدوار و القلوب بالغثيان ، فالمسيحية هي أيضا ديانة سماوية توحيدية قبل أن تتعرض للتشويه من طرف بولس اليهودي و المجامع الكنسية ، و قبل أن تتأثر بالوثنية الرومانية بدل أن تؤثر فيها ، و الإنجيل هو أيضا كتاب سماوي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام ، فالديانتين اليهودية و المسيحية كما يعرف الجميع هما من الديانات السماوية التي أتت بالتوحيد الخالص و دعت إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، و لذلك يسميهم الخطاب القرآني أهل الكتاب ، وكم كان عرب الجاهلية سذج و أغبياء و مغفلين عندما تخلوا عن التوحيد الصافي الذي ورثوه عن إبراهيم و إسماعيل و إتجهوا إلى عبادة الأوثان ، كم يكون الإنسان ساذجا و غبـــــيا

و مغفلا عندما ينحدر به مستوى التفكير إلى درجة دنيا ، فيصنع من الحجر أو التراب إله و يعبده و كم كان أجدادنا الأمازيغ سذج و أغبياء و مغفلين عندما تصدوا للجيش الإسلامي الذي قطع البحار و الأنهار من المشرق العربي قادما إلى المغرب لينقل إليهم رسالة التوحيد و يخلصهم من عبادة الضفادع و الحيوانات و النجوم و الشجر ، لقد كانت البشرية و لا تزال ساذجة و غبية و مغفلة و هي تلجأ إلى عبادة غير الله ... في القديم و حتى في العصر الحديث ، عصر التكنولوجيا المتطورة و الأنظمة الرقمية و التطور في كل مجالات الحياة ، لا زالت البشرية في الهند و اليابان و الصين يعبدون البقر و الأموات ، و ما تكون الديانة البوذية المنتشرة حاليا في العالم و أكثر مظاهرها هي عبادة الأوثان و الموتى ؟ لقد كانت البشرية في طفولتها الأولى و حتى اليوم لما بلغت مرحلة الرشد و التعقل و تمكنت من التحكم في المادة و الطبيعة و تسخيرها لمصلحتها لا تزال وغارقة في التيه و الضلال و الإنحراف ، و لذلك جاءت رسالة الإسلام الخالدة و الخاتمة لا لتثبت وجود الله لأن هذه القضية تكاد تكون مفروغ منها عند كل الشعوب و الأمم ، فحقيقة وجود الله ، حقيقة أزلية يعترف بها جميع الناس في كل زمان و مكان ، لكن الإشكالية تكمن في توحيد الله في ربوبيته و التسليم له و الخضوع له و عبادته بما شرع ، و توحيده في صفاته و أفعاله و تنزيهه ، و توحيد الربوبية او العبودية ، توحيدا خالصا يقابله في الجهة الأخرى عبودية الإنسان لله ، و عبودية الإنسان لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يحي و يميت و هو الرزاق دو القوة المتين ، عند كل ذي فكر سليم و عقل رشيد و فطرة عذراء غير متأثرة بالأفكار السلبية القديمة و الحديثة هو قمة التحرر و الإنعتاق و الإستقلالية ، كما ان عبادة غير الله القاهر القادر على كل شيء و الخضوع لعبادة مخلوقاته من الأحياء أو الموتى و النجوم و الكواكب و الأشجار و الحيوانات و الأوثان ، هو قمة الإستعباد ، فكيف يخضع مخلوق لمخلوق مثله أو أقل منه قيمة أو درجة فيقدم له فروض الولاء و طقوس العبادة ، و التصور الإسلامي لله و الحياة و الإنسان كما يقدمه الإسلام هو الطبعة الأخيرة الصافية النقية الطاهرة من الرسالات السماوية و هو خلاصة كل الرسالات و الكتب و التصورات الربانية التي جاء بها كل الأنبياء و المرسلين، فالدين عند الله هو الإسلام و التوحيد الخالص هو الأصل و هو الأساس المتين الذي يحقق الراحـــة

النفسية و السعادة الروحية في الحياة الدنيا ، و الخلود في نعيم الجنة

ـ ما معنى توحيد الربوبية ؟

إن كلمة الرب التي وردت في القرآن الكريم من دون ألف و لام في آيات كثيرة تتكون من حرفين هما الراء و الباء ، و في كل إستعمالاتها المعروفة و المشهورة سواء عندما يسبقها حرف النداء يا ، بالمفرد أو الجمع أو من دون أن يسبقها حرف النداء ، هي كلمة جميلة مثيرة و لطيفة ذات موسيقى أخاذة و منعشة ، مجرد النطق بها في كل الحالات يثير في النفس البشرية رعشة الخوف الممزوجة بالإطمئنان و الراحة النفسية ... تأمل معي و قل يا رب ، يا ربي ، ربنا ، كيف بمجرد خروجها من فمك تحس بحالة عجيبة من الإسترخاء و الراحة القلبية و المتعة الروحية ، كلمة رب في اللغة تطلق على السيد ، و المالك ، و المربي ، فنقول عن سيد البيت رب البيت ، رب الأسرة ، و يقال رب الإبل أي صاحبها و مالكها، لكن في الإطار المجازي فقط أما بالنسبة لله فهو الرب و ربي و ربكم ، على سبيل الحقيقة فهو رب كل شيء في السموات و الأرض ، و الرب هو الله الخالق الرازق المعبود و لا معبود سواه ، و من كلمة الرب يأتي إشتقاق كلمة ـ الربوبية ـ و معنى توحيد الربوبية من دون فلسفة أو جدال عقيم هو توحيد الله و نفي الشريك عنه في كل صفات و مظاهر و خصائص الربوبية التي إختص بها الله و هي كما يقول شيخنا الأستاذ ابو بكر جابر الجزائري رحمه الله في كتابه القيم ـ عقيدة المؤمن ـ صفات الربوبية الحقة هي الخلق ، و الرزق ، و الملك ، و التدبير الذي من لوازمه الإماتة و الإحياء و العطاء و المنع ، و النفع و الضر ، و الإعزاز و الإذلال ـ و صفات الله التي هي من اهم مظاهر الربوبية و خصائصها يستحيل أن تكون مشتركة مع الإنسان إلا في المعنى المجازي لكلمة الرب ، و يستعمل عادة من دون ألف و لام ، ك رب البيت،

ـ مظاهر توحيد الربوبية

يتجلى توحيد الربوبية و إظهار العبودية لله رب العالمين أول ما يتجلى في النطق بشهادة التوحيد و مفتاح الدخول في الإسلام ثم الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و القضاء و القدر خيره و شره ، إيمانا خالصا من كل مظاهر الشرك و النفاق ، و توحيد العبودية يتجلى ثانيا في توحيد الله و عبادته بما شـــرع

لنا من عبادات قلبية و نفسية و جسدية و مالية ، عبادة خالصة لوجه الله مع الرضى و التسليم و الخضوع ، و الشعور بالسعادة ، فالإيمان بوجود الله ووحدانيته و ربوبيته و ألوهيته لكل شيء ، إيمانا راسخا و إعتقادا جازما لا تشوبه شائبة و لا تهزه الرياح ، و في كل الحالات و الظروف و في السراء و الضراء و الإستعداد الدائم لعبادته بما شرع مع الرضى و القبول هو أهم مظاهر توحيد الربوبية ، و هناك مظاهر أخرى من العبادات النفسية و الجسمية يمكن أن نوجزها بإختصار في الفقرات التالية ،

ـ المحبة حب الله هي أعلى و أولى مراتب المحبة كما يقول العلماء الربانيون و أهل التصوف السني ، و محبة الله تعني أول ما تعني طاعته و تنفيذ أوامره بحب و سعادة ، و تجنب نواهيه بحب و سعادة ، و محبة الله هي الشعور بالقرب منه سبحانه و تعالى و الإستئناس به في كل حال فهو القريب البعيد ،

يا غائبا لا يغـــيب أنت البعيد القريب

مهما تغب عن عيوني فأنت أنت الحبيب

{ وَمِنَ النّاسِ مَن يَتّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبّونَهُمْ كَحُبّ اللّهِ وَالّذِينَ آمَنُواْ أَشَدّ حُبّاً لّلّهِ وَلَوْ يَرَى الّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنّ الْقُوّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } البقرة165

{ لّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً }النساء172

{ إِن كُلّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلّا آتِي الرّحْمَنِ عَبْداً } مريم93

و كان الرسول الكريم ﷺ يردد هذا الدعاء الجميل ـ اللهم أرزقني حبك ، و حب من ينفعني حبه عندك ـ فالحب عاطفة قوية و مشاعر جياشة و إحساس نبيل يملأ قلب المؤمن ، و عقله و روحه ، و يفيض على كامل جسمه بالمشاعر الجميلة و الأفكار الطيبة النبيلة ، فيشعره بالسعادة و الراحة النفسية ، سعادة القرب من الله في كل آن و حين ، وحب الله واجب على كل مسلم و مسلمة لأنه هو الله الذي خلقنا و علمنا و رزقنا من الطيبات المعنوية و المادية و النعم التي لا نستطيع عـدها ولا إحصاءها

ـ الخوف: خشية الله و الخوف من عذابه في الدنيا و الآخرة هي صفة المؤمنين حقا ، و الخشية و الخوف منه سبحانه و تعالى ثمارهما التقوى ، تقوى الله و مراقبته في السر و العلن و قد أمر الله عباده بخشيته و الخوف منه في أكثر من آية **(فلا تخشون الناس و أخشون)** المائدة ٤٤ **(فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين)** آل عمران ١٧٥ ، و قد وعد الله عباده المتقين الذين يخافونه و يخشون عذابه بالجزاء الوفير في الدنيا و الآخرة **(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة و أجر كبير)** الملك ١٢ ، و خشية الله و الخوف منه عبادة نفسية و روحية غير ظاهرة ، محلها القلب و الروح و النفس .

ـ الرجاء و الرغبة: مشكلة المجتمعات الغربية الآن ، و نحن في القرن الواحد و العشرين ، و رغم التقدم المبهر الذي وصلت إليه في كل ميادين الحياة ، هي مجتمعات منقطعة الصلة مع الله ، فاقدة لأي بصيص أمل أو رجاء أو رغبة ، بينما يعيش المسلمون مهما كانت درجة أيمانهم بالله سبحانه و تعالى في سعة من الأمل و الرجاء و الرغبة ، الأمل في رحمة الله و الرجاء في عفوه ، و الرغبة في الإستقامة و بلوغ درجة الإحسان التي وصل إليها الأنبياء و الصالحين ، و الرجاء هو إستحضار النية و اليقين و الأماني في عمل الخير و الإكثار من العبادة ، كالفقير الذي لا يملك مالا يعينه على تأدية واجب الحج أو سنة العمرة ، فتظل أمنية زيارة بيت الله الحرام تظلل وجدانه و تملى عليه فكره و أحلامه .

ـ الإنابة: و هي حالة نفسية و شعور داخلي قد يسبق مرحلة الندم و التوبة ، و هي الرغبة في العودة السريعة إلى الطريق المستقيم ، و هذه الحالة النفسية قد تنتاب كل المؤمنين بالله و رسوله مهما بلغت درجة أيمانهم و تقواهم و إلتزامهم ، و هي تشكل نوعا من التنافس و الغيرة و الحسد ـ المشروع ـ فالإنسان المسلم مطالب دائما بإستصغار ما يؤديه من أعمال القلوب و الشعائر التعبدية و يستشعر النقص ، و يتمنى ان يضاعف نشاطه في الليل و النهار حتى يصل الى المراتب الإيمانية و التعبدية الكبرى ، و في الحديث النبوي الشريف ـ لا حسد إلا في ثلاث و ذكر منها إنفاق المال و العلم ، قال تعالى **(و أنيبوا إلى ربكم و أسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون)** الزمر ٥٤ و الإنابة هي العودة الجادة و السريعة إلى الله العزيز الحكيم

ـ التوكل: على الله و هو الإعتماد عليه سبحانه و تعالى في كل شيء مع النية الصادقة و الإخلاص التام ، بعد الأخذ بالأسباب و بناء المقدمات بشكل صحيح و سليم ، هو تفويض الأمر إليه سبحانه و تعالى مع الدعاء و الإلحاح في الرجاء و الطلب و حسن الظن به سبحانه و تعالى ، و التوكل على الله بصدق و إخلاص يعني اليقين التام بأن الله وحده و لا احد سواه من البشر يستطيع ان ينفعك أو يضرك ، و كل ما يصيبك في الدنيا من حسنة أو سيئة ، من خير أو شر قليل أو كثير مصدره الحي الذي لا يموت ـ و توكل على الله و كفى بالله وكيلا ـ النساء ٨١ و توكل على الحي الذي لا يموت ـ الله لاإله إلا هو و عليه فليتوكل المؤمنون . التغابن ١٣ و التوكل يدخل في إطار العبادت القلبية المرتبطة بالنفس و الروح ، و هو حالة نفسية مظهرها الإرتياح و الإطمئنان إلى رحمة الله و عدله و قضائه و قدره ، و هناك العديد من العبادات و الطاعات التي تقوم بها الجوارح ، و تشكل أهم مظاهر العبودية لله سبحانه و تعالى ، نذكر منها ما يلي

ـ الدعاء: و قد يكون هو المظهر العملي ، لما ذكرناه سابقا من العبادات النفسية غير الظاهرة التي تسمى أعمال القلوب ، و الدعاء هو الطلب مع الرجاء و الأمل و الخوف ، طلب الخير للنفس و للمؤمنين و رجاء دفع ضرر حاصل او محتمل ، فالله وحده سبحانه و تعالى القادر على منح الخير و دفع الشر ، و في الأثر أن الدعاء هو العبادة أو هو مخ العبادة ، و هناك عدة أشكال من هذه العبادة و أوقات معينة مذكورة في كتب الرقائق ، و هناك ساعات و حالات يكون فيها الدعاء مستجاب ، كدعاء المظلوم ، و قبيل الإفطار ، و ساعة الجمعة و في الثلث الأخير من الليل و بعد ختم القرآن ، و الدعاء هو عبادة الأنبياء و الصالحين الأولى ، و هو في التصور الإسلامي مظهر من مظاهر الإتصال المباشر مع الله ، و في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحث المسلمين على دعاء الله في كل الحالات و الأوقات ـ قال ربكم أدعوني إستجب لكم ـ و المسلم الذي يؤدي فريضة الصلاة خمس ـ ٥ ـ مرات في اليوم على الأقل . دون إحتساب النوافل ، بمعدل ٢٢ ركعة يقرأ وجوبا في كل ركعة سورة الفاتحة التي إستفتحت بذكر إسم الله الأعظم و صفتين من صفاته الجميلة الرحمن و الرحيم و بدات بحمده تعالى و الإعتراف له بربوبيته للعالمين و الملكيـــة

المطلقة والحقيقية ليوم الدين ، و الإعتراف له سبحانه و تعالى بأنه هو المعبود الذي يفيض على عباده بالرحمة و العون و يسعفهم بعطائه غير المحدود ، في هذه السورة كلمات راقية و معان جميلة و عبارات أنيقة شكلت نموذجا حيا يعلمنا الله به صيغة الدعاء ، و هذه الآيات الكريمة التي يرددها المسلم عشرات أو مئات المرات في اليوم تعتبر خلاصة كل الأدعية و التوسلات التي يمكن أن يتصورها عقل المسلم ـ إهدنا الصراط المستقيم ، صراط اللذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم و لا الضالين ـ أمين . صدق الله العظيم ، و قد إشتملت هذه السورة على قصرها كما يقول المفسرون على التعريف بالمعبود تبارك و تعالى بأربعة أسماء ، تعتبر مرجعا للأسماء الحسنى و الصفات العليا ، و هي الله ، و الرب ، و الرحمن و الرحيم ، و تضمنت معاني الألوهية و الربوبية ، وقوله تعالى ـ إياك نعبد يلبي في النفس البشرية المؤمنة معاني الألوهية و أهم خصائصها و مقوماتها و هي العبودية أو العبادة ، كما تضمنت معاني الربوبية في قوله تعالي ، أياك نستعين إلى آخر السورة .

ـ الإستغاثة و هي نوع من الدعاء المتضمن طلب العون في ظروف نفسية أو معنوية او مادية إستثنائية أو عادية يمر بها الإنسان ، و الإستغاثة مشتقة من الغوث و هو ما يقدمه الإنسان كإسعافات أولية و مساعدات عاجلة للإنسان الذي يمر بظروف صعبة وتبدأ بالطعام و الشراب ، و تقديم الدواء و إنقاذ الغرقى و الذين داهمتهم المياه أو غمتهم الحرائق ، و الإستغاثة هي طلب العون من الله في الأمور و القضايا التي فوق طاقة البشر ، و في العالم اليوم تتشكل أثناء حدوث الكوارث الطبيعية من زلازل و أعاصير و فيضانات و حرائق كبيرة ، لجان إغاثة مهمتها تقديم العون و المساعدة المادية و المعنوية للمتضررين ، و قد يستغيث الإنسان المتضرر بأخيه أو جاره أو صديقه ، كما تطلب الحكومات التي تعرضت لكوارث طبيعية كبيرة الغوث من حكومات العالم ، و لا يسمى ذلك بطبيعة الحال شركا بالله .

ـ الإستعانة: قال تعالى ـ وأستعينوا بالصبر و الصلاة ـ و في الحديث النبوي المشهور قال المصطفى ﷺ لإبن عباس إذا أستعنت فأستعن بالله ، و الإستعانة هي طلب العون و المساعدة من الله العليم القدير الذي يقول للشيء كن فيكون و هي نوع من الدعاء ، و الإستعانة بالله في كل الأحوال و خاصة في المسائل و القضايا

التي تفوق إمكانيات البشر و تتجاوز قدراتهم المادية و المعنوية و النفسية . و تعتبر كل أنواع العبادات القلبية و الجسمية من مظاهر توحيد الربوبية كتوحيد الله و الصلاة و الصيام و الزكاة و الحج ، و النذر ، و الحلف بالله ، و الأضحية و الصدقة ، و ذكر الله في كل وقت و حين و في السراء و الضراء

ـ مظاهر شرك الربوبية

تنتشر بعض مظاهر شرك الربوبية في الأوساط الإسلامية التي لم تأخذ حقها من العلوم الشرعية بطريقة أو أخرى ، و لذلك تفترن هذه المظاهر عادة بالجهل و الأمية خاصة بالنسبة لكبار السن من الرجال و النساء ، الذين يمكن أعتبارهم ضحايا ظروف إجتماعية وواقع ثقافي بائس ، فهم يحتاجون من المسلمين ، ليس الإسراع في تكفيرهم أو تبديعهم و النظر إليهم من منظار عال ، بل هم بحاجة الى جرعات مركزة من الثقافة الإسلامية بصفة عامة و دروس ميسرة في العقيدة الإسلامية ، و أهم هذه المظاهر الشركية التي مازالت منتشرة في معظم البلدان الإسلامية هي

الحلف بغير الله ، و تعظيم شأن الموتى من الرجال الصالحين الذين ماتوا و لم يطلبوا من أحد تعظيمهم أو التوجه إلهم بالدعاء ، و الإعتقاد بأنهم ينفعون او يضرون ، تقديس بعض أدعياء الدين و التصوف و المشعوذين و طاعتهم طاعة عمياء و إتباعهم في ممارسة بعض البدع و الشركيات و الطقوس التي ما أنزل اله بها من سلطان ، و الخوف منهم ، و أغلب مظاهر شرك الربوبية كما قلنا يحتاج أكثر ما يحتاج إلى حملات توعية تنظمها الوزارة المعنية بالشؤون الدينية بالتنسيق مع الجمعيات الثقافية و الخيرية و جمعيات الأحياء ، و بمشاركة الأئمة و أساتذة العلوم الشرعية في الثانويات و الجامعات ، كما يمكن لوسائل الإعلام الجماهيرية ، كالفضائيات أن تساهم بقسط كبير في توعية المسلمين رجالا و نساء عبر برامج و حصص فكرية و خطاب إسلامي بسيط ، و مع الوقت ، ستصبح مظاهر شرك الربوبية مجرد تاريخ ترويه الأجيال و قد لا يصدقه البعض ، و أعتقد أن الأجيال الجديدة التي نالت نصيبها من التعليم الثانوي أو الجامعي ، هي محصنة نوعا ما من الوقوع في شرك الربوبية الذي يعتبر مظهرا من مظاهر التخلف الفكري و الثقافي الموروث من الإستعمار البغيض الذي شجع على الجهل و الإنحراف الديني .

{ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يونس10

{ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } يوسف33

{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }ا لحجر36

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }الحجر39

{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } الإسراء24

{ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً } الإسراء80

{ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } الكهف14

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } مريم65

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } طه70

{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الشعراء16

{ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } الصافات126

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الزمر75

ـ توحيد الألوهية

توحيد الله هو البعد الأول في التصور الإسلامي و هو جوهر الحقيقة الكبرى ، و هو الهدف الأسمى من بعث الأنبياء و الرسل ، فوجود الله سبحانه و تعالى مسألة بديهية فطرية تسلم بها كل العقول السليمة منذ غابر العصور ، و الناس لم يختلفوا يوما حول وجود الله فكل ما في الكون و الحياة و الإنسان من حقائق تنطق بضرورة وجود الخالق عز وجل ، فالإشكالية التي عالجتها الكتب السماوية هي توحيد الله ، و قبل أن نشريع في تفصيل موضوع الألوهية ، فلنقم بجولة في كتاب الله العزيز الحكيم ، لنرى كيف يقدم الخطاب القرآني للناس بصفة عامة ، و للمؤمنين بصفة خاصة معاني و صيغ و مدلولات الألوهية و طريقته في عرض الموضوع و أسلوبه في مناقشة الكفار و المشركين و إقناع المؤمنين ،

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } البقرة133

{ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } البقرة163

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ إِنَّمَا وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً } النساء171

{ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } المائدة73

{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } الأنعام19

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } الأعراف70

{ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة31

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } يوسف39

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } الرعد16

{ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } إبراهيم52

{ وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }النحل51

{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } الأنبياء92

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت46

{ لَوْ أَرَادَ اللّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } الزمر4

{يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } غافر16

هذه بعض النماذج من الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية الألوهية و ليست كلها و التي إستغرق نزولها طيلة الفترة المكية التي قاربت ال ١٣ سنة و جزءا من الفترة المدنية ، فتغيير عقيدة و تصورات فكرية لقوم ظلوا طيلة قرون و قرون ، يعبدون الأصنام و يتخذونهم زلفى و قربى إلى الله و هم عرب الجاهلية الذي نزل القرآن في بيئتهم و إختار الله رسولا منهم ، و بين عقائد اليهود و النصارى التي جمعت بين التجسيم و التثليث ، في مدة وجيزة ليس بالأمر الهين ، و لنحاول إستعراض كيف يقدم القرآن الكريم قضية توحيد الألوهية للناس و كيف يجادل عنها بطريقة هادئة بسيطة تستقيم مع عقول البشر جميعا مهما تباينت مستوياتهم الإجتماعية و العلمية ، حيث ينقلنا القرآن الكريم في البداية إلى مشهد إحتضار النبي يعقوب عليه السلام ، و هو مشهد عظيم ،مرعب و مخيف ، تشيب لهوله الولدان ، مشهد التحضير للإنتقال من الدار الفانية إلى دار البقباء ، و هو مشهد عظيم و مرعب و مخيف لا تسلم منه كل نفس و تجربة قاسية مريرة و مرحلة صعبة شديدة الوطء على النفس و الجسد و الروح ، مشهد يصوره لنا القرآن الكريم من داخل بيت النبي يعقوب و في اللحظات الأخيرة من عمره يستهلك ما تبقى من سويعات أو دقائق أو لحظات ، و حوله زوجاته و أبناؤه و أحفاده ، ترى مالذي يشغل بال النبي يعقوب في تلك اللحظات الحاسمة ؟ قضية الميراث ؟ مكان الدفن ؟ ديونه لدى الغير ؟ و ما هي وصيته لزوجاته و ابنائه و أحفاده ؟ لقد عاش النبي يعقوب عليه السلام في رحمة الله عيشة بسيطة سعيد بزوجاته و ابنائه و أحفاده في بقعة من أرض الله المباركة في فلسطين ارض الله ، فما هو الهاجس الذي أرقه في آخر لحظات حياته و هو يودع الدنيا و يودع زوجاته و أبنائه و أحفاده ؟ إنه هاجس واحد لا غير ، إنه يخاف أن تضيع أمانة التوحيد و يتبعثر جهد أجداده من الأنبياء إبراهيم و إسماعيل و إسحاق عليهم السلام ، إنها قضية العقيدة ، قضية الألوهية ، قضية التوحيد ، القضية التي بعث من أجلها أجداده و آباؤه إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ، يعقوب عليه السلام يريد أن يغادر الدنيا مرتاح البال ، مطمئن النفس ، على يقين تام بأن الأمانة قد بلغت أحسن ما يكون التبليغ ، يريد ان يتأكد من وجود مستمر و ثابت لعقيدة التوحيد ، كما أنزلها الله على إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ، و تأكيد سيدنا يعقوب على هذه القضية في تلك الظروف الحرجـــة يحيل إلى رغبتـــــه في

إستمرار رسالة التوحيد من بعده و لو على المستوى العائلي البسيط و في مجتمع صغير ، قضية الألوهية و هي اهم ركيزة في العقيدة الإسلامية و في التصور الإسلامي ، شكلت محورا رئيسيا شغل بال النبي يعقوب و هو في آخر لحظات عمره ووجوده في الحياة الدنيا ، فهو نبي و طبيعة الأنبياء تختلف نوعا ما عن طبيعة البشر العاديين ، الطبيعة النبوية تمتاز عن طبيعة البشر العاديين بالإحساس المرهف الذي بلغ درجة عالية من اليقين بوجود الله و بوحدانيته و بأنه الواحد الأحد الذي يستحق و يستأهل العبادة ، و الأنبياء هم أكثر الناس قربا من الله حقيقة وواقعا ، و ليس خيالا أو حلما ، و هم أكثر الناس فهما و إدراكا ووعيا بقيمة القضية لدرجة تهيمن على تفكير النبي يعقوب عليه السلام و تسيطر على وجدانه للتحول إلى محور رئيسي يناقشه مع زوجاته و أبنائه و أحفاده في آخر لحظات عمره ، قضية التوحيد هي أغلى ما يملك الأنبياء و هي جوهر الرسالة رسالة الأنبياء و المرسلين في كل زمان و مكان ، من سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ و عندما يستحضر القرآن الكريم مشهد قديم ، و وقائع من الزمن البعيد ، الموغل في البعد ، و يعيد تركيبه و تصويره ليقدمه للناس بصفه عامة و المسلمين بصفة خاصة ، فإنما يريد أن يعلي من شأن عقيدة الألوهية و موقعها في التصور الإسلامي و قيمتها كقضية أساسية عند الله، فهي القضية التي بعث من أجلها الأنبياء و الرسل في مختلف العصور و هي القضية التي كلفوا بالدعوة إليها و النضال من أجلها ، فتوحيد الألوهية يمثل القاعدة الصلبة و الأساس المتين اللذين ينبني عليهما التصور الإسلامي ، فالقضية دائما و أبدا تتعلق بتوحيد الله و ليس بوجوده ، فوجود الله كما يقول العارفون و الكتاب و المنظرون في القديم و الحديث و مهما إختلفت تصوراتهم الدينية ، هي قضية مفروغ منها ، قضية بديهية و مسلم بها ، من خلال المشاعر و الأحاسيس و العقل و الروح و الوجدان ، و الفطرة وحدها نشعر دائما بوجود الله ، و في الكون و في الحياة ما يوحي للفطرة و للعقول أن لهذا الكون و لهذه الحياة و لهذا الإنسان ، خالق و مدبر و مسير ، و لا يمكن ان تسير الحياة هكذا بالصدفة ، و الألحاد لم يظهر إلى الوجود سوى في القرن العشرين مع شيوعية ماركس و لينين و إنجلز ، و الفكرة الشيوعية التي لا تؤمن بوجود الله إنتهت من الأرض و لم تستطيع أن تبقى على قيد الحياة أكثر من سبعين سنة لأنها فكرة

تتصادم مع الفطرة و تلغي العقل و الوجدان و الروح ، و تعدم المشاعر و الأحاسيس التي ترنوا بصورة آلية إلى خالق كبير و كريم و رحيم يستحق الشكر و العبادة وحده ، و الإشكالية إذن تكمن ليس في حقيقة وجود الله ، و لكن في وحدانيته ... في توحيد الألوهية ، الشيوعية تصورات فلسفية وضعية تجاوزت ما هو مرسوم للعقل البشري من حدود و خطوط حمراء ، و راحت تتخبط خبط عشواء و تنتج من الأفكار التي يستحيل على العقل البشري الواعي أو الفطرة السوية أن تسلم بها و تتبناها ، و لذلك فشلت الشيوعية في إرواء عطش الإنسانية و أشواقها الروحية و الوجدانية ، و تلبية متطلبات النفس البشرية في الإيمان ، و في جني ثمار الإيمان من إطمئنان داخلي و راحة نفسية و ثمار عبادة الله الواحد القهار و طاعته و محبته و خشيته و تقواه ، و هي كذلك الإطمئنان الداخلي و الراحة النفسية و السعادة ، و بما أن قضية وجود الله قضية مفروغ منها و لا تحتاج إلى تذكير او تنبيه أو جدال ، فنجد الخطاب القرآني دائما و أبدا يتجه مباشرة الى القضية الجوهرية و هي موضوع توحيد الألوهية بإعتبارها خطوة ضرورية لتصحيح أوضاع عقائدية خاطئة و غامضة و غير سليمة ، و تمهيد الطريق نحو تصحيح الأوضاع السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية للتناسق مع التصور السليم لله و الحياة ، لأن توحيد الألوهية يقتضي أول ما يقتضي توحيد الإله الذي توجه إليه بالعبادة و توحيد مصدر التصورات العقائدية أو المرجعية الفلسفية أو الفكرية و بالتالي توحيد مصدر التشريع ، و كثيرا ما تتكرر هذه التوجيهات الكريمة في الخطاب القرآني الكريم ، لتذكر الإنسان بالحقيقة الكبرى في الوجود و هي وحدانية الله ، الله الواحد الأحد الفرد الصمد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

{ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ } النحل22

{ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } طه98

{ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ }الأنبياء108

و عندما يتناول القرآن الكريم العقائد المحرفة لأهل الكتاب يكشف حقيقتهم التي قد تخفى على كثير من الناس و الأتباع ، و هي حقيقة الغلو و الكذب و كتمان الخبر الصحيح ، بل و تحريف المعطيات و الحقائق و الوقائع ، اهل الكتاب كما يناديهم الخطاب القرآني مجاملة و تكريما للبقية الباقية من الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بنسخ من التوراة و الإنجيل غير المحرفة أو يحفظونها في صدورهم ، و اليهود و النصارى هم حقيقة أهل كتاب ، حقيقة تاريخية يستعيدها و يذكرها و يكررها الخطاب القرآني المنزل من لدن حكيم خبير في كل مرة ، و مشكلة أهل الكتاب أي اليهود و النصارى أنهم إنحرفوا عن حقيقة التوحيد و حرفوا الكتب السماوية ، و أدخلوا على الخطاب الديني أفكارا أخرى من عندهم ، و فضلوا ما أنتجه العقل البشري من تصورات على عقيدة التوحيد الصافية التي جاء بها أنبياؤهم موسى و عيسى على وجه الخصوص، ، و عندما يتناول الخطاب القرآني مشكلة أهل الكتاب في آيات كثيرة مبثوثة بين دفتية يتجه اولا إلى تفنيد مقولاتهم الضالة و تتفيه ما يروجونه بين اتباعهم من أفكار و تصورات حول الله ، فاليهود قالوا عن الله دون حياء أو خجل أن يده مغلولة ، فرد عليهم بقوة و حزم بل يداه مبسوطتان يزرق من يشاء بغير حساب ، و قالوا عزير بن الله ، و قالوا ان الله ينزل إلى الأرض ليمارس طقوس العشق و يحارب منافسيه ، و قالوا نحن احباب الله ، و الشعب المختار و عقيدة اليهود في الله لا تساوي شيئا و ليست لها أية قيمة علمية أو فكرية إذا خضعت للبحث العلمي و التدقيق ، فهي لا تعدو أن تكون مجرد أشتات من الخرافات و الأساطير التي أنتجها العقل البشري في مرحلة ما بعد الطفولة ، أي في مرحلة المراهقة ، و النصارى أيضا ساروا في نفس الطريق الذي خطه اليهود تقريبا ، خانوا الأمانة التي بلغت لهم عن طريق النبي عيسى بن مريم ، و إستغلوا الظروف غير الطبيعية التي ولد فيها أبشع إستغلال ، فالقرآن الكريم في مجمل آياته التي تناولت عقائد أهل الكتاب يسترجع بعض الأحداث التي وقعت في الزمن العابر ليشهد الناس على الحقائق التاريخية التي حاول اليهود و النصارى طمسها ، و يعيد التذكير بعقيدة التوحيد الناصعة ، و في الآية ١٧١ من سورة النساء التي قدمناها كنموذج فقط يعاتب الخطاب القرآني أهل الكتاب و يطالبهم بقول كلمة الحق في طبيعة سيدنا عيسى عليه السلام ، و يندد بغلوهم و ينهاهم عن ترديد كلمة التثليث

التي ما أنزل الله بها من سلطان و يؤكد على وحدانية الله ، فالله سبحانه و تعالى واحد لا شريك له ، خالق كل شيء و مالك كل شيء في السماء و الأرض ، لم يلد و لم يولد ، و عقيدة التثليث التي يتبناها قطاع عريض من النصارى حتى يومنا هذا ، لا تزال كفكرة عبثية تدير الرؤوس و تصطدم مع العقل البشري ، عقيدة تافهة و ساذجة تتناقض مع ما وصل إليه العلم البشري من تطور وما بلغته الحضارة الغربية بشقيها الشرقي و الغربي من تقدم ، و كما زعمت اليهود أن عزير إبن الله ، غلوا و تطرفا و عدوانا على الحقيقة العقائدية و التاريخية الثابتة التي جاء بها موسى عليه السلام ، زعم النصارى أن عيسى عليه السلام إبن الله ، تعالى اله عن ذلك علوا كبيرا و القرآن المكي و جزء من المدني يرد على هذه التفاهات و الطلاسم و الأساطير ، فيذكر بوحدانية الله و بحقيقة سيدنا عيسى ، فهو مخلوق خلقه الله من دون أب ، كما خلق سيدنا آدم من العدم ، و الله على كل شيء قدير و يقول للشيء كن فيكون ، صحيح ان الله خلق كل شيء بقدر و نواميسه في الكون تسير بنظام محكم لكن ليس لأحد من البشر أن يعترض على إرادة الله إذا أراد أن يخرق نظام الكون و الحياة و الإنسان فيسقط الثلج مثلا في شهر اوت ، فكذلك قصة ولادة سيدنا عيسى عليه السلام من غير أب ، و يزيد الخطاب القرآني قضية سيدنا عيسى التي تخبط فيها النصارى خبط عشواء و تاهوا في مجادلات و مناقشات بيزنطية لم يصلوا فيها إلى شيء ملموس ، فيؤكد أن عيسى - هو إبن مريم - و ليس إبن الله ، و بنفخة من روحه قرر أن تلد السيدة مريم سيدنا عيسى في ظروف غير طبيعية و غير مألوفة

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاّ الْحَقّ إِنّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لّهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً }النساء171

و في نفس السياق يأخذ الموضوع مسارا آخرا و بأسلوب حازم و صارم يقرر الله تعالى في الآية ٧٣ من سورة المائدة ان الذين يتبنون فكرة أن الله ثالث ثلاثة هم كفار من دون شك ، و يدعوهم للكف عن ترديد هذه المقولة التافهة و الساذجة التي لن تنطلي على ذوي العقول الكبيرة و الفطر السليمة ، فكيف يكون الله ثالث ثلاثة ؟

توحيد الله هو جوهر العقيدة الإسلامية و هو الحقيقة الكبرى التي شكلت أهم وظائف و مهام الأنبياء و الرسل ، و إذا أردنا أن نلخص و نوجز أهم مقاصد الآيات التي ذكرناها كنماذج للإستئناس بها ، حيث يتعذر ذكر كل الآيات التي تكفلت بموضوع الرد على أهل الكتاب و تتفيه عقائدهم الشاذة و تصحيحيها فيمكن القول أنها تعرضت للنقاط التالية

. إستعادة مشهد النبي يعقوب وسط عائلته ساعة إحتضاره ، و كيف كان هاجسه الوحيد هو التأكد من حفظ الأمانة و صيانة الوديعة ، أمانة التوحيد الخالص النقي النظيف الذي لا تخالطه أدنى شك أو ريبة .

. عتاب أهل الكتاب و التنديد بأفراطهم في الغلو ، و إختراع تصورات عبثية لا يستسيغها العقل السليم أو الفطرة النقية ، و النهي عن ترديد مقولة إن الله ثالث ثلاثة ، و تأكيد الطبيعة البشرية لسيدنا عيسى عليه السلام ، و أن الظروف و الملابسات التي رافقت مولده ، كانت معجزة إلهية ، قد تتكرر في كل زمان و مكان ، و المعجزة كما يقول العلماء هي حدث خارق للعادة ، يتجاوز المألوف و الطبيعي مما عرفه الناس،

ـ التأكيد ان كلمة التثليث متناقضة مع كلمة التوحيد و بالتالي فإن مجرد ترديدها عن إيمان و وعي و قناعة ، كفر بواح ، و يتوعد الله الكافرين بالعذاب الأليم

. في الآية ٣١ من سورة التوبة ، يعتبر الخطاب القرآني أن إتباع ما يردده الأحبار اليهود و الرهبان النصارى من مقولات تافهة حول حقيقة الألوهية و حقيقة سيدنا عيسى عليه السلام ، و الإيمان بتلك التفاهات دون تفكير أو تمحيص هو نوع من العبادة ، عبادة غير الله و هي شرك و كفر ، و قد فسر رسول الله ﷺ معني العبادة في حديثه مع عدي عندما قال له بأنهم أحلوا لكم الحرام و حرموا عليكم الحلال ، فتلك عبادتهم ، و القضية تتعلق بالتشريع ، إقرار قوانين و تشريعات لتنظيم حياة الاسر و المجتمعات و الدول ، و هو تعدى على حاكمية الله و على الله الذي يملك لوحده إصدار تشريعات و قوانين و أحكام ، منبثقة عن التصورات الربانية لله و الكون و الحياة ، و مع فطرة الإنسان ، و مع عقله و روحه ،، و قد خاض القرآن الكريم جولات و جولات لتفنيد عقائد اليهود و النصاري و تقديم العقيدة الصحيحة

و الأستاذ سيد قطب هو أحسن من كتب في موضوع العقيدة الإسلامية بروح المتصوف العاشق الولهان و بشعور و إحساس الأديب و الشاعر يقول في موضوع حقيقة الألوهية ـ الحقيقة الأولى ، و الحقيقة الكبرى ، و الحقيقة الأساسية ، و الحقيقة الفاعلة ، و الحقيقة العميقة في التصور الإسلامي هي حقيقة الألوهية ، و هي في طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية ، أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية ، و لكن حسب الإنسان منها ما يصح به تصوره ، و ما يستقيم به فكره ، و ما يصلح به ضميره ، و ما تنتظم به حياته ، و ما يعرف به حقيقة مركزه ، و دائرة سلطانه ، و مقتضيات عبوديته لله .. ـ و شهادة أن لا إله إلا الله .. تتطلب أن يصل الإحساس بوجود الله سبحانه ووحدانيته حد اليقين الناشىء من مثل الرؤية و المشاهدة ، فهي رؤية و مشاهدة للحقيقة بآثارها في غوار النفس ... و عن منهجية القرآن الكريم في عرض دلائل الوحدانية يقول سيد قطب ـ و ها هو الفرق الأصيل بين خطاب المنهج القرآني للكينونة البشرية بجملتها ، خطاب إستحياء و إستجاشة ، و تنبيه لأجهزة الإستقبال المعطلة أو المشلولة ، و بين خطاب الفلسفة و اللاهوت و علم الكلام ،للذهن بالتصورات التجريدية أو بالجدل البارد ، الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحي للقلوب و العقول ، إن المنهج القرآني يخاطب الكينونة البشرية ببرهان الخلق ، مع التنسيق و القصد ـ ـ ـ و كما تتجلى حقيقة الألوهية في المنهج القرآني بآثارها المبدعة في الكون و النفس ، و في الحياة و التاريخ ، و في تقلب الأحوال بالناس و هم يتعرضون لسنة الله ، و يتحركون بقدر الله في هذه الحياة الدنيا .. كذلك تتجلى هذه الحقيقة في يوم الدين ، و في تفرد الله سبحانه و تعالى بالملك و الحكم في ذلك اليوم المشهود ، و هذا المجال من أوسع المجالات التي يعرضها المنهج القرآني ، و هو يتصدى لبناء العقيدة الصحيحة في الأرواح و الضمائر ، و إنشاء التصور الصحيح في القلوب و العقول ، و تجلية حقيقة الألوهية تجلية مثيرة تتشابك فيها مشاعر الرجاء ، و تتوافى فيها مشاعر الرهبة و الهيبة و الجلال ، مع مشاعر القرب و الود و الأنس ـ التصور الإسلامي و مقوماته . توحيد الألوهية حقيقة كبرى في التصور الإسلامي ، و هي أهم أركان العقيدة الإسلامية ، و توحيد الألوهية بعني في التعريف البسيط الإعتراف لله بأنه واحد أحد فرد صمد ، لا شريك له و لا معبود سواه ، لم يلد و لم يولد ، و هو الخالق الرازق

ـــ توحيد أسماء اللّه و صفاته

أسماء الله سبحانه و تعالى توقيفية كما يقول علماء و منظرو العقائد الإسلامية ، بمعنى لا يمكن إطلاق أي إسم على الله تعالى و لو كان يفيد التنزيه ما لم يرد نص في الكتاب أو السنة يثبت ذلك ، و أسماء الله تعلى هي تسعة و تسعون إسما يجوز الدعاء بها و معظمها إلا قليل إختص بها الله سبحانه و تعالى دون بقية المخلوقات ، و معنى توحيد أسماء الله عدم إشراك غيره فيها ، فجميع الأسماء الحسنى تختص بالله سبحانه و تعالى من دون شريك ، بمعنى ان الله وحده هو الذي يستحق أن نناديه و نناجيه و نسأله و ندعوه بتلك الأسماء فنقول يا رحمان ، يا قدير ، يا عليم ، يا قوي يا عزيز يا كريم ، يا معز يا مذل ، يا محي ، يا مميت ، فالله وحده هو الخالق و الرازق و الرحمن و القوي ، العزيز ، الحكيم ، المعز ، المذل ،

{ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } الأعراف180

{ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرّحْمَـنَ أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَـى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } الإسراء110

و عن أبي هريرة . ر . قال ، قال رسول اللهﷺ إن لله تسعة و تسعون إسما ـ مائة إلا واحدا . من أحصاها دخل الجنة ـ و عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن لله تسعة و تسعون إسما . مائة إلا واحدا . لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ،و هو وتر يحب الوتر ـ و تختلف أفهام الناس في معنى و مدلول كلمة ، إحصاء و حفظ ، و أقرب المعاني إلى ذهن المسلم المعاصر هي الإلتزام بتوحيد أسماء الله في كل الأحوال و عدم الغفلة عن هذا الجانب العظيم من التوحيد ، و الإلتزام بمقتضيات هذا التوحيد في حياتنا اليومية و في معاملاتنا العادية ، و الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق و هو الرازق ، فلا يحزن الإنسان عندما يتأخر الرزق في الوصول إليه ، و الإيمان بأنه هو المحيي و هو المميت فالروح بين يدي الرحمن لا يستطيع أي إنسان مهما أوتي من قوة و جبروت ومن وسائل التدمير أن يميت إنسانا آخر دون إرادة الله ، و هكذا مع بقية أسماء الله الحسنى ، و الحسنى مؤنث كلمة حسن و هو تعبير راق و جميل يؤكد أن أسماء الله هي أحسن و أجمل و ارقى الأسماء في الوجود ، و لذلك يشعر الإنسان المسلم بجماليات تلك الأسماء و بعطرها الفواح عند يضيف إليها إسمه فيقال

عبد الرحمن ، عبد الستار ، عبد الملك ، عبد السلام ، عبد المؤمن ، عبد العزيز ، لاحظ الشعور الجميل و الإحساس اللطيف الذي يغمرك و أنت تتلفظ بهذه الألقاب ، و لئن إتفق العلماء على أن أسماء الله الحسنى هي تسعة و تسعون إسما حسب نص الحديث الشريف ، فليس هناك مانع من وجود أسماء حسنى أخرى و بنص الحديث النبوي الشريف ايضا الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن إبن مسعود ، قال ، قال رسول الله ﷺ ما أصاب احد قط هم و لا حزن ، فقال اللهم إني عبدك إبن عبدك ، إبن آمتك ،ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل إسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو إستأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، و نور صدري ، و جلاء حزني و ذهاب همي . . . ، و يستفاد من هذا الحديث الشريف ان أسماء الله الحسنى يمكن أن تكون على أربعة انواع ، أسماء الله الحسنى سمى الله بها نفسه ، أسماء الله الحسنى التي ذكرها في كتابه الكريم ، اسماء حسنى علمها الله أحدا من خلقه و في الغالب هم الأنبياء و الحكماء و أولياء الله ، كالخضر صاحب موسى ، و لقمان الحكيم ، و أم موسى ، ومريم العذراء ، و أسماء حسنى حجبها الله عن خلقه و أخفاها عنا لحكمة يعلمها و لا ندركها ، و هي في عالم الغيب ، و في ما يلي قائمة أسماء الله الحسنى مع شروحات بسيطة

الله علم على الذات الإلهية المقدسة ، الرحمن المتصف بالرحمة ، الرحيم زيادة في الرحمة ، الملك الذي له ما في السموات و ما في الأرض ، القدوس المستحق وحده للتقديس و التبجيل و المنزه عن كل العيوب ، السلام موفر السكينة و الإطمئنان لخلقه ، المؤمن ضامن لخلقه ما وعدهم ، المهيمن المسيطر ، العزيز صاحب العزة التي لا تشبه عزة البشر و لا يشاركونه فيها ، الجبار ، قوة غالبة لا تتصورها عقول البشر ، المتكبر المنفرد بصفات العظمة و الجلال ، الخالق الموجد للمخلوقات ، البارىء صانع كل شيء ، المصور الذي أعطى للمخلوقات صورها و أشكالها النهائية ، الغفار صيغة مبالغة من غفور ، أي شديد المغفرة ، القهار الذي يقهر الجميع الوهاب كثير النعم ، الرزاق خالق الأرزاق و المنعم بها على خلائقه من البشر و الحيوانات ، الفتاح يفتح أبواب خزائنه و رحمته لعباده ، العليم عرف بكل شيء و لا يغيب عنه شيء ، القابض قابض الأرواح و الأرزاق ، الباسط موسع الأرزاق على من يشاء ، الخافض يهبط ببعض الخلائق الى مراتب دنيا ، الرافع يرفع درجات و مر اتب و قيم عباده ، المعز يعز من يشاء من عباده ، المذل يذل من يشاء من

عباده ، المذل يذل من يشاء من عباده ، السميع يسمع كل ما يدور في الكون و لا يغيب عن سمعه أي شيء ، البصير يرى كل ما يدور في السموات و الأرض و هو بكل شيء محيط ، الحكم مصدر التشريع و نظام الحكم ، العدل عادل في كل شيء ، اللطيف الجميل ، الخبير العليم بأسرار و خفايا الأشياء ، الحليم لا يستفزه غضب و لا يستعجل العقوبة ، العظيم له كل العظمة و الجلال ، الغفور كثير الغفران ، الشكور يعطي الكثير على العمل القليل ، العلي المترفع على مخلوقاته ، الكبير الواسع العظمة ، الحفيظ يحمي الكون و كل ما فيه من أي خلل أو إضطراب ، و يحفظ أعمال العباد ، المقيت الذي يخلق الأقوات ، الحسيب الذي يحاسب عباده ، الجليل الذي يتصف بكل معاني الجلال ، الكريم المانح بسخاء ، الرقيب يراقب سير الكون و تصرفات كل المخلوقات ، المجيب يستجيب لمن دعاه ، الواسع رحمته و عفوه و نعمته تغطي كل العالم ، الحكيم خلق الأشياء و العباد بإحكام و إتقان ، كل شيء وراءه حكمة بالغة و لو لم يدركها البشر ، الودود مصدر الحب المضاعف ، المحب ، المجيد منتهى الشرف و العظمة ، الباعث مرسل الرسل و باعث الأموات ، الشهيد الحاضر في كل الحالات و الوقائع ، الحق هو الحقيقة الكبرى في السموات و الأرض ، الوكيل المتكفل بقضاء جميع حوائج عباده ، القوي صاحب القوة العظيمة ، المتين الشديد ، الولي الذي يتولى أمور الكون و العباد ، الحميد الذي يستحق الحمد و الشكر ، المحصي الذي يعد يحصي أعمال العباد ، المبدىء صانع الأشياء من العدم ، المعيد الذي يعيد الأشياء بعد فنائها ، المحيي مركب الحياة في كل حي ، محي الموتى يوم القيامة ، المميت سالب الحياة ، الحي دائم الحياة لا يموت ، القيوم قائم بذاته و بعباده ، الواجد صانع كل شيىء دون مساعدة من أحد ، الماجد قمة المجد و العظمة ، الصمد الشديد المستغني عن كل أحد ، و تحتاج إليه الأحياء و الأشياء ، القادر لا يعجزه شيء في السموات و الأرض ، المقتدر القادر على كل شيء ، المقدم الأول ، بيده تقديم كل شيء ، المؤخر بيده تأخير كل شيء ، الأول لا شيء قبله ، الأخر لا شيء بعده ، لا نهاية له ، الظاهر مكشوف لجميع العباد بالإحساس و الفطرة ، و طاهر بمخلوقاته و آياته في الكون و الحياة و الأنفس ، الباطن الخفي بذاته فلا يعلم كنهه أو شكله أو صورته أحد ، المتعالي المنزه عن كل النقائص ، البر كثير الخير و الرحمة و الإحسان ، التواب الذي يوفق عباده و يهديهم و يقبل توبتهم ، المنتقم الذي يعاقب المتجبرين و الطغاة ، العفو الذي يتسامح و يغفر الذنوب ، الرؤوف كثير الرأفة و الرحمة ، مالك الملك ، المالك لكل

شيء في السموات و الأرض ، ذو الجلال و الإكرام صاحب العظمة و كثير السخاء و المنح ، المقسط المنصف للمظلومين ، الجامع الذي يجمع الناس على الحق او يوم الجمع أي يوم القيامة ، الغني المالك لكل كنوز الدنيا و خزائنها ، المغني الكافي عباده في الرزق و العطاء ، المانع المحيل بين عباده و المصائب ، الضار الذي يضر عباده الضالين و المستكبرين و الطغاة ، النافع مصدر السعادة و الخير ، النور الذي لا يخفى على أحد ، الهادي مرشد الخلائق و موجه الكائنات للطريق الذي رسمه ، البديع لا مثيل له ، الباقي الحي الذي لا يموت ، دائم الوجود ، الوارث الآخر الباقي بعد فناء و نهاية كل شيء ، الرشيد الموجه لطريق الفلاح و الخي ، الصبور واسع الصبر لا يتعجل بالعقوبة و لا بالأشياء قبل أوانها ، وهناك مراجع قديمة و حديثة تناولت أسماء الله الحسنى بالشرح و التوضيح ، أهمها مؤلفات عبد الحميد كشك ، و يوسف القرضاوي .

ـ إشراقة الأسماء الحسنى

تحت هذا العنوان كتب الشيخ حسن أيوب في مؤلفة القيم ـ تبسيط العقائد الإسلامية ـ فقرة جميلة ننقل منها هذه الكلمات بتصرف يسير ـــ إن صفات الله و أسمائه الحسنى لها في نفس المؤمن إشراقة روحية يحس بها من صفا بالإيمان قلبه ، و زكت بنور أسماء الله و صفاته نفسه ، و تلذذ بالمعرفة بربه شعوره الداخلي ووجدانه ، هذا النور لا يأتي من العلم وحده ، فكم من عالم قوي الحجة ، باهر البرهان ، فصيح اللسان ، واسع الإطلاع ، و مع ذلك تجده مغلق القلب ، جامد المشاعر... فإن المؤمن الذي يوقن بأن الله تعالى متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، موجود وجودا لا أول له ، و باق بقاء لا نهاية له ، لا يشبه خلقه في شيء ، غني عن العالمين ، و كل ما سواه حادث و محتاج إليه ، إن من يوقن بذلك يسعد سعادة لا حد لها ، لأنه يدرك أنه على ما فيه من نقص فقد خلقه الله كاملا ، و على ما فيه من ضعف فقد خلقه الله قويا ، هو سنده و ملجأه في دنياه و آخرته ، إليه يرجع الأمر كله ، فلا يليق به أن يذل لغير ربه ، أو أن يخضع لغير خالقه ، فهو بعناية الله و قدره و رحمته يسلك سبيل الحياة و مرجعه في النهاية إلى الله ، والذي يؤمن بأن الله تعالى واحد في ذاته و أسمائه و صفاته و أفعاله ، إيمانا صادقا واعيا ، فإنه ينقض عن نفسه آثار الشرك في قوله و عمله ، و يتطهر منه في تصـــــرفاته ـ

ـ أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بذاته العلية: ،الواحد ، الأحد ، القدوس ، الصمد ، الغني ، الأول القيوم

ـ أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بالتكوين: ، الخالق ، البارىء ، المصور ، البديع

ـ أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بصفتي الحب و الرحمة: الرب الرحمن ، الرحيم ، الرؤوف ، الودود ، اللطيف ، الحليم ، العفو ، الشكور ، المؤمن ، البر ، الرزاق ،الوهاب ، الواسع

ـ أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بعظمة اللّٰه: العظيم ، العزيز ، العلي ، المتعالي ، القوي ، القهار ، الجبار ، المتكبر ، الكبير ، الكريم ، المجيد ، المتين ، الظاهر ، ذوالجلال و الإكرام رفيع الدرجات

، أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بعلمه تعالى: العليم ، الحكيم ، السميع الخبير ، البصير ، الشهيد ، الرقيب الباطن ، المهيمن

ـ أسماء اللّٰه الحسنى المتعلقة بقدرته و تدبيره: القادر ، الوكيل ، الولي ، الحافظ ، الملك ، المالك ، الحسيب ، المنتقم ، المقيت

{ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } الأعراف180

{ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرّحْمَـنَ أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } الإسراء110

{ اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى } طه8

{هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبّحُ لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }الحشر24

و من فضله اللّٰه علينا أنه سبحانه و تعالى ، بعلمه و حكمته ، عرفنا بذاته العلية ، في كتابه الكريم ، و في سنة نبيه ، نعرف ان له الأسماء الحسنى و صفات الكمال العليا ، و لا يمكن لأحد ان يصف اللّٰه بأحسن و أفضل مما وصف ذاته الكريمة ، ــ من كتاب التوحيد للأستاذ عبد الحميد الزنداني ـ بتصرف و زيادة ـ

ـ صفات الله و أفعاله

من القضايا العقائدية التي إختلف حولها المسلمون قديما و حديثا ، وتفرقوا إلى شيع ومجموعات ، نتج عنها فرق و مدارس عقائدية ، تصور و تفسير و رؤية كل مجموعة لصفات الله و أفعاله ، ، و أهم الإتجاهات العقائدية السنية هي التفويض و التشبيه و التأويل ، و الإثبات .و يمثلها الإتجاهين الأشعري و الماتريدي اللذين يعتنقهما أغلبية المسلمين ، و الإتجاه السلفي الذي يشكل أقل الأقلية و يتكون من عدة أجنحة ، و مصدر الخلاف كما ذكرنا هو رؤية و تفسير أقطاب كل إتجاه للأيات المتعلقة بصفات الله و أفعاله ، و هي الآيات التي تسمى في الخطاب الإسلامي ب ـ المتشابهات ـ و يمكن ان نوجز أهم مظاهر الإختلاف بين المدرستين الأشعرية و السلفية و موقفهما فيما يلي

ـ الإعتماد على ظاهر النص و تمريره كما هو

ـ التوقف عن مجرد التفكير في معنى الآية و تفويض معناها إلى الله .

. تأويل بعض الآيات باللجوء إلى البلاغة و أسرار اللغة .

و قد دارت مناقشات و مناظرات و ردود طويلة و عريضة بين أقطاب المدرستين الأشعرية و السلفية ، و إن كان الأشاعرة قد تمسكوا في محاوراتهم و مناظراتهم و ردودهم على السلفيين بآداب الحوار و لم يخرجوا على النص و لم يتجاوزوا الخطوط الحمراء ، معتبرين أن الخلاف حول تفسير و تصور معاني صفات الله و أفعاله يعتبر خلافا حول الفروع و ليس الأصول ، بإعتبار القضية أو الموضوع بحد ذاته جزء من القضية الكبرى و هي العقيدة الإسلامية ، و ليس هو الموضوع الرئيسي ، لكن أقطاب المذهب السلفي بداية من الشيخ إبن تيمية و تلميذه إبن القيم لم يلتزموا في مناقشاتهم و رددوهم على الأشعرية بأبسط آداب الحوار و المناقشة و اعتبروهم ضالين و خارجين عن الطريق المستقيم ، و كما ذكرت في الفصول السابقة أن الايات المتشابهات ليست كلها سواء ، يمكن التوقف عندها وتفويض أمرها إلى الله أو فهمها على ظاهرها أو تأويلها ، و لذلك ينبغي التعامل معها حالة بحالة ، مثلا قضية الإستواء على العرش لا يمكن فهمها على ظاهر الكلام لأن ذلك الفهم سيؤدي إلى التجسيم و التشبيه ، و تأويلها قد يؤدي نفس المعني ، فيبقى الحـــــــل

الوحيد هو التوقف أمامها و تفويض معناها إلى الله ، أما قضية الوجه و اليدين و العينين ، و كما رأينا في تفسير الشيخ إبن كثير و هو تلميذ إبن تيمية فلا ينفع معها التوقف أو الفهم الظاهري ، لأن تفسير هذه الكلمات المتشابهات على الظاهر يؤدي حتما إلى التجسيم و تشبيه الله بمخلوقاته سبحانه و تعالى ، و هو الذي ليس كمثله شيء ، و الموقف المعتدل إزاء هذه الآيات هو بين التفويض و التأويل ، و نحن كأشاعرة لا نرى أي حرج في تأويل بعض الآيات أو الكلمات التي وردت في القرآن الكريم ، و نعتبر التأويل إتجاه فكري و رؤية سلفية أصيلة مارسه قبلنا الكثير من الصحابة و التابعين و تابعي التابعين ، و الشيخ إبن كثير و هو أحد أقطاب المدرسة السلفية الأصيلة يقول في تفسير أيد التي وردت في الآية ٤٧ من سورة الذاريات ، و هي قوله تعالى **(و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون)** بصريح العبارة ـ بأيد ـ أي بقوة ، قاله إبن عباس ، و مجاهد ، و قتادة ، و الثوري ، و غير واحد ـ أنظر تفسير إبن كثير الجزء السابع ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، الرياض ـ المملكة السعودية ، كما نجد في تفسيره تأويل لكلمة الوجه ب ـ ذات الله ـ في قوله تعالى **(و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام)** و أبحث في الموسوعات عبر الأنترنت لتتعرف على الشخصيات المذكورة إبن عباس و مجاهد ، و قتادة و الثوري ، لتدرك أن التأويل الضروري الذي يتفق مع قواعد البلاغة العربية ليس بدعة من صنع الأشاعرة القدامى أو المعاصرين ، بل هو مبدأ ورثوه عن السلف الصالح ، و أن ما يردده السلفيون القدامى و المعاصرون من أفكار حول قضية التأويل لا أساس له من الصحة اللهم إلا إذا اخرجنا الشيخ إبن كثير من المدرسة السلفية و شككنا في أقواله ، نعم هناك أيات أو كلمات وردت في القرآن الكريم تحتاج إلى التأويل الضروري و هي كما ذكرنا ذلك و نعيد ذكره ـ الوجه و تم تأويله بالذات الإلهية ، و عيني في قوله تعالى ـ و لتصنع على عيني ـ قمة الرعاية و العناية الربانية ـــ و أعيننا في قوله تعالى ـ تجري بأعيننا ـ في سياق الحديث عن سفينة سيدنا نوح عليه السلام ـ أي تسير تحت رعايتنا أمنة مطمئنة ترعاها حكمة الله و تحفظها حتى تصل إلى المكان المقدر لها بآمان ، و عند دراسة مواقف السلف الصالح من الصحابة و التابعين و تابعي التابعين من الآيات و الكلمات المتشابهة نجد أنهم إعتمدوا كل الفرضيات من التوقف و التفويض إلى الفهم الظاهري إلى التأويـــل ، و بالتـــالي فإن

إعتماد السادة الأشاعرة القدامى و المعاصرين التأويل في تفسيرهم لعدد من الأيات أو الكلمات المتشابهة في القرآن الكريم هو موقف سليم و رؤية فكرية ناضجة و راقية تتماشى مع تقديس النص و النأي به عن العبث و السفسطة ، و التأويل هو تفسير لروح النص لتقريب المعاني إلى أذهان الناس ، و نوع من الإجتهاد البشري المأجور حول تلك الأيات و الكلمات المتشابهة التي تحتاج إلى قوة التذوق القلبي و الروحي و العقلي و الإحساس النفسي ، أكثر ما تحتاج الى عقول و قلوب البشر لفهمها .

{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5

{ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } طه39

{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } هود37

{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } الطور48

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } الفتح10

{وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } الذاريات47

{ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }الرعد22

{ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } الرحمن27

{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9

{ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } الليل20

و الآيات الكريمات التي ذكرناها في الصفحة السابقة هي تقريبا مدار الخلاف بين المدرسة العقائدية الأشعرية و المدرسة السلفية ، و نلاحظ أن الشيخ إبن كثير و هو رمز كبير من رموز السلفية الأصيلة يلجأ أحيانا الى تأويل تلك الآيات بما تقتضيه البلاغة العربية فيقول مثلا أن الوجه كناية عن الذات الإلهية و الأيد أو يدي مجاز لغوي يقصد به القوة ، و منهم سيد قطب و هو مفكر إسلامي كبير من الأشاعرة المعاصرين قد إعتمد كما هو واضح في تفسيره ـ في ظلال القرآن ـ بشكل كبير على تفسير إبن كثير ، لا يرى حرجا في تأويل كلمة الإستواء التي وردت في بداية سورة طه ، ويعتبرها كناية عن السيطرة و الهيمنة ، و كان بإمكانه التوقف عندها و تمريرها خاصة و أن هذه الآية الكريمة قد حيرت عقول الأقدمين و المحدثين في مختلف العصور ، و عندنا جواب الإمام مالك الذي يقول فيه ـ الإستواء معلوم و الكيف مجهول و الإيمان به واجب و السؤال عنه بدعة ـ أي أنه أختار التوقف و التفويض بالنسبة لهذه الآية ، أما بقية الأيات أو الكلمات التي تصنف في الخطاب الإسلامي بأنها من المتشابهات و التي ذكرنا نماذج منها في الصفحة السابقة ، فهي كما قلنا سابقا نموذجا للنص القرآني المعجز الذي قد يعجز العقل البشري عن فهم أبعاده و إستيعاب مدلولاته و الوصول إلى معرفة حقيقته ، مهما إستعمل من مناهج و طرق علمية حديثة ، و يبقى التأويل مجرد محاولات و إجتهادات بشرية لتقريب المعنى للأذهان ، و هي من الآيات التي يفهمها العقل البشري بوسيلة أخرى غير الوسائل الطبيعية و العادية التي إعتاد إستعمالها لفهم النصوص ، و قد يحل الذوق أو التذوق و الأحاسيس و المشاعر و الخيال ، و كل الحواس الباطنية غير الظاهرة للعيان ، كالروح و النفس و القلب محل العقل ، لكي نتمكن من تقريب تلك المعاني ألى القلب و الروح ، بل أكثر من ذلك فإن التركيز الجيد في حروف و تركيبة و صيغة تلك الآيات و الكلمات قد يترك في النفس و القلب و الروح مشاعر و أحاسيس و صور تساعد على تذوق تلك الحالات التي يذكرها القرآن الكريم في أكثر من صورة ـ و ألقيت عليك محبة مني ، و لتصنع على عيني ، و أصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، يد الله فوق أيديهم ، و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون ، و الذين صبروا إبتغاء وجه الله ، و يبقى وجه ربك ذي الجلال و الإكرام ، إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء و لا شكورا ، إلا إبتغاء وجه ربه الأعلى ، و كما ذكـــرنا سابقا

فقد إنقسم المسلمون قديما و حديثا إزاء بعض الأيات و الكلمات التي وردت في القرآن الكريم ، يصيغ توهم التشبيه أو فوق مستوى العقل البشري ، إلى اربعة إتجاهات هي التفويض ، و التشبيه ، و التأويل ، و الإثبات بظوابطه ، و بطبيعة الحال فإن مصدر هذه المدارس أو الإتجاهات العقائدية هو ما ورثه المسلمون من أفكار و رؤى و آراء عن الصحابة و التابعين و تابعي التابعين ، شأنها شأن المذاهب الفقهية حيث لم تنشأ هكذا من فراغ و كما يقول أستاذنا الشهيد سعيد رمضان البوطي ، فإن النواة الأولى للمذاهب الفكرية الإسلامية العقائدية و الفقهية نشأت بعد وفاة الرسول ﷺ و كان عدد من الصحابة يمثلون رموز لمدارس فكرية متميزة و قائمة بذاتها كإبن عباس و علي بن أبي طالب إبن عمر و إبن مسعود ، على سبيل المثال و ليس الحصر، و يمكن الجزم من دون تردد أن ثلاثة إتجاهات رئيسية كانت سائدة في ذالك العصر الجميل و هي التفويض و التأويل و الإثبات ـ اما التشبيه فهو عقيدة دخيلة على الوسط الإسلامي مصدرها عقائد أهل الكتاب ، و لذلك قد يخطىء من يعتقد أن عقيدة السلف الصالح هي التفويض أو الإثبات و يعتبر التأويل بدعة أشعرية و قد ذكرنا في أكثر من موقع بهذا الكتاب أمثلة عن تفسير الصحابة لعدد من الآيات أو التي توهم التشبيه إذا فهمت حسب ظاهر الكلام أو تم إثباتها كما هي ، و يمكن أن نضيف نماذج أخرى من الآيات التي وردت فيها معان يمكن تصنيفها ضمن الآيات المتشابهات التي تعامل معها العقل الإسلامي بألية التأويل الحسن الذي يتوافق مع القواعد البلاغية كالكناية أو المجاز و التشبيه و الموقف النهائي للسادة الأشاعرة هو التفويض أو التأويل كما قال الشيخ اللقاني في منظومته المسماة جوهرة التوحيد

{ ....كسراب بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } النور39

{.. وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } الزمر6

{ وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً } الفجر22

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض و رم تنزيها

ـ نموذج تطبيقي

من خلال هذا النموذج التطبيقي الذي ننقله بتصرف و زيادة من كتاب الدكتور المسيري ، يتبين أن الخلاف بين المسلمين في تفسير بعض الآيات القرآنية التي توهم التشبيه ، هو خلاف طبيعي يحدث في كل زمان و مكان بين الناس ، مرده بطبيعة الحال إختلاف عقول الناس و مداركهم و قدراتهم العلمية و الفكرية ، فلننظر كيف فهمت الفرق الأربعة كلمة ـ يد ـ في هذه الآية الكريمة .

{ إِنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نّكَثَ فَإِنّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } الفتح10

المفوضة : قالوا الله أعلم بمراده ، و لا يثبتون يدا و لا يقولون إنها حقيقة أو مجاز .

المشبهة : قالوا إن يد الله تشبه أيدينا ، لأن هذا هو المعنى الطبيعي العادي لكلمة يد ، و لا نعرف اليد إلا اليد البشرية

المأولون : من الأشاعرة و غيرهم قالوا كلمة يد مجاز لغوي بمعنى القدرة ، كما في قوله تعالى في سورة ـ ص ـ في معرض التذكير بنضالات الأنبياء الكرام .

{ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنّهُ أَوّابٌ }ص17

{ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } ص45

فما معنى أن يذكر الله سبحانه و تعالي و هو الحكيم العليم الأيد و هما مجرد حاسة من الحواس الخمس خاصيتها الأساسية اللمس ، و يستعملها الإنسان في حياته اليومية بشكل مكثف في جميع الأحوال ، و الأمر يتعلق في مثل هذه الحالة بالإنسان ، فالتعبير هنا تعبير مجازي يقصد به القوة و الشدة و النشاط و الجد ، أما الأبصار فتعبر عن الرؤية السديدة و التخطيط الجيد أو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر ـ الإستراتيجيا ـ و في رأي الأشاعرة يجب في مثل هذه الحالات صرف المعنى عن ظاهره الذي يؤدي حتما إلى التشبيه ، و الله سبحانه و تعالى ليس كمثله شيء .

ـ **المثبتون** يقولون أن لله يد حقيقية بلا تفويض و لا تشبيه و لا تأويل ، و هكذا يتصرفون مع الوجه و العينين و النفس ، حتى يصلوا إلى التشبيه و هم لا يشعرون

و لتقريب معاني توحيد أسماء الله و صفاته و أفعاله إلى الأذهان ، نقدم هذا النموذج التطبيقي المبسط ، فالجانب التطبيقي لتوحيد الله في أسمائه و صفاته و أفعاله ، هو أنك تحفظ أسماء الله الحسنى و صفاته العلى حفظا تاما ، و تؤمن إيمانا صادقا جازما لا شك فيه أنه ما دام أن الله هو الواحد الذي لا إله إلا هو ، فانه هو وحده لا لاشريك له في أسمائه و صفاته و أفعاله ، و هو وحده لا شريك الرحمن الرحيم أي المتصف بالرحمة الواسعة و الرأفة التي لا حد لها ، مع الإيمان المطلق بأن الله تعالى قد زرع في قلوب البشر نوع من الرحمة محدودة في الزمان و المكان و هو وحده لا شريك له الملك و المالك لكل شيء ملكية تامة و دائمة غير قابلة للزوال أو النقصان أو التوريث ، و قد يكون الإنسان مالكا أو ملكا لكن ملكيته ليست دائمة و قابلة للزوال في أي وقت بالموت أو، الإفلاس أو الظواهر الطبيعية كالزلازل و الطوفان ، و أن الله هو وحده المتنزه عن كل العيوب و الذي يستحق التقديس و التبجيل دون بقية مخلوقاته ، و هو وحده لا شريك له ، السلام الذي يملك زرع الأمل و الآمان و الطمأنينة و الراحة النفسية في قلوب عباده ، وهو وحده لا شريك له المؤمن الذي يأمنه خلقة و يثقون في وعوده ويشفقون من وعيده ، و لا يوجد من البشر إلا قليل خاصة في هذا الزمان من يفي بوعوده و لو كانت بسيطة و سهلة التنفيذ ، و هو وحده لا شريك له المهيمن الذي يبسط سيطرته و حكمة و سلطته و سيادته على السماوات و الأرض و من فيهن ، و لا يملك الإنسان مهما أوتي من قوة و جيوش و أسلحة أن يسيطر على العالم ، و حتى و إن إستطاع التحكم في العالم المرئي المشهود ، و ذلك من رابع المستحيلات و أمامنا أمثلة عديدة عن فشل أجهزة المخابرات الدولية في إكتشاف ثورات شعبية عارمة غيرت مجرى التاريخ ، كالثورة الإيرانية و قدرات باكستان النووية و إندلاع ثورات الربيع العربي من تونس ، مثلث برمودة الذي لم تمكن العلوم الحديثة و التكنولوجيات الجديدة من معرفة أسراره ، و هناك عالم آخر غير مرئي لا يعلمه إلا الله لا يستطيع العقل البشري الإقتراب منه كعالم الملائكة و الجن ، و أن الله عز و جل هو وحده المتصف بالعزة الكاملة اللامتناهية ، يمنح جزء منها لمن يشاء من عباده و هو المعز و المذل و لا يملك البشر مهما كانت قوتهم و جبروتهم أن يمنحوا العزة لبشر مثلهم أذله الله ، كما لا يستطيعون أذلال من أعزه الله ، و الإيمان الجازم أنه هو وحده لا شـــريك له الذي يمنـــــح حق

الحياة لمخلوقاته بحيث لا يملك أي مخلوق مهما على شأنه في الأرض أن يهب الحياة لغيره من البشر ، و هو وحده لا شريك له البارىء المصور صانع كل الأشياء الذي أعطاها صورتها و شكلها النهائي الجميل البديع ، و هو وحده لا شريك له من يملك حق المغفرة و العفو و قبول التوبة من عباده ، و هو وحده لا شريك له صاحب القوة القاهرة التي لا يمكن للعقل البشري تصور درجتها ، و هو القهار الذي يقهر الجميع ، وهو الذي الوهاب كثير النعم و خالق الأرزاق ، و كل ما يوهبه الإنسان لأخيه الإنسان هو من فضل الله و رزقه و نعمته ، و يؤمن الإنسان المسلم إيمانا جازما لا ريب فيه أن الله هو الفتاح العليم الذي يفتح خزائن ملكه و نعمته و رحمه أمام عباده مسلمهم و كافرهم ، برهم و فاجرهم ، و هو وحده العليم بكل شيء في السموات و الأرض ، و أن علم الإنسان و معرفة لا تشكل سوى أقل من قطرة من بحر بالنسبة لعلم الله ، و الله بكل شيء محيط و الإنسان لا يستطيع أن يعلم بكل شيء بله ان يحيط به ، و كم من الأشياء البسيطة التي لم تستطيع العلوم الحديثة معرفة أسرارها رغم أنها تستعملها ليل نهار كالكهرباء و الهواء ، و المغناطيس ، و كم توقفت العقول البشرية حائرة و عاجزة عن الوصول إلى علاج العديد من الأمراض ، و الإيمان بان الله وحده لا شريك له الذي يملك ان يقبض أرواح البشر بالموت و هو وحده المميت قابض الأرواح و الأرزاق ، و لا يستطيع الإنسان مهما كانت قوته و جبروته ان يسلب إنسانا مثله حق الحياة ، وما نشاهده من إعدامات غير مبررة و قتل عشوائي للمواطنين في السجون و أثناء الحروب هي من اقدار الله ، فالله قدر و كتب على تلك النفس أو الروح ان تموت بهذا السبب ، صحيح عندما نقول مثلا أن عبد الناصر هو الذي حكم على المفكر الإسلامي سيد قطب بالإعدام و نفذ الحكم لكن صحيح أيضا أن وفاة سيد قطب كانت مقدرة عند الله أنها ستكون بتلك الطريقة التي تسمى إعداما و نسميها الشهادة في سبيل الله ، و توحيد اسماء الله و صفاته و افعاله تعني أيضا أنه هو وحده لا شريك له الذي يملك أن يبسط الرزق لعباده و لا أحد من مخلوقاته يملك هذه الصفة و كل ما يتخيله الإنسان عندما يتحصل على فوائد و هدايا و زيادات في الأجرة الشهرية ، هي جزء من نعمة الله يمنحها لبعض البشر و يوكلهم التصرف فيها بالصدقة و الهبة و التبرع على الخلائق المحرومين و هكذا نمضي مع أسماء الله و صفاته الواحدة تلو الأخرى ، و هناك علاقة عضوية

بين أسماء الله سبحانه و تعالى و صفاته ، و أسماء الله الحسنى هي الوجه الثاني لصفاته العلى ، فتقول مثلا الخالق تعبير عن صفة الخلق ، و الرحمن عن صفة الرحمة و القادر على صفة القدرة ، و العزيز على صفة العزة ، وهكذا ، و ـ الله ـ هو الإسم الأعظم بإتفاق العلماء و هو إسم علم يدل على الذات الإلهية المتصفة بجميع صفات الكمال و الجلال و الجمال ، التي تليق بجلال الألوهية و الربوبية ، و المنزهة عن جميع صفات النقصان التي لا تليق بكمال الألوهية و الربوبية ، و هو الإسم الذي إختص به سبحانه و تعالى دون خلقه ، فلا يصح و لا يجوز أن يسمى بهذا الإسم غير الله جل و على ، و صفات الله كثيرة قد لا يتسنى للبشر عدها و أهمها على الأطلاق و أولها هي صفة الوجود و الكينونة ، فصفة الوجود تثبتها الفطرة السليمة و تحس بها النفس الطيبة . و تتشوق إليها الروح المتسامية ، كما يثبتها العقل السليم ، و أحسن ما قرأت من كتب العقيدة الإسلامية كتاب ـ كبرى اليقينيات الكونية ـ الذي كتبه الشهيد رمضان البوطي بأسلوب فلسفي ، يحتاج أحيانا لجهد عقلي و ربما بدني لفهمه و إستيعابه ، كما هي معظم مؤلفاته التي يخاطب فيها العقل المسلم و العقول الغربية ، نحاول تبسيط بعض العبارات و الجمل و إعادة صياغتها حتى تتفق مع طبيعة أسلوب الكتاب مع تصرف يسير و زيادة ، يقول في هذا السياق ـ ... و قد وصف الله تعالى نفسه في كتابه الكريم بصفات كثيرة مختلفة ، إلا أن جزئيات هذه الصفات كلها تلتقي ضمن عشرين صفة رئيسية ثبتت بدلالة الكتاب و السنة و بالبراهين القاطعة ، و قد قسموا هذه الصفات إلى أربعة أقسام هي الصفات النفسية ، الصفات السلبية ، صفات المعاني ، الصفات المعنوية .

ـ الصفات النفسية: و هي صفة ثبوتية تدل على الذات فقط و لا تتجاوز المعنى إلى معان أخرى ، كما تصف الماء بالماء و الجوهر بالجوهر ، و الصفات النفسية واحدة هي ـ الوجود ـ و قد تطرقنا إليها في الفقرات السابقة من هذا الكتاب ، و قد عرفت البشرية ربها من خلال الفطرة السليمة و العقل و دلائل وجود الله الكثيرة المبثوثة في النفس البشرية و في الكون .. ـ و هناك وجود كامل ووجود ناقص ،ووجود الله تعالى هو وجود كامل ذاتي ، موجود لذاته لا لعلة مؤثرة فيه ، وجود لا

{وَلِلّهِ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } الأعراف180

يقبل العدم ، و لا نهاية له ، و أما ما عداه فوجود ناقص و تابع مستمد من غيره {قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ} و من خصائص الوجود الناقص و ينطبق على كل المخلوقات أن يوجد بين عدم سابق و عدم لاحق ، فالوجود الذاتي الكامل المطلق هو وجود الله تعالى دون سواه ، و الوجود الناقص التبعي هو وجود كل المخلوقات ـ و ينصح الدكتور البوطي بعدم تجاوز هذا الحد في التأمل في معنى وجود الله سبحانه و تعالى ، ووجود غيره من الممكنات، أو أن نتوغل في تأمل الفرق بين الذات و الوجود ، لأننا لا نملك مع هذا التأمل أي عدة من البحث العلمي و مناهجه ،لا في الخبر و النقل اليقيني و لا في دليل التجربة و المشاهدة ، أو برهان التلازم أو القياس و الإستقراء ، و كل ما نملكه كبشر هو تحريك الحدس و الخيال و السباحة في بحر متلاطم لا أول له و لا آخر ، الذي يؤدي حتما إما إلى الخبل الذي وقع فيه بعض الفلاسفة ـ الوجوديون ـ أو في الوهم أبتلي به بعض الصوفية .

ـ الصفات السلبية: و هي كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق بالله سبحانه و تعالى ، و هي كثيرة الجزئيات ، لأن كل نقص ينفى بعكسه ، و هناك خمس صفات هي أمهات الصفات السلبية كلها و هي

1 ـ الوحدانية: و معناها سلب تصور الكمية المتصلة و المنفصلة في ذاته و صفاته سبحانه و تعالى ، فذاته و صفاته ليست مركبة من أجزاء ، و ليس له علمان أو قدرتان تتمم كل واحدة الأخرى ، و هذا هو نفي الأجزاء عنه سبحانه و تعالى ، و ليس لغيره علم كعلمه ، أو قدرة كقدرته ، فهذا هو نفي الجزئيات ، و الجزء من الشيء ما يتركب ذلك الشيء منه و من غيره ، بحيث لا يدق ذلك الشيء عليه وحده حتى تتكامل معه بقية الأجزاء ، مثل الجدار من الغرفة ، و الغلاف من الكتاب و الجزئي ما بندرج تحت الجنس أو النوع من الأعداد أو الأفراد ، بحيث يصح إطلاق ذلك الجنس أو النوع على كل فرد من افراده على حدة ، و الدليل الجامع على ذلك قوله تعالى **(قل هو الله أحد)** الإخلاص ، فقد نفت الآية بإسناد صفة الوحدانية إليه ، صفتي الكل و الكلية عنه .

2 القدم : فهو الأول و لا وجدود قبله سبحانه و تعالى و دليل ثبوت هذه الصفة ، قوله تعالى ـ **هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن ـ ـ ـ الحديد 3 ـــ**

{قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ } الإخلاص1 واحد لا شريك له و لا مثيل و لا شبيه

و لو كان مسبوقا بعدم فلابد من مؤثر في إيجاده ، و محال أن يكون مع ذلك إلها ، و عندئذ لابد أن الإله هو السابق عليه و الموجد له

3 البقـــــاء: و معناه أنه سبحانه و تعالى لا يعتريه الزوال و الفناء ، و هو الباقي بعد فناء كل المخلوقات و زوال الدنيا و دليله قوله تعالى ـ **كل من عليها فان ، و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام** ـ الرحمن ـــ و الآية السابقة من سورة الحديد

4 ـ القيام بالذات: أي أنه سبحانه و تعالى غني عن العالمين ، غير مفتقر في وجوده إلى موجد ، فقد كان الله تعالى قبل وجود أي شيء ، و قبل الزمان و المكان ، و صفة القيام بالذات مستمدة من إسم الصمد الذي يعني الذي لا يحتاج إلى أي شيء ، ويحتاج إليه كل شيء ، و دليل ثبوت هذه الصفة موجود في سورة الإخلاص قوله تعالى ـ **اللّه الصمد** ـ فالله هو واجب الوجود و قديم لا يتأثر بشيء و يتأثر به كل شيء

5 ـ المخالفة للحوادث : و معناها ليس كمثله شيء ، و لا يشبه أي شيء من مخلوقاته و هو ليس بجسم مصور ، و لا جوهر ، و لا يماثل الأجسام ، فهو يختلف عن كل الأشياء و الموجودات و المخلوقات لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار ، و لذلك فهو منزه عن الحالات التي تعتري الإنسان و غيره من المخلوقات ، كالنوم و الغفلة ، و الجوع و العطش و الحاجة ، و مختلف العوارض الجسمية و النفسية ، و دليل وجود هذه الصفة في قوله تعالى ـ **ليس كمثله شيء و هو السميع البصير** ـ . الشورى ١١ ـ و دخول كاف التشبيه على كلمة مثله ، مبالغة في نفي الشبيه و المثل لله تعالى ، و قوله جل و على **(ولم يكن له كفوا أحد)**

ـ صفات المعاني: هي كل صفة قائمة بذاته سبحانه و تعالى ، تستلزم حكما معينا له ، كصفة العلم مثلا فهي تستلزم أن يكون المتصف بها عليما ، و صفات الكمال لله كثيرة و لكنها تجتمع في سبع صفات رئيسية معينة و هي

1 ـ العلم : و هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، يتأتى بها كشف الأمور و الإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع ، أو على ما ستكون عليه في المستقبل ، و دليل هذه الصفة آيات كثيرة كقوله تعالى .**(إن اللّه بكل شيء عليم)** التوبة ١١٥ ـ

2 ـ 3 ـ الإرادة و القدرة : و هي صفتان أزليتان قائمتان بذاته تعالى ، و معناها القصد أو المشيئة ، و تتعلق بالأمور الممكنة ، ولا تتعلق بالواجب و لا بالمستحيل ، فنقول مثلا أن إرادة الله إقتضت أن يكون ذلك الإنسان أسمر اللون ، طويل القامة ، و الإرادة ليست هي الأمر كما يتصور البعض و هما مختلفان ، لأن الأمر هو التكليف الإلهي الواجب التنفيذ ، فعمل الإرادة في الممكنات كما يقول الشيخ حسن أيوب يشبه ما نسميه في عصرنا هذا ـ التخطيط ـ أما مهمة القدرة فهي تنفيذ ما خططته الإرادة و الإرادة و القدرة تمثلان جميع الممكنات ، فلا يخلق في ملك الله شيئا لم يرده سبحانه و تعالى ولا يقع في ملكه أمر إلا بقدرته ، فثبت لله سبحانه و تعالى صفتا الإرادة و القدرة و إستحال عليه أن يكون مكرها أو عاجزا ، و في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن أرادة الله و قدرته مثل قوله عز و جل **(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)** يس ٨٣ و **ـــ الله الذي خلق سبع سموات و من الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير و أن الله قد أحاط بكل شيء علما ـــ** الطلاق ١٢ و في الكون و الأنفس الكثير من الايات المادية الناطقة و المتحركة التي تدل على قدرة الله و عظمته و إرادته .

4 ـ 5 ـ السمع و البصر: و هما صفتان أزليتان قائمتان بذاته العلية ، فالسمع يتعلق بالمسموعات أو الموجودات ، و البصر يتعلق بالمبصرات أو الموجودات ، و هما صفتان تدركان إدراكا تاما لا عن طريق التخيل و التوهم و لا عن طريق تأثر حاسة ، ووصول إشعاع **(فإن آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** البقرة١٣٧ **(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** المائدة٧٦ ، و التمسك بالدليل النقلي هو الذي منعنا أن ننسب إليه سبحانه و تعالى ـ و الكلام للشيخ البوطي رحمه الله ـ صفات الذوق و الشم و اللمس ، إذ لم يرد دليل من الكتاب أو السنة يثبتهم ، كما هو الأمر بالنسبة للإنسان و الحيوان .

ـ الكلام : هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، هو بها آمر و ناه و مخبر بما أوحاه إلى رسله كالقرآن و التوراة و الإنجيل ، و دليل ثبوت هذه الصفة لله عز و جل قوله أعز من قائل **(و كلم الله موسى تكليما)** النساء ، و الآية ٦ من سورة التوبة

(و إن أحدا من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)

ـ الصفات المعنوية: و هي ليست أكثر من نتائج صفات المعاني ، و هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني ، من حيث كونه جل جلاله قديرا ، مريدا ، عليما ، سميعا بصيرا ، متكلما ، حيا ، و تنقسم هذه الصفات بالنظر إلى متعلقاتها إلى أربعة أقسام

ـ القسم الأول: يتعلق بالواجبات و الممكنات و المستحيلات جميعا ، و هو صفتي العلم و الكلام ، ، صفة العلم لأنها تكشف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه دون أي تأثير فيها ، و من المحال أن لا يكون ذلك بالنسبة إليه سبحانه و تعالى متناولا لسائر الواجبات و الممكنات و المستحيلات ، و صفة الكلام لأنها تتعلق بالأشياء تعلق دلالة و بيان أو أمر و نهي ، و قد إحتوى بيانه سبحانه و تعالى و أمره و نهيه الحديث عن الواجب المستحيل و الممكن

ـ القسم الثاني: يتعلق بالممكنات فقط ، و هما صفتي الإرادة و القدرة ، و يتعلقان بالأشياء على وجه التخصيص و التأثير ، كالإيجاد و الإعدام و نحو ذلك ، و الواجب لا يمكن إعدامه و المستحيل لا يمكن إيجاده ، ولا يمكن الجمع بين النقيضين في زمان و مكان واحد ، و تعلق الإرادة و القدرة بالممكنات فقط لا يعني العجز او النقصان ، و إنما يعبر عن كمال الإرادة و تمام القدرة .

ـ القسم الثالث: يتعلق بالموجودات ، و تختص به صفتي السمع و البصر ،فهما لا يتعلقان بالمعدومات ، و إنما يتعلقان بما وراء ذلك من مختلف الموجودات ، سواء أكانت من نوع الممكن أم الواجب ، هذا إذا قلنا أن كلا من صفتي السمع و البصر تتعلقان بالموجودات كلها على وجه الإحاطة تعلقا زائدا على العلم ،أما إذا إعتمدنا رأي الشيخ السعد في شرح العقائد من أن السمع إنما يتعلق بالمسموعات ، و البصر يتعلق بالمبصرات ، فهما صفتان لا تتعلقان بكل الموجودات حينئذ ، و ان تفويض الحقيقة في هذا الأمر إلى الله عز و جل و إثبات ما أثبته الله لنفسه كما يرى كثير من الأئمة و الباحثين هو أسلم طريق .

ـ القسم الرابع : فلا يتعلق بشيء ، و هو صفة الحياة ، فهي بالنسبة لله تعالى قائمة بذاته لا علاقة لها بشيء سواه ، و ليس لها علاقة بالأشياء لا على وجه الكشف كالعلم

و السمع و البصر ، ولا على وجه التأثير و التخصيص كالإرادة و القدرة ، و هو معنى قائم بذات الله تعالى ، مهمته تصحيح قيام تلك الصفات السابقة به

ـ حقائق إعتقادية: يترتب عن إيمان المسلم بصفات الله عدة حقائق أعتقادية هي

أولا: تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات و سائر النقائص

ثانيا: نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله

ثالثا: لا يجب على الله لعباده أو أحد من خلقه شيء ، و الحسن و القبح أمر إعتباري ، و تلك الصفات ثابتة لله تعالى بأدلة صريحة من كتاب الله ، و بالدليل العقلي ، فلابد من الإيمان بها و اليقين بإتصاف الله عز وجل بكل منها ، و الإيمان بها يقتضي سلب نقائض كل منها عن الله جل جلاله ، فالله عز وجل بموجب ثبوت تلك الصفات له ـ **ليس له شريك و لا ظهير ، ولا يتحيز في مكان و لا ينحصر في زمان ، و ليس بجوهر و لا عرض ولا جسم ، ولا يصح عليه سبحانه و تعالى شيء من لوازمها ، كأن يشار إليه بها هنا أو هناك ، أو تنسب إليه الحركة و الإنتقال من مكان إلى آخر ، ولا يصح عليه الجهل أو الكذب و لا النوم أو النسيان ، أو القسر أو الإكراه** إلى غير ذلك من أضداد الصفات التي ذكرناها

ـ رأي الشيخ رمضان البوطي في قضية المتشابه من الصفات

كيف نوفق بين ما ذكرناه و أوضحناه بالأدلة القطعية اليقينية ، و بين ظاهر هذه الآيات و النصوص ؟ و الجواب أن هذه النصوص القرآنية من نوع المتشابه ، و المقصود به كل نص تجاذبته الإحتمالات حول المعنى المراد منه ، و أوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه ، غير أن هنالك آيات أخرى تتعلق بصفات الله تعالى ، و لكنها محكمات أي قاطعة في دلالتها لا تحتمل إلا معناها الواضح الصريح كقوله جل جلاله **(ليس كمثله شيء)** و **(قل هو الله أحد ،الله الصمد ، لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفوا أحد)** و قد أوضح الله سبحانه و تعالى في كتابه بصريح العبارة ، ضرورة إتباع المؤمن للنصوص المحكمة ، و بناء عقيدته في الله بموجبها ، ووضع النصوص المتشابهة من ورائها ، من حيث فهمها و الوقوف على المعنى المراد منها ، و شدد النير على من يتجاهل النصوص المحكمة ، و يتمسك بالعبارة المتشابهة الغامضة و يفسرها كما يشاء ، و ذلك في قوله عز وجل في بداية سورة آل عمران

{ هُوَ الّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنّ أُمّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمّا الّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللّهُ وَالرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلّ مّنْ عِندِ رَبّنَا وَمَا يَذّكّرُ إِلاّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } آل عمران7

و قد إتفق المسلمون كلهم ، على تنزيه الله الله تعالى عما يقتضيه ظاهر تلك النصوص القرآنية ، و الأحاديث النبوية ، من الصفات المنافية لكمال الله و ألوهيته ، لكنهم إختلفوا في موقفهم من النصوص المتشابه إلى مذهبين ، فمذهب السلف هو عدم الخوض في أي تأويل أو تفسير تفصيلي لهذه النصوص ، و الإكتفاء بإثبات ما أثبته الله تعالى لذاته ، بالتأويل الإجمالي ، و تحويل العلم التفصيلي لمعناها الى الله ، اما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون تأويل إجمالي أو تفصيلي فهو غير جائز ، و لم يجنح إليه سلف أو خلف ، كيف و لو فعلت ذلك لحملت عقلك معاني متناقضة ، فقد اسند الله إلى نفسه العين بالإفراد في قوله تعالي **(ولتصنع على عيني)** طه ٣٩ ، و أسند مرة أخرى إلى نفسه الأعين بالجمع **(و أصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)** الطور ٤٨ ، فلو ذهبت تفسر كلا من الآيتين على ظاهرها دون أي تأويل لألزمت القرآن بتناقض هو منه برىء ، و تقرأ قوله تعالى **(الرحمن على العرش إستوى)** طه ٥ و قوله **(و نحن أقرب إليه من حبل الوريد)** ق ١٦ ، فإذا فسرت الآيتين على ظاهرهما دون أي تأويل إجمالي ، الزمت كتاب الله بالتناقض الواضح ، إذ كيف يكون مستويا على عرشه و بدون أي تأويل ، ويكون في الوقت نفسه أقرب إلي من حبل الوريد ، بدون أي تأويل ؟ ولكنك عندما تنزه الله عن مشابهة مخلوقه في أن يتحيز في مكان و تكون له أبعاد و أعضاء و صورة و شكل ، ثم أثبت لله ما أثبته هو لذاته على نحو يليق بكماله ، و تكل تفصيل المعنى الى الله جل جلاله سلمت بذلك من التناقض في الفهم ، و سلمت القرآن من توهم أي تناقض ، وهذه هي طريقة السلف ، ألا تراهم يقولون عنها أمروها بلا كيف ، إذ لولا أنهم يؤولونها تأويلا إجماليا بالمعنى الذي أوضحنا ، لما صح منهم أن يقولوا ذلك ، إذ لماذا يمرونها بلا كيف و دلالة اللغة و الصياغة العربية واضحة تمنع كل لبس أو جهل سواء في أصل

(ملاحظة: كلمة محكمات وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة آل عمران)

المعنى أم كيفيته ، و لكنهم ايقنوا ان الأمر ليس على ظاهر ما تدل عليه الصياغة و اللغة ، بسبب ما دلت عليه الآيات المحكمات الأخرى ، و هذا تأويل إجمالي واضح ، إلا أنهم لم يقحموا أنفسهم في تفسير هذه النصوص بكيفيات أخرى يلتزمونها ، و هذا هو التوقف عن التأويل التفصيلي ، و مذهب الخلف هو تأويل هذه النصوص بما يضعها على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بتنزيه الله عن الجهة و المكان و الجارحة ، ففسروا الإستواء في قوله تعالى **(الرحمن على العرش إستوى)** طه ٥ بتسلط القوة و السلطان ، و هو معنى ثابت في اللغة ، و أولوا اليد بالقوة و الكرم ، و العين بالعناية و الرعاية ، و أولوا الأصبع في الحديث النبوي بالإرادة و القوة ، و قالوا عن حديث إن الله خلق آدم على صورته إن الضمير راجع إلى آدم لا إلى ذات الله ، أي ان الله خلق آدم منذ اللحظة التي أوجده فيها على صورته و هيئته التي كان يتمتع بها فيما بعد ، فلم يتطور من شكل لآخر ، و قالوا أيضا ، يحتمل أن يعود الضمير على كلمة الأخ المذكورة في الحديث **(إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته)** وأعلم أن مذهب السلف في عصرهم كان هو الأفضل و الأسلم و الأوفق ، مع الإيمان الفطري ، و مذهب الخلف في عصرهم أصبح هو المصير الذي لا يمكن التحول عنه ، بسبب ما قامت فيه من المذاهب الفكرية و المناقشات العلمية ، و بسب ظهور البلاغة العربية منظمة في قواعد من المجاز و التشبيه و الكناية و الإستعارة ... و المهم أن تعلم بأن كلا المذهبين منهجان إلى غاية واحدة ،لأن المآل فيهما إلى أن الله عز و جل لا يشبهه شيء من مخلوقاته ، و أنه منزه عن جميع صفات النقص ، فالخلاف الذي تراه بينهما خلاف لفظي و شكلي فقط ـ من كتاب كبرى اليقينيات الكونية للدكتور الشهيد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ــ نعم الخلاف بين الأشاعرة و السلفية القديمة و الحديثة هو إختلاف في الفهم و الإستيعاب و الموقف سواء في هذه المسألة أو غيرها ، و ذلك بالنسبة للأشاعرة فقط ، لكن بالنسبة للتيار السلفي القديم و المعاصر بكل تفرعاته و جماعاته المختلفة فالخلاف ليس شكلي يتوقف عند حدود فهم الطرفين لمعاني الألفاظ و الكلمات ، و لكنه خلاف عظيم أخرج الأشاعرة من أهل السنة و إعتبرهم ضالين ، ، و التأويل يقترب عند السلفيين من الكفر، و الإسلام يتسع و يحتمل و يتحمل كل وجهات النظر و لا يضيق بها مادامت في دائـــــرة الإجتهاد

الفصل الثالث (3)

توحيد
الحاكمية

الحاكمية: مصدر صناعي ، من مشتقات الفعل حكم ، يحكم ، حكما ، حاكمية ، و منذ منتصف القرن العشرين أصبحت الحاكمية من المصطلحات و المفاهيم الجديدة و الطارئة على الفكر الإسلامي ، و أول من أثار هذه القضية و أعطى لها بعدا سياسيا هو الأستاذ المسلم الهندي العظيم أبو الأعلى المودودي ، ثم تأثر بها الأستاذ المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب و إعتبرها قضية فكرية شخصية حاول تسويقها في كتاباته و دافع عنها دفاعا مستميتا ، و في تقديري أن المودودي و سيد قطب وجدا في هذه الصيغة الجميلة ـ الحاكمية ـ أحسن مصطلح يعبر عن النظام السياسي الإسلامي ، في مقابل النظامين السياسيين العالميين الوضعيين اللذين كانا سائدين في القرن العشرين و هما الليبرالية و الإشتراكية ،

ـ الحاكمية في القرآن الكريم

{ كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاّ الّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ } البقرة213

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مّنْهُمْ وَهُم مّعْرِضُونَ }آل عمران23

{إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً } النساء58

(وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) المائدة44

وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ } المائدة45

(وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) المائدة47

{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمّا جَاءكَ مِنَ الْحَقّ لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ... } المائدة48

هذه بعض النماذج من الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الحكم و السياسة ، بمعنى إدارة شؤون الدولة ، و ليس من الضروري أن تأتي كلمة حاكمية في القرآن الكريم هكذا بنفس الصياغة أو التركيب اللغوي ، و هناك آيات أخرى تتحدث بشكل صريح عن حاكمية الله عز وجل ، بمعنى أنه هو سبحانه و تعالى المصدر الوحيد الذي يمكن ان نأخذ منه المرجعية الفكرية لنظام الحكم أو ما يسمى بالخلفية الفلسفية ، أي المبادىء الفلسفية و التصورات الفكرية و العقائدية عن الله و الكون و الحياة والإنسان ، و التشريعات و القوانين ، و كل ما يتصل بالعبادات و الأخلاق و القيم .

{... فَاصْبِرُواْ حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } الأعراف87

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يونس109

{ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45

{ أَلَيْسَ اللّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ } التين8

{ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } الأنعام57

{ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } يوسف40

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } مريم12

{ وَهُوَ اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } القصص70

{ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } غافر12

و نحن في هذا الكتاب لا نريد أن نثقل على القراء و الدخول في تفاصيل كثيرة قد يعرفها كل الناس ، و التي تتعلق بمعاني فعل حكم في القرآن الكريم ، و بغض النظر عن دلالاته الكثيرة و الغنية و المتنوعة ، كالقضاء ، و العلم ، و حسن التدبير ، فما يهمنا حقيقة هو معناها السياسي دون غيره من المفاهيم و المعاني، فالحاكمية إذن هي مصطلح أو مفهوم سياسي ، يعبر بإختصار عن النظام السياسي الإسلامي، بشقيه الفكري الفلسفي أو العقائدي ، بمعنى إستمداد التصورات العقائدية من مصدر واحد و هو الله العليم الخبير ، و السياسي و الإقتصادي و الإجتماعي ، بمعنى ، إستمداد التشريعات و القوانين و التنظيمات السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية من نفس المصدر و هو الله العزيز الحكيم ، و في التفاصيل هي إعتماد الإسلام كمرجعية فكرية و خلفية سياسية لنظام الحكم و الشريعة الإسلامية مصدر اول و رئيسي و أساسي للتشريع ، هذا هو المفهوم العام لكلمة ـ الحاكمية ـ من دون تفلسف و لا سفسطة و لا جدل عقيم ، و قد قسم العلماء الحاكمية إلى ثلاثة أنواع ، حاكمية الله تعالى ، و حاكمية الوحي ، و حاكمية الإنسان

ـ الحاكمية الإلهية: و تتضمن هي الأخرى نوعين من الحاكمية و هما التكوينية و التشريعية ، فالحاكمية التكوينية ، تعني سيطرة الله القوي العزيز و هيمنته على الكون ، أي انه هو وحده الذي يملك مقاليد السماوات و الأرض و هو وحده الحاكم و الحكيم و الحكم و الملك و المالك ، و المتصرف في هذا الكون دون شريك أو منازع و الحاكمية التكوينية تدل أيضا على الخلق و الإيجاد و تكوين الأشياء من العدم ،

الحاكمية التشريعية: و تعني أنه وحده سبحانه و تعالى مصدر التشريع ، بما أنه هو خالق الكون و الإنسان و مالك الملك و الحكيم المتعال ، و المحيي و المميت ، فله وحده سلطة إصدار التصورات الفكرية و العقائدية عن الله و الكون و الحياة و الإنسان ، و هي تصورات ربانية لا يرقي إليها الشك ، تصورات تنير درب الإنسانية و لا تتركها حائرة لا تعرف من اين يبدأ الطريق و إلى أين ينتهي ، كذلك إصدار التشريعات و القوانين و التنظيمات التي تنظم حياة البشر و علاقة الإنسان بالله و بأخيه الإنسان وبالكون و الحياة ، الحاكمية التشريعية تعني أن الله هو وحده الذي يملك حق صياغة التصورات الفكرية و تصميم المرجعية الدينية و سن القوانين و التشريعات ، ووضع المبادى الفكرية و الدستورية العليا التي تنظم شؤون النـــــاس .

ـ حاكمية الوحي: و هي الجانب التطبيقي ، و الوجه الثاني للحاكمية التشريعية ، فالله سبحانه و تعالى هو الحكم ، و الحاكم ، و خير الحاكمين ، و قد وضع التصورات الفكرية و التشريعات و التنظيمات ، وهي أحدى مظاهر حاكميته سبحانه و تعالى ، و من هنا تنيثق قضية اخرى هي السيادة ، تكون للوحي ، للقرآن و السنة ، بمعنى سيادة التشريعات الإسلامية المستوحاة من الكتاب و السنة في الواقع ، و نبذ و إلغاء كل التشريعات الوضعية المتصادمة أو المتنافضة معها .

ـ أهم مظاهر الحاكمية الشرعية

1 ـ التأسيس و البناء: بما أن الرسالة الإسلامية هي آخر الرسالات السماوية و أن محمد رسول الله ﷺ هو آخر الأنبياء و المرسلين ، و القرآن الكريم هو كلمة الله التي أيدت في مجملها كل التصورات العقائدية التي كلف الرسل و الأنبياء بشرحها و توصيلها إلى عقول و أذهان البشرية منذ غابر العصور ، فالتصور الفكري لله و الكون و الحياة و الإنسان ، هو نفسه دون تغيير أوتحوير أو تبديل ، أما التشريعات و التنظيمات فتتغير حسب الزمان و المكان ،

ـ المرجعية الفكرية: بحكم ان الوحي أي الكتاب و السنة هما المصدران الأساسيان للفكر الإسلامي و التصور العقائدي ، و الميادىء العامة للتشريع و بعض التفاصيل التشريعية ، فإن الوحي يصبح هو المرجعية الفلسفية العليا في الإسلام ، و منه يستمد الفكر الإسلامي كل مادته و مواضيعه و تصوراته و مواقفه و آرائه ، و منها يستمد التشريع الإسلامي أصوله و مبادئه و تفصيلاته ، و المرجعية الإسلامية العليا هي كذلك مصدر العبادات و المعاملات و الأخلاق و الآداب ، و هي مرجع كل خلاف بين المسلمين **(فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر ذلك خير و أحسن تأويلا) النساء 59 ـ**

ـ السيادة المطلقة : تتميز المرجعية الإسلامية بعدة خصائص و مقومات أهمها أنها ربانية المصدر ، غير معرضة للتغيير أو التبديل في جانبها التنظيري الفلسفي و الفكري و في المبادى التشريعية العامة، و بالتالي فإن الوحي أي القرآن الكريم يعتبر هو الوثيقة المرجعية الكبرى ، و يمكن القول مجازا أنه في بعض جوانبه بمثابة الميثاق الوطني الذي يحدد التوجهات الفكرية و السياسية و الإقتصادية .

و الإجتماعية و الثقافية الكبرى ، للمجتمع و الدولة و الأمة ، ومن هنا تكون السيادة العليا و الكاملة و التامة للمرجعية الإسلامية ، و السلطة للشعب يمنحها لمن يشاء من المسلمين وفق شروط و آليات يحددها التشريع الإسلامي من خلال الإجتهاد و هي بحكم ربانيتها تسمو فوق كل المرجعيات و الفلسفات الوضعية المعرضة للتغيير و التبديل و الزوال ، كما هو الشأن بالنسبة للمذاهب الفكرية و الأدبية و التيارات السياسية التي لم تتمكن من البقاء على قيد الحياة أكثر من قرن ، كالشيوعية و كل مظاهرها التطبيقية و الحداثة و ما بعد الحداثة ، وقد لخص العلماء ما يترتب عن السيادة المطلقة للمرجعية الإسلامية في سبع نقاط أساسية هي

ـ **الحاكم:** من حيث مصدر التصورات و المبادىء العامة للتشريع و التشريعات الأساسية المفصلة هو الله ، و أن أي تشريع يمكن أن يصدره المسلمون يجب أن يكون في إطار المرجعية العامة و أن لا يتناقض مع المرجعية الفكرية العليا و لا مع التشريعات ، فالله هو الحاكم الأعلى و هو أحكم الحاكمين ، بإعتباره مصدر التنظير و التشريع ، لكن الجانب التنفيذي في العملية يتولاه الإنسان المسلم ، أي الحاكم المسلم ، خليفة أو رئيسا أو أميرا ، فليس معقولا أن ينزل الله جل و على إلى الأرض لينظم شؤون الناس و يشرف على إدارة الدولة ، لذلك كانت أحدى المهام الأساسية و الوظائف السامية للإنسان في هذه الأرض هي الخلافة ، أي الحكم و الإدارة و التسيير للدولة و المجتمع و الأمة **(إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)** فالله لم يخلق الإنسان لمجرد أن يعمل و يتزوج و يأكل و يشرب و ينام ، و سنتناول هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل المتعلق بالإنسان ، و هذه القضية التي تسمى في الفكر الإسلامي قضية الإمامة العظمى ، أحذت وقتا طويلا و جهدا كبيرا من العلماء و المفكرين ، و منهم من يرى بأن أصل فكرة الحاكمية تعود إلى زمن الصراع بين علي كرم الله وجهه و معاوية و بالضبط في معركة صفين عندما أحسن معاوية و مقربيه بأن المعركة ستنتهي بالقضاء على أحلامهم غير المشروعة ، فأوعزوا إلى جنودهم برفع المصاحف بالسيوف و المناداة بالتحكيم ، و إختار معسكر علي رجل من المسلمين و إختار المعسكر الآخر رجل من المسلمين ، لكن طائفة من أتباع على كرم الله وجهه و هي التي كانت تدفع نحو تسوية سلمية لموضوع الخلاف حول الحكم بين علي و معاوية ، بعيدا عن الرماح و السيوف ، رأت بعدما دخلت بين صفوفها الأفكار الوافدة أن ترفع شعار ـ **الحكم لله** ـ

فرد عليهم الإمام علي بجملة أصبحت مثلا سائرا و حكمة يرددها الأجيال ـ فقال ـ كلمة حق أريد بها باطل ـ نعم إن الحكم لله ـ من حيث المبدأ و على سبيل الحصر و التخصيص و الإنفراد ، و هو خير الحاكمين ، لكن الحكم بمعنى تسيير و أدارة الشؤون العامة للدولة . التنفيذ ـ مسألة تتطلب وجود بشر يتكفلون بهذا الجانب

. الكتاب و السنة و الإجماع و القياس أهم مصادر الفكر و التشريع .

. الإسلام عقيدة و شريعة و فكرا و ممارسة هو المرجعية العليا للمسلمين .

. تطابق التشريعات و الإحكام الإجتهادية مع المرجعية الإسلامية و مقاصدها العليا

. الإلتزام التام للدولة و الشعب و الأمة بالنصوص الإسلامية .

. فقدان أية قيمة قانونية لكل التشريعات الوضعية التي تتصادم مع المرجعية الإسلامية أو الشريعة الإسلامية ، لكن يمكن تبني تشريعات محلية أو حتى أجنبية قد تتفق في جوهرها أو روحها مع المقاصد العليا للشريعة الإسلامية .

ـ بين حاكمية الله و حاكمية الإنسان

هذه القضية الفكرية التي تتعلق بالإجابة عن السؤال الفلسفي التالي ، أين تبدأ و أين تنتهي حاكمية الإنسان ؟ خاصة و أن الذين أصلوا و نظروا لهذه القضية ـ المودودي و سيد قطب ـ لم يتعرضوا بالتفصيل لبعض المسائل الجزئية المرتبطة بالواقع العملي أو التطبيقي ، ولذلك تركت هذه القضية وراءها الكثير من الغبار و الجدل داخل المدرسة الإسلامية و بين التيارات الإسلامية المختلفة ، و وجدها خصوم المرجعية السياسية الإسلامية منفذا لمهاجمة المشروع الإسلامي من أساسه ، و المسألة في تقديري لا تتطلب جهدا فكريا كبيرا لإدراكها ، و بالتالي فيمكن القول ان الله بصفته حاكما و حكيما و حكما وملكا و مالكا و خالق كل شيء و المحيي و المميت فهو المعبود و لا معبود سواه ، و كل البشر عبادا له و عبيد ، بحكم أنه هو الذي يملك أن يصدر المبادىء العامة و الأسس التنظيرية و الفلسفية للتصورات المتعلقة بالله و الكون و الإنسان و الحياة ، و هذه التصورات هي من إختصاص الله خالق الكون و البشر و كل شيء و هو وحده سبحانه و تعالي الذي يحدد طبيعة البشر و الكون و الحياة ، و هو الذي يعرفنا بذاته العلية و يرسم لنا طريق الفلاح في

الدنيا والآخرة ، و هو الذي يملك بداهة إصدار التشريعات و التنظيمات التي تتفق مع المقاصد العليا للمرجعية الإسلامية في جانبها التنظيري و العملي ، و لا تتصادم مع فطرة الإنسان و علاقته بالله و الكون و الحياة ، فتنتج تصورا سليما عن الله و الإنسان و الكون و الحياة ، و هذا المجال . . - مجال التصورات الفكرية و صياغة المبادىء و العقائد و القيم و المثل و الموازين ، مجال مغلق في وجه الإنسان و ليس من إختصاصه ، هو غير مكلف بالبحث أو التفكير لصياغة المرجعية العليا ، فهذا الجانب الفكري الفلسفي المتعلق بالتصورات هو من خصائص الألوهية و الربوبية ، و قد غاصت البشرية منذ عهودها الأولى في بحار من الأفكار و الفلسفات و عجزت أن تصنع تصورات و قيم و أفكار يتفق عليها الجميع و يتلقونها بالقبول و الرضى ، من الإغريق و الرومان و الهنود و الفرس ، مهد الفلسفات القديمة ، الى ما يسمى بعصر التنوير و ظهور الفكر السياسي الحديث بشقيه اللبرالي الرأسمالي و اليساري الشيوعي ، و الثورة الصناعية و مولد الحداثة - - إلى يومنا هذا الى عصر صدام الحضارات و حوار الحضارات و العولمة ، و ما بعد الحداثة ، فكل الفلسفات و الأفكار الوضعية و إن لم تكن سلبية على المطلق بحكم أنها حاولت ان تقدم للإنسان العصري كل أسباب التقدم و الرفاهية المادية ، لكنها عجزت عن إشباع عطشه الروحي و تطلعاته النفسية ، فلم توفر له الحد الأدنى من الإستقرار الروحي و الراحة النفسية ، صياغة التصورات و القيم و الأفكار التي تضبط علاقة الإنسان بالله و الكون و الحياة مسألة فوق طاقة الإنسان مهما أوتي من قدرات علمية و فكرية و ثقافية ، و مهما بلغ من قوة الذكاء ، و سيبقى الإنسان تائها يهيم على وجهه في الأرض بلا مبدأ و لا مصير و لا هدف و لا قوة يستند إليها عندما تضيق به الأرض ، لا يشعر بالراحة النفسية و الإطمئنان الروحي ، و الإرتياح القلبي ، مهما بلغت إمكانياته المادية ، و مهما بلغ من درجات الرقي و التقدم و الرفاهية ، ما لم يتلقى تلك التصورات الإسلامية من الله رب العالمين ، و يحتضنها و يتبناها لتكون أساسا فلسفيا متينا يحدد و يوضح طبيعته و وجوده و موقفه ، و بدايته و منتهاه و مصيره ، ومن ناحية اخرى فإن مهمة الإنسان في الأرض ووظيفته التي خلق من أجلها ليست بالضرورة تصميم المرجعيات و الأفكار و الأرضيات الفلسفية ، التي تنبثق منها الأنظمة السياسية و المنظومات التشريعية ، مهمة الإنسان ووظيفته في الأرض هي كما يعرف الجميع في الأساس مهمة إعتقادية إيمانـــية و تنفيذيـــة في نفس الوقت

، فالإنسان المسلم مطالب بأن يكون مؤمنا أشد الإيمان بالمرجعية الدينية في جانبها العقائدي الذي يتضمن بطبيعة الحال حقيقة الإيمان بكل تفصيلاتها ، و عندما تكون التصورات العقائدية و الفكرية واضحة في ذهنه وضوح الشمس ، و يكون مؤمنا بها إيمانا راسخا و صادقا لا تزعزعه العواصف و لا يرقى إليه أدنى شك ، تكون مهمة تنفيذ التشريعات المنبثقة عن التصور العام في أرض الواقع ممكنة و ليست مستحيلة ، لكن بالنسبة للجانب التشريعي ، أي إصدار التشريعات و القوانين فالمسألة تختلف كثيرا عن إنشاء التصورات الفكرية من عقائد و قيم و مثل و موازين و رؤى ، و تصميم الصورة النهائية للمرجعية الفلسفية ، و في النظام السياسي الإسلامي توجد بطبيعة الحال السلطات الثلاث المتعارف عليهم في مختلف دول العالم ، و من بينهم السلطة التشريعية التي تمثل الشعب سواء أكانت التسمية مجلسا للشورى ، أو برلمانا أو مجلس الأمة ، و سواء أكانت الهيئة التشريعية بجناح واحد أم جناحين ، و كما تحرص الأمم الحديثة على أن لا تتناقض التشريعات التي تصدرها الهيئة التشريعية مع المرجعية الفكرية للدولة و مع الدستور ، كذلك و لكن مع الفارق بين المرجعية الربانية و المرجعية الوضعية ، تحرص جميع الهيئات و المؤسسات و التنظيمات الرسمية و الشعبية و منها الهيئة التشريعية الإسلامية بالنسبة للنظام السياسي الإسلامي أن تكون ما تصدره من تشريعات و مراسيم و قوانين مطابق للمرجعية الإسلامية العليا للدولة ، و للبرلمان أو مجلس الشورى الإسلامي أن ينشط بكل حرية و إستقلالية و يصدر ما يشاء من قوانين و تشريعات لتنظيم شؤون الدولة و المجتمع و الأمة ، و كما يقول العلماء فإن المساحة الحرة في الفكر الإسلامي و التشريع العام جد شاسعة ، حتى أن شكل النظام السياسي الإسلامي و هل هو نظام برلماني بحناحين تشريعيين أم جناح واحد ، أم رئاسي ، على الطريقة الأمريكية ام الفرنسية ، أم ملكي دستوري ، و حتى الشورى كركن هام من أركان نظام الحكم في الإسلام تركت هكذا كمبدأ، مثل طبيعة النظام السياسي ، لأن مثل هذه التفاصيل لو صممت في قوالب جاهزة لتعذر تطبيقها في أرض الواقع ، بالإضافة الى أن ما يصلح لأهل المشرق من أنظمة قد لا يصلح للمغاربة ، و ما كان صالحا في القرون الماضية قد لا يتناسب مع طبيعة العصر، فقضية التشريع إذن هي قضية تتعلق بإحترام التشريعات الإسلامية الواردة في القرآن و السنة الصحيحة و تطبيقها حرفيا ، و الإجتهاد خارج النص و في إطار المرجعية الفكرية الإسلامية

ـ إختصاصات العقل و النقل

قضية النقل و العقل ، علاقتهما ببعض ، حدودهما ... أخذت الكثير من وقت و جهد المفكرين الإسلاميين منذ بداية ما يمكن أن نسميه عصر التنوير الإسلامي ، بداية العصر العباسي الذي توفرت فيه الأرضية الفكرية الخصبة لنشأة الإختلاف و بداية ظهور النواة الأولى للمذاهب و المدارس الفكرية و العقائدية و الفقهية ، و قد خاض أجدادنا في مجالسهم في قضية العقل و النقل فإختلفت آراؤهم و مواقفهم و نحن لا يعنينا كثيرا إثارة هذا الموضوع بعدما هدأت الأمور و لم يعد الموضوع يثير النقاش ، خاصة و أن أهم الفرق التي تبنت هذا الموضوع قد إنقرضت و لم يعد لها وجود على أرض الواقع ، كتنظيمات أو تيارات ، و لكن ربما بقيت كأفراد قلائل هنا و هناك ، و ما تبقى من تيارات فكرية تكاد تتفق على نظرة وسطية معتدلة لقضية النقل و العقل ، و لذلك فقد إجتهد العلماء المسلمون في تحديد وظائف و مهام و إختصاصات النقل و العقل كما يلي

ـ إختصاصات النقل: صياغة و تصميم التصورات العقائدية و الفكرية و الفلسفية المتعلقة بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة ، كمسائل العقيدة ـ الإلهيات ، و النبوءات و السمعيات ، المبادى العامة للتشريع ، تشريعات تفصيلية و أحكام خاصة ، ك ، كتابة الدين ، المواريث ، الطلاق ، تفاصيل أداء الشعائر و العبادات ، الأخلاق و الأداب .

ـ إختصاصات العقل: البحث و الدراسة و التحليل و الإبداع في كل المجالات الفكرية و السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و إستنباط أفكار ونظريات ، و حلول لقضايا الإسلامية المعاصرة من خلال آليتي الإجتهاد و القياس، ضمن الإطار العام للمرجعية الفكرية الإسلامية العليا ، و خارج دائرة إختصاصات النقل أي الوحي ، فهم الوحي و تطويعه لخدمة الإسلام و المسلمين ، فإختصاصات و مهام العقل البشري تحددها طبيعته كحاسة بشرية محدود في تفكيره و تحليله و رؤيته للأشياء و الواقع ، و هنالك مناطق فكرية ومساحات و فضاءات علمية يستحيل على العقل البشري الغوص فيها دون الإستئناس بالوحي ، وخارج دائرة إختصاصات الوحي فالمجال واسع للإجتهاد و الإبتكار و البحث و التحليل و الإبداع في كل مجالات الحياة ، و لكن دائما في إطار سلطة الله الواحد القهار ، **(يا معشر الجن و الإنس إن إستطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض فإنفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ـ الرحمن)**

ـ المودودي و فكرة الحاكمية

قلت في بداية الفصل أن هناك إتفاق بين مؤرخي الفكر الإسلامي أن الأستاذ المفكر الإسلامي الكبير أبو الأعلى المودودي هو أول من أبدع فكرة ـ الحاكمية . ربما لتكون مصطلحا سياسيا سهل الحفظ و التداول و الإنتشار في مقابل المصطلحات أو الشعارات السياسية التي سادت خلال القرن الماضي في العالم الإسلامي ، كالوطنية و القومية و الرأسمالية و الليبرالية و الشيوعية و الإشتراكية ، ولم تبق فكرة الحاكمية عند المودودي مجرد مصطلح أو شعار سياسي أجوف و بارد ، بل تحولت إلى نظرية سياسية متكاملة العناصر و الأبعاد ،تشمل مبادى و أسس و مرجعيات النظام السياسي في الإسلام ، و أهدافه ، و من دون شك فإن للظروف السياسية التي مر بها العالم الإسلامي منذ إلغاء الخلافة الإسلامية ، بغض النظر عن طبيعة هذه الخلافة و شكلها و علاقتها بالمرجعية الإسلامية العليا ، دور كبير في بلورة فكرة الحاكمية ، حيث تحولت الأمة الإسلامية من كيان سياسي و إجتماعي وثقافي عالمي تحت ظل الخلافة العثمانية ، إلى دول متفرقة تحت نير الإستعمار ، و في الواقع المحلي عايش الأستاذ المودودي حلم تأسيس دولة باكستان الإسلامية بعد إنفصالها عن الهند ، فناضل رفقة إخوانه من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية ، و إستمات في النضال حتى أقنع النخبة الحاكمة بوضع مادة في أول دستور باكستاني تنص على أن الحاكمية لله .

ـ الحاكمية عند سيد قطب

تأثر المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب بكتابات و أفكار و أراء المفكر الإسلامي الباكستاني أبو الأعلاء المودودي ، و كان يسميه ب ـــ المسلم العظيم ـــ و رغم النظام المصري قد أعدم سيد قطب أواخر شهر أوت سنة ١٩٦٦ ، و أن الشيخ المودوي قد عاش حتى سنة ١٩٧٤ إلا أن فكرة الحاكمية لصقت ب سيد قطب و عرفت به و عرف بها أكثر من صاحبها و مبدعها ، و المسألة محيرة بالنظر إلى تكافأ فرص النشر و التسويق لكتابات الرجلين ، و حتى من ناحية التأثير في الأجيال التي تزامنت معهما أو جاءت بعد وفاتهما ، نجد أن تأثير أفكار سيد قطب بصفة عامة و فكرة الحاكمية بصفة خاصة في تلك الأجيال كانت أقوى و أكثر من تأثير الأستاذ المودودي ، وكذلك الأمر بالنسبة لتفسير القرآن الكريم ، فقد كتب المودودي تفسيرا للقرآن برؤية فكرية سياسية معاصرة . سماه ـ تفهيم القرآن ، و كتب سيد

قطب تفسيرا للقرآن يقترب من مواصفات تفسير المودودي من حيث العصرنة و التركيز على الجانب السياسي ، بالإضافة إلى الأسلوب الأدبي المشرق لسيد قطب ، سماه ـ في ظلال القرآن ـ لا تكاد تجد منزلا أو مكتبة عمومية أو جامعية ، او مسجدية ، ليس فيها نسخة من كتاب في ظلال القرآن ، فماهي الحاكمية ، و ما هي خصائصها و مقوماتها بالنسبة لسيد قطب ؟ الحاكمية عند سيد قطب جزء مهم من العقيدة الإسلامية و بعدا رابعا من أبعاد التوحيد ، فهي إفراد الله سبحانه و تعالى بالحكم و التشريع و القوامة ، و السلطان ، و إستمداد التصورات و المناهج و التشريعات و النظم و القيم و الموازين و العادات و التقاليد من الله وحده ، و تطبيق شريعته على كافة مناهج الحياة ـ و الحاكمية نوعان ، الحاكمية الكونية التي تتعلق بفعل و إرادة الله و ومشيئته ـ كن فيكون ،، و الحاكمية التشريعية و هي التي تتعلق بصياغة المرجعية الفكرية العليا ، التي تضم التصورات و القيم و المثل و المبادىء العامة للحكم ، و بعض التشريعات و الأحكام التفصيلية ، و العبادات و المعاملات و الأخلاق و الآداب ، و الآية ٤٠ من سورة يوسف تشير إلى النوع الأول من الحاكمية

{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } يوسف40

أما النوع الثاني حسب رؤية سيد قطب ، فيستنبطه من الأية ٦٧ من نفس السورة

{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } يوسف67

و يعتقد سيد قطب أن هناك ترابطا عضويا غير قابل للإنفكاك بين النوع الأول و النوع الثاني من الحاكمية ، فلا يقبل الواقع أو العقل أو المنطق من الإنسان المسلم أن يتبنى نوعا واحدا من الحاكمية دون الآخر فقال في معرض تفسيره للأية ٦٧ من سورة يوسف ـ كمال الإيمان لا يتحقق إلا بالجانبين و بالنوعين معا ، إذ كيف يؤمن الناس بالجانب القدرى ، ويكفرون بالجانب الإرادي ، و حكم الله القدري يمضي في الناس من غير إرادة منهم و لا إختيار ... و إلى جانب حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضى منهم و إختيار و هو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر و النواهي ، لكن الناس

لايكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا و ينفذوه فعلا راضين - - - فكما أن الناس يقرون بحاكمية الله العليا للكون ، عليهم أن يقروا بحاكميته العليا عليهم ، و شهادة أن لاإله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر ، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون ... فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياة الناس هي السلطة التي تنظم الكون .. ـ في ظلال القرآن ـ و قد تبنى معظم العلماء و المنظرين و المفكرين في العصر الحديث قضية الحاكمية كمصطلح يعبر أحسن تعبير عن الجانب السياسي من الإسلام ، الذي عرف في التراث الفكري ب قضية ـ الإمامة العظمى ـ

ـ الحاكمية ... و التوحيد

الحاكمية بعد أساسي من أبعاد التوحيد الأربعة . توحيد الربوبية ، توحيد الألوهية ، توحيد الأسماء و الصفات و الأفعال ، و الحاكمية تتعلق بتوحيد مصدر المرجعية الفكرية العامة ، و هي ـ مجمل التصورات العقائدية المتعلقة بالله و الإنسان و الكون و الحياة ، و في صلبها قضية الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر ، و القضاء و القدر ، و تحديد نوعية و شكل و طبيعة الشعائر و العبادات ، الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج و العمرة ، الأضحية ... إلخ ، و المعاملات الإجتماعية ، زواج و طلاق ، و الأخلاق و الآداب ، وهذه المواضيع مجتمعة تشكل الجزء الأول من المرجعية الفكرية ، أما الجزء الثاني و الذي تمثله الحاكمية هو الجانب السياسي ، أو ما يسمى في الفكر الإسلامي السياسة الشرعية ، فهناك علاقة عضوية بين الحاكمية بمفهومها الشامل ، و ليس الجانب السياسي منه فقط ، و التوحيد بل هو كما ذكرنا جزء مهم و أساسي من العقيدة الإسلامية ، و كما يقرر العلماء فلا معنى لتوحيد الله في ربوبيته و إشراك معه غيره في مجال العبادة ، و لا يكتمل إيمان المسلم بتوحيد الله في ربوبيته و ألوهيته و أسمائه الحسنى و صفاته و أفعاله ، و تبني مرجعية فكرية صادرة من غير الله ، أو إعتماد إزدواجية المصادر فيما يتعلق بالمرجعية الفكرية العليا ، بحيث نستمد التصورات العقائدية التي تحدد أركان الإيمان ، و الشعائر ، و العبادات من الله و نستمد الأفكار و التصورات التي تحدد لنا طبيعة الأخلاق و القيم ، من جهة أخرى غير الله ، و نفس الشيء بالنسبة للمبادىء العامة لنظام الحكم ، و هذا هو المعنى الحقيقي و المدلول الكامل لكلمة التوحيد ـ أشهد أن لاإله إلا الله و أن محمدا رسول الله ـ فهي ليست كلمات و جمـــــل يـرددها

اللسان فتكون تأشيرة مروره إلى حظيرة الإيمان ، و لذلك وجدنا القرآن الكريم طيلة الفترة المكية التي دامت ١٣ سنة كاملة يركز على قضية الإيمان و التوحيد دون سواها من القضايا الأخرى التي فرضتها طبيعة المرحلة و العهد الجديد ، و يشرح الأستاذ سيد قطب سر إهتمام القرآن الكريم بهذه القضية المصيرية طيلة تلك الفترة التي أخذت من عمر الدعوة الإسلامية أكثر من النصف قائلا ـ يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية العقيدة في الإسلام ، كما تلخص قضية الدين ، فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة أن لاإله إلا الله و بهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ، و يجعل الألوهية لله ، و من ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ، و يجعل الحاكمية كلها لله ، و الدين في الإسلام هو دينونة ـ أي خضوع و إستسلام ـ العباد في واقعهم العملي كما هو الأمر في العقيدة القلبية لألوهية واحدة هي ألوهية الله ، و نقض كل دينونة ـ أي خضوع و إستسلام ـ في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين ـ .. إن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ ـ العبادة ـ و هو يؤمر به ، في مجرد أداء الشعائر التعبدية ، بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ، إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله ، و خلع الدينونة لغير الله من عنقه في أمره كله .. ـ لم يكن مدلول شهادة أن لاإله إلا الله و أن محمدا رسول الله هذا المدلول الباهت الفارغ الهزيل ، الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون ، لمجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ، و يؤدون بعض الشعائر التعبدية ، بينما ألوهية الله في الأرض و في حياة الناس لا وجود لها و لا ظل ـ في ظلال القرآن ـ فالحاكمية و هي كما رأينا في التعريف كلمة أو مصطلح يمكن أن يكون عنوان النظام السياسي الإسلامي الرباني في مقابل الأنظمة الوضعية ، ليس قضية ثانوية أو مسألة فرعية كما يرى عدد من المفكرين المعاصرين بل هي القضية الأم و الموضوع الأساسي بالنسبة للإسلام لأنها مرتبطة بالتوحيد الشامل لله ، وبكمال إيمان الإنسان المسلم ، و هي تشكل في وقتنا الراهن أهم خصائص الأمة الإسلامية التي خصها به الله سبحانه و تعالى ، و ميزها عن بقية الأمم الأخرى بالخيرية و الشهادة على الناس ، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، فكيف تكون الأمة قائدة و في مقدمة الصفوف إذا لم يكن لها مرجعية فكرية ربانية عليا ، تستمد منها تصوراتها العقائدية و ينبثق منها نظامها السياسي الخـــــاص بها

والذي يميزها عن الأمم الأخرى .

ـ الحاكمية في الفكر الإسلامي الحديث

يعتبر الأستاذ المودودي هو مؤسس نظرية الحاكمية بصيغتها الحديثة و مفهومها الجديد و مدلولاتها العصرية ، التي تعبر عن وجهة النظر الإسلامية فيما يتعلق بالسياسة أو نظام الحكم كما ذكرنا في الفقرات السابقة ، و في إستعراض آراء و مواقف المفكرين و المنظرين الإسلاميين المعاصرين ، لابد من التعرض لأسس و خصائص هذه النظرية من مصدرها الأول و هو السيد أبو الأعلى المودودي أحد العشرة الكبار الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في القرن العشرين ، و كما يقول د حسن لحساسنة و هو جزائري مقيم بماليزيا في كتابه الحاكمية في الفكر الإسلامي ، الصادر ضمن سلسلة كتاب الأمة ، فإن فكرة الحاكمية عند المودودي تبدو و كأنها جاءت في إطار مشروع تحدي لبعض الأفكار العلمانية التي إنتشرت في شبه الجزيرة الهندية في القرن العشرين ، بتأثير من الفكر الإستشراقي الذي سيطر سيطرة شبه كلية على النخب العربية و الإسلامية ، حتى أصبح في كل دولة أو منطقة إسلامية نخبا مسلمة شكلا تتبنى صراحة و بكل وقاحة أراء و مواقف المستشرقين في قضية الحكم الإسلامي ، في مصر وجدنا طه حسين و على عبد الرزاق الذي نفى وجود أية علاقة بين الإسلام و السياسة ، و إعتبره مجرد علاقة روحية بين الإنسان و الله ، في شبه القارة الهندية جاءت فكرة الحاكمية كما يرى د حسن حساسنة ،نتاجا لتحديات سياسية عاصرها المودودي بإعتباره شخصية إسلامية تبنت الدعوة للمشروع الإسلامي ، حيث ألف كتابه ـ تدوين الدستور الإسلامي ـــ ردا على المحامي ـ أ ك ، روهي ـ الذي إقترح على سبيل التحدي و التعجيز جائزة بخمسة آلاف روبية ، لمن يثبت بأن القرآن الكريم يحتوي على مبادىء دستورية ، فكان الأستاذ المودودي أول من تصدى له و ألف كتاب ـ أسس الدستور الإسلامي ـ أوضح فيه أسس و خصائص النظرية السياسية الإسلامية ، و تمكن من إقناع المحامي صاحب التحدي حيث ساهم في تقديم مشروع دستور جديد إلى المجلس التأسيسي متطابقا مع الشريعة الإسلامية ، و كما ذكرت في فقرة سابقة ، فإن دستور دولة باكستان الإسلامية هو الدستور الوحيد في العالم الإسلامي الذي نص في مادته الأولى على الحاكمية و ثبت الآية الكريمة ـــ إن الحكم إلا لله ـ و يشرح الأستاذ المودودي مشروع الدولة الإسلامية التي يقوم بناؤها وفقا لنظرية الحاكمية قائلا ـ

ـ الأساس الذي يقوم عليه بناؤها ـ يقصد الدولة الإسلامية الحديثة ــ هو تصور مفهوم حاكمية الله الواحد الأحد ، و أن نظريتها الأساسية هي الأرض كلها لله و هو ربها ، و المتصرف في شؤونها ، فالأمر و التشريع كلها قضايا خاصة بالله وحده ، و ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب ، بل و لا النوع البشري كله شيء من سلطة الأمر و التشريع ، فلا مجال في حظيرة الإسلام و دائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته كخليفة لله تباركت أسماؤه ــ و يعتمد المودودي بطبيعة الحال في إقناع الغير بفكرة الحاكمية بإعتبارها عنوانا لنظرية الحكم في الإسلام على العديد من الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع وهي كثيرة ، و قد ذكرنا نماذج منها في الفقرات السابقة و نذكر منها هنا نماذج أخرى .

{أُوْلَـئِكَ الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وكّلْنَا بِهَا قَوْماً لّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ } الأنعام89

{مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ أَسْمَاء سَمّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُواْ إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف40

{ وَهُوَ اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } القصص70

ـ الديمقراطية المقيدة

الديمقراطية كلمة يونانية تعني بكل بساطة حكم الشعب ، أي أن السلطة و السيادة و التشريع و تطبيق الأحكام ، للشعب ، يمارس تلك السلطة عبر ممثلين له في البرلمان ، أما الحاكمية كفكرة معبرة عن المشروع السياسي الإسلامي الحديث ، فتحصر صياغة و تصميم فلسفة الحكم و مرجعيته الفكرية ، والسلطة و السيادة و التشريع لله عز وجل ، نظريا على الأقل ، لكن المجال التطبيقي موكول بطبيعة الحال إلى الإنسان ، بل هناك مجالات كثيرة للتشريع يمكن للمؤسسات التشريعية في الدولة المسلمة أن تقوم بها ، كما أن آليات بناء النظام الإسلامي تكاد تكون هي نفسها الآليات التي يقترحها النظام الديمقراطي ، فمجلس الشورى المنتخب الذي يقوم بإنتخاب الرئيس و المصادقة على برنامج الحكومة و التشريع في إطار المرجعية الإسلامية العليا ، و هناك فصل تام بين السلطات التشريعية و القضائية و التنفيذية، بقي فقط التأكيد ان النظام الديمقراطي الغربي مفتوح و غير مقيد ويمكن أن

يذهب بعيدا ، حيث لا ضوابط و لا سقف معين و لا مرجعية ينتهي عندها و لا يتجاوزها ، بينما تكون الديمقراطية في النظام الإسلامي مقيدة بالمرجعية الفكرية العليا ، بمعنى أن هامش الحرية الممنوح للنخب الحاكمة على كافة المستويات التشريعية أو القضائية أو التنفيذية ، و حرية التنظيم السياسي و تكوين الأحزاب والجمعيات ، و حرية الصحافة و التعبير و الرأي ، مقيدة و مشروطة بعدم إختراق أو تجاوز المبادىء و القيم و الأفكار الإسلامية التي تحددها المرجعية الإسلامية العليا ، و لذلك يمكن أن نستخلص من مجمل أفكار و أراء الأستاذ المودودي الذي يبدو أنه إطلع بشكل جيد على الفكر السياسي الغربي و إستوعبه ، أن الحاكمية من وجهة نظره هي نوع من النظام السياسي الإسلامي الذي يمكن أن نسميه ب ـ الديمقراطية المقيدة . في مقابل الديمقراطية الغربية المفتوحة عن آخرها و التي ليس لها حدود تقف عندها ، فهو يدعو لنظام ديمقراطي في الإطار الإسلامي ، و هو تقريبا نفس المشروع الذي وضعته مجموعة الستة ـ ٦ ـ كهدف رئيسي من أهداف ثورة أول نوفمبر ـ بناء جمهورية ديمقراطية إجتماعية ذات سيادة في إطار المبادىء الإسلامية ـ

ـ الشيخ رمضان البوطي ـ ـ ـ لا حاكمية إلا لله

بطبيعة الحال تأثر كل الكتاب و المفكرين الإسلاميين المعاصرين بفكرة الحاكمية التي إخترعها المسلم الهندي االباكستاني العظيم أبوالأعلى المودودي ، و من سيد قطب الذي ربط الفكرة بموضوع الجاهلية و مستويات الإيمان بالنسبة للنخب الحاكمة و الشعب ،إلى الشهيد الشيخ سعيد رمضان البوطي فيلسوف العلماء الذي يؤكد في كتابه الرائع ـ كبرى اليقينيات الكونية . على أن قضية الحاكمية هي جزء من المنظومة الإسلامية الشاملة ، حيث قال في موضوع لاحاكمية إلا لله ، ووظيفة الإنسان تنفيذ حكم الله في الأرض ـ الآن ، و قد إستيقنت نفسك كل هذه الحقائق التي فرغنا من عرضها و بيانها موزونة بميزان المنهج العلمي ، معززة بأدلتها و براهينها التي يتطلبها العقل ، فأيقنت وجود الخالق العظيم جل جلاله ، ثم أيقنت تبعا لذلك أنه لم يخلق هذا الكون عبثا ، وما ينبغي له العبث بحال ، و أن الإنسان و هو سيد المخلوقات في الكون ، لابد أن يكون مكلفا بوظيفة معينة شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات الأخرى ، و لابد أنه مسؤول عنها تجاه خالقه جل جلاله ثم

تأملت في تاريخ الزمن و أحداثه فإستيقنت نبوة الأنبياء الذين بعثوا ، و كان من مقتضى ذلك أن تستيقن هذا الذي بعثوا إلى الناس به ، من الحقائق الإعتقادية عن الكون و الحياة و الأحكام التشريعية المطلوب إقامتها في الدنيا ، و التحذير من الإعراض عن ذلك ، الآن و قد إستيقنت كل هذا ، هل يخالجك أدنى شك في أن الحاكم إنما هو الله وحده و أنه صاحب السلطة التشريعية في الكون ؟ و هل يمكنك أن تنكر ذلك فتزعم أن الحاكمية في هذه الدنيا إنما هي للإنسان و أنه هو المشرع لنفسه ، ثم تجمع بين هذا الإنكار و بين الإيمان بكل هذه الحقائق التي سلف ذكرها ؟ لا أظنك قادرا على أن تكابر لتزعم أن ، بإمكانك أن تجمع بين ذلك الإنكار و هذا الإيمان ، ولا أظن أن أحدا من العقلاء الذين يصدقون مع أنفسهم يفعل ذلك ، إذا فالحاكمية إنما هي لله وحده ، هو المشرع لعباده في شتى شؤونهم المتعلقة بدنياهم و آخرتهم ، و هو المرجع في حل كل مشكلة من مشكلاتهم و إقامة كل تنظيم و دستور لحياتهم ، و من جحد ذلك فهو كافر بالله و رسوله ، و إن إدعى بلسانه الإيمان بالله و رسوله و صلى و صام و حج ، قامت على ذلك أدلة العقل و النقل من الكتاب و السنة ، وتم على ذلك إجماع المسلمين كلهم ، و حسبنا أن ننصت معا في تقرير هذا الحق إلى هذه الآيات من كتاب الله تعالى

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشّيْطَانُ أَن يُضِلّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{60} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدّونَ عَنكَ صُدُوداً{61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مّصِيبَةٌ بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{62} أُولَئِكَ الّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{63} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رّسُولٍ إِلاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنّهُمْ إِذ ظّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوّاباً رّحِيماً{64} فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتّىَ يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مّمّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُواْ تَسْلِيماً {65} سورة النساء

{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنْهُم مّعْرِضُونَ } النور48

{ إِنّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } النور51

ذلك أن الله عز و جل ، قضت مشيئته أن يجعل من كونه هذا مظهرا لألوهيته و صفاته ، فقضى أن يكون بعض هذا الكون مظهرا لذلك بمجرد الخلق و الإيجاد ، كالذي نراه من خلق السماوات و الأرض ، وخلق الإنسان و ما أودع فيه من فكر و عقل ، و قضى أن يكون بعضه الآخر مظهرا لذلك بواسطة الأمر و التكليف بخاطب بهما العقل و الإرادة ، و هو ما تراه من تشريع الله تعالى و نظامه اللذين ألزم بهما عباده ليقيموا دولته في الأرض على أساسها ، و جميع ذلك بقسميه ، مظهر لألوهية الله و عدالته و علمه و رحمته و شديد عقابه ، و الكثير من صفاته ، و كل ما يقع في الكون من التهارج و الظلم و الشقاء و نذر الفتك و الدمار ليس إلا نتيجة لإعراض الإنسان عن حكم الله و نظامه التشريعي اللذين أستودعهما لدى الإنسان و إستأمنه عليهما ، ليقيم دولة الأرض على أساسهما و يسوس الكون بمقتضاهما ـــ كتاب كبرى اليقينيات الكونية ، سعيد رمضان البوطي من ص ٢٧١ الى ص ٢٧٣

ـ وظيفة الإنسان

هناك إشكالية يصطدم بها الإنسان المسلم كمثقف و مفكر أو مجرد مواطنا بسيطا ، و تتعلق بموضوع التشريع ،جيث أشرنا إليها في الفقرات السابقة ، و نود أن نتعرف على رأي الدكتور البوطي فيها ، خاصة و أن هناك نوعا من الغموض ورثه بعض المسلمين من سوء الفهم لقضية التشريع كما تناولتها كتابات المودودي و سيد قطب ، و ربما لا تزال قضية التنفيذ هي الأخرى تحتاج إلى توضيحات كثيرة ، صحيح هناك أحكام و تشريعات مفصلة في القرآن الكريم و السنة النبوية المطهرة ، و بالمقابل هناك الكثير من القضايا المستجدة اتي تحتاج إلى تشريعات مطابقة للمرجعية الفكرية الإسلامية العليا ، و بما أن النظام الإسلامي أيا كان شكله شموليا أو ديمقراطيا أو حتى ملكيا يحتاج كغيره من الأنظمة السياسية إلى هيئة تشريعية إلى جانب الهيئتين التنفيذية و القضائية ، و مهام الهيئة التشريعية بطبيعة الحال متعددة و متنوعة منها على سبيل المثال إنتخاب الرئيس ، و المصادقة على برنامج الحكومة و إقتراح تشريعات و قوانين ، و المصادقة على التشريعات و القوانين المحالة إليها من طرف رئاسة الجمهورية أو رئاسة الحكومة ، إذن هناك تشريع رباني ، و تشريع بشري ، فما هي مجالات الإجتهادات البشرية و أين تبدا و أين تنتهي المساحة المخصصة للتشريع البشري في النظام الإسلامي ، بما أننا نؤكد أن الحاكمية هي النصوص التي تحدد طبيعة المرجعية الإسلامية العليا و التشـــريعات

و أنها أي الحاكمية من إختصاص و خصائص الألوهية ، التي لا ينبغي للبشر أن يدعوها لأنفسهم ، و أن وظيفة الإنسان و مهمته الأساسية في الأرض هي الخلافة بالإضافة الى وظائف أخرى يمكن شرحها في فصل آخر ، أي تنفيذ أحكام الله و تشريعاته في إطار سياسي منظم بأي شكل من الأشكال ، مجال التشريع البشري كما أشرنا إلى ذلك في الفقرات السابقة هو الإجتهاد في إطار المرجعية الفكرية العليا ، و الحرص على مطابقة التشريعات الحديثة للشريعة الإسلامية ،

ـ رأي الشيخ القرضاوي

الحاكمية بالنسبة للشيخ يوسف القرضاوي ، هي بعد ثالث من أبعاد التوحيد و ركن أساسي في العقيدة الإسلامية ، و هي احد أهم مظاهر الألوهية في جانبها السياسي المتعلق بالحكم و تسيير شؤون البلاد و العباد ، فالله في التصور الإسلامي ليس هو الله في التصورات اليهودية المحرفة أو الوضعية الزائفة التي تقول ــ تعالى الله عن ذلك غلوا كبيرا ـ بأنه خلق الكون و بقية المخلوقات و تركهم هملا يتصارعون فيما بينهم ـ الله في التصور الإسلامي هو الخالق و الرازق و الحكيم العليم ، الرحمن الرحيم ، خلق الكون و العباد وزودهم بعقول و قلوب ، و أرسل الرسل و الأنبياء لهداية البشر الى الطريق المستقيم و السبيل الواضح ، و سائر الكتب السماوية إحتوت على تصورات و أفكار تحدد علاقة البشر بالله و الكون ، و أنظمة و تشريعات عامة و مفصلة لتنظيم حياة البشر ، و يستعرض الشيخ القرضاوي في كتابة ــ أسماء الله الحسنى ـ في الفقرة التي تناول فيها موضوع الحاكمية ص ٤٢ الآيات البينات التي تتحدث عن قضية الحكم كقوله تعالى

{... إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } الأنعام57

{ أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصّلاً ... } الأنعام114

{.. إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُواْ إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } يوسف40

{ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } القصص88

هذه الآيات تعطينا دلالة مؤكدة أن الحكم لله وحده ، لا ينبغي أن ينازعه أحد فيه ، فهو وحده خالق الخلق ، و مالك الملك ، و مانح الحياة ، و معطي الرزق ، ومهيء كل الأسباب للناس ، ما علموا منها و ما لم يعلموا ، .. الحكم له معنيان أصليان ، الحكم الخلقي ـ بفتح الخاء و سكون اللام ـ و الحكم الأمري ، و أحيانا يعبر عنه بالحكم الكوني و الحكم التشريعي ، و من الحكم الأول أن الأمور كلها لله يصرفها كيف يشاء ، يعطي و يمنع ، يرفع و يخفض ، يصل ويقطع ، يعز و يذل ، يهدي و يضل ، يوسع على من يشاء و يضيق على من يشاء ، فما يجري به القدر على الإنسان من خير و شر ، من نعيم أو بؤس ،فهو حكم الله التكويني كما قال تعالى على لسان سيدنا يعقوب لأبنائه .

{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } يوسف67

و على لسان أكبر أبناء سيدنا يعقوب ، حين لم يعودوا بأخيهم

{... فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف80

فهذا حكم الله القدري في الخلق ، فهو يجري كما قدر الله وفق سنته الماضية

و النوع الثاني من الحكم هو الأمر التشريعي الذي يرجع فيه إلى ما انزل الله على رسله من الآيات البينات والأحكام الشرعيات ، ومن الأوامر و النواهي ، و من التحليلات و التحريمات ، ومن المستحبات و المكروهات ، فعلى الناس أن يخضعوا لحكم الله و تشريعه ، و أن يقولوا عندما يسمعون حكم الله ـ سمعنا وأطعنا ، و لا يجوز لمؤمن أن يسمح لنفسه أن يقف معارضا لحكم الله تعالى ، أو متوقفا فيه ، أو متشككا في تبنيه ، إسمع لقوله تعالى

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{47} وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{48} وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ{49} أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{50} إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{51} وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{52}

ـ رأي الأستاذ محمد قطب

إن شهادة أن لاإله إلا الله و أن محمدا رسول الله معناها أن الشخص الذي ينطق بالشهادة ، قد أقر بالعبودية لله وحده ، قد أقر بأنه لا يوجد إلا الله ، و لا يوجد معبود بحق إلا الله ، فمن شأن الإله أن يعبد ، و مادام لا يوجد إلا اله واحد سبحانه و تعالى ، فليس هناك إذن من تنبغي له العبادة إلا الله ، و لا يجوز التوجه بالعبادة إلا لسواه ،فما معنى العبودية لله ؟ ترى نحن إذا نطقنا بالشهادة وحدها و لم نقر بها في قلوبنا نكون قد عبدنا الله ؟ و إذا نحن نطقنا بها بألستنا ثم أعلنا ـ بأفواهنا و أفعالنا ـ أن أوامر الله ليست ملزمة لنا ، و أن من حقنا أن نخالفها كلها ، أو نتخير منها أشياء ننفذها و أشياء أخرى لا نلتزم بتنفيذها ... هل نكون قد عبدنا الله ؟ هل تكون قلوبنا قد أقرت بالفعل بالعبودية لله ؟ كلا فالإقرار معناه الإلتزام و إلا فهي كلمة تقال باللسان ، و لا رصيد لها من الواقع ، و قد أنزل الله شريعة تحتوي أحكام الحلال و الحرام و أمر بتنفيذ هذه الشريعة في واقع الأرض ، فإذا جاء إنسان يقول بلسانه ـ لاإله إلا الله محمد رسول الله ثم يرفض أن يتحاكم إلى شريعة الله ، و يضع لنفسه حلالا من غير ما أحل الله ، و حراما غير ما حرم الله ، فما قيمة الكلمة التي يقولها لسانه ؟ **(إن الدين عند الله الإسلام)** آل عمران ١٩ والإسلام هو إسلام الوجه لله ، أي التوجه الكامل إلى الله في الإعتقاد فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أو يحي أو يميت إلا الله ، و التوجه لله في شعائر التعبد ، فلا يصلي إلا لله و لا يصوم إلا لله ، و لا يزكي إلا لله ،و لا يحج إلا لله ، و التوجه الكامل له في الدعاء ، فلا يدعو إلا لله ، و التوجه الكامل له في أصول الحكم ، فلا يحكم إلا بما أنزل الله ، والتوجه الكامل في الأخلاق و السلوك فلا يتخذ قيما أخلاقية و لا قواعد سلوكية إلا ما أمر الله به ، هذا هو الإسلام الحقيقي و هذا هو المدلول الحقيقي لشهادة أن لاإله إلا الله ، و المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يلتزم بهذا الأمر ، فتكون أحكامه و أفكاره و معتقداته و أخلاقه وسلوكه جميعها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله إنه لا يكفي أن نعبد الله داخل المسجد ، بإقامة الشعائر التعبدية هناك ، و خارج المسجد تكون لنا وجهة أخرى غير الله ، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا و معتقداتنا وسلوكنا و أحكام الحلال و الحرام غير الله ــ ركائز الإيمان ص ٩٤ ـ ٩٥

ـ الحاكمية ... من قضايا الأصول أم الفروع ؟

قال الإمام الموسوعي الشهرستاني ـ **(و أعظم خلاف بين الأمة ، خلاف الإمامة ، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان)**

طبيعة الحاكمية و النظام السياسي الإسلامي ، أو ما يسمى في الفكر الإسلامي القديم ، السياسة الشرعية والإمامة ، هل هي قضية أصولية تدرس كأمهات القضايا العقائدية و الفكرية أم هي قضية فرعية ؟ فإذا أدركنا ان الحاكمية هي التعبير العصري عن عنوان النظام السياسي الإسلامي ، في مقابل الأنظمة السياسية الحديثة السائدة في أرض الواقع ، أدركنا أيضا أنها قضية رئيسية و مهمة و أساسية في الإسلام ككل ، الإسلام كدين و كعقيدة و كفكر و ممارسة و أخلاق ، و إذا أفترضنا ذلك جدلا هل الحاكمية فرض أم سنة ، فرض عين أو فرض كفاية ؟ لنرى ماذا تقول كتب السياسة الشرعية القديمة و ماذا يقول المنظرون القدامى في هذه القضية ، الشيخ الماوردي فيلسوف زمانه يقول في كتاب الأحكام السلطانية ـ الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين و سياسة الدنيا ، و عقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع ، و أختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع ، فقالت طائفة وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء في التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم و يفصل بينهم في التنازع و التخاصم ، و لولا الولاة لكانوا فوضى مهملين ، و همجا مضاعين ، وقالت طائفة أخرى ، بل وجبت بالشرع دون العقل ، لأن الإمام يقوم بأمور شرعية قد كان مجوزا في العقل أن لا يرد التعبد بها ، فلم يكن العقل موجبا لها ، و إنما أوجب العقل أن يمنع كل واحد نفسه من العقلاء عن التظالم و التقاطع لكن جاء الشرع بتفويض الأمور إلى وليه في الدين ، قال عز و جل **(يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم)** ، فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد و طلب العلم ، فإذا قام بها من هو أهلها سقط فرضها على الكفاية ، و إن لم يقم بها أحد ، خرج من الناس فريقان ، أحدهما أهل الإختيار حتى يختاروا إماما للأمة ، و الثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة ، و ليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج و لا مأثم ، و بحدد الإمام الماوردي سبعة شروط لمن يريد الترشح للخلافة أو الرئاسة بالتعبير العصري و هي العدالة ، العلم ، سلامة الحواس من السمع و البصر و اللسان ، سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن إستيفاء الحركة و سرعة النهوض ، الرأي المفضي إلى سياسة الرعية و تدبير المصالح ، الشجاعة و النجدة المؤدية إلى حماية

البيضة و جهاد العدو ، النسب و هو أن يكون من قريش ، لورود نص فيه ، يقول النبي ﷺ الأئمة من قريش ، و الدكتور محمد ضياء الدين الريس ، يشرح في كتابه النظريات السياسية في الإسلام ، عبارة الماوردي و يعلق عليها كما يلي ــ فهذا التعريف يشمل ثلاثة عناصر ، أن الإمامة خلافة عن النبوة ، و أن مهمتها حراسة الدين أولا ، ثم سياسة الدنيا ثانيا ، و يلاحظ أن النص على العنصر الأخير كاف في الدلالة على أن الماوردي كان يرى أن مما يدخل في صميم إختصاصات النبوة سياسة الدنيا ، و قوله حراسة الدين يفيد أن وظيفة الإمام حراسته و حمايته و الذب عنه ، لا شرحه أو التبديل فيه ، و عرفها التفتازاني بأنها ـ رئاسة عامة في الدين و الدنيا ، خلافة عن النبي ﷺ و هذا التعريف لا يختلف كثيرا عن تعريف الماوردي ، فهو يجمع بين أمري الدين و الدنيا ، إلا أنه زاد هنا كلمة ـ الرئاسة وصفها بأنها عامة ، و الإمامة عند إبن خلدون هي ــ حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي ، في مصالحهم الأخروية و الدنيوية الراجعة إليها ، إذ الأحوال ترجع كلها عند الشارع إلى إعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين و سياسة الدنيا به ـ ليصل الدكتور ضياء الريس الى تعريف خاص للإمامة و هي ــ الحكومة الإسلامية الشرعية التي تكون الشريعة الإسلامية قانونها ، فما حكمها يا ترى هل هي واجب ، فرض عين ، أم فرض كفاية ، أم سنة مؤكدة ؟ يجيب الدكتور ضياء الريس عن هذا السؤال في فقرة بعنوان مذهب الوجوب ــ إذا كانت هذه طبيعة الحكم الإسلامي أو الإمامة فإن أول مسألة يعنى العلماء بتقريريها ممن يبحثون هذا العلم ، هي مسألة وجوب قيام هذا الحكم ، و أن وجود هذا الحكم ضروري ، إن إقامته حتم او فرض على المجتمع أو الأمة ، إن لم تقمه تتحمل خطأ كبيرا ، و هذا هو رأي الأكثرية العظمى ، و الرأي الذي قال بوجوب الإمامة و أن إقامتها فرض على الأمة يجب أن تنفذه هو رأي أهل السنة جميعا ــ و نفهم من كلام الدكتور ضياء الريس و هو أفضل من كتب في القضايا السياسية المعاصرة من منظور إسلامي ، أن الحاكمية أو الإمامة العظمى ، أو إقامة النظام السياسي الإسلامي الذي يستمد فلسفته و قيمه و تشريعاته وقوانينه و منظموته الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية و الأخلاقية من الإسلام ، هو من فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقطت عن البعض الآخر ، و لم يقم به أحد أو مجموعة أثم الجميع ، و هو في تقديرنا من أعظم فروض الكفاية لأنه يتعلق بتنفيذ شريعة الله في الأرض و إقامة الحدود و تسيير شؤون الدولة و المجتمع و الأمة و رعاية مصالح الشعب

و هناك إجماع تام بين أهل السنة على فرضية الإمامة ، حيث ثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم بمجرد ما بلغهم نبأ وفاة الرسول ﷺ بادروا إلى عقد إجتماع في سقيفة بني ساعدة بمبادرة من الأنصار أولا، و دون علم أو إستشارة أو مشاركة المهاجرين الذين إلتحقوا بمقر الإجتماع مباشرة بعد وصول الخبر ، و تركوا موضوع تجهيز الرسول و تشييع جنازته ، و كما يعلم الجميع فإن معظم كبار الصحابة إلتحقوا فورا بسقيفة بني ساعدة و من بينهم أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، و كما تذكر كتب التاريخ فقد حاول الأنصار إغتنام فرصة إنشغال المهاجرين بوفاة الرسول ﷺ لتنصيب خليفة للمسلمين منهم ، و بالتالي فقد فرضوا على المهاجرين مناقشة قضية كان يمكن تأخيرها يوما أو يومين حتى الإنتهاء من دفن خير البرية الرسول المصطفى عليه أفضل السلام ، فحصل العكس و هو تعجيل تنصيب الخليفة و تأجيل دفن الرسول الكريم ﷺ و قد كان يمكن مثلا أن يتفق رؤوس الأنصار و المهاجرين على تأجيل دراسة موضوع الخلافة و الإهتمام بوفاة الرسول ﷺ لكن أبوبكر الصديق و عمر بن الخطاب فضلا حسم هذه القضية قبل دفن الرسول ﷺ و ليس يوجد في الأرض من يحب الرسول ﷺ أكثر من أبي بكر و عمر، فماذا نستنتج من ذلك ، عندما نربط هذا الحدث بكل حيثياته مع ما قاله الموسوعي الفيلسوف الكبير الشيخ الشهرستاني ـ بأن أول خلاف وقع بين المسلمين هو الخلاف حول الإمامة ـ و هو كلام سليم تؤيده الأحداث و الوقائع التي جرت منذ وفاة الرسول ﷺ الى يومنا هذا ، فلماذا يختلف المسلمون منذ وفاة الرسول الكريم ﷺ حول الإمامة أو الرئاسة لدرجة سل السيوف و قتال بعضهم البعض ؟ و ما قيمة هذه ــ الإمامة ــ و أثرها في المجتمع و الدولة و الأمة ؟ حتى يتقاتل الناس من أجلها ؟ إن قضية الإمامة أو الحاكمية أو السلطة بالتعبير الحديث هي أهم قضية في الوجود لأنها تتعلق بالرئاسة و الحكم و السلطة ، و هي من أوجب الواجبات و من أعظم فروض الكفاية ، و قضية أساسية و رئيسية تعتبر من أمهات القضايا الإسلامية و تأتي في مقدمة المواضيع الإسلامية ، و قد يقول قائل أن هذه القضية ليست موجودة او مصنفة ضمن أركان الإيمان الستة المعروفة ، كما أنها ليست مصتفة ضمن أركان الإسلام الخمسة المعروفة ، و هذه في تقديري نظرة ساذجة و قاصرة و بسيطة ، لأن قضية الحاكمية أو السلطة في الإسلام مرتبطة بأهم ركن في الإسلام و هو كلمة التوحيد ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الحاكمية ركن هام من أركان التوحيد و من أهم خصائص الألوهية كما قرر ذلك العلماء المسلمون في القديم و الحديث

و هي أيضا من أهم واجبات و وظائف الإنسان في الأرض ــ قال رب العزة (**إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**) أما الشيخ رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده و أستاذ الشهيد حسن البناء فيقول في هذا السياق ـ و أما السياسة المدنية فقد وضع الإسلام أساسها و قواعدها ، و شرع للأمة الرأي و الإجتهاد فيها لأنها تختلف بإختلاف الزمان و المكان ، و ترتقي بإرتقاء العمران و فنون العرفان ، و من قواعده فيها أن سلطة الأمة لها ، و أمرها شورى بينها و أن حكومتها ضرب من الجمهورية ، و خليفة الرسول فيها لا يمتاز في أحكامها على أضعف أفراد الرعية ، و إنما هو منفذ لحكم الشرع و رأي الأمة ، و أنها حافظة للدين و مصالح الدنيا و جامعة بين الفضائل الأدبية ، و المنافع المادية و ممهدة لتعميم الأخوة الإنسانية ، وقد أجمع سلف الأمة و أهل السنة و جميع الطوائف الأخرى ، على أن نصب الإمام ـ أي توليته على الأمة ـ واجب على المسلمين شرعا لا عقلا فقط ، و إستدلوا بـ

اولا: إجماع الأمة أي الصحابة ، و تقديم موضوع الخلافة على دفن الرسول ﷺ.

ثانيا: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب و يتعلق بأمور تسيير شؤون الدولة و السهر على مصالح الشعب ، و توفير مستلزمات الحياة ، و إقامة الشريعة و الفصل بين الناس و حفظ النظام و الأمن و غيرها من ألقضايا المتعلقة بسياسة الدنيا .

ثالثا: قيام الدولة يجلب منافع و يدفع مضار لا تحصى ، و ذلك واجب بالإجماع .

رابعا: المصالح المشتركة ين الإمام و الرعية ـ الحاكم و المواطنين ، توفير العدل و الأمن و أسباب المعيشة ، مقابل الطاعة و الإتباع فيما يرضي الله . خاصة

بعد هذا الإستعراض السريع لأراء المفكرين القدامى و المعاصرين لموضوع الخلافة نستنج ان الموضوع يشكل محورا رئيسيا في الفكر الإسلامي و في العقيدة و في الإسلام بصفة عامة ، و هو ليس من القضايا الفرعية كما يتوهم عدد من الكتاب و المفكرين القدامى و المعاصرين خاصة ، و إن كان للقدامى بعض العذر لأن قضية الحكم بما أنزل الله كانت منذ تأسيس أول حكومة إسلامية في المدينة المنورة على يد الرسول المصطفى ﷺ و حتى قبيل سقوط الخلافة العثمانية أواخر العشرية الثانية من القرن العشرين ، كانت مسألة بديهية و أحد المسلمات الكبرى التي لا يختلف حولها أو يعترض عليها إنسان مسلم ، و هي مرتبطة بالواقع و لا يمكن لمسلم صحيح الإيمان و سليم الفطرة أن يتصور أن الخليفة المسلم قد يحكم بغير ما أنزل الله ، أو يستورد قوانين و تشريعيات لتنظيم شؤون الدولة في مختلف مجالات الحياة ، و لهذا السبب ربما صنفها عدد من الذين كتـــــبوا في موضـــوع

السياسة الشرعية في باب الفروع ، و هي في حقيقتها و جوهرها مسألة هامة من مسائل الفكر الإسلامي ، و العقيدة الإسلامية ، و ذات علاقة عضوية بالإسلام كدين و دولة و عقيدة و شريعة ، كما أنها ذات صلة وثيقة بكلمة التوحيد و هي أي الحاكمية جزء رئيسي من العقيدة الإسلامية و بعد أساسي من أبعاد التوحيد و من أهم خصائص الألوهية ،

ـ الفريضة الغائبة

الحاكمية أو النظام الإسلامي الذي يستمد مقوماته و خصائصه من القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة و إجماع الأمة و القياس ، هو النظام السياسي الذي صممته العناية الإلهية و صاغته يد الرحمن لصالح المسلمين و البشرية جمعاء ، و هو كلمة الله الأخيرة الى عباده ، و ما دام الله هو الخالق والرازق والمحي و المميت ، و هو الحي القيوم و ملك الملوك ، فهو الذي يملك حق إصدار المرجعية الفكرية العامة و المبادىء الأساسية للتشريع و القوانين و الأحكام التفصيلية التي يراها ضرورية ، و الإسلام كدين كما يعلم الجميع مبني على فكرتين متكاملتين هما العقيدة و الشريعة ، حيث إمتدت فترة تكوين التصورات العقائدية و بناء العقيدة السليمة في نفوس المسلمين طيلة الفترة المكية أي على مدار ١٣ سنة ، و القرآن المكي مليء بالآيات التي تتناول بالتفصيل مختلف قضايا العقيدة ، و بعد الهجرة النبوية الى المدينة المنورة تأسست النواة الأولى للدولة الإسلامية حيث نزلت تشريعات و أحكام تتعلق بناء الدولة و رعاية المجتمع و تكوين الأمة ، و طيلة فترة الحكم الراشد و رغم إختلاف طبيعة الخلفاء الراشدين بين الشدة و اللين ، كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع و إستمر الوضع إلى غاية إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية رغم ما يمكن أن يوجه من إنتقادات و تحفظات إلى الأمويين و العباسيين و العثمانيين و مختلف الدوليات و الإمارات التي حكمت بإسم الإسلام في العالم الإسلامي، ومع إلغاء الخلافة الإسلامية ظهر مشروع فصل الدين عن الدولة إقتداء بالغرب المسيحي الذي ضاق ذرعا بتصرفات الكنيسة ، و رغم أن النصوص الشرعية حاسمة بالنسبة لقضية الحكم بما أنزل الله ، فأن النخب الإسلامية التي وصلت إلى السلطة في العالم الإسلامي فضلت إستيراد نظم و تشريعات و قوانين و تجارب سياسية و إقتصادية جاهزة من الإتحاد السوفياتي و فرنسا و أمريكا و فصلت بشكل نهائي بين الإسلام و الدولة و إكتفت بوضع مادة في الدساتير تعتبر الإسلام دين الدولة ، و هناك دول أخرى أعتبرت في دساتيرها الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع لكن هذه المادة ظلت مجرد ديكورا للإستهلاك المحلي دون تطبيق على أرض الواقع ، و يبقى مشروع تطبيق الشريعة الإسلامية هو الفريضة الغائبة و الحلم الكبير الذي ينتظر تحقيقه على أرض الواقع كل مسلم و مسلمة

فالإمامة العظمى بالمفهوم القديم أو الحاكمية أو النظام الإسلامي بالمفهوم الحديث واجبة على الأمة و هي فرض كفاية و هي قضية رئيسية أصلية يتفق حولها المسلمون بجميع فرقهم و مذاهبهم و إتجاهاتهم ، و لست قضية فرعية قد يختلف حولها المسلمون ، و إهتمام الخطاب الإسلامي في القرآن الكريم خاصة بهذه القضية ، بذلك الشكل الذي نلاحظه ، يشير إلى أهميتها في الفكر الإسلامي و موقعها ضمن الإطار العام للإسلام كعقيدة و شريعة ، و الحاكمية كموضوع يمكن أن تعالج ضمن السياقين العقيدي التصوري بإعتبارها جزءا مهما من العقيدة وذات إرتباط عميق بالتوحيد بصفة عامة و هي أحدى أهم خصائص الألوهية ، و في نفس الوقت يمكن أن تعالج ضمن الإطار النظري كجزء مهم من الشريعة ، فيمكن أن نقول درءا للخلاف ـ أنها تجمع بين الأصول و الفروع ، أو أنها قضية أصولية أساسية رئيسية بالنسبة للوجه العقائدي التصوري ، و فرعية بالنسبة للجانب العملي و التطبيقي ، و هو بطبيعة الحال مجال واسع و مفتوح و معرض للتغيير و الإختلاف بإختلاف الزمان و المكان و الناس، و في القرآن الكريم كما ذكرنا سابقا إهتمام كبير بهذه القضية حيث نجد الكثير من الأيات تتناول موضوع الحكم في أكثر من سورة و في أكثر من مناسبة ،حيث نجد أن الخطاب الإلهي واضح و

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ...) المائدة{48}

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ }ص26

{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة50

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } المائدة44

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } المائدة45

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } المائدة47

و جلي ومباشر ، و هو أمر ألهي بنص الآية ـ فأحكم بينهم بما أنزل الله ،، فأحكم بين الناس بالحق ـ و لا تتبع الهوى ، و الهوى هو تعبير راق و أنيق عن المرجعيات و التصورات والتشريعات الوضعية البشرية التي يصنعها الناس بأنفسهم لأنفسهم و هي

تصورات و تشريعات قاصرة و معرضة للخطأ و متأثرة بالضرورة بكل العوامل الذاتية و النفسية و الخلقية التي تعتري الإنسان ، ولذلك نجد الدساتير و القوانين البشرية تخضع دائما إلى التغيير و التعديل ، بخلاف التصورات و التشريعات الربانية الصادرة عن الله ، خالق الكون و الإنسان و الحياة ، عالم الغيب و الشهادة ، يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير ، فالحكم بما أنزل الله هو من دون نقاش و لا سفسطة ولا جدال طويل فريضة إسلامية لآ تقل أهمية عن بقية الفرائض الدينية ، و هي الآن فريضة غائبة عن كل المجتمعات الإسلامية ، و المسلمون نخبا و شعوبا بسطاء يتحملون المسؤولية كاملة أمام الله لتعطيل هذه الفريضة العظيمة التي بها يتميز المسلمون عن غيرهم من الأمم الأخرى ، بتصوراتهم الفكرية و العقائدية و بتشريعاتهم و منظومتهم القانونية ،

ـ المبادرة بالحاكمية

عرفنا أن الحاكمية و إقامة النظام الإسلامي على الأرض فريضة على كل مسلمة و مسلمة ، إذا قام بها البعض سقطت عن البعض الآخر ، لكن السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو من الذي يبادر بالدعوة الى الحاكمية ، في الوضع السياسي الذي تعيشه الأمة الإسلامية حاليا و في كل الظروف التي تغيب فيها الحاكمية عن الواقع ، هل تكون المبادرة أفقية من السلطة أو النظام الحاكم أو من القاعدة أي من الشعب ؟ و ما هو الحكم الشرعي في الأنظمة السياسية العلمانية التي تحكم العالم الإسلامي بتصورات أرضية و تشريعات وضعية من تصميم الكفار و المشركين ؟ و هل الشعوب المسلمة تتحمل جزء من المسؤولية في غياب الحاكمية ؟ أم أنها غير معنية بالأمر لأنها بعيدة عن السلطة و عن السياسة ؟ للإجابة على هذه الأسئلة نعود قليلا إلى الوراء ، إلى فترة النبوة حيث نجد أن الرسول الكريم ﷺ بصفته مسؤولا سياسيا عن المسلمين قد إستجاب لأمر الله سبحانه و تعالى و أقام نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، فكانت المبادرة أفقية ، و لما توفى الرسول ﷺ تحولت المسؤولية إلى أمانة بين يدي النخب السياسية ، حيث بادر الأنصار الى الإجتماع في سقيفة بني ساعدة من أجل مناقشة موضوع خلافة الرسول ﷺ ثم تفطن للأمر عدد من الصحابة فأخبروا أبو بكر الصديق و عمر فألتحقا بمكان الإجتماع و لحق بهما عدد غير قليل من الصحابة ، فكان ذلك الإجتماع أول لقاء سياسي لتحديد مستقبل الدولة الإسلامية و مناقشة حيثيات و تفاصيل إنتقال السلطة من الرسول ﷺ الى غيره من المسلمين ، يعني أن المبادرة كانت صادرة من القاعدة ، و بما أن إقامة الحاكمية أو النظام الإسلامي هي من حيث الحكم الشرعي ، فرض كفاية ، فلابد أن تكون المبادرة من طرف النخبة السياسية أو الفكرية و هذه النخبة هي التي يسميها الخطاب القرآني ب ـ الأمـــــة ـ

وهم مجموعة من الناس ، يصطلح على تسميتهم في الفكر الإسلامي ب ـ أهل الحل و العقد ـ و يقابلهم في زماننا لجنة الترشيحات التي تتكفل بإختيار مرشح الحزب للإنتخابات الرئاسية بالنسبة للأنظمة الشمولية ذات الحـــزب الواحد ، أو مجـــالس

{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }آل عمران104

{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } الأعراف181

الشورى و البرلمانات المنتخبة بالنسبة للأنظمة البرلمانية ، و في الأوضاع التي تعيشها الأمة الإسلامية حاليا و هي محكومة بتصورات و تشريعات وضعية بشرية منذ إسقاط الخلافة الإسلامية على ـ ضعفها و شكلانيتها ـ تصبح الشعوب المسلمة مسؤولة عن تلك الأوضاع المزرية مسؤولية غير مباشرة لأنها تخلت عن فضيلة الدعوى إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و تنازلت عن سلطتها الشرعية و لم تعد تتحكم في الوضع كما ينبغي ، أما الحكم الشرعي بالنسبة للأنظمة العلمانية التي تسيطر على العالم الإسلامي و تدير الدولة وفق تصورات و تشريعات وضعية بشرية مستوردة من الغرب ، فالنصوص القرآنية جد واضحة في نفي الإيمان عن كل شخص مسلم يتولى منصب رئاسة الدولة ، لكنه لا يحكم بالشريعة الإسلامية ، فالنصوص المتعلقة بموضوع الحكم جد واضحة و معظمها أيات محكمات لا تحتاج إلى تأويل .

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ...) المائدة{48}

{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }المائدة50

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } المائدة44

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } المائدة45

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } المائدة47

{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ }النور48

ـ كيف بستعيد المسلمون الحاكمية

هناك عدة طرق ووسائل لإستعادة الحاكمية و إعادة الحكم بما أنزل الله ، بإعتماد الإسلام كمرجعية فكرية و فلسفية للدولة و مصدرا أساسيا للتشريع ، و قد دلت التجارب التي عاشها المسلمون مع إندلاع ثورات الربيع العربي من تونس الشقيقة ثم إمتدت إلى ليبيا و مصر و اليمن و سوريا ان أعداء الحاكمية من الكفار و المشركين و المنافقين هم النخب السياسية و العسكرية العلمانية التي تربت و صنعت على يد الغرب ، و أن هذه الأنظمة العلمانية التي تسيطر على العالم الإسلامي منذ سنوات طويلة لن تستسلم بسهولة ، فالمسار الديمقراطي قد ثبت فشله عدة مرات من خلال التجارب التي وقعت في تركيا و الجزائر و مصر ، حيث تدخل العسكر لإلغاء نتائج الإنتخابات أو عزل الحكومة ذات الأغلبية الإسلامية ، أو حتى سجن الرئيس المنتخب بطريقة ديمقراطية لمجرد أنه يمثل تنظيما سياسيا إسلاميا ، أما مسألة التغيير بالقوة أي إستعمال العنف بمختلف أشكاله و الدخول في حرب غير متكافئة مع الأنظمة السياسية العلمانية ، فقد أثبتت تجربة ألجزائر أن هذا المسار غير مضمون النتائج و أن سلبياته على الحاكمية أو المشروع الإسلامي أكثر من إيجابياته ، و أن الأنظمة السياسية العلمانية الجاثمة على صدر الأمة تملك من الوسائل و الأسلحة الكفيلة بإجهاض أية محاولة عسكرية ، و حتى طريقة الإنقلابات العسكرية ليست مجدية بدليل فشل تجربة الجنرال حسن البشير الذي قاد إنقلابا عسكريا و تبني مشروعا إسلاميا معتدلا ، لكنه غرق في مشاكل داخلية لا حصر لها و تحول النظام الإسلامي السوداني إلى ديكتاتوريا إسلامية ، و من خلال دراسة الثورات الحديثة الناجحة يمكن القول أن أحسن طريقة لتغيير الأنظمة السياسية الحاكمة في العالم الإسلامي ، هي طريقة التكوين و تهيئة المجتمع و إختراق النخب و المؤسسات المدنية و العسكرية ، و التغلغل داخل مفاصل النظام ، وهي طريقة قد تستغرق من عمر المشروع سنوات طويلة ، تستعمل فيها كل الوسائل المشروعة و الممكنة خاصة أدوات الإتصال الحديثة من فضائيات و شبكات التواصل الإجتماعي ، ثم تأتي المرحلة الثانية الحاسمة و الأخيرة ، و هي قيام ثورات شعبية سلمية قوية و مركزة و ضاغطة تستهدف تغيير الأنظمة الحالية بأنظمة إسلامية حديثة تعترف بالديمقراطية و التعددية و حرية الرأي و التعبير ، و لنجاح ثورات التغيير السلمية يجب أن تكون مؤسسات الجيش في كل الدول التي تنتمي جغرافيا إلى العالم الإسلامي مؤيدة للتغيير السلمي في الإتجاه الإسلامي أو على الأقل محايدة بشكل جيد و غير معنية بالشأن السياسي ، بمعنى أن الطريق الوحيد المضمون للتغيير السلمي هو التربية و التكوين و الدعوة و تسويق المشروع الإسلامي بمختلف الوسائل لإكتساب أكبر عدد ممكن من الأنصار و المؤيدين

الفصل الرابع (4)

الكـــون

{ إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَالْفُلْكِ الّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السّمَاءِ مِن مّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ وَالسّحَابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } البقرة164

{إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لّأُوْلِي الأَلْبَابِ }آل عمران190

{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللّيْلَ سَكَناً وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } الأنعام96

{ إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللّيْلَ النّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنّجُومَ مُسَخّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ } الأعراف54

{ هُوَ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنّهَارَ مُبْصِراً إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } يونس67

{وَهُوَ الّذِي مَدّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلّ الثّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللّيْلَ النّهَارَ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ } الرعد3

{وَسَخّر لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ } إبراهيم33

{ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ وَأَنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } الحج61

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ } القصص71

{لَا الشّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللّيْلُ سَابِقُ النّهَارِ وَكُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } يس40

{وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السّمَاءِ مِن رّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ آيَاتٌ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }الجاثية5

{وَاللّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ }التكوير17 {وَاللّيْلِ وَمَا وَسَقَ }الانشقاق17

{وَاللّيْلِ إِذَا يَسْرِ } الفجر4 {وَاللّيْلِ إِذَا سَجَى }الضحى2

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } النمل60

{أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }النمل61

{ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } النمل62

{أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }النمل63

{أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } النمل64

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ{22} وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{23} وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{24} وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ{25} وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{26} وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{27} الروم

(وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ{33} وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ{34} لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{35} سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ{36} وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{37} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{ 38} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{39} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{40} يس

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{71} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{72} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{73} يس

(و الهاكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في خلق السماوات و الأرض ...) الآ ية ١٦٤ سورة البقرة ، في هذه الآية الكريمة نلاحظ ربطا راقيا و تنسيقا جميلا بين تأكيد توحيد الألوهية و هي الحقيقة الكبرى في الوجود و في التصور الإيماني في كل زمان و مكان ، توحيد الألوهية حقيقية عقائدية كبرى تتفق حولها مبدئيا كل البشر ، و لم تعرف البشرية منذ نشأتها نقاشا عميقا أو جدلا بزنطيا حول هذه الحقيقة أي وجود الله ، لكن تختلف تصورات البشر حول ذاته سبحانه و تعالى و صفاته و طبيعة و شكل علاقتهم بالله ، و لم تعرف البشرية إنكارا تاما لوجود الله عز وجل سوى مع مطلع القرن العشرين بظهور المذهب الشيوعي الإلحادي الذي ينكر وجود الله ، و هو من دون شك تصور غبي أثبتت الأيام زيفه لأنه تفكير يصادم الفطرة السليمة أو حتى العادية التي تنطق صباح مساء بترانيم نابعة من القلب والروح تلهج بوجود الله سبحانه و تعالى ، فوجود الله سبحانه و تعالى حقيقة ثابتة و أصيلة مركوزة في الفطرة البشرية و في العقل و النفس و الروح ، لا ينكرها إلا غبي متعمد الغباء ، ربط جميل بين حقيقة الألوهية و بين دلائل الخلق و الإبداع ، دلائل وجود الخالق و بصماته العميقة في الكون و الحياة و النفس، إن في خلق السماوات و الأرض ،،، إن الخلق صفة ثابتة من صفات الله عز و جل وهي إحدى خصائص الألوهية التي لا يمكن أن يتصف بها مخلوق ، و خلق السماوات و الأرض ليس بالشيء الهين أو السهل ،و الإنسان هذا المخلوق الهائل و العظيم من كثرة معايشته للأرض و السماء سنوات و سنوات أصبحت بالنسبة إليه أشياء عادية لكن في حقيقة الأمر هي مخلوقات عجيبة و الأرض و السماء ليست فقط ما يراه الإنسان من مظاهرها و أشكالها التي تتراءى لنا كل يوم و كل ليل ، هناك أمور كثيرة إكتشفها العلم الحديث تدل على عظمة الخالق و قدرته و هناك من دون شك اسرار أخرى عجزت البشرية عن إكتشافها ،،، وحدة الألوهية هي الحقيقة الكبرى في الوجود ، تعنى كذلك أن الله هو المصدر الصحيح لكل التصورات العقائدية و الفكرية و الأخلاقية و مصدر العبادات و المعاملات و مصدر النظام السياسي و الإقتصادي و الإجتماعي الصالح لكل البشرية في كل زمان و مكان ، إن في خلق السماوات و الأرض ... الآية ربط ذكي و أنيق بين حقيقتين أزليتين قد تغفل عنهما البشرية أحيانا ، لكنها تعود بسرعة لتعترف بهما و هما حقيقة الألوهية و دلائل القدرة و عجيب الصنعة ،، خلق السماوات و الأرض ، إختلاف الليل و النهار ، الفلك التي تجري في البحر ، إنزال الماء من السماء ، تصريف الرياح ، السحاب المسخر ، كل هذه الدلائل و غيرها كثير يمر بها الإنسان المسكين كل يوم و كل ساعة و كل لحظة و من كثرة الإلفة و المعايشة ، تتماهى و تصبح أمورا عادية ، إن خلق السماوات و الأرض لشيء رهيب ، و نحن البشر و بغض النظر

عن الأبحات و الإكتشافات العلمية الحديثة لا نكاد نعرف عن طبيعة السماوات و الأرض شيئا ، كيف تدور الأرض حول نفسها و حول الشمس ليتشكل من دورانها الأيام و الليالي و الأسابيع و الشهور و السنوات ، كبف تدور الأرض و هي بالنسبة لنا ثابتة لا تتحرك و حتى و إن كانت تتحرك و تدور فلا أحد من البشر يشعر بذلك التحرك و الدوران ، والله سبحانه و تعالى و هو يؤكد لعباده حقيقة الألوهية يلفت إنتباههم إلى حقائق الوجود ليبعدهم في نفس الوقت عن التفكير في ذاته العلية لأن هذه المنطقة ليست في متناول البشر و ليست في حدود إمكانيات العقل البشري ، الله سبحانه و تعالى يدعو عباد الى التأمل الواعي و العميق في هذه الحقائق الكونية الكبرى التي قد تفقد جدتها و غرابتها و عظمتها و سحرها للعقل و القلب من طول الألفة يقول الأستاذ سيد قطب في خواطره حول هذه الآية ــ تلك السماوات و الأرض ، هذه الأبعاد الهائلة و الأجرام الضخمة و الآفاق المسحورة ، و العوالم المجهولة هذا التناسق في مواقعها و جريانها في ذلك الفضاء الهائل الذي يدير الرؤوس ، هذه الأسرار التي توصوص للنفس و تلتف في رداء المجهول - - . هذه السماوات و الأرض حتى دون أن يعرف الإنسان شيئا عن حقيقة أبعادها و أحجامها و أسرارها التي يكشف الله للبشر عن بعضها حين تنمو مداركهم و تسعفهم أبحاث العلوم ، و أختلاف الليل و النهار ، تعاقب النور و الظلام توالي الإشراق و العتمة ، ذلك الفجر و ذلك الغروب ... كم إهتزت لها مشاعر ، و كم وجفت لها قلوب ، و كم كانت أعجوبة الأعاجيب ، ثم فقد الإنسان وهلتها و روعتها مع التكرار ، إلا القلب المؤمن الذي تتجدد في حسه هذه المشاهد ، و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ... و أشهد ما أحسست ما في هذه اللفتة من عمق قدر ما أحسست و نقطة صغيرة في خضم المحيط تحملنا و تجري بنا ، و الموج المتلاطم و الزرقة المطلقة من حولنا ، و الفلك سابحة متناثرة هنا و هناك ولا شيء إلا قدرة الله و إلا رعاية الله ، و إلا قانون الكون الذي جعله الله يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج و خضمها الرعيب ــ في ظلال القرآن المجلد ١ ص ١٥٢ و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابة ، و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء و الأ رض ... و كلها مشاهد و لوحات و صور و مخلوقات من صنع الله الخالق القادر على كل شيء لو أعاد الإنسان شريط هذه المصنوعات العجيبة و تأمله بعيون مفتوحة و قلب واع لأهتزت جوانحه و إرتجف كيانه و تخلخلت أعصابه من هذه العظمة التي تبهر العقول و القلوب و تلك القدرة العجيبة الممزوجة بالرحمة و المرحمة و الشفقة و الغفران ، تأمل تلك الأرض القاحلة الجرداء التي يثير منظرها اليأس و الإحباط و فقدان الأمل ، كيف تتحول الى جناة حافلة بالأشجار و الثمار و الجمال و الخيرات

و الظلال عندما تجود العناية الإلهية بقطرات ماء نافعة **(و آية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) يس 37** منذ بدء الحياة على وجه الأرض و منذ بدأ الإنسان يدب و يمشي و يمارس حياته بأي شكل من الأشكال و هو مدرك لهذه الظاهرة الطبيعية ، تعاقب الليل و النهار في شكل روتيني لا يكل و لا يمل ، و لم تعرف البشرية المسكينة و هي تسير في طريقها الطويل الذي يتجاوز عمره مليارات السنين أو تسمع او تشهد و ترى بعينيها أن الليل قد تخلف ذات يوم عن موعده و لم يأت ، كما لم تشهد البشرية عبر مشوارها الطويل فوق الأرض من يوم خلق الله سيدنا أدم الى يومنا هذا أن النهار قد تخلف عن موعده و لم يطلع الفجر و إستمر الليل الى ما بعد وقته المعتاد ، حدوث مثل هذه الظاهرة المخالفة للسنن الكونية و لما إعتاد الناس يعتبر خللا خطيرا في نظام الكون ، يحدثنا الله عز وجل في كتابه العزيز عن هذه النعمة بأسلوب راق و بكلمات أنيقة تتجاوز العقول الى القلوب فتلامس الأرواح و النفوس ، الأرواح النقية الطاهرة النظيفة و النفوس الزكية الراقية ، و ليتخيل الإنسان بينه و بين نفسه مجرد تخيل أو تمثيل ، كيف تكون الحياة على وجه الأرض من دون نهار أو من دون ليل ، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بشكل طبيعي إن جعل الله سبحانه و تعالى الليل سرمدا إلى يوم القيامة و معنى سرمد هو ليل طويل و مظلم دائم و مستمر لا فجر بعده و لا نهار ينتظره الإنسان ، ربما حتى بعض الكائنات الحية كأنواع معينة من النباتات الإستراتيجية و حتى الكمالية كالقمح و الشعير و الخضر و الفواكه قد لا تساعدها أجواء الليل السرمدي الطويل ، و الليل السرمدي معناه أيضا غياب الشمس عن الوجود و عن الأرض ، و لا أحد يمكن أن يجادل في حاجة البشرية و حاجة الأرض و الحياة الى الشمس و قد لا يدرك الإنسان قيمة الشيء مهما كان قريبا منه بفعل الإلفة و التكرار حتى يفتقده ، و حياة من دون نهار تعني حياة من دون شمس فما قيمة الحياة من دون شمس ، إن مجرد تصور مثل هذه الحياة مجرد تصور ذهني يصيب الإنسان بالدهشة و الرعب و التشاؤم و الإنهيار ، و في نفس الإتجاه يذكر الله عباده بنعمة النهار ، هذه الظاهرة الطبيعية التي تتكرر و تتابع في وتيرة قد لا تتغير سوى بنسبة قليلة قد تشكل الفارق البسيط بين أيام الصيف الطويلة

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } القصص72

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ } القصص71

و أيام الشتاء القصيرة ، أو العكس عندما تصبح ليال الشتاء طويلة الى درجة الملل و أيامه قصيرة قد لا تسمح للناس بقضاء حوائجهم ، هذه الظواهر الكونية التي قد يتناساها الإنسان من طول الإلفة و التكرار، ظواهر طبيعية عادية هي في التحليل النهائي تعبر عن عظمة الخالق و قدرته العجيبة في تدبير الكون بشكل منتظم و منظم يبلغ في جميع الحالات درجة الإبداع التي يصعب تقليده **(و آية لهم الليل نسلخ منه النهار .... يس)** أنظر لذلك التعبير الراقي الأنيق و البليغ ، عندما يتحول الى مشهد حي تشاهده أمامك ، و تتراءى لك عملية سلخ النهار من الليل كما تسلخ الجلد من جسم الكبش بعد ذبحه ، و ظاهرة قدوم الليل كل مساء عند الغروب ظاهرة مألوفة عند جميع الناس من يوم خلق الله سيدنا أدم على وجه الأرض ، بإستثناء بعض المناطق في القطبين الشمالي و الجنوبي التي يدوم فيها الليل و النهار أسابيع و أشهر ، و ظاهرة طلوع الفجر و شروق الشمس معلنين عن قدوم نهار جديد ، ظاهرة طبيعية تعايشت مع الإنسان منذ بدء الخليقة و من طول التكرار و الألفة أصبحت ظاهرة طبيعية و عادية ، لكن في حقيقة الأمر هي أكبر من ذلك بكثير ، إن مجرد التفكير في كيفية تعاقب الليل و النهار بتلك الطريقة العجيبة ، كيف يطلع النهار بعد ليل دامس مظلم قد يطول وقد يقصر و أين يذهب ذلك السواد الذي كان يلف الدنيا ، و من أين يأتي الضياء النور و الصبح و الفجر و اليوم الجديد ، ثم في المساء ، كيف تغرب الشمس و تذهب عن جهة الأرض لتشرق على الجهة الأخرى من الكرة الأرضية ، كيف يتم هذا النظام العجيب الليل و النهار الشمس و القمر الظلام و الشروق و الضياء ، مجرد التفكير العميق في هذه الظواهر الكونية العجيبة مجرد التفكير البسيط و العابر ، دون محاولة التحليل العميق لطبيعتها و إكتشاف كنهها يصيب الدماغ البشري بالدوار و القلب البشري بالعجب ، و منذ خلق الله الكون و خلق السماوات و الأرض و الشمس و القمر و البشر و الحيوانات و النباتات لم تشهد البشرية إخنلالا في طبيعة الكون يؤثر على نظامه و طريقة سيره ، لم تسمع البشرية في مشوارها الطويل الذي يمتد مليارات السنوات أن الشمس تخلفت عن الشروق يوما ما أو أن القمر لن يعد يظهر في السماء ، نظام رباني عظيم و ودقيق **(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل في فلك يسبحون)** سبحان الله العظيم ، يقول الأستاذ سيد قطب في خواطره حول هذه الآيات الكريمات ـ التعبير القرآني عن هذه الظاهرة في هذا الموضع تعبير فريد فهو يصور النهار متلبسا بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون ، و لعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ، فإذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الأرض وإنزوت عن

الشمال إنسلخ منها النهار و لفها الظلام و هكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بإنتظام ، و كأنما نور النهار ينزع أو ينسلخ فيحل محله الظلام ، فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير **(و الشمس تجري لمستقر لها)** و الشمس تدور حول نفسها ، و كان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها ، و لكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها ، إنما هي تجري فعلا ، تجري في إتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون بإثني عشر ميلا في الثانية ، و الله ، ربها الخبير بجريانها و بمصيرها ، يقول أنها تجري لمستقر لها ، هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه ، ولا يعلم موعده سواه ، و يستطرد الأستاذ سيد قطب قائلا في نفس السياق - و حين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، و أن هذه الكتلة الهائلة تتحرك و تجري في الفضاء ، لا يسندها شيء ، ندرك طرفا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة و عن علم ذلك تقدير العزيز العليم ، و القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم و العباد يرون القمر في منازله تلك .. يولد هلالا ، ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدرا ، ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم ، و العرجون هو الغذق الذي يكون فيه البلح من النخلة ، - عرجون التمر - و الذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب **(حتى عاد كالعرجون القديم)** و بخاصة على ذلك اللفظ - القديم - و الحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر و خواطر ندية ثرية موحية عميقة ، و القلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات و إستجابات و من سبحات مع اليد المبدعة للجمال و الجلال ... و أخيرا يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ، و يرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق - **(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل في فلك يسبحون)** في ظلال القرآن ـــ نظام بديع لتسيير و أدارة الكون ، دقة عالية و تنظيم محكم عالي المستوى ، تعجز عن تقليده و لو بنسبة قليلة أذكى عقول البشر و ما صنعته عقول البشر ، و حتى أدق الأجهزة الإلكترونية التي أخترعها العقل البشري في السنوات القليلة الماضية ك آلة الحساب و الكومبيوتر و الأقمار الصناعية و غيرها ، قد اثبتت التجارب و التطبيقات أنها يمكن أن تتعطل أو ترتكب بعض الأخطاء و بمجرد أنها يمكن أن تتعطل أو تتوقف يوما عن النشاط ، فهي أجهزة محدودة بحدود قدرة العقل البشري ، و العقل البشري منذ خلق الله الإنسان و الحياة على وجه هذه الأرض و هو يشاهد و يلاحظ و يتعاش مع تلك الظواهر الطبيعية العجيبة طلوع الشمس و غروبها و إختفائها أحيانا خاصة في فصل الشتاء لتحل محلها السحب و الرعـــود و البرق و الأمطـار ، لكنها ما تلبث أن

لتعود من جديد في مواعيد ثابتة قد تغير من فصل الى فصل و من شهر الى آخر لكنها على كل حال مواعيد ثابتة و كذلك القمر ... هذه الكتلة الضوئية التي لا أحد يعرف بالضبط أسرارها و مكوناتها ، هام بها العشاق و الكتاب ، و تغزل بها الشعراء و ضربوا بها الأمثال لطول السهر و معاناة الفراق ، ما هي ؟ كيف تظهر في أوقات معينة و في مواعيد منتظمة ؟ ثم تختفي ؟ لماذا يبدأ على شكل هلال و ينتهي الى نفس الشكل ؟ ما هي القدرة العجيبة التي تتحكم في تسيير القمر بتلك الدقة العجيبة ؟ هي القدرة الإلهية طبعا ؟ منذ بدء الخليقة و الشمس و القمر يؤديان دورهما في دقة و إتقان ، و لم تعرف البشرية في يوم من الأيام وطيلة عمر الأرض الذي يمتد مليارات السنوات أنه حصل خلل طفيف أو إرتباك في هذه المنظومة الكونية الصغيرة التي تضم الشمس و القمر و هما ظاهرتان طبيعيتان مسؤولتان عن تكوين الليل و النهار ، الليل بالنسبة للقمر و النهار بالنسبة للشمس ؟ ابدا لم يحصل اي إختلال أو إرتباك في هذا النظام الكوني العجيب ، و لم يحدث يوما أن الشمس قد أشرقت في وقت القمر اي في الليل ، أو أنها بقيت مشرقة بعد وقت الغروب ، و نفس الشيء بالنسبة للقمر ، كل ما هنالك هما ظاهرتان فلكيتان قد تظهر أحداهما في أوقات معينة و ربما في أماكن معينة لحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله سبحانه و تعالى هما ظاهرتي الخسوف و الكسوف ، نعود الى الأستاذ سيد قطب لنستمتع بخواطره الجميلة حول هذه الآيات حيث يقول ـ و قد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم و الكواكب ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم و التصدع ـ حتى يأتي الأجل المعلوم ـ فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار ، لا يزحمه في طريقه ، لأن الدورة التي تجري بالليل و النهار لا تختل أبدا ، و حركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح فهي مع ضخامتها لا تزيد أن تكون نقطا سابحة في ذلك الفضاء المرهوب ، و إن الإنسان ليتضاءل و يتضاءل و هو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، و الكواكب السيارة ، متناثرة في ذلك الفضاء ، سابحة في ذلك الخضم ، و الفضاء من حولها فسيح .. فسيح ، و أحجامها الضخمة تائهة ـــ في ظلال القرآن ص ٢٩٢٩ ـ حقا إن العقل البشري السليم غير الملوث بالأفكار السلبية و الفطرة السليمة النقية الصافية ، تدركان من دون سفسطة أو تفلسف ان صناعة الكون و تسييره بتلك الطريقة المثالية العجيبة و الدقيقة ، لا تستطيع ان تقف وراءه قوة أخرى سوى قوة الله و قدرته و عظمته ، و الشمس و القمر و الليل و النهار هم فقط نماذج بسيطة من هذا الكون الفسيح ، و هي على بساطتها تؤكد وجود الخالق الصانع المدبر ، كما تؤكد عظمة الخالق و و حدانيته و قدرته العجيبة المبهرة

و في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تناولت الظواهر الكونية العجيبة و تحدثت عن بداية الكون و اهم مظاهرة ، و في هذا الكتاب الذي يتناول قضية التصور الإسلامي لا يمكننا على أية حال الإلمام بجميع الآيات الكريمات ، لكن يمكننا أن نستأنس بعدد قليل منها كما فعلنا في الصفحات السابقة ، و من الآيات الكريمات التي تتحدث صراحة عن بدء الخلق هي قوله تعالى في الآية ال ٣٠ من سورة الأنبياء

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } الأنبياء30

و قد خاض المفسرون في القديم و الحديث في معنى هذه الآية الكريمة ، و ذهبوا في عدة إتجاهات ، لكن العلم الحديث و الكشوفات و الأبحاث أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم هو أصدق كتاب على وجه الأرض ، فالآية الكريمة تتحدث عن مادة طبيعية تسميها الرتق ، و الرتق هو عبارة عن طبقة واحدة ، سديم ممتد و منه تكونت السماوات و الأرض بكلمة واحدة هي كن فيكون ، و نحن المسلمون عندما تطالعنا مثل هذه الآيات التي تتناول الظواهر الكونية و القضايا العلمية لا نتوقف عند تفسيرها العلمي كثيرا ، و لا نفرح بالنظريات العلمية التي قد تأتي مطابقة للنص القرآني ، فالنص القرآني ثابت و دائم و غير متحرك لا متغير لأنه صادر عن رب العزة الذي لا يغفل و لا ينام ، و قد نعتبر أن معظم تلك الآيات التي تناولت بعض القضايا العلمية من الأيات المتشابهة التي لا يعرف حقيقتها و كنهها إلا الله سبحانه و تعالى ، و أن العقل البشري عاجز كل العجز عن تفسير بعض الظواهر الطبيعية ، كل ما نستطيع الوصول إليه هو فهم تلك الآيات على ظاهرها دون الغوص في أعماقها ، فالقرآن الكريم يذكر أن السماوات و الأرض كانتا رتقا أي طبقة واحدة أو سديم و تم فتقهما أي تقسيمهما و فصلهما عن بعضهما البعض و من خلال عملية الفصل هذه تكونت النواة الأولى للكون و الحياة ، و في كتب السير و التاريخ نقرأ مثلا عن بداية الكون ـ روت الرواة بألفاظ مختلفة و معان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السماوات و الأرض ، خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السماوات و الأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلا و إرتفع منه زبد و دخان و بخار ، و أرعد من خشية الله ، فمن ذلك اليوم **(ثم إستوى إلى السماء و هي دخان)** أي قصد و عمد الى خلق السماء و هي بخار ، و خلق من ذلك الزبد الأرض ، فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء ، مكة المكرمة فدحا الله الأرض من تحتها ، فلذلك سميت أم القرى ، يعني أصلها ، و هو قوله **(والأرض بعد ذلك دحاها)** و لما خلق الله الأرض كانت طبقا واحد ففتقها و صيرها سبع ـ من كتاب عرائس المجالس ـ الشيخ النيسابوري

ـ بعض الظواهر الكونية في القرآن الكريم

ذكر الله سبحانه و تعالى في كتابه الكريم ، العديد من الظواهر الكونية التي تدل على عظمة الخالق ووحدانيته و قدرته غير المحدودة ، و بطبيعة الحال فليس هنا مجال لإستعراض تلك الظواهر و الآيات التي تناولتها ، لكننا ستحاول الإلمام بنماذج منها على سبيل المثال فقط ، فالسماوات السبع و هي إحدى عجائب الخلق ذكرت في القرآن بعدة أسماء و أوصاف ، فهي بناء ـ **و (السماء بناء)** ، و هي سقف ـ **(و جعلنا السماء سقفا محفوظا)** ، و هي طرائق ـ **(وجعلنا فوقكم سبع طرائق)** ـ و هي طباق ـ **(الذي خلق سبع سموات طباقا)** ـ و هي الشداد ـ **و (و بنينا فوقكم سبع شدادا)** ـ و الرتق و الفتق ـ **(كانتا رتقا ففتقناهما)** ـ و الدخان ـ **(ثم أستوى الى السماء و هي دخان)** ـ و ذكر الله عز و جل في كتابه العزيز عشرة عناصر ساعدت على إظهار و تقوية جمال و رونق و بهاء السماوات و هي الشمس ـ **(و جعل الشمس سراجا)** ـ القمر **(وجعل القمر فيهن نورا)** الكواكب **(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)** العرش **(رفيع الدرجات ذو العرش)** الكرسي **(وسع كرسيه السموات و الأرض)** اللوح و القلم **(و كل شيء أحصيناه في إمام مبين)** البيت المعمور **(و البيت المعمور و السقف المرفوع)** عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن في السماء الدنيا بيتا يقال له البيت المعمور بجبال الكعبة و أن في السماء السابعة بحرا من نور يقال له الحيوان ـ و سدرة المنتهى **(عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى)** أما مع إقتراب نهاية العالم و بداية الحياة الأخرى فقد وعد الله عز و جل السماوات بسبع مآلات و تحولات هي المور **(يوم تمور السماء مورا)** أي تدور كما تدور الرحى من هول يوم القيامة ، تصير كالمهل **(يوم تكون السماء كالمهل)** تتحول الى وردة **(فإذا إنشقت السماء فكانت وردة كالدهان)** الإنشقاق **(و إذا السماء إنشقت)** الإنفطار **(و إذا السماء إنفطرت)** ، الإنفراج **(و إذا السماء فرجت)** الكشط **(و إذا السماء كشطت)** الطي **(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب)** و السماوات و الأرض كأحد أهم مظاهر العناية الإلهية و الإعجاز في الخلق و التدبير هي من آيات الله المبهرة التي تحير العقول و الألباب و هي أيضا مصدر الحياة و النمو و التطور، فمن السماء تنزل الأمطار و الغيث و تشرق الشمس و يطلع القمر و كلها عوامل تساعد على أسباب العيش و الراحة ، و في الأرض تجري المياه الباطنية و مياه الينابيع و الوديان لتسعاد على تعمير الأرض و زراعتها و إستثماراها ، و توفير كل وسائل الحياة الكريمة و من خيرات الأرض تعيش الحيوانات البرية الأليفة التي يستفيد الإنسان من لحومها و دهونها و جلودها و أصوافها و أشعارها ، و الأرض كمحطة هائلة في هذا الكون الفسيح قد ذكرت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة حسب وظيفتها

فهي موطن و مصدر الحياة و مستقر و متاع ، و فضاء للخلافة و التعبد ، و مصدر للرزق و البحث الدائم عن تحقيق السعادة ، و ساحة للنظر و التأمل للسياحة و الإعتبار ، و النظر في تاريخ الأمم السابقة للإستفادة منه في الحاضر و المستقبل ، و هي واحة التمكين لإقامة حكم الله في الأرض وفق مرجعيته الفكرية و التشريعات الربانية ، و هي أيضا ساحة للصراع الفكري و المادي و التنافس بين الشعوب و الأمم ، هي موقع للإبتلاء و الفتنة و مسرح شياطين الإنس و الجن و في الآيات الكريمات التي نوردها بعد حين نماذج حية للخطاب القرآني و موقفه من الظواهر الطبيعية ، من التراب ، الطين ، و هما إحدى مكونات الأرض و منه خلق الله أدم ، و تراب الأرض هو مأوى الإنسان بعد الموت ، و من الأرض يخرج الإنسان يوم القيامة .

{ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة22

{ ... وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }البقرة36

{ يَا أَيُّهَا النّاسُ كُلُواْ مِمّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيّباً وَلاَ تَتّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشّيْطَانِ إِنّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مّبِينٌ } البقرة168

{ وَهُوَ الّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنّهُ لَغَفُورٌ رّحِيمٌ } الأنعام165

{ إِنّ فِي اخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتّقُونَ } يونس6

{ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنّذُرُ عَن قَوْمٍ لاّ يُؤْمِنُونَ } يونس101

{ وَكَذَلِكَ مَكّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف56

{ ... أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... } يوسف109

{وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ شَيْءٍ مّوْزُونٍ } الحجر19

{ إِنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } الكهف7

{ إِنّا مَكّنّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلّ شَيْءٍ سَبَباً } الكهف84

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا }مريم90

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى } طه53

{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه55

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ } الأنبياء16

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } الأنبياء105

{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }الأنبياء31

{الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } الحج41

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } الحج46

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }الحج65

{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } المؤمنون18

{أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }النمل61

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } فاطر41

{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ } يس36

{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ } الدخان29

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } الأنبياء30

هذه عينة مختارة من الآيات الكريمات التي تناولت قضية هذا الكون الهائل ، و قدمت معلومات و تفاصيل قيمة عن بدء الخلق ، خلق السماوات و الأرض و أجابت عن العديد من الأسئلة التي كانت لا تزال محيرة للعقول - - - الكون هذا المخلوق الهائل و العجيب بأرضه و سمائه و جباله و سهوله وأنهاره و وديانه ، و شمسه و قمره و الكواكب التي نعرفها و التي لا نعرفها ... كيف بدأ الخلق ؟ هذا هو السؤال المحير الذي تجيب عنه الآية الكريمة من سورة الأنبياء **(أولم ير الذين كفروا أن السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما)** فقبل الوجود لم يكن موجودا إلا الله الواحد الأحد الأول و الظاهر الخالق الرازق ، ليس قبله شيء ، في هذا الفصل ، سنحاول الإستئناس بالتفسير العلمي لنشأة الكون من خلال أخر الكتابات و الموسوعات العلمية الإسلامية ذات الشهرة العالمية و السمعة الطيبة و الموضوعية يقول الأستاذ الدكتور ماهر أحمد الصوفي في الموسوعة الكونية الكبرى ، في موضوع - كوكب الأرض - كنتيجة للمبدأ البشري بسبب وجود الإنسان على الأرض ، فإننا نمتلك معارف عن كوكب الأرض أكثر بكثير مما نمتلكه عن بقية كواكب المنظومة الشمسية ، كتلة الأرض تبلغ قرابة ستة ملايين مليار كلغ ، و يبلغ قطرها في خط الإستواء ١٢٧٥٦ كلم ، و كثافتها الوسطية ٥٫٢٥ غرام للسنتي متر مكعب ، و حقل ثقالتها في الإستواء ٧٨.٩ متر ا مربعا ، و تدور الأرض حول نفسها مرة كل ٩٣٤٥ . ٢٣ ساعة و تبلغ مدة دورانها حول الشمس ٣ - ٣٦٥ يوما ، و تبعد وسطيا عن الشمس ٦ . ١٤٩ مليون كلم ، و يمثل هذا العدد المسافة الفضلى لنشوء الحياة و إستمراريتها ، و الأرض ليست كروية تماما ، فهي مسطحة قليلا في القطبين ، و ذات إنتفاخ بسيط في محيط الإستواء - يزيد قطرها في الإستواء ٢٤ كلم عن قطرها القطبي ، فشكل الأرض أقرب الى البيضوي الإهليليجي - و يعزى هذا التسطيح القطبي و الإنتفاخ الإستوائي الى قوة النبذ الناجمة عن دوران الأرض حول نفسها و بخاصة بعد تشكيلاها مباشرة من ٤ الى ٥ مليار سنة ، إذ يفترض أن مدة تدويرها حول نفسها كانت آنئذ سريعة جدا ، و تبلغ ما بين ساعتين و ثلاث ساعات فقط ، و مركز الأرض يتألف من نواة داخلية صلبة ، تتوضع فوقها نواة خارجية صلبة تتوضع فوقها نواة حارجية سائلة ، و تتألف كلا النواتين من الحديد بنسبة ٢٤ في المائة من كتلة الأرض الكلية ، و من الكبريت ٥ في المائة ، و من النيكل ٣ في المائة ، و قد يعزى وجود هذه العناصر الثلاثة بالذات الى شدة إستقرار نوى هذه العناصر التي قاومت التفاعلات النووية الحرارية ،

و يقدر بعد بداية النواة الخارجية ٢٩٠٠ كلم عن سطح الأرض ، و يبلغ نصف قطر النواة الخارجية قرابة ٢٢٠٠ كلم ، أما نصف قطر النواة الداخلية فيبلغ ١٢٥٠ كلم تقريبا ، و تلي النواة الخارجية طبقة تعرف ب المعطف و تبدأ على عمق ١٠ كلم من قاع المحيط ، و تمتد حتى بدء النواة الخارجية .

ـ أصل الحياة : تكاثرت الآراء حول أصل الحياة و تباينت فيما بينها فقد جاء على لسان أرسطو أن ، بعض أصناف الحيوانات و النباتات قد تولدت بشكل تلقائي من المادة اللاعضوية كالمعادن و الحجارة و التربة و الهواء و غيرها ، فعرفت نظريته بإسم التوالد الذاتي التلقائي و هي تقوم على أساس أن المادة تحتوي في بعض أجزائها على عنصر ناشط يمكن من توليد كائن حي في حال وجد في بيئة ملائمة ، هكذا توالت التجارب نحو تأكيد نظرية مفادها أن كل كائن حي يتولد من كائن حي آخر مشابه له ، فعرفت بنظرية الإستتباع الحيواني ، و غيرها ، حتى جاء لويس باستار عند نهاية القرن التاسع عشر فأكد إستحالة التكوين التلقائي عبر تجارب عديدة مستعملا كل الوسائل و الأدوات العلمية و مستفيدا من تجربة من سبقوه فوضع حدا لكل التأويلات حول أصل الحياة . . ـ و لا تزال الأبحاث تجري حول مختلف الآراء و النظريات . . . إن ما حدث على الأرض قد يكون نموذجا لتطور الحياة على أي كوكب آخر ، فالأرض تكاثفت من الغاز بين النجمي ـ و من الغبار ـ السدم ـ و في الأيام المبكرة من حياة الأرض ، كان البرق يومض في جوها الغازي مؤديا إلى حدوث تفاعلات ، إتحادات كميائية من مكوناته الغازية ، و النواتج الكميائية المتولدة إنحلت في المحيطات مشكلة نوعا من الحساء تزايد في تركيزه مع مرور الزمن ، و فجأة دبت الحياة في الجزئي الناتج وولد نسخة جديدة عنه ، و إستخدم ذلك الجزئي الجزيئات الأخرى الموجودة في الحساء ، فكان ذلك هو الجد الأعلى في الدنا ، و ذلك قبل قرابة أربعة مليارات سنة ، ثم أخذت بعض الجزئيات تنتج غيرها ، و كانت عملية التكاثر هذه غير تامة من جيل الى آخر ، و الأجيال الناتجة ليست نسخا تامة عن والديها و إشقائها ، و سبب تلك الفروق يعود الى زيادة التلاؤم و التكيف مع الوسط المحيط بها ، و مع إستمرارية الإنتاج و التغيير الإحيائي ، وقانون الإصطفاء الطبيعي ، كان التطور يتقدم سائرا دوما نحو التعقيد و التخصص ، و هكذا ظهرت الخلية الحية الأولى ، و بعد ذلك تواجد منها نوعان ، تميز أحدهما بوجود مصانع صغيرة في بنياتها تدعى حبيبات اليخضور كلور بلاستيك ، و كانت تلك الحبيبات تقوم بإمتصاص غاز الكربون من الجو و الماء من الأرض صانعة منها فحوما هيدروجينية تتغذى بها الخلية ، و مخزنة جزءا من هذا الغذاء ، و أثناء الإمتصاص تقوم بإطلاق غاز الأكسوجين الى الجـو

كناتج من نواتج التفاعل السابق الذي يحدث في ضوء الشمس في ساعات النهار ، أما النوع الآخر من الخلايا الحية فكانت تتضمن على نوع آخر من المصانع تدعى ـــ ميتوشوندرين ـ التي يحدث فيها إتحاد للغذاء مع الأكسجين الممتص من الجو لإستخراج الطاقة الضرورية لإستمرارية الحياة ، و غذاؤها هي الفحوم الهيدروجينية ذاتها المختزنة في النبات ، و تتواجد المصانع الأخيرة في الخلايا النباتية و الحيوانية و أمكن التعرف على بعض منها مما تركته من آثار الصخور القديمة المتصلبة ، و قد عرف منها بقايا خلايا نباتية وحيدة الخلية تدعى بالأشنيات المجهرية و طحالب و بقايا حيوانية هي عبارة عن أصداف لبعض العضويات تشبه البكتريا ، و لقد سيطرت تلك الأشكال لمدة ثلاثة مليارات سنة من عمر الأرض ، و أن الخطوات الأولى في هذا الطريق ليست معلومة لأنها ظهرت عندما كان عمر الأرض مليار سنة فقط ، و لأن الأشكال المبكرة من تلك الخلايا كانت سريعة العطب لم يتبق منها أية آثار تذكر ، و لقد رافق ظهور الخلايا الوحيدة ظهور الجراثيم بأنواع متعددة ، ثم تلا ذلك المرحلة مرحلة جديدة إتصلت فيها الخلايا الوحيدة ببعضها بغية تأمين غذائها بشكل أوفر و لتؤمن حماية أكثر لها الى أن بلغ عددها في جسم الإنسان حوالي ١٠٠ ترليون خلية حية ، كما أنها جنحت الى طريقة أخرى في التكاثر و هو التكاثر الجنسي الذي عرفته الكائنات الحية قبل ملياري سنة لتسهيل عملية تبادل جزئيات الدنا .

ـ نشأة الكون : لكل شيء بداية و خالق ، و ماتت مع الزمن كل نظرية تقول غير ذلك ، فدعاة الأزلية الذين يدعون أن الكون موجود من الأزل و لا بداية له و لا نهاية ماتت نظريتهم بعد ثبوت نظرية أكثر العلماء بداية الخلق و حدوث ـ الإنفجار الكبير ـ و كذلك ماتت كل نظريات الملحدين و الوجوديين و بأن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها و العلم و العلماء أثبتوا لهذا الكون نشأة و بداية ، فالعالم الفلكي ـ جيمس جينز ـ يقول الراجح أن مادة الكون بدأت غازا منتشرا خلال الفضاء و أن السدائم خلقت من تكاثف هذا الغاز ، و يقول الدكتور ـ جامو ـــ إن الكون في بدء نشأته كان مملوء بغاز موزع توزيعا منظما ـ فالعلماء يصورون منشأ هذا الكون بالغاز ... إن تشبيه مادة خلق السماوات بالدخان دون الهباء أو البخار أو الهواء يشير إشارة رائعة مدهشة الى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران ، كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء ، خفيفة و منتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب ، ساخنة الى حد ما و هي كالدخان العادي حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة الصلبة و السائلة و الغازية ، إن ولادة الكون بالإنفجار الكبيـــر نظرية وضعها الرياضيـــون

و الفزيائيون الفلكيون كفرضية لتفسير نشوء الكون ، و كان يطلق على هذه الفرضية حتى سنوات قليلة خلت ، إسم الطراز المعياري ، وتعد الآن هذه الفرضية نظرية راسخة في الأوساط العلمية ، فوفقا لمنطوق هذه النظرية ، كانت هنالك في الماضي السحيق ، و قبل أن يوجد الزمان و المكان ، أي قبل ثلاثة عشر مليار سنة تقريبا ، كتلة من طاقة أوكموم يبلغ قطرها أقل من جزء من مليون مليار من السنتي متر ، وكانت هذه الكتلة الكمومية تحوي تجمعا من ركام كموني ، و من جسيمات غريبة غير مألوفة ، و جسيمات أخرى غريبة مضادة تتكون و تتفانى ، و لا تخضع لمبدأ الإرتياب ، كما أن هذه الكتلة الكمونية كانت هائلة الكثافة و مفرطة في السخونة ـ تفوق درجة حرارتها درجة حرارة بلانك ـ و في أثر حدوث الإنفجار الكبير في هذه الكتلة ، أخذت تنفصل عنها فقاعات كمونية إنتفاخية ، تسربت الى الخلاء المحيط الفائق التناظر ـ التجانس ـ و المفرط التبرد ، لقد أمسكت عندئذ قوة الإنتفاخ بإحدى هذه الفقاعات و توسعت توسعا هائلا ـ تجاوز مليار مليار مرة ـ و كانت سرعة التوسع تفوق سرعة الضوء ـ أي أكثر من ٣٠٠٠٠٠كلم في الثانية ، و عندما تفوق الإنتفاخ طرحت الكرة الإنتفاخية المتوسعة ـ بذرة الكون البدئي ـ الطاقة الفائضة فسخنت خلاء الكون المتشكل الى درجة تقل عن مائة ألف مليار كلفن أو درجة مطلقة ـ أي عن ١٠ درجات مطلقة أو درجة حرارة بلانك ، إن طرح الطاقة الفائضة حدث أيضا على شكل إنفجار هائل ، إ،ما أبطأ سرعة ، و أقل شدة من الإنفجار الأول الأعظم، لقد كانت قوى الطبيعة الأربع لحظة حدوث الإنفجار الأعظم موحدة في قوة واحدة كبرى ذات بنية غشائية حويصلية و ترية ـ إنما معطلة وظيفيا ـ و تمت ولادة هذه القوى بعدئذ تدريجيا ، إن حدوث الإنفجار الأعظم الكبير أدى أيضا الى ولادة الكون ، و التي تحولت فيما بعد الى نظرية تثبت صحتها القياسات و قادرة على التنبؤ بملاحظات و ظواهر مستجدة ، قد إنبثقت عن مجموعة من الأدلة ، نظرية و تجريبية تقوم بصورة أساسية على حقيقة توسع الكون وحقيقة تبرده ، إضافة الى قرائن أخرى ، كما أن هذه الأدلة تثبت أن خلق الكون تم بإنفجارين متلاحقين الأول و الأقوى ، أدى إلى تكوين الفقاعات الكمونية الإنتفاخية التي توسعت إحداهما لتشكل الكون المتوسع ، ومفرط التبرد ، و من هنا أتى تعبير الإنفجار الأعظم الكبير الساخن الذي يستعمل أحيانا ، يقول الدكتور منصور محمد حسب النبي رئيس قسم الفيزياء جامعة القاهرة عن نشأة الكون أو ما يسمى علميا إنفجار البيج بانج ، إن قانون هابل يوضح أن المجرات تتباعد حاليا عن بعضها ، بحيث لو رجعنا بالزمن الى الوراء لوجدنا جميع المجرات بما فيها من أجرام ملتحمة في كتلة واحدة ، و هذا يعني أن الكون كله كان في

في كرة تدعى البيضة الكونية ، و هذه البيضة الكونية قد إنفجرت في الماضي السحيق إنفجارا ضخما أدى الى تناثر أجزائها في مجرات تتحرك متباعدة عن بعضها ، و طبقا لهذه الفكرة فإننا مازلنا نرى الكون يزداد إتساعا حتى الآن نتيجة الدفع الإبتدائي الناتج عن الإنفجار الأول المسمى ـ البيج بانج ـ في نظرية الإنفجار الكبير، و لقد أعلن العالم الروسي جامو هذه النظرية عام ١٩٣٥ و أيدها هابل بقياسات طيفية حديثة و السؤال الآن متى حدث الإنفجار الكبير ـ البيج بانج ـ ؟ لقد حاول العلماء معرفة تاريخ هذا الإنفجار للتعرف بلحظة نشأة الكون و لكن التقديرات العلمية كانت مختلفة ، فمنذ عام ١٩٥٠ و العلماء يقدرون عمر الكون على أساس قياس البعد الحالي و سرعة إرتداد المجرات ، و لقد تغيرت القياسات نتيجة تقدم وسائل الرصد ، وكلما تم تصحيح البعد بالنسبة لأية مجرة لمسافة أطول تغير الزمن اللازم لوصول المجرة إلى هذا البعد ، و بالتالي يتغير العمر المحسوب للكون ، و على سبيل المثال فقد تغير عمر الكون من ٢ بليون سنة طبقا لقياسات عام ١٩٥٠ الى ٤ بلايين ثم ٦ بلايين و حتى ١٧ ـ ٢٠ بليون سنة و هذه القيمة الأخيرة إقترحها تامان و سانداج

ـ السماء : السماء هذا المكان المجهول على مر الدهور و العصور و التي أسرت عقول الفلاسفة و الشعراء و المفكرين ، و جعلتهم يتيهون في دروبها و أبراجها ، و الغموض ظل يكتنف السماء طوال هذه القرون ، و لكن الفطرة الإنسانية التي فطر الله عليها عباده ، ألهمتهم أن هذه السماء شيء عظيم يفوق إمكانياتهم و عقولهم و أن هناك قوة عظيمة هي المسيطرة على مقدراتها و حركاتها و أفلاكها ، و بقيت الأجيال السابقة لبعثة سيدنا محمد ﷺ و نزول القرآن الكريم جاهلة تماما لحقيقة السماء و علومها ، و قد مثل الله سبحانه و تعالى لهذا الجهل العلمي بقوله **(وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فأجعل لي صرحا لعلي أطلع الى إله موسى و إني لأظنه من الكاذبين)** القصص ٣٨ فقد ظن فرعون أنه بهذا الصرح سيصل الى السماء ليطلع الى إله موسى ، و قد أوضح القرآن الكريم أن العرب كانوا يعرفون عن السماء بعض الأشياء ، حيث كانوا يسألون النبي ﷺ عن حقيقة النجوم و الكواكب فنزلت الآية الكريمة **(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس و الحج)** و القرآن ، الكريم هو الكتاب السماوي الأول الذي توسع في الحديث عن السماوات و الأرض ، لكن بإشارات علمية موجزة ... و لقد تعلمنا من القرآن الكريم ، مثلا ان السماء ليست واحدة ، إنما سبع سماوات و من الأرض مثلهن ، **(هو الذي خلق سبع سموات و من الأرض مثلهن)** الطلاق الآية ١٢ ، و أن السماوات و الأرض كانتا رتقا واحدا ففتقهما الله و فصلهما

ـ تساؤلات حائرة

لقد تم الإجماع بين علماء الفلك مع نظرية بداية الكون ، و هي لحظة الإنفجار الكبير و على الرغم من نجاح هذه النظرية في تفسير ظاهرة بداية الكون ، و هي لحظة الإنفجار الكبير و الإشعاع الناري البدائي ، و طريقة تشكل ذرات بادية لحد ما ، إلا أن أسئلة كثيرة من علماء الفلك تبادرت الى الأذهان ولم تستطع تلك النظرية إيجاد حل مناسب لها و هي

١ . ما لذي كان موجودا في الفضاء قبل حدوث الضربة الكبرى ؟

٢ . ما لذي كان قبل حدوثها ؟ وكيف أتت أصلا المادة الأولى للكون ؟

٣ . لماذا حدث الإنفجار في تلك اللحظة و لم يحدث في لحظة أخرى ؟

٤ . لماذا إرتبط حدوث هذا الإنفجار بنقطة زمنية محددة ؟

٥ . هل حدث الإنفجار في مكان واحد أم في عدة أماكن ؟

٦ . لماذا تركزت المادة الكونية الأولى في هذا الكون بالذات ، ولم تركز في أكوان أخرى ؟ و لماذا تركزت في حجم صغير من الفضاء و بكثافة عالية جدا ، و بدرجة حرارة عالية أيضا ؟ و من أين أتى ذلك كله ؟ و لماذا ؟

٧ . ما لذي يمسك هذه البيضة الكونية الأولى و يجعل لها ذلك الشكل المحدد ؟ و من أين أتت ؟ و ما الذي حفظ لها هذا الشكل ؟

٨ . ما هو أصل الكون و ما هو إتساعه و حدوده و عمره و مستقبله ؟

و قد كانت هناك عدة نظريات للجواب على هذه الأسئلة

ـ أولا : نظرية الحالة الثابتة

في الخمسينيات من هذا القرن ظهرت فجأة نظرية جريئة جديدة ، تحدت بمضمونها و بفكرتها نظرية الضربة الأولى ، ووضع أساس تلك النظرية ثلاثة من كبار علماء الفلك الأفذاذ آنذاك كانوا يعملون في جامعة كامبردج بلندن و هم ـ فريد هويل ، هيرمان بوندي ، و توم غولد ـ و هي تنص على أن الكون لا نهائي في الفضاء و في الزمان ، و مجراته موزعة بشكل متجانس عبر الكون ، و ليس له بداية و سوف لن يكون له نهاية .

ـ ملاحظة من الكاتب : طبعا هذه المادة العلمية منقولة بتصرف و إختزال من الموسوعة العلمية الضخمة التي ألفها الدكتور ماهر أحمد الصوفي ، و هو ينقل بدوره عن عدد من علماء الغرب ، الذين يرون بأن الكـــــــــون لانهاية له بمعنى أنه

سيبقى الى الأبد و غير قابل للزوال و الفناء كبقية المخلوقات و هذه النظرية تتنافى مع أبسط مقومات التصور الإسلامي للكون بدايته و نهايته ، و التي تعتبر أن هذا الكون الهائل و الضخم هو من مخلوقات الله و آياته المعجزة الدالة على عظمته و قدرته ، و هو كغيره من المخلوقات معرض للفناء في الوقت الذي يحدده الله سبحانه و تعالى ، فالكون في التصور الإسلامي هو ظاهرة طبيعية و أحدى المخلوقات التي خلقها الله و سخرها للإنسان ووضع كل مكوناته في خدمة الإنسان و في سبيل راحته و سعادته ، و الكون يشمل بطبيعة الحال السماوات و الأرض و ما بينهما و ما فيهما ، و لما كان الكون هو أحدى مخلوقات الله العجيبة فهو بطبيعة الحال معرض للفناء و الزوال و الهلاك **(كل شيء هالك إلا وجهه)** و البقاء في التصور الإسلامي لله الواحد القهار ، و لذلك فالحذر مطلوب دائما عند النقل من كتابات الغربيين لأن تصوراتهم لله و الكون و الحياة و الإنسان ، تختلف بشكل جذري عن تصوراتنا نحن المسلمين ، فهم يعتقدون بالطبيعة و الصدفة و العقل و غير ذلك من التصورات الوضعية التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ـ خلق السماوات و الأرض و تقدير الأقوات

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ{9} وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ{10} ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ{11} فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{12}

فالله سبحانه و تعالى في هذه الآيات الكريمة يقول إنه خلق الأرض في يومين ، و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، ثم قضاهن سبع سماوات في يومين ، فيصبح المجموع ظاهريا ثمانية أيام ، و الله سبحانه و تعالى يقول في كثير من الآيات القرآنية أنه خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ، إذن كيف نفهم الآيات من سورة فصلت ؟ و هل يوجد بينها و بين الآيات الأخرى التي تتحدث عن الخلق في ستة أيام

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } الأعراف54

أي تعارض أو إختلاف ؟ ثم ما وجه الإعجاز الإلهي في هذه الآيات من سورة فصلت ؟ الحقيقة أنه لا يمكن أن نبدأ الحديث العلمي و بيان وجوه الإعجاز في هذه الآيات من سورة فصلت ، إلا بعد الإطلاع على تفسير تلك الآيات في القديم و في العصر

في مختصر تفسير إبن كثير ـ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره و هو الخالق لكل شيء المقتدر على كل شيء ـ أندادا ـ اي نظراء و أمثالا يعبدونها معه ـ ذلك رب العالمين ـ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم ، و هذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى **(خلق السموات و الأرض في ستة أيام)** ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما إختص بالسماء ، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس ، و في صفوة التفاسير للصابوني ـ قل أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ـ الإستفهام للتوبيخ و التعجب ، أي كيف تكفرون بالله و هو الإله الشافي القادر على كل شيء ، خالق الأرض في يومين الى أن قال ـ و قدر فيها أقواتها ـ أي قدر أرزاق أهلها و معاشهم و خلق فيها أنهارها و أشجارها و دوابها ـ في أربعة أيام سواء للسائلين ـ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة و لا نقصان **(فقضاهن سبع سموات في يومين)** أي صنعهن و أبدع خلقهن سبع سموات في وقت مقدر بيومين ، و شاء لخلقهن بلمح البصر ، لكن أراد الله أن يعلم عباده الحلم و الأناة ... هذا ما جاء في القرآن ، أما علماء الفلك فإنهم بذلوا جهدا كبيرا في البحث بين هذه المجموعات الشمسية المترامية الأطراف و بين هذه المجرات التي يزيد عددها كثيرا عن عدد البشر ، عن كواكب تشبه الأرض يقطنها خلق و أناس ، كما نسكن نحن الأرض ، و رصدوا لدراسة هذه الظاهرة إمكانيات هائلة في سبيل الوصول الى معرفة حقيقية بعيدة عن الظن و الخيال ، و بعيدة عن التصورات و التحليلات العلمية التي تدعي وجود مخلوقات على كواكب أخرى ـ و التأكيد الوهمي على وصول أطباق طائرة من الأكوان الأخرى ، إذا هناك سبع سماوات يقابلهن سبع أراضين ... و يبقى السؤال

١ ـ أجعل الله في كل سماء أرضا واحدة كأرضنا التي نعيش عليها ؟

٢ ـ أم جعل الله الأرضين السبع ضمن السماء الأولى على عظيم إتساعها ؟

٣ ـ أم إختار الله سبع مجرات متباعدة في السماء الأولى و جعل في كل واحدة فيها أرضا كأرضنا ، و جعلها سكنا و قرارا لخلق آخر لا نعلم عنه شيئا ؟

٤ ـ أم أن هذه الأرضين السبع ضمن مجرتنا و التي تحوي مأتي ألف مليون نجم غير الكواكب و الأقمار ؟

العلم لم يستطع معرفة شيء حتى الآن ، و أنى له أن يعرف ؟ فإذا كان كوكب ضمن مجموعتنا الشمسية يبعد أربعة مليارات كلم عن الأرض ، و آخر يبعد عشرة مليارات كلم ، فكيف لنا أن نعرف ما هو خارج هذه المجموعة الشمسية ؟

٥ ـ أم جعل الله في كل تجمع مجرات كلوستر ـ كالعذراء ـ التي تحوي ألفين و

و خمس مائة مجرة كوكبا أرضيا من الكواكب السبعة التي ذكرها الله سبحانه و تعالى في القرآن الكريم .

٦ ـ و هل المقصود بأن الله خلق سبع أرضين كل واحدة تشبه الأرض التي نعيش عليها ، و فيها حياة و أنهار و جبال و حيوان و خلق آخر و أنبياء و رسل ؟

٧ . و ليس معنى سبع أراضين أي سبع كواكب ، فالأرض دون الكواكب مقصودة بأنها قرار و سكن لمخلوقات الله ، فالأرض كوكب و لكنها ليست كباقي الكواكب ، فهي الوحيدة التي حماها الله من دون الكواكب الأخرى من أخطار السماء حتى تكون سكنا آمنا لأهلها .

٨ ـ يفهم من هذا أن اله قصد سبع أراضين ، فهي سبع أراضين توجد فيها أسباب الحياة و لكن بعلم الله و قدرته .

٩ ـ علماء الفلك وصلوا إلى درجة الهذيان و هم يبحثون في السماء عن أي كوكب يشبه في صفاته أرضنا التي نعيش عليها .

١٠ . أحد علماء الفلك في يوم ما كان يجلس وراء أحد التيليسكوبات الكبيرة وهو يراقب حركة النجوم والكواكب في أحد المجرات ، و فجأة صرخ و قال وجدتها . . ماذا وجدت ؟ قال وجدت كوكبا في أحد المجرات في تجمع العذراء كلوستر ربما يشبه الأرض ، ثم فقده مرة أخرى و لم يحده . . فتبدد الحلم .

١١ . و مرة أخرى إحدى عالمات الفلك الأمريكيات في وكالة ـ نازا ـ الفضائية صرخت و هي جالسة وراء تيليسكوب تراقب حركة النجوم و نادت آه إني رأيت كوكبا لونه أخضر غامق ، آه ربما يشبه الأرض و لكنه مر مرور السحاب ، و لم تستطع أن تعيده ثانية الى عدسة التيليسكوب ، فضاعت أحلامها الوردية و هي تراقب هذا الأمر .

١٢ ـ فالعلماء وصلوا درجة الهذيان و الشرود و هم يبحثون بين كل هذه النجوم و الكواكب في هذه المجرات الهائلة عن كوكب واحد توجد عليه حياة مثل حياتنا و يطلقون عليه إسم الأرض الثانية لكنهم حتى هذه الساعة لم يصلوا إلى أي شيء .

١٣ ـ بعض علماء الفلك يقولون أيعقل ألا يوجد بين كل هذه المليارات من النجوم و الكواكب التي تسبح في السماء أثر لحياة إلا على هذه الأرض ؟

١٤ . و لم لا فالله سبحانه و تعالى يقول في خصوص السماء الدنيا .

(و لقد زينا السماء الدنيا بمصابيح و جعلناها رجوما للشياطين)

و يقول تعالى **(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)**

١٥ ـ و ربما نحكم بهذا على السماء الدنيا ، و لكن هل نستطيع أن نحكم بهذا على السماء الثانية ، و الثالثة ، و الرابعة ، وحتى السابعة ؟

إذن فالله خلق سبع سماوات و خلق سبع أراضين و هذه السماوات و هذه الأراضين السبع بحاجة إلى مراقبة تامة من الله سبحانه و تعالى لا تغفل أبدا و حتى مقدار جزء من الثانية ، و تتجلى قدرة الله في المراقبة الشديدة المحكومة بدقة و إتقان يقول تعالى **(الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة و لا نوم له ما في السموات و ما في الأرض)** فقد وصف الله نفسه و قال إنه لا تأخذه سنة و لا نوم أبدا عن مراقبة السماوات السبع و الأراضين السبع ، فهو مصرف أياها بكل ما فيها ، ينزل أمره لهذه السماوات في تسيير أمورها كلها و ما فيها وما بينها ، و لو علمنا ما معنى السماوات السبع لأدركنا قدرة الله سبحانه و تعالى في دقة مراقبته للأمور سواء الجماد منها أو ما تدب فيها الحياة ، يعلم سرائر الأمور و لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات و لا في الأرض ، فالله القوي القادر الذي يراقب الذرة و هي لا ترى بالعين المجردة و يعرف سيرها و مقرها و مستودعها ، فهل ندرك القوة و القدرة الحقيقية لهذا المعبود الذي يملك السماوات السبع و الأراضين السبع ، و نحن قد أدركنا أن في السماء الأولى النجوم و الكواكب و المجرات الهائلة ، و الله يسيرها بدقة فائقة و لكن أنى لنا أن نعرف ماذا في السماء الثانية و الثالثة الى السابعة و ما أدرانا ما فوق السماء السابعة ؟ فضبط السماوات و الأرض بهذه الدقة ، يقول تعالى **(فأرجع البصر هل ترى من فتور)** الملك الآية ٣ **(ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر و هو حسير)** الملك الآية ٤ أي فانظر الى ملك ربك في السماء لتشاهد بعينيك هذه الدقة وهذه الروعة ، و حتى و إن أعدت البصر ثانية و ثالثة و الى ما لا نهاية فإنك لن تجد إلا ملكا رائعا و سماء محكمة شديدة الإحكام منظمة بنظام هندسي رائع يسير بعضها بعضا ، إن غفل الله عنها سنة ضاعت السماوات و ما فيها ، فهل يكون هذا إلا من خالق عظيم و قادر حكيم ؟ فإنكم أيها البشر إن أدركتم معنى السماوات و ما فيها ،فإنكم ستعلمون قدرة الله ، و أنه على كل شيء قدير ، و أنه مالك الملك ، فهو قادر على طيها و إستبدالها بسماوات أخرى ، و هذا ما سيتم يوم القيامة ، يقول تعالى **(و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيميه)** الزمر الآية ٦٧ و يقول تعالى **(يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات و برزوا لله الواحد القهار)** سورة إبراهيم الآية ٤٨ فمن غير الله يستطيع أن يخلق هذه السماوات و الأراضين ؟ و من غير الله يستطيع أن يستبدلها بسماوات أخرى و أرض أخرى ؟ لا أحد غير الله الذي أحاط بكل شيء علما ، و لهذا نقـــول أن الكثير من

العلماء و المفسرين قالوا أن المقصود ـ و من الأرض مثلهن ـــ أي سبع طبقات أرضية ، و هذا التفسير كان في يوم لا تملك البشرية أي علم عن السماء و ما تحويه من مليارات المجرات و المجموعات الشمسية ، فليس من المعقول اليوم و بعد هذه الإكتشافات في علم الفلك أن تقاس السماوات السبع بسبع طبقات أرضية ، بل الحقيقة أن في الكون سبع سماوات و سبع أراضين ، أي سبع كواكب تشبه كوكب الأرض ، و لا ندري ماذا سيكتشف العلم مستقبلا .

ـ خلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس

يقول تعالى **(لخلق السموات و الأِض أكبر من خلق الناس و لكن أكثر الناس لا يعلمون)** سورة غافر الآية ٥٧ ما معنى هذه الآية الكريمة ؟ إن ما يدل عليه عقلنا و ما تراه أعيننا يؤكد أن خلق السماوات و الأِرض ، أكبر في هذا الزمن ، زمن التقدم العلمي ، بعد أن إكتشفنا حقيقة السماء و ما تحويه من مليارات المجرات ، و أن أِرضنا بل مجموعتنا الشمسية لا تشكل بالنسبة للسماء أكثر من ريشة صغيرة تطير في مهب الريح ... في طبيعة الحال إذا قارنت بين أمرين فمعنى ذلك أن الأمرين متشابهين إن لم يكونا متساويين ، أو عندما نقول على سبيل التشبيه فلان أغنى من فلان ، فهذا يعني أيضا أن الرجلين متشابهين في الغنى ، و إن لم يكونا متساويان ، أو عندما نقول بناء المحطة الفضائية الأرضية أكبر من بناء المحطة الفضائية الجوية .. فأيضا يعني هذا أن المحطة الفضائية الجوية مهمة و كبيرة و تتشابه مع المحطة الأرضية و إن كانت المحطة الأرضية أكبر ، و هذا أيضا يساعدنا على فهم الآية القرآنية الكريمة ـ لخلق السموات و الأرض أكبر من خلق الناس و لكن أكثر الناس لا يعلمون ـ و لكن يبقى السؤال ما وجه الإعجاز في هذه الآية الكريمة ، و ما أوجه دلالتها و بياناتها ؟ ... فالإنسان لا يعلم عن السماوات و الأرض شيئا ، فإذا علم تماما كما علمنا سعة السماء و عظيم ما فيها من نجوم و مجرات ، و سدم و أقمار ، و نيازك و شهب بمليارات المليارات ، و أن المجموعة الشمسية التي نعيش فيها و مجرتنا التي نتيع لها لا تشكل في عالم السماء إلا نزرا يسيرا ، أدركنا تماما أن خلق السماوات أكبر بكثير من خلق الإنسان ،حتى و لو سخرها له إكراما كما أمر الملائكة عندما خلق آدم أن يسجدوا له سجود تحية و إكرام ، و هذا التمييز و بيان الفرق بين خلق السماوات و الأرض ، و خلق الإنسان ، لا يعلمه إلا الله سبحانه و تعالى .. فعندما نزل القرآن الكريم لم يكن الناس وقتئذ يعلمون شيئا عن السماء إلا النزر القليل ، هم لا يدركون الفرق بين خلق السماوات و الأرض و بين خلق الإنسان ، و لا يدركون أيهما أكبر إلا إذا أعلمنا الله سبحانه و تعالى ، بما يظن الإنسان في وقتها لو إرتفع عددا من الأمتار مائة أو ثلاث مائة أو

ألف متر للوصول الى بعض النجوم ، لكنه لا يستطيع أن يرتفع إلا أمتارا محدودة ـ . و ربما كان الإنسان وقتها يظن أنه أعظم من السماء ـ ـ إذا معلومات البشر عن الكون قليلة أو شبه معدومة ، و إلى وقت قريب كان العالم يظن أن الأرض هي محور الكون ، و هي ثابتة و كل ما في السماء تابع لها و يدور حولها ، الى أن جاءت بعض الحقائق العلمية ، فتبين أن الأرض جرم صغير يدور حول نفسه و حول الشمس ، و ليست الأرض هي مركز الكون ، و تبين أن هذه الأرض و المجموعة الشمسية كلها حبة رمل على شاطىء بحر طويل لعظمة السماء و ما فيها ،

ـ كواكب أخرى غير الأرض

هل يمكن أن توجد الحياة فوق كواكب أخرى غير الأرض ؟ ذلك هو السؤال الذي حير علماء الفلك فراحوا يبحثون في كل الإتجاهات ، و في القرآن الكريم بعض الإشارات إلى هذه الإمكانية ، من ذلك قوله تعالى **(و لله يسجد ما في السموات و ما في الأرض من دابة و الملائكة و هم لا يستكبرون)** سورة النحل ٤٩ **(و من آياته خلق السماوات و الأرض و ما بث فيهما من دابة و هو على جمعهم إذا يشاء قدير)** سورة الشورى ٢٩ و آيات أخرى مشابهة لها و تسير في نفس الإتجاه ، فالآية تشير صراحة أن الله بث في السماوات و الأرض أنواع متفرقة من الدواب ، و الدواب هو كل ما يدب ، أي يمشي ، و هناك دواب في السماء و أخرى في الأرض تعبد الله وتسجد له ، و أكثر المفسرين القدامى و المعاصرين لم يتفطنوا لهذه الفكرة ، فرضية وجود حياة في كوكب آخر غير الأرض و في الآية ٤٩ من سورة النحل إشارة صريحة الى أمكانية وجود حياة أخرى في إحدى السماوات ، و هي تؤكد أن هناك دواب أي مخلوقات غير الملائكة في السماوات يسجدون لله سبحانه و تعالى ـ إن قالت حقائق العلم اليوم أو غدا أن الحياة ممكنة على سطح أحد الكواكب فلا يعني ذلك أنها حياة كحياتنا ، فقد تكون أرقى و قد تكون أقل جودة من حياتنا على سطح الأرض ، و العلم لم يتوصل لحد الآن لإثبات وجود حياة طبيعية و عادية تصلح للبشر فوق إحدى الكواكب أو السماوات ، و الأمريكيون يقومون منذ سنوات بمحاولات و تجارب لإستوطان كواكب أخرى كالمريخ مثلا ، لقد أكتشف حديثا أن تماثل الكون حقيقة ثابتة أكدتها مراكز البحث في كل دول العالم ، و هذا يوضح أن الكون يحتوي في معظم أرجائه ـ مجراته و نجومه و كواكبه ـ على نفس العناصر من الأيدروجين بنسبة عالية ، و يليه الهليوم و العناصر الأخرى بنسب مختلفة ، و ينتشر في الكون نفس القوانين الفزيائية و القوة النابذة و المجالات المغناطيسية ، و ما يوجد في هذا الكون الصغير ـ المجموعة الشمسية ـ هي صورة مكررة في أنحاء الكون ،

ـ حقيقة الكون

الكون هو هذه المخلوقات الهائلة التي نعرفها و ندركها بأبصارنا و حواسنا و قلوبنا و عقولنا ، و نستمتع بها في حياتنا ، و المخلوقات الأخرى التي لا نراها ، الكون هو هذه السماوات و الأرض و كل الظواهر الطبيعية العجيبة التي تحدث بشكل دوري ثابت و منظم ، يضمن تسيير الكون بتلك الطريقة العجيبة ، الشمس و القمر ، الليل و النهار ، النجوم و الكواكب ، البحار و الجبال ، الرياح و الأمطار و غيرها من مخلوقات الله العجيبة ، و الكون في التصور الإسلامي هو آية من آيات الله الكبرى الدالة على وجوده و قدرته و في القرآن الكريم و هو بطبيعة الحال ليس كتاب علمي و إن تضمن إشارات لطيفة إلى مكونات هذا الكون الهائل العجيب ، دلائل الإعجاز في خلق الكون بمختلف مظاهره و مكوناته و كل ما في الكون ينطق بحقائق علمية تثبت وجود الخالق العظيم و تؤكد قدرته العالية و عظمته ، و الكون هو أيضا كتاب مفتوح يستطيع القارىء النبيه أن يكتشف فيه و في مظاهره عظمة الخالق سبحانه عز و جل ، تغنيه عن التفكير من دون طائل في ذاته العلية ، و الكون في التصور الإسلامي هو صديق الإنسان ، خلقه الله و سخره لخدمة الإنسان ،

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ } الروم22

{ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم24

و مهما حاول العقل البشري إستكشاف الحقائق الكونية فسيضل عاجزا عن الوصول اليها بمعزل عن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم ، ذلك أن معظم النظريات العلمية حول طبيعة الكون وحقيقته ، حول السماوات و الأرض و الشمس و القمر و البحار و المحيطات ، حول بداية الخلق و نهاية الكون ، ستظل مجرد نظريات علمية قد تدوم لفترة معينة حتى تأتي نظريات علمية أخرى تنقضها ، و هي ليست حقائق كونية يمكن التصديق بها و الإيمان بها ، و هذا لا يمنع بتاتا من الإنتفاع بهذه النظريات و إستعمال ما توصلت إليه البشرية من وسائل و إمكانيات تقنية للبحث في طبيعة الكون و نشأته ، بدايته و مظاهره و تحليل ظواهر الطبيعة من شمس و قمر ورياح و أمطار و معرفة طبيعتها ، الكون هو كتاب الله المفتوح للبشرية ليعلموا أن الله حق و الكون و مختلف مظاهره التي آلفها الإنسان هي دلائل وجود الخالق و عظمته و قراءة آيات الكون و التأمل في مختلف ظواهره هي طريق الى معرفة الله الخالق الرازق ، سبحانه و تعالى ، و الكون العظيم بكل مكوناته وضعه

الله تحت تصرف البشر و الإنسان في كل زمان و مكان ، و قد حاولت البشرية في مسيرتها الطويلة منذ خلق الله آدم و حواء و زرع ذريتهما في الأرض ان تستغل الكون أو الطبيعة لصالحها حسب قدراتها العقلية و إمكانياتها المادية و ما توصلت إليه من وسائل مساعدة لإستغلال كل مظاهر الطبيعة و تطورت أشكال إستغلال الكون و مظاهره من العصر الحجري عندما كانت الحجارة هي الوسيلة الوحيدة التي تساعد الإنسان على قهر الطبيعة و إستغلالها ، إلى عصر الذرة و التكنولوجيا و الأقمار الصناعية عندما تمكن الإنسان من الوصول الى القمر و هو يحلم بالإقامة فيه وإستغلال كواكب أخرى غير الأرض ، و من نعم الله على البشر أن سخر لهم الكون بكل ما فيه من مكونات و ظواهر و رزقهم من الطيبات و فضلهم على كثير من خلقه تفضيلا ، و الله سبحانه و تعالى يمنح الإنسان كل الحرية في البحث و دراسة الكون و الإستفادة منه ، بشرط واحد ووحيد هو أن تتوفر النية الحسنة و الهدف النبيل و الغاية الشريفة ، و كون سلطان الإنسان على الكون و سيطرته عليه لن تكون خارج إرادة الله و مشيئته و قدرته و الآيات التي تناولت موضوع تسخير

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } الرحمن33

الكون بكل ظواهره و مكوناته كثيرة ، يمكن أن نقدم منها هذه النماذج الطيبة

{ اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مّسَمّى يُدَبّرُ الأَمْرَ يُفَصّلُ الآيَاتِ لَعَلّكُم بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ } الرعد2

{وَسَخّرَ لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ }إبراهيم33

{وَهُوَ الّذِي سَخّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ } النحل14

{أَلَمْ تَرَوْاْ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُم مّا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مّنِيرٍ } لقمان20

و هذا الكون الجميل المتناسق ، الذي يبهر العقول و القلوب ، بمجرد التأمل في أبسط مظاهره كالشمس أو القمر أو الليل أو النهار أو البحار و المحيطات و النجوم ، و بمجرد التأمل في نظام الكون المتقن ، تدرك الفطرة البشرية السليمة أن لهذا الكون رب خالق مدبر فاعل قوي كريم ، و ان نظام الكون العجيب لا يمكن أن يكون سيره عن طريق الصدفة أو أن الطبيعة هي التي تشرف على تسييره كما يقول الكفار و الملحدون ، و هذا الكون المتناسق في ملامحه و في نظامه هو في التصور الإسلامي إحدى مخلوقات الله العجيبة المحدثة و الآئلة الى الزوال في يوم ما ... عندما يأذن الله بنهاية الحياة على وجه الأرض و بداية الحياة الأخرى ، فالكون و كل مظاهره و مقوماته سيتعرض لإنقلاب جذري تتغير بموجبه ملامحه التي ألفها البشر من أول يوم خلق الله فيه أدم و حواء ، و ستحدث إختلالات غير طبيعية على أهم الظواهر الكونية و أول مقدمة لإنهيار الكون كما جاء في السنة النبوية الشريفة هو ظهور الشمس في غير موعدها و غير مكانها ، فالكون بكل مظاهره و مقوماته هو بالنسبة للتصور الإسلامي و على ضخامته و جماله و روعته و ما يقدمه للبشرية من خدمات و منافع هو مجرد مخلوق من مخلوقات الله العجيبة ، مخلوق لأداء مهمات و أدوار معلومة و مقدرة و محددة بالزمان و المكان ، و سياتي اليوم الذي ينتهي فيه دوره و صلاحياته و يزول ، و كل ما على الأرض فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام ، و كل شيء هالك إلا وجهه و الكون هو بالقياس لمخلوقات الله هو شيء من الأشياء المعرضة يوما للفناء و الهلاك و الزوال و هكذا يتصور الإنسان المسلم الكون الجميل بعوالمه المشاهدة المبهرة

{ يَوْمَ نَطْوِي السّمَاء كَطَيّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوّلَ خَلْقٍ نّعِيدُهُ وَعْداً

{يَوْمَ تُبَدّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ }إبراهيم48

{ فَإِذَا انشَقّتِ السّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدّهَانِ } الرحمن37

{وَإِذَا السّمَاء فُرِجَتْ }المرسلات9

إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ{1} وَإِذَا النّجُومُ انكَدَرَتْ{2} وَإِذَا الْجِبَالُ سُيّرَتْ{3} وَإِذَا الْعِشَارُ عُطّلَتْ{4} وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ{5} وَإِذَا الْبِحَارُ سُجّرَتْ{6} وَإِذَا النّفُوسُ زُوّجَتْ{7} وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{8} بِأَيّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{9} وَإِذَا الصّحُفُ نُشِرَتْ{10} وَإِذَا السّمَاء كُشِطَتْ{11} وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعّرَتْ{12} وَإِذَا الْجَنّةُ أُزْلِفَتْ{13} عَلِمَتْ نَفْسٌ مّا أَحْضَرَتْ{14}

للعقول و القلوب و قد تتسع تصوراته ليؤمن أن في الكون مخلوقات و أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله .

الفصل الخامس (5)

الحيـــاة

ـ الحياة في القرآن الكريم

يحتفي القرآن الكريم بالحياة في الكثير من آياته و يعتبرها فضاء للعبادة و السعي و السياحة و الإعتبار ، و هي ممر لابد منه للعبور الى الدار الأخرى ، ويجيء مصطلح الحياة في معظم او جل الآيات القرآنية الكريمة ، مقرونا بالدنيا هكذا ـ الحياة الدنيا ـ ليفصل بينها وبين حياة أخرى هي في الخطاب الإسلامي جزء مهم من التصور الإيماني العام ، و هي الحياة الأخرى ، و الخطاب القرآني يعتبر الحياة الدنيا جسرا ضروريا للحياة الأخرى ، و مزرعة يزرع فيها الإنسان المسلم ما يجنيه غدا من أعمال الخير و الحسنات ، كما يجيء وصف الحياة الدنيا في الغالب سلبيا فهي متاع الغرور ، و هي الفانية ، و متاعها قليل حتى إن طال و إمتد عبر الزمان و المكان ، و هي أيضا لعب و لهو وزينة و تفاخر بالأموال و الأولاد ، و الإنسان بطبيعته يحب الحياة و يحب الزينة و الجمال و اللعب و اللهو ، و في القرآن الكريم رغم نظرته السلبية للحياة الدنيا ، تأكيدات و تحذير بعدم الإغترار بالحياة الدنيا و زينتها و الإنغماس في ملذاتها التي لا تنتهي ، فيأخذ موقفا متزنا و معتدلا من الحياة الدنيا و يوصي الإنسان بأن يكون فاعلا و إيجابيا فيها يمارس حياته بالطول و العرض كأنه لا يموت أبدا ، يبني و يستثمر و يقيم المشروعات الكبري و يعمر الأرض و يغزو الفضاء و يستغل كل إمكانياته المادية و الفكرية في تعمير الأرض و بناء الحياة السعيدة ، و ليس معنى أن يصف الله عز و جل الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور أو زينة و لعب و لهو أن نتركها و نعتزلها و نعيش في كهوف أو مغارات بعيدا عن الناس ، لقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة لتكون وظائفه الأساسية هي العبادة و الخلافة و تعمير الأرض و ليس الزهد في الحياة الدنيا ، و لكل إنسان نصيب مقدر و محدد في هذه الدنيا سيناله و يصيبه حتما ، لكن الخطاب القرآني و هو يأخذ بيد الإنسان ، هذا المخلوق المسكين يقوم بتوجيهه بكل الطرق الجميلة و المؤثرة حتى لا يضع الحياة الدنيا نصب عينيه و مركز إهتمامه و هي دار الغرور و المتاع الزائل و هي الفانية ، فيوجه إهتمامه للعناية أولا بتحضير نفسه لليوم الآخر و العمل بجد للأخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا في توازن و إعتدال بحيث لا تميل الكفة الى الحياة الدنيا و لا للأخرة ، آخذا بعين الإعتبار طبيعة الدنيا و مؤثراتها و مغرياتها ، و الحياة الدنيا هي أولا و أخيرا دار إبتلاء يعيش فيها الإنسان و كانه مسافر ينتظر الرحيل في أي وقت و دون سابق إنذار وهي ايضا دار إمتحان و إختبار ، و تنافس معنوي بين البشر أيهم أحسن عملا ، و تنافس مادي أيضا .

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } الرحمن33

{ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } البقرة212

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } آل عمران14

{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }آل عمران185

{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } الأنعام32

{ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } الأعراف51

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } التوبة38

{ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } يونس7

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } يونس24

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ } هود15

{ اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ } الرعد26

{لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ } الرعد34

{ الّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ } إبراهيم3

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً } الكهف45

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } الكهف46

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه131

{ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ } القصص60

{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }الروم7

{يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ }غافر39

{ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر51

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ }فصلت16

{ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } فصلت31

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } الزخرف32

{ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ } محمد36

{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }النجم29

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } الحديد20

{الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ } الملك2

{ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } الأعلى16

الحياة الدنيا كما ذكرنا سابقا هي فضاء واسع يبتلي فيه الإنسان بالخير و الشر ، و في القرآن الكريم و في بداية سورة الملك إشارة واضحة الى طبيعة الحياة الدنيا و الهدف من خلق الإنسان و إشارة الى بعض وظائفه في هذه الحياة ، و إمعانا في إحتقار الحياة الدنيا رغم أنها هي السابقة وجودا و في الزمان و المكان عن الآخرة و عن الموت ، فالله جل جلاله يذكرها في الآية الكريمة قبل الحياة **(الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)** و يتكرر نفس المشهد في سور أخرى من القران الكريم كسورة القصص مثلا ، عندما يوجه الله سبحانه و تعالى الإنسان بداية الى الإهتمام بالعمل الخالد الذي يؤهله للخلود في جنات النعيم و هو دعوته برفق الى التركيز على العمل الصالح و الخير و الإكثار من العبادات و الحسنات ، و بعبارة بسيطة فإن التوجيه الرباني و هو مدرك لطبيعة الدنيا الغرارة و جمالها و مغرياتها التي قد تنسي الإنسان نفسه و تغرقه في ملذات و متع قد تكون حلالا ، و لكن الإنغماس فيها بشكل مبالغ فيه لا يترك للإنسان فرصة أو وقتا للإهتمام بالأعمال الخالدة التي تبقى محفوظة في سجله أو كتابه الى يوم الحساب ، و في نفس الآية توجيه حميمي جميل للإنسان و تذكير له بعدم نسيان نصيبه من الدنيا ، و نصيب الإنسان من الدنيا قل أو كثر فيه بركة و خير و هو على أي حال نصيب مقدر من الله سبحانه و تعالى **(و أبتغ فيما أتاك الله الدار الأخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا)** و **(كل نفس ذائقة الموت)** تعبير راق و جميل و تجسيم لطبيعة الموت و تصويره على شكل طعام لابد أن تتذوقه كل نفس ، و عندما يجيء ذكر الموت مع أو قبل أو بعد الحياة فتلك إشارة مباركة من رب الكون للإنسان حتى يفرمل طموحاته و إهتماماته و يكيفها مع الواقع ، و عندما تضع كل نفس مؤمنة قضية الموت قبل الحياة كما رتبها سبحانه و تعالى لحكمة يعرفها وقد لا نصل الى تفكيك أسرارها و معرفه كنهها ، فستنشء في ضميره لامحالة نوعا من الحذر و اليقظة و المراقبة و الخوف من الموت و ما بعد الموت ، و الحياة الدنيا

في الخطاب القرآني و في التصور الإسلامي هي لعب ، و لهو وزينة و تفاخر بين الناس في الأموال و الأولاد ، يرسمها القرآن الكريم في اشكال متعددة كلها منفرة و سلبية ، لنرى مثلا كيف تم تصوير الحياة الدنيا في الآية ٢٠ من سورة الحديد ، بداية هي كما قلنا لعب و لهو ، و عندما تقاس بالموازين الأرضية المادية الزائلة فهي شيء عظيم و هائل لدرجة أن الرجل قد يقتل أعز الناس إليه من أجل قطعة أرض او سيارة أو إمتياز هنا أو هنا ، و من أجل الحياة الدنيا تحدث المناوشات و العداوات بين الإخوة و الأصدقاء و الجيران ، و تشتعل نار الحروب بين الدول ، فماهي الحياة الدنيا و ما قيمتها عند الله ؟ هي في القرآن الكريم كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، و كلمة الكفار هنا تعني الفلاحين الذين يمارسون النشاط الزراعي ، و كلمة و فعل يكفر بمعنى يغطي الحب تحت التراب ، و في الآية إعجاز بلاغي عجيب و جميل و تشبيه بليغ ، يشبه إعجاب الإنسان و فرحه بالحياة الدنيا كإعجاب الفلاح بسقوط المطر فوق الأراضي المزروعة ، و يزداد إعجابه به بعدما يخرج النبات من الأرض و يصفر و يصبح جاهزا للحصاد ، لكن و في غمرة الإنتظار و الأمل و الفرح و ربما الغرور بجني محصول وافر ، يأتي قدر الله الغالب فيجعل تلك المزروعات مجرد حطاما لا يساوي شيئا ، أي أن الحياة الدنيا و مهما إمتدت في الزمان و المكان و مهما تحققت للمرء من إنجازات و مشاريع فهي مجرد حلم عابر ، كأن شيئا لم يكن ، فهي لحظات تنتهي بسرعة كسرعة الحلم ، و سيدنا نوح عليه السلام و قد عاش تسعة قرون و نصف في السراء و الضراء ، عندما سألوه عن رأيه و موقفه من الدنيا قال الدنيا كأنها دار ببابين دخلت من باب و خرجت من الآخر ، فالحياة في التصور الإسلامي هي أيضا متاع الغرور ، متعة خادعة قد تزول في أية لحظة عندما نواجه الموت و هو حق وواجب قد يأتي في أي وقت من الأوقات من دون إستئذان ، الحياة لعب و لهو حقيقة و ليس مجازا و ما نشاهده اليوم في العالم من سيادة الأفكار التافهة و الأنشطة الساذجة كالغناء و الرقص و الأفلام و المسلسلات التافهة و عروض الأزياء ، و المسرحيات العابثة ، و ما تفننت في إبداعه شركات صناعة الموضة من ألبسة كاشفة لعورات الرجال و النساء ، و غيرها من مظاهر اللهو و الفساد الأخلاقي ، و الزينة هي الإهتمام المفرط بمظاهر الحياة كاللباس و المساكن و السيارات و و المبالغة في إكتسابها حتى تحولت من وسيلة تساعد على الحياة السعيدة الى هدف في حد ذاته ، و التفاخر في الأولاد و الأموال ظاهرة لا تخفى على أحد ، و الحياة في التصور الإسلامي هي إحدى مخلوقات الله العظيمة و المبهرة التي حيرت حقيقتها العقول و القلوب ، و أثارت العديد من التساؤلات و الإشكاليات الفلسفية منذ غابر الزمان ، فماهي الحياة ؟ هي الدنيا ، ماهي الدنيا ؟ هي هذا الوجود الهائل بسماواته و ارضه ؟ هي الكون ؟ الحياة هي آية

من آيات الله ، وكائن مخلوق من مخلوقات الله ، محدث سخره الله لهذا المخلوق المسكين الذي يسمى الإنسان ، و الحياة هي هذا الفضاء الرحب الذي يمارس فيه الإنسان حياته لوقت معين حدده الله سبحانه و تعالى ، و قبل ان يولد الإنسان يحدد الله رزقه و عمره و عمله و شقي أم سعيد ، و كل مولود يولد و يولد معه رزقه ، نعم الدنيا فانية و الحياة مجرد ممر أو نقطة عبور الى الدار الأخرى ، دار البقاء و الخلود ، و الدنيا هي مسرح او فضاء العمل ... العمل بمعناه المادي و المعنوي ، هي فضاء الإنتاج و الإنجاز و البناء و التعمير من خلال التفكير و التخطيط و تحقيق ما عجزت عن تحقيقه الأجيال السابقة من إنجازات و مشاريع ، و هي فضاء لعبادة الله وحده لا شريك له ، و تلك إحدى الغايات من وجود الإنسان على وجه الأرض و و في هذه الحياة الدنيا ـ و هي فضاء للخلافة و إقامة حكم الله في الأرض و بناء الدول على سنة الله و رسوله و تطبيق الحاكمية ، و هي مجال للتعمير و البناء ، و إستعمار الأرض حسب المصطلح القرآني هو إحتلالها و السيطرة عليها و التحكم فيها من خلال إستغلالها أحسن إستغلال و إستخراج خيراتها و إستثمار كل الإمكانيات المادية و البشرية و الفكرية من أجل أن تعود بالفائدة على البشرية و يوفر لها سبل الحياة السعيدة و أسباب الرفاهية ، و في السنة النبوية المطهرة

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ{56} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{57} إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ{58} الذاريات

نلاحظ نفس الموقف السلبي من الحياة الدنيا يبديه الرسول الكريم في أحاديثه و تصرفاته و تقريراته فعن سهل بن سعد رضي الله عنه ، عن الرسول ﷺ قال ـ لو كانت الدنيا تعادل جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ـ و عن المستورد أخي بني فهر قال قال رسول الله ﷺ ـ ما الدنيا في الآخرة إلا مثل أن يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع ـ و عن أنس بن مالك عن الرسول ﷺ قال ـ لو كان لإبن آدم واد من مال لأبتغي إليه ثانيا . و لو كان له واديان لابتغي إليهما ثالثا ، و لا يملأ جوف إبن آدم إلا التراب ، و يتوب الله على من تاب ـ يقول الدكتور على رضا النحوي ـ رحمه الله في كتابه القيم ـ حتى نغير ما بأنفسنا ـ مهما تحدثنا عن منزلة الدنيا في الإسلام فإننا لا نستطيع أبدا أن نجمع كل ما ورد في الكتاب و السنة و في سيرة الرسول ﷺ ، أنما نقدم قبسات فحسب حتى تنهض أيها المسلم ، فتقبل على كتاب الله و سنة نبيه ﷺ و سيرته إقبال شوق و تدبر و تعلم ، و نخرج من ذلك كله بأن قضية الدنيا و زينتها و زخرفها و فتنتها موضوع رئيسي ، يجب على المسلم ان يستوعبه و يدرسه ، و أن يعد نفسه ليحذر فتنتها و يصبر على بلائها ، و ياخذ من خيرها بالحق ليكون قوة له في مسيرته الى الآخرة ... و أن قضية

الدنيا و زينتها و زخرفها و فتنتها موضوع رئيسي ، يجب على المسلم أن يستوعبه و يدرسه ، و أن يعد نفسه ليحذر فتنتها و يصبر على بلائها ، و يأخذ من خيرها بالحق ليكون قوة له في مسيرته الى الدار الآخرة ، و لابد أن يدرك المؤمن من خلال الآيات و الأحاديث أهم مواطن الخطر و الفتنة فيها ، و هي

. حب الدنيا و إيثارها على الآخرة .

. حب جمع المال و الوقوع في فتنته .

. حب النساء و الوقوع في فتنتهن .

. حب الشهرة و السعي إليها .

. العصبيات الجاهلية بمختلف أنواعها .

و المؤمن العاقل يتزود من الدنيا بما يعينه على المضي على صراط مستقيم الى هدفه الأكبر و الأسمى و هو الدار الآخرة و رضوان الله و الجنة ، في هذه الحياة الدنيا نهاية حياة كل إنسان هي الموت ، إنها ليست دار خلود ، فهي دار إبتلاء و تمحيص تنتهي بالموت ، فإن كان التفكير في الدنيا واجبا حتى يحذر المؤمن مواطن الفتنة و الشبهات ، فإن التفكير في الموت واجب أكيد يقوم به كل مؤمن عاقل ... الموت حق .. فلو شك بعضهم في أي أمر من أمور الغيب ، فإنه لا يستطيع أن ينكر الموت ، إنه حق يدركه كل إنسان ، هذه هي الحقيقة الأولى التي يمكن الإنطلاق منها ، إنطلاق المؤمن ليستقيم على الدرب ، و إنطلاق غيره ليتذكر و يتأمل و يتفكر عسى أن يهديه الله ، و الحقيقة الثانية النابعة من الحقيقة الأولى هي أن الحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة للإنسان ليعد نفسه لما بعد الموت ، فإذا جاء الموت فلا فسحة لتصحيح مسيرة ، و لا الى توبة ، و لا تفيد ندامة و لا مجال لعودة الى الدنيا ، و المسلم مطالب بقراءة هذه الآيات و أمثالها و تدبر معانيها

حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{99} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100} فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ{101} فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{102} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{103} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ{104} أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{105}

عسى الله أن يهدي القلوب و يثبتها على الحق ، إنه كريم رؤوف غفور رحمان رحيم

و تدبر هذه الآيات ، و أنظر شدة الحسرة و هم واقفون على النار ، لا مجال لعودة و

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{27} بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{28} وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{29}

و لا لتوبة و لا لمعالجة أخطاء ، فذلك كله مكانه الحياة الدنيا فحسب ، الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت ، فينقطع كل سبيل للتوبة أو العودة ، و لنتدبر صورة أخرى و موقفا آخر لنرى شدة اليأس و إنقطاع الرجاء ، موقف مذهل يقطع الأنفاس

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ{31} وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{32}

(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا{21} وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا{22} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25}

و التكذيب بلقاء الله قد لا ينحصر في الإنكار اللفظي ، و لكن السلوك و السعي و الدرب يجب أن يدل على التصديق بلقاء الله . . . هناك يتذكر الإنسان أن حياته الحقيقية في الدار الآخرة ، في نعيم الجنة ، أو عذاب النار ، و أن الحياة الدنيا عابرة ، دار إبتلاء و ليست دار إستقرار و لا قرار ، و يؤكد منهج الله هذه الحقيقة بإلحاح كبير حتى تثبت في النفوس و القلوب ، و حتى تكون قضية أساسية في التصور الإيماني ، قضية مفاصلة و حسم ، قضية موازنة أمينة صادقة . . . عندما تستقر هذه الحقيقة في قلب المؤمن ، فإنها تشرق طمأنينة و بشرى و فرحة في النفس ، و تشرق سلوكا و منهجا في الحياة الدنيا ، منهجا يمضي على الصراط المستقيم ، عندئذ يستقيم الدرب مع المؤمن ، و تمتد حياته كلها عبادة خالصة لله . . . إن المسلم الذي يقول أعترف بأني مقصر و أني مخطىء ثم يستمر على تقصيره و خطئه و ضعفه ، إن المسلم الدي يفعل ذلك يخدع نفسه و يهلكها . . إن المسلم الذي يقول أنه سيوفي بعهده و أمانته و نصرة دينه و دعوته ، بعد أن ينهي تحقيق شيء من عرض لدنيا ، جمع المال ، أو بلوغ منصب أو نيل شهادة ، ، إن المسلم الذي يقول ذلك إنما يزين له الشيطان الضلال ، فالوفاء بالعهد و الأمانة لا يجوز أن يعطله شيء ، إنما هي موازنة أمينة عادلة (كتاب حتى نغير ما بأنفسنا - للدكتور النحوي - رحمه الله)

ـ الحياة الدنيا بين العلم و الواقع

تكاثرت الآراء حول أصل الحياة و تباينت ، فقد جاء على لسان أرسطو أن بعض أصناف الحيونات و النباتات قد تولدت بشكل تلقائي من المادة اللاعضوية كالمعادن و الحجارة و التربة و الهواء و غيرها ، فعرفت نظريته هذه بإسم التوالد الذاتي التلقائي ، و هي تقوم على أساس أن المادة تحتوي في بعض أجزائها على عنصر ناشط يمكن من توليد كائن حي في حال وجد في بيئة ملائمة ، و هكذا إنتشرت هذه النظرية لقرون طويلة ، و ظهرت على إثرها أساطير عديدة حول التوليد التلقائي مثل توليد الفئران في ٢١ يوم من قميص وسخ و بعض حبات القمح ، ثم تساءل البعض الآخر عن سبب وجود الديدان و تكاثرها في جثث الحيوانات الميتة ، فقام عالم إيطالي هو ـ فرانسيسكو ريدي ـ منطلقا من إعتقاد مفاده أن الكائنات الحية لا تتوالد تلقائيا ، و أن الديدان التي تتكاثر تعود إلى بيوض تضعها حيوانات أخرة و تنتقل بالهواء ، هكذا توالت التجارب نحو تأكيد نظرية مفادها أن كل كائن حي يتولد من كائن حي آخر مشابه له ، فعرفت بنظرية الإستتباع الحيواني ، لكنها مرت بمراحل عديدة ، منها إختراع المجهر و تجارب ـ ليونهوك ـ و غيرها حتى جاء لويس باستار عند نهاية القرن التاسع عشر فأكد إستحالة التكوين التلقائي عبر تجارب عديدة مستعملا كل الوسائل و الأدوات العلمية و مستفيدا من تجارب من سبقوه ، فأوضح عمليات لكل التأويلات حول أصل الحياة .. و الآن لاتزال الأبحاث تجري حول مختلف الآراء و النظريات .. إن ما حدث على الأرض قد يكون نموذجا لتطور الحياة على أي كوكب آخر ، فالأرض تكاثفت من الغاز بين النجمي و الغبار ـ السدم ـ و في الأيام المبكرة من حياة الأرض ، كان البرق يومض في جوها الغازي مؤديا الى حدوث تفاعلات و إتحادات كميائية من مكوناته الغازية و النواتج الكميائية المتولدة إنحلت في المحيطات مشكلة نوعا من الحساء تزايد في تركيزه مع مرور الزمن ، و فجأة دبت الحياة في الجزء الناتج وولد نسخة جديدة عنه ، و إستخدم ذلك الجزء الجزئيات الأخرى الموجودة في الحساء ، فكان ذلك هو الحد الأدنى للدنا ـ D N A ـ و ذلك قبل أربعة مليارات سنة ، ثم أخذت بعض الجزئيات تنتج غيرها ، و كانت عملية التكاثر هذه غير تامة من جيل إلى آخر ، و الأجيال الناتجة ليست نسخا تامة عن والديها و أشقائها ، و سبب تلك الفروق يعود الى زيادة التلاؤم و التكيف مع الوسط المحيط بها ، و مع إستمرارية الإنتاج ، و التغيير الإحيائي ، و قانون الإصطفاء الطبيعي ، كان التطور يتقدم سائرا دوما نحو التعقيد و التخصص ، و هكذا ظهرت الخلية الحية الأولى ، و بعد ذلك تواجد منها نوعان تميز أحدهما بوجود مصانع صغيرة في بنيانها تدعى حبيبات اليخضور ـ كلور بلاست ـ و كانت تلك الحبيبات تقوم بإمتصاص غاز الكربون من الجو

و الماء من الأرض صانعة منهما فحوما هيدروجينية تتغذى بها الخلية و مخزنة جزءا من هذا الغذاء ، و أثناء الإمتصاص ذلك تقوم بإطلاق غاز الأوكسجين الى الجو كناتج من نواتج التفاعل السابق الذي يحدث في ضوء الشمس في ساعات النهار ، أما النوع الآخر من الخلايا الحية فكانت تتضمن على نوع آخر من المصانع تدعى ـ مينوشوندرين ـ التي يحدث فيها إتحاد للغذاء مع الأكسجين الممتص من الجو لإستخراج الطاقة الضرورية لإستمرار الحياة ، و غذاؤها هي الفحوم الهيدوجينية ذاتها المخزنة في النبات ، و تتواجد المصانع الأخيرة في الخلايا النباتية و الحيوانية ، و كانت تلك الخلايا الحية حرة مستقلة ، و أمكن التعرف على بعض منها مما تركته من آثار في الصخور القديمة المتصلبة ، و قد عرف منها بقايا نباتية وحيدة الخلية تدعى باعشاب المجهرية و طحالب ، و بقايا حيوانية هي عبارة عن أصداف لبعض العضويات تشبه البكتيريا ، و لقد سيطرت تلك الأشكال لمدة ثلاثة مليارات سنة من عمر الأرض ، و أن الخطوات الأولى في هذا الطريق ليست معلومة لأنها ظهرت عندما كان عمر الأرض مليار سنة فقط ، و لأن الأشكال المبكرة من تلك الخلايا كانت سريعة العطب لم يتبق منها أية آثار تذكر ، و لقد رافق ظهور الخلايا الوحيدة ظهور الجراثيم بأنواع متعددة ، إذ أنه كان من الصعوبة نمو العضويات الكثيرة و تكاثرها ، ثم تلا تلك المرحلة مرحلة جديدة إتصلت فيها الخلايا الوحيدة ببعضها البعض بغية تأمين غذائها بشكل أوفر و لتؤمن حماية أكثر لها الى أن بلغ عددها فيما بعد في جسم الإنسان حوالي ١٠٠ تريليون خلية حية ، كما أنها جنحت الى طريقة أخرى في التكاثر و هو التكاثر الجنسي الذي عرفته الكائنات الحية قبل ملياري سنة لتسهيل عملية تبادل جزئيات الدنا .

ـ نظريات نشأة الحياة

إذا نظرنا الى مراحل التطور في الكون ثم على وجه الأرض فسوف نجد شيئا غريبا ، ذلك أن عمر الكون التقديري هو من ١٠ الى ٢٠ بليون سنة و الوسطى هو ١٥ بليون سنة ، و بحسب صور التلسكوب هابل ١٢ مليار سنة ، فإذا علمنا أن ذرات الأجسام الحية لم تكن جاهزة في اللحظات الأولى لنشأة الكون ، فهي قد خلقت في بعض النجوم الأولى التي أستهلكت وقودها الذري بسرعة و كونت ذرات العناصر الأثقل من الهيدروجين التي كانت لازمة لبناء المادة الحية فيما بعد ، و أن تلك النجوم أنهارت ، و إنفجرت و تناثرت شظاياها في الفضاء حولها لتتكثف آخر الأمر في أماكن بعيدة مكونة نجوما جديدة و نظما كوكبية ، و التقدير الزمني لذلك هو من مليار الى ملياري سنة لتتكون و تدب فيها الحياة ، فلولا الصدف الطيبة و حدوث الطفرات في الكائنات الحية و خضوعها لقوانين الإصطفاء الطبيعي خلال تطورها

ضمن بيئات حرارية متعددة الأشكال لما ظهر الإنسان الحالي أو لربما إستغرق ظهوره زمنا طويلا .. تدل الإكتشافات الأثرية و الدراسات على أن أول الكائنات الحية البسيطة التي ظهرت على وجه الأرض هي التي إحتاجت أطول زمن كي تتطور ، فأقدم الآثار التي أمكن العثور عليها ضمن الصخور بلغ عمرها ٦ ـ٣ مليار سنة من الآن ، أما الحيوانات البسيطة ذات الأجزاء الصلبة التي حفظت بقاياها الصلبة فبلغ عمرها ٦ مليارات سنة ، فإذا أخذنا بعين الإعتبار الزمن الذي لزم للتطور ما قبل الخلوي ، و هولا يزيد عن بليون سنة ، و تلاها الخطوة الحاسمة التي خطتها وحيدات الخلايا ، و لزم لذلك ملياري سنة ، ثم تسارعت خطى التطور حيث بلغ عمر أول الثدييات ٢٠٠ مليون سنة ، و تشعبت تلك الثدييات لتتنتج الإنسان قبل ٦٠ مليون سنة من الآن ، فيكون الزمن الباقي من عمر الكون هو تسعة مليارات سنة و هذه الفترة الزمنية المتبقية هي ضعف عمر الأرض ، أي أن هناك من الزمن ما يكفي لتطور الحياة ليس مرة واحدة فقط بل مرتين متتاليتين ، منذ أن ربح أصغر عالم كميائي في العالم جائزة نوبل في عام ١٩٣٤ و هو العالم هارولد يوري لأبحاثه التي أجراها ، أصبح هذا الشخص أحد القادة العالميين و المهتمين بخلق الأرض و الكواكب ، لقد إعتقد يوري و من شاركه من العلماء أن المجموعة الشمسية كانت كرة غازية ساخنة جدا تدور و تلف حول نفسها بسرعة هائلة جدا ، و مع مرور الوقت حدث قذف لذرات الغاز و المواد الخفيفة فيما بعد بعيدا عن مركزها بطريقة تبه قذف الطين من دولاب يدور بسرعة ، و صاحب تلك العملية تبرد تدريجي و تكاثف في الكواكب ، بحيث بقيت الشمس دوارة و بشكل كرة غازية ملتهبة ، و هنا يكشف الدكتور يوري على تفسير علمي براق عن سر قديم جدا و هو كيف بدأت الحياة على كوكبنا الذي كان مصهورا حينا من الدهر ؟ و قال إنه خلال تشكل الأرض فالمواد الغازية الثقيلة تكاثفت الصخور و المعادن و شغلت مركز الأرض و الطبقات العميقة فيها ، بينما العناصر الأخف أصبحت جوا غازيا يختلف عن جونا الحالي ، فالجو القديم كان ساما و مميتا للحياة ، و مكون من هيدروجين و نشادر و ميتان و بخار و ماء ، و كانت تحدث في جو الأرض القديم بروق و عواصف رعدية كهربائية وومضات كهربائية بقوة ملايين الفولطات ، أدت ببساطة لوقوع عديد من اتفاعلات الكميائية و تأثيراتها خاصة بوجود أشعة الشمس الغنية بالأشعة فوق البنفسجية إذ لم تكن طبقة الأوزون قد تشكلت بعد ، و كانت الشمس التي إنبثقت الأرض منها قادرة على توفير شروط جيدة أدت بنهايتها لتشكيل أول خلية حية على سطح الأرض ، أي يعتقد يوري ببساطة أن الحياة تطورت من تفاعلات كميائية في ظروف كانت سائدة و ملائمة لذلك ، و لكي يتأكد من ذلك فقد أجرى تجربته المشهورة عام ١٩٢٥ بأن أدار مثل هذا المزيج

الغازي الذي كان سائدا في جو الأرض القديم ضمن وعاء مغلق تحدث فيه شرارات تفريغ كهربائي لمدة أسبوع ، و في نهاية الأسبوع وجد أن الماء قد أصبح يحتوي على عدة نماذج من حموض آمينية و التي هي اللبنات الأولى لتكوين المادة الحية كما رأينا سابقا.

ـ الفيروسات و نشأة الحياة

١ . الحي الميت ـ الفيروس ـ هل يمكن أن تنبعث الحياة من الموت ؟ و هل الموت هو نهاية صحيحة للحياة ؟ هل الموت هو بداية حياة جديدة ؟ و كيف يبعث الميت من الحي و الحي من الميت ؟ هذا الميت الحي هو الفيروس ـ ـ ـ لم يكن من السهل التوصل الى نظرية في أصل الحياة ما لم تتضافر معطيات علوم الكمياء و الفلك و الأحياء سوية ، إذ يستحيل تتبع آثار الحياة بشكل تراجعي للوصول للتفاعلات الكميائية لنشأة الحياة الأولى ، و السؤال هل يوجد دليل مباشر على تطور الحياة من جزئيات كميائية كانت ميتة و هل بعثت الحياة بعد الموت ؟ نعم ففي نهاية القرن التاسع عشر ظهر جسيم صغير لا يرى بالعين المجردة و لا بالمجهر الضوئي ، و لا يمكن فصله من السوائل التي تحتوي عليه بالترشيح ، فهو ينفذ من مسامات أدق المرشحات التي تمنع مرور جميع البكتريات ، و لم يمكن رؤيته الا منذ فترة قريبة بواسطة المجهر الإلكتروني و قد تم الإستدلال على وجوده من خلال التجارب التي كانت تجري لمعرفة سبب إنتشار بعض الأمراض في نباتات التبغ ، إذ وجد أن عصير تلك الأوراق المصابة بإمكانه أن يصيب أية أوراق نباتات أخرى إذ وصل إليها ، حتى و لو جرى ترشيحه عبر مرشحات دقيقة جدا ، لأن السائل الناتج سوف يبقى محتفظا بنسبة عالية من التلوث بهذا الجسم الغريب ، و في عام ١٩٨٨ أعلن العالم النباتي الألماني ـ بيجر إينك ـ أن تلك الأمراض المنقولة ليس سببها الجراثيم و إنما كميائيات سامة سماها بالفيروس ، و هي كلمة لاتينية تعني ـ سام ـ فما هو الفيروس ؟ إنه جسيم ، جديدة معرفتنا به لكنه قديم جدا ، فهو ينتسب الى الحياة و اللاحياة في الوقت نفسه ، فهو ليس جسما كميائيا عاديا ، و لا يوجد دليل مباشر على حياته ، إذ يسلك الفيروس سلوك جزئي ميت حينا و قد يستمر في موته هذا عدة سنوات ، و في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية نجح العلماء في إختراع المجهر الإلكتروني الذي تحولت قوته التكبيرية الى عدة آلاف المرات ،و هكذا أصبح الفيروس مرئيا بهذا المجهر ، فما الذي شاهده العلماء حينئذ ؟ إن ما ظهر تحت المجهر الإلكتروني لم يكن مجرد جرثوم مثل جراثيم الملاريا أو الدسنتاريا ، بل حتى لم يكن له خلية ذات صفات خلوية أو تركيبية ، و أن ما شوهد كان عبارة عن بلورات ميتة مثل بلورات ملح الطعام لا حيـــاة فيها و لا حركة و لا تنفـــس و لا

ولا إحساس و لا تكاثر ، فهي عبارة عن مادة بروتينية ميتة ، و بتحليلها إتضح أنها البروتين النووي المعروف بالدنا ، و هي المادة الموجودة في نواة كل خلية حية و عملها هو النسخ و نقل الصفات الوراثية للأجيال القادمة من الخلايا ، و هي تعمل عمل أحرف الطباعة في المطبعة بحيث تستطيع نسخ الملايين من سلال الدنا من مكونات الخلية معطية الوليد طابعا و شخصية مورثة له من والديه ، وكما وجدنا فإن هذه السلاسل مكونة أكثر من عشرين نوعا من الحموض الأمينية المختلفة الأشكال ، تتصل ببعضها كالحروف الأبجيدية مكونة جمل لها معنى ، أي مؤلفة شيفرة خاصة في كل مكان حي ، هذه الشيفرة هي كالبصمة التي تحملها أصابع البشر للتمييز بينهم ، و لهذه السلاسل صفة الآمر الناهي على المواد الأخرى ، و تشكل من النسخ ما تشاء حسب هيئتها هي ، و ليست وفق مخطط الخلية الخاص و شيفرتها الطبيعية ، و لكن وفق مخطط الفيروس و شفرته ، و يجب عليها أن تتكاثر بسرعة هائلة تبعا لأوامره ، و ترسل تلك الصور أي النسخ لخارج النواة بشكل حامض الدنا و يبقى الأصل و هو الدنا داخلها ، و الفيروس يحتوي هاتين الدنا و الرنا و أحيانا يحتوي أحداهما فقط ، و مع ذلك فهو مادة كميائية ميتة ليس له جسم خلوي و لا تكوين حي ، بل هو ميت في ميت ، رغم أنه يحتوي جزئيات الدنا و الرنا و هي صور من صور الحياة ، و للفيروس أشكال بلورية نقية أو تركيب هندسي بلوري له زوائد بارزة ، و أحيانا تكون بلوراته محاطة بكيس دهني له قرون متعددة و لا يحتوي على أية مواد سكرية أو دهنية ، وهي مصدر الطاقة للتفاعلات الكميائية عند المخلوقات الحية الأخرى ، و ليس فيها نيوكليوتيدات حرة أو أحماض آمينية و التي هي مواد ضرورية لعملية التناسخ و تكاثر الفيروس ، و هنا يبرز السؤال التالي كيف إذا تعيش الفيروسات و تتكاثر ؟ أتى الجواب من خلال المجهر الإلكتروني ، فالفيروس ليس حيا بحد ذاته ، لأنه لو أضفنا قليلا من الماء بحذر شديد الى مجموعة من الجسيمات الفيروسية فإنها تلتصق ببعضها مشكلة بلورة هندسية الشكل تشبه بلورة الملح أو الألماس و هذا سلوك مادة غير حية ، و يمكن أن تبقى البلورة ساكنة و خاملة لعدة سنوات ، فإذا أذيبت في الماء مرة ثانية ووضعت على تماس مع خلايا أخرى ، عندئذ تبعث الفيروسات حية من جديد و تقفز ملتصقة بجدار الخلية الحية و تثقبها في موضع ما و تعمل فيه فتحة صغيرة و تطلق الدنا الخاص به داخل الخلية الحية ، و يحقن دناه و هي مادة جسمه داخل الخلية تاركا زوائده و غلافه خارجها ، و يقوم دناه بإزاحة دنا الخلية الأصلي مستوليا على مقاليد الأمور فيها جاعلا من نفسه مشرفا عاما و موجها لكافة الأنشطة الكميائية في الخلية ، كما يقوم بسرقة النيوكليوتيدات الحرة العائدة للخلية و العائمة في سائلها الخاص ، و مانعا تكاثر الخلية و عملية النسخ الذاتي

لسلاسل الدنا فيها ، و موقفا نشاطها كليا ، ثم يقوم بإطلاق خميرة بشكل سري تثير الفوضى و الإضطراب في الخلية ، و يلتبس الأمر على الخلية فهي تواجه شيفرة جديدة بقسوة و صرامة و بتعليمات كيمائية مختلفة تماما عن تعليمات الأم المعتادة عليها دوما .. تستمر الفوضى داخل الخلية الحية لفترة يسيطر عليها دنا الفيروس ، و يخيل لمناطق الخلية المختلفة أن هذه الأوامر صادرة عن نواتها ، و تبدأ بتنفيذ هذه الأوامر الجديدة ، و تبدأ بنسخ آلاف النسخ من دنا الوافد الجديد و من مكوناتها هي ، و في لحظة واحدة فقط يتحول الفيروس الواحد لآلاف الفيروسات المماثلة له ، فلقد إستعار جسم الخلية الحي و سخرها لمآربه في تكاثره الذاتي و السريع و النشيط جدا ضمنها لتصبح أعداده بالملايين ، فإذا تنبهت الخلية لما حدث لها من خدعة فإنها تبدأ بإفراز مواد مضادة و تبدأ بإرسال تعليمات كيمائية جديدة لإعادة الأمور لنصابها و مكافحة الفيروس المعتدي بحيث تعيد عملية تكاثرها و حياتها لما كانت عليه سابقا و غالبا يحدث ، بعد أن تتعافى الخلية المريضة نموا سرطانيا بسبب الإختلاف الطفيف الذي عانته شيفرتها الكيمائية بعد أذى الفيروس لها .. إذا هذا هو سر الميت الحي ، و كيف تنبض الحياة في مادة بلا حياة ؟ أم أن هناك إختلاطا بين الحياة و اللاحياة ، و أن ذلك الحاجز ينهما ليس له وجود بل نحن اخترعناه ، و هل الموت هو بداية حياة جديدة أم العكس ؟ فمثلا بعض أنواع الفيروسات مثل - فاي - بيتا - يحتوي جزئي واحد منفرد من الرنا و هذا الجزئي المجدول المنفرد يحتوي بدوره على أكثر من مليون ذرة و عندما يتكاثر في جسم خلية حية أخرى - بكتيرية مثلا - فإنه يشكل حلزونة - جديلته - و مراقيها الرابطة من مادة البكتيريا ذاتها ، و بعدها تنقسم تماما كما هي في حالة الدنا .. لقد أمكن إنتاج مثل تلك الفيروسات في المختبر على يد العالم البروفيسو - سول سبيكمان - و إستخدموها في التأثير و دمج البكتريات الزراعية و إضعافها ، و هكذا أمكن صنع عضويات حية عنصرية لها إمكانيات النسخ و التكرار و التكاثر من مواد كميائية عادية ليست حية ، مما يوضح أن الحياة على الأرض ربما تركبت بعمليات طبيعية ومن عناصر طبيعية غير حية كانت في الأصل ترابا.

- الحشرات و نشأة الحياة

الحشرات يعرف منها حاليا حوالي مليونين من الأنواع ، وهي موجودة في كل مكان ، في القطبين و الصحاري و أعماق الأرض و قمم الجبال و في المياه الحلوة و في كل بقعة من بقاع اليابسة و الماء ، و تشكل ثلثي الكائنات الحيوانية الحية من أسماك و طيور و ديدان و غير ها ، منذ ما يزيد على ثلاثمائة مليون سنة مضت

ظهر للحياة أحفاد جدد عرقت بإسم الحشرات كان مقدرا لها أن تسيطر بسلالاتها على الأرض و على مسرح الحياة فيها ، فقد كان الصرصور أنذاك بطول نصف متر ، و لحشرة أبو المقص الطيارة طول يقارب المتر و لها أزيز طيران يسمع من على بعد عدة كيلومترات ، و كأنها طائرة مقاتلة منقضة تزمجر بمحركاتها النفاثة ، لكنه صراع البقاء و البقاء للأقوى ، لم تعد مثل هذه الحشرات تتكاثر بل بقي منها سلالات صغيرة الحجم هي تلك التي أفلتت من الإلتهام و الإبادة ، فعمليات الإختباء و التخفي و الصوم الإضطراري لمدة طويلة لتتكيف مع الظروف المتغيرة جعلتها تتقلص و تنكمش و تنتج سلالات أقل حجما ، و هكذا كان مقدرا لتلك الكائنات أن تكون أذكى من الديناصورات العظيمة و أوسع حيلة من الثعالب و أقدر على مواجهة صعوبات الحياة من ضواري الغابات ذاتها ، خاصة أن نسبة حجم ووزن مخها الى حجمها الكلي كبيرا جدا بالمقارنة مع تلك التي للدلافين أو الحيتان ، فهي تسمع و تشم و تحس و تتكاثر بأعداد هائلة جدا ، فهي قاهرة الموت بتناسلها عن طريق البيض ، فالحشرة الواحدة منها تبيض مليارات البيوض لتضمن لنسلها الإستمرار و البقاء رغم وجود أعداء لها يحاولون القضاء عليها ، فحشرة دودة القطن مثلا تبيض في اللحظة الواحدة ٤٠٠ بيضة بحيث يكون مجمل نسلها هو ٢٨٠٠ أنثى و ٢٠٠ ذكر ، و بإستمرار ذلك نكتشف أن الحشرة الواحدة سوف تتضاعف الى ثمانين ألف حشرة بهذه الطريقة ثم ١٦ مليون و ذلك خلال أيام ، و في حالة إحدى الحشرات و هي . ذبابة الدروسوفيلا ـ فإنها تنتج ٢٥ جيلا في السنة بحيث يكون عددها مائة في أول جيل حتى يصل البلايين منها في الأجيال الأخيرة ، فإذا أمكن رص هذه الحشرات بجوار بعضها بعضا لكونت جسرا يصل بين الأرض و السماء .. و الآن لماذا لا نشاهد إذا سيطرة الحشرات على الأرض ؟ و الجواب هو أن الطيور تصطاد تلك الحشرات و تتغذي بها ، كما أن البيئة غير المناسبة تبيد كثيرا منها ، بحيث يسود توازن بين الكائنات ساكنة الأرض من الأحياء بجميع أنواعها ، و للحشرات صفات غريزية تقوم بها دون أن يعلمها أحد بذلك ، كأن يصطاد الزنبور دودة ثم يضع بيضة واحدة على تلك الدودة ثم يضعها في العش و يغلق عليها بحجر صغير ، و عندما تفقس البيضة تحرج منها اليرقة فتجد طعاما جاهزا بين يديها يكفيها حتى تمام نموها و إكتمال بنيانها ، و حينما زحف الثلج و غطى الأرض في العصر الجليدي و تجمدت فيه المحيطات و مئات الديناصورات و إنقرضت مع ما كان يعاصرها من زواحف عملاقة ، بقيت الحشرة تقاوم و هي نائمة في الثلج في سبات شتوي طويل لا تأكل فيه و لا تتنفس .فهي تعيش في درجات حرارة منخفضة جدا و كذلك في ضغط جوي منخفض و في حرارات عالية و في الماء و في الفراغ و بدون هواء و حتى بوجود غازات سامة كما أنها قاومت الرعود و البروق و الحرارة

و الصقيع ، و عندما أشرقت الشمس و صار النهار دافئا ذاب الجليد فخرجت الحشرات بالألوف و الملايين من سباتها ، فغزت الماء و اليابسة و الصحاري و الهواء و يتغذى بعضها ببعض و بعضها يتطفل على غيره من النباتات و الحيوانات ، و على الطين و الروث و البترول و الدم على كل شيء فهي قادرة على التكيف مع أي طعام موجود ، بعضها يعيش على الجثث و أخرى على أكاسيد المعادن و المركبات الكبريتية ، و على العظام ، كما أن لها دروعا مصفحة مكونة من مادة كيتنية تقاوم كل آثار المواد الكيميائية ، و لها أشواك و خناجر و حراب و زنابير ، و لها غدد تقذف مواد كيميائية سامة ، أو كريهة الرائحة ، و تعيش معظم الحشرات خلال مراحل تطورها في وسطين ، فمثلا دودة الحرير تعيش في شرنقة الحرير ثم تتحول لفراشة تطير في الهواء ، و هكذا نجد أن لكل نوع من أنواع الحشرات طريقة خاصة في الصيد و الغذاء والنمو و حماية نفسها و مهاجمة أعدائها ، وفي الحقيقة هي أمم لها غرائزها و نظمها ، و طرائقها عجيبة في الحياة ، فهي تقوم بأعمال مناسبة في أماكن مناسبة و أزمنة مناسبة و كأنها ربوتات صغيرة لا يمكن مخالفتها و ليس لها عقل ، لكن لها بصيرة أو حاسة تدرك بها ما يلزمها لبقائها ، كما أن لها مجتمعات منظمة تماما قد يكون لبعضها شكل تعاوني مثل النمل أو النحل .

ـ تطور الحياة على وجه الأرض

إن تطور الحياة على الأرض من أشكالها البدائية الى وجود حيوانات مختلفة الأنواع مائية و بيئية و مرجانية ، يعتبر تطورا كبيرا للحياة على كوكب الأرض قبل خلق الإنسان ، فعلى الرغم من وجود بعض الشك حول الطريقة التي تطورت بها الخلايا الحية الأولى ، لكنه يوجد إتفاق على أن التمايز و التباين العام الذي حدث في الحياة نشأ في البحار الدافئة البدائية ، حيث تطورت بعض المخلوقات فأصبح لها هياكل عظمية جعلتها أكثر حجما و أقوى أجساما ، و جرى في هذه الفترة من عمر الأرض بعد التطورات حيث خرجت بعض الأسماك من البحار محاولة العيش على اليابسة ، و تلا ذلك ظهور الحيوانات ذات الأرجل بدل الزعانف ، و أن أول تطور حقيقي لتلك الحياة و تلك الحيوانات هو

ـ تطور البيضة إن تطور البيضة هو التطور الحاسم و المهم لظهور الحياة على اليابسة ، و إن تطور البيضة ذات الدرع القوي هو الذي مكن تلك الكائنات البرمائية القديمة من الحياة الجنينية و من التطور خارج البحر ، أو بداخل نوع خاص من البحيرات المنعزلة ، فوضعت بيوضها على اليابسة بدل الماء ، و كان لتلك البيوض صدقة جلدية مغلقة متينة في سبات تحفظها من الرطوبة في خارجها و تحفظ

السوائل داخل البيضة كما تزود الجنين بسائل البحيرة الخاص به ، و النتيجة هي بقاء الماء محفوظا في أجسامها و دون الحاجة لغمس جسمها بإستمرار في الماء ، أي عاشت تلك الأجنة في نوع من البيئة مماثل لتلك التي شغلتها مثيلاتها القديمة في مرحلتها البحرية و هكذا تحررت تلك المخلوقات من الماء معلنة بذلك ظهور الزواحف الأولى ، و تركت الوراثة من المراحل البحرية الأصلية من التطور علامات ملحية ـ أملاح ـ مازالت في دمائنا حتى اليوم ، أعقب تلك الحقبة من الزمن إنفجار فجائي في سكان الأرض من الأحياء يدعى ـ بالإنفجار الكامبري ـ و قد دلت عليه طبيعة التسجيلات المستحائية الممثلة لتلك الفترة ، و ظهرت في تلك الفترة أشكال متعددة من الحياة و بوفرة كيرة ، بحيث اصبحت المحيطات تعج بأشكال مختلفة من الحياة ، و هذا ما تم العثور عليه في صخور يعود عمرها الى ٦٠٠ مليون سنة مضت ، و منذ تلك الفترة غدا بالإمكان مواكبة تطور الحياة على الأرض ، ذلك أنه كان لبعض الكائنات الحية في تلك الحقبة هياكل عظمية بقيت آثارها مطبوعة في الصخور حتى الآن ، غير أن معظم الكائنات لم تترك آثارها واضحة بسبب نقص الدروع في أجسامها ، و منذ قرابة ٥٠٠ مليون سنة مضت طغت قطعان كبيرة من ثلاثيات الفصوص كانت تسبح في البحار الدافئة ، و هي حيوانات مفصلية بائدة تشبه الى حد كبير الحشرات ، كانت تختزن في عيونها بلورات تكتشف بها الضوء المستقطب ، مما دل على أن ضوء النهار أنذاك كان مستقطبا بشدة ــ أي حذف كثيرا من إهتزازاته الكهرطيسية ـ و إهتزازاته الكهرطيسية مفتتة و مبعثرة بشدة و في كل الإتجاهات ، و أن سبب الإستقطاب الضوئي هو وجود جسيمات دقيقة كانت معلقة بالجو ، و قد أبيدت تلك المخلوقات منذ ٢٠٠ سنة .

ـ ظهور البرمائيات : بعد المرحلة الجنينية و نجاح ظاهرة البيضة ، أصبحت الظروف مواتية و جاهزة للإنفجار الإحيائي العظيم و لمختلف أشكال الحياة على اليابسة ، و التي كانت هامة في تأسيس نماذج و أنواع التطور الحيواني التي بدأت بالزواحف ، منذ حوالي ٣٠٠ مليون سنة تقريبا ، كشفت البحار عن أرض يابسة و بمساحات أكبر مما كانت عليه ، فتطورت عليها بسرعة نباتات محيرة و حشرات حية ، من ذباب عملاق متوحش طول جناحيه حوالي ثلاث أقدام ، و مثله اليعسوب و السرمات ، وكان طول الصرصور أنذاك حوالي نصف متر ، و لحشرة أبو مقص الطائرة طول يقارب المتر ، و لها أزيز طيران يسمع من بعد عدة كيلومترات ، لكن بوجود مفترسات في بيئتها إضطرها و عديد من الحشرات للإختبار الطويل و الصيام عن الغذاء ، فأنتجت سلالات أصغر حجما بغية التكيف و التلاؤم مع تلك البيئات العدائية ، بعد أن خطت الزواحف أولى خطوات النجاح في مجال التطور

بتحررها من ماء البحيرة ،لأن موارد الغذاء على اليابسة كانت أوفر مما كانت عليه في الماء ، ظهر تغير حيوي عندما تخلص بعض انواع الأسماك مثل كوإيلا كانت ـ من البحر الى اليابسة ، و كانت هذه البرمائيات نباتية ، وهكذا ظهرت أولى الحيوانات رباعية الأرجل تمشي على اليابسة ، لكن بقيت بعض الأنواع من البرمائيات تعود الى الماء لتضع بيوضها فيه مثل الضفادع ، و بعد التفقيس فإن الحيوانات الخارجة من البيوض كانت تحيا فترة في الماء ثم تتركه بعدئذ الى الهواء الجوي على الأرض اليابسة ، لقد وصلت تلك الحيوانات البرمائية الى قمة حجمها قبل ٢٥٠ مليون سنة حيث أخذت بالتراجع ، و ما بقي من نسلها اليوم فهو الضفدع و السمندل ، و ظهرت في تلك الفترة الحشرات ذات الأجنحة التي أعطتها القدرة على التحليق و الطيران ، بينما كانت البرمائيات تتطور ، فإن نوعا آخر منها ترك البحار الى اليابسة و هي الزواحف مثل السحالي و السمندل ، و قد تجاوزت مرحلة البرمائيات و تعلمت أن تضع بيضها على اليابسة و أصبحت تلك الحيوانات النباتية عملاقة حتى صار طول الحيوان ـ برونتوساروس ـ حوالي ٢٢ متر وزنه قرابة ٣٠ طن ، كما إزدهرت آكلة اللحوم كحيوان . التيرانوساروس ـ الذي بلغ إرتفاعه ١٣ متر و إتساع جمجمته ٣ متر و كانت تلك الحيوانات مجهزة بأسنان حادة تشبه الخناجر جعلتها أعنف المفترسات وجدت على الأرض ، عندئذ أتت مرحلة الصراع من أجل السيادة على اليابسة بين الزواحف بنوعيها النباتي و اللاحم و البرمائيات ، و كسبت الزواحف ذات المخ الأكبر بسهولة ذلك الصراع ، و أثناء ذلك كان يجري صراع آخر للبقاء في المحيطات بين الزواحف العملاقة و نوع متطور من أسماك القرش ، و كان ذلك قبل حوالي ١٥٠ مليون سنة ، و كسبت أسماك القرش تلك المعركة ، و أسست مناطق سيطرة في البحار مازالت الى يومنا الحالي ، لكن منذ حوالي ٥٠ مليون سنة و في طغيان عارم و في حادثة لم يسبق لها مثيل في التطور سيطرت الزواحف و بمئات الأنواع و سادت الأرض الرطبة و الدافئة ، و إنتقلت بعض الزواحف الى الهواء الجوي طائرة فيه ، و ظهرت مخلوقات طائرة مثل ـ البيتروداكتيل ـ .. ربما كانت هذه المخلوقات الطائرة هي أبشع الحيوانات التي عاشت على الأرض إطلاقا ، لكن هذه التجربة في التطور فشلت و إنتهت تلك الحيوانات الطائرة ، و أخيرا تمكنت الزواحف من النجاح في السيادة على الهواء الجوي منذ حوالي ١٣٠٠٠ سنة ، و ظهر نوع من الطيور يدعى ـ كايو بيتريكس ـ مكسوا بالريش ، و منه أتت الطيور المعروفة حاليا ، لكن إحتفظت تلك الطيور و الأفاعي بعاداتها الزاحفية القديمة ، و منها طريقة التوالد و التكاثر بالبيوض ، و مع مرور الزمن أنتجت الزواحف نوعين ضخمين و مختلفين من المخلوقات ، إحداهما آكلة النباتات و الآخرى آكلة السمك ، و حدث صراع جديد بينهما و لم تكن الديناصورات الأولى صغيرة المخ

تتلاءم مع المفترسات آكلة اللحوم مثل ـ التيرانوساروس ـ اي كان أعظم و أقوى آكل للسمك و اللحوم ، ظهر على سطح الأرض ، فلم تصمد أمامه أنواع كثيرة فزالت و انقرضت ، و منذ حوالي مليون سنة تطورت الزواحف الى أبعد حد لها كما في حالة ـ البرنتوساروس ـ الضخم ، و كان هو أضخم حيوان بري ظهر في التاريخ ، لكن النهاية كانت لصالح الزواحف فأحكمت سيطرتها على الأرض .

ـ ظهور الفقاريات : سيطرت الخلايا البدائية منذ ثلاث مليارات سنة من عمر الأرض ، و رغم أن الخطوات الأولى في هذا الطريق ليست معلومة الأثر لأنها بدأت في الظهور و كان عمر الأرض مليار سنة فقط ، فجاءت الأشكال المبكرة لتلك الخلايا الوحيدة سريعة العطب لم يتبق منها أية آثار تذكر ، ورافق ظهورها ظهور الجراثيم بأنواع متعددة ، لأن البيئة أنذاك لم تكن مساعدة لنمو العضويات الكبيرة ، و لم تتعرض تلك الخلايا الوحيدة للموت إلا بحادثة ، كأن يجف المستنقع الذي تحيا فيه أو أن تلتهمها خلية أخرى ، أما الموت كما نعرفه نحن فلم يكن يواجه ذلك الكائن الحي وحيد الخلية ، و كانت طريقة تكاثرها بالإنقسام عندما تبلغ غاية نموها ، حيث تنقسم لنصفين متماثلين تماما و تبدأ مرحلة حياتية جديدة لتلك الخلايا و هكذا ، و مازال هذا حال الميكروبات و الجراثيم في إنقسامها و تكاثرها ـ . إستطاعت تلك الخلايا الأولى أن تهزم الموت بتكاثرها بالإنقسام دون مرورها بمرحلة الطفولة و الشباب ثم الشيخوخة ثم الموت ، و كانت تقوم تلك الخلايا بجميع وظائف الحياة من حركة و غذاء و طرح و تكاثر و دفاع ، ثم بدأت مرحلة جدية أكثر تطورا إتصلت فيها الخلايا الوحيدة ببعضها بغية تأمين غذائها و أمانها ، و تلاصقت معا متحولة الى نسخ متعددة الخلايا ، فمجموعة منها أختصت بالحركة و أخرى بالهضم و غير ها بالطرح ، و خلايا أخرى إختصت بالتناسل و التكاثر ، و بلغ عدد تلك الخلايا المترابطة فيما بعد في جسم الإنسان مائة مليون خلية حية ، و تطور في هذا الكائن الحي الأعضاء الخاصة بالجنس التي إنشطرت الى نوعين الذكورة و الأنوثة ، فصار الكائن مجرد وسيط يحمل الحيوانات المنوية أو البويضات ، و يعمل على نقلها و غرسها في عملية تلقيح جنسية في الشطر الثاني من بني نوعه ، و منذ ذلك الوقت بدأت ظاهرة الشيخوخة تصيب الكائن الحي مؤدية به الى الموت الذي صار ضريبة الكائن الجنسي ، إن السبب الرئيسي في تحول الكائن الحي الى متكاثر جنسي بدلا من الإنقسام هي قسوة الظروف و ضراوة البيئة ، فجعلته يختار هذا الطريق لإنتاج نسل قوي يستطيع الصمود و البقاء ، فالتكاثر بالإنقسام يعطي نسلا ضعيفا يكرر ذاته تماما دون حدوث أي تقدم تطوري في نسله ، فإذا أصاب الكائنات الحية كارثـــــة ما كادت تقضي على كل النـــوع ، فكان الحل

هو إبتكار أسلوب تكاثر شبيه بالتطعيم و هو التكاثر بالتزاوج الجنسي في النباتات و الحيوانات ، و بهذه الطريقة في التكاثر تضاف في كل تزاوج إضافات جديدة يخرج بها نسل قوي يتلاءم بسهولة أكبر مع البيئة المحيطة به ، بهذه الطريقة أمكن إنقاذ أنواع من الإنقراض و الفناء لكن كان الثمن باهظا ، و هو أن الموت قد كتب على كل فرد في المجموعة ، و سقط بذلك خلود الخلية الى فناء الكائن الحي المفرد ، فالإنقسام الخلوي مستقل عن أي مؤثر خارجي و يتكرر الحيوان بذاته كالقرين أو التوأم ، و لا يوجد موت عنده بينما في حالة التكاثر الجنسي و نسخ الصبيغات ـ الكروموزومات ـ فقد كانت تتأثر بمواد الخلية و محتواها الكميائي ، و كل تغير و لو طفيف يحدث في الخلية كانت الصبيغات ـ الكروموزومات ـ تتأثر به أثناء إنقسامها و إنشطارها ، بحيث تضاف تلك التأثيرات و نواتجها الى ما هو موجود سابقا في الخلية مغنية بذلك العضوية القادمة بالقوة و التحسن في النوعية و الإرتقاء في صراع البقاء ، . حدث منذ حوالي ٤٠٠ مليون سنة أن ظهر لأول مرة مخلوق من نوع جديد له هيكل عظمي داخلي و عمود فقري ، يشبه الدودة ، و هو الجد الأول للفقاريات ، و كان هذا الحيوان بحريا صغيرا شفافا تنقصه الزعانف و الأحناك لكنه يمتلك خياشيم و من نسله كانت الفقاريات جميعها بما فيها الأسماك ، و في تلك الفترة بدأت النباتات بالإنتشار على الأرض اليابسة بوفرة كونها كانت منتشرة في البداية في المحيطات فقط ، و كانت لتلك الأسماك رئتان تجرعان بهما الهواء مباشرة عند سطح الماء ـ كحال الخياشيم ـ و لقد زالت الرئتان أو تحولتا لإستعمالات أخرى في معظم الحالات ، و بعض الأسماك التي كانت تعيش في مسطحات مائية صغيرة كالبرك و الغدران ، كانت تتعرض هبوط في مستوى مائها في سنوات و مواسم الجفاف ، فالأسماك ذات الرئة الكبيرة كانت تستمر في العيش بينما تهلك باقي الأسماك ذات الرئة الصغيرة ، و كان للأسماك ذات الرئة الكبيرة المتنفسة للهواء الجوي زعانف قوية مكنتها من التهادي فوق اليابسة من بحيرة الى أخرى بحثا عن الماء و الغذاء ، و مع مرور الزمن تطورت عضلات و عظام الزعانف و أصبحت تلائم المشي على اليابسة أكثر من السباحة في الماء ، و هكذا تطورت الزعنفة الى ساق و أصبح لتلك المخلوقات أقدام تمشي عليها ، و إستمرت عملية التحول تلك قرابة ٥٠ مليون سنة ، و النتيجة هي حيوان برمائي يتنفس الهواء الجوي و له أربعة أقدام يستطيع العيش فوق اليابسة ، و توالدت تلك الكائنات في الماء لكنها كانت تعيش معظم أوقاتها بجوار الماء و تعود إليه كي تضع بيوضها فيه ، و هكذا كان إزدهار تلك البرمائيات على ضفاف الأنهار و شواطىء البحار و أصبح لبعضها حجم كبير متخذا صفة عدوانية و آكلا للحوم و بلغ طول بعضها قرابة ثلاثة أمتار ـ **من الموسوعة الكونية د ماهر أحمد الصوفي** ـ

هذه هي الحياة الدنيا في القرآن الكريم و كما يراها العلم الحديث ، لكن ما هي حقيقة الحياة في الواقع ؟ الحياة في الواقع الذي يعيشه الناس هي فترة جميلة و لحظات نادرة لا تتكرر أبدا ، فترة معينة و عمر محدود مقدر من الله سبحانه و تعالي قبل ولادتنا ، الحياة هي حظ الإنسان إما سعيد و إما شقي ، فترة من العمر قد تطول و قد تقصر بحسب مقادير الله يعيشها الإنسان طفلا صغيرا هو بمثابة نور والديه و ضياء البيت ، و مصدر العزة و الجمال و الفرح و المرح في البيت و الإفتخار بين الأهل و الجيران ، الحياة لعب و لهو كما قال الله سبحانه و تعالى و هو أصدق القائلين ، و فترة اللعب و اللهو كما يرى علم النفس قد تمتد بالإنسان من لحظة الولادة الى سن المراهقة ــ ١٤ الى ١٨ سنة ، بعد هذه المرحلة يدخل الإنسان مرحلة الجد و التفكير حول المستقبل ، إتمام الدراسة أو التكوين بنجاح ، البحث عن عمل قار و مريح و مربح ، التفكير في الزواج و بناء أسرة مؤمنة سعيدة ، و الحباة الدنيا كما وصفها الله سبحانه و تعالى في كتابه العزيز و هو أصدق القائلين ـ زينة ـ و كلمة زينة تعبير راق و أنيق عن الجمال ، فالحياة الدنيا هي بحد ذاتها جمال فكل ما فيها هو الجمال بعينه ، و من حيث ما بدأنا وجدنا الجمال الناطق ، ففي الإنسان رجل أو إمرأة تتجلى كل مظاهر الجمال الخارق للعادة ، و في الطبيعة جبالها و سهولها و بحارها و نهارها تتجلى كذلك مظاهر الزينة و الجمال الخارق ، و في الكون مظاهر مبهرة من الجمال و الجلال ، الشمس و القمر و النجوم و الليل و النهار و حتى في الممارسات اليومية العادية هناك مظاهر مختلفة من الجمال الذي لا يشعر به كل الناس ، فالمشي ، و السعي للدراسة أو العمل أو التجارة جمال و زينة ، و في الأكل و النوم و الإستراحة بعد العمل و الجهد زينة و جمال و فن ، و في الزواج تتجلى أسمى معاني الجمال و السرور و الزينة ، الحياة الدنيا من جهة أخرى هي فضاء واسع للعلم و العمل و تحقيق الأحلام و الطموحات ، و إنجاز المشاريع الصغرى أو الكبرى حسب الطاقة المادية و المعنوية للإنسان ، و حسب سقف الطموحات و الآمال ، فبعض الناس قد يقتنع بوظيفة بسيطة في البلدية و يكتفي بها ، و البعض الآخر قد يبحث عن مجالات واسعة للغنى فيرى في التجارة منفذ لتحقيق ذاته ، الحياة قبل ذلك هي فضاء للعبادة ، عبادة الله الواحد الأحد بما شرع و تأدية الواجبات و الشعائر الدينية بإنتظام بداية من مرحلة البلوغ و التكليف ، و في تأدية الشعائر الإسلامية من صلاة و صيام و زكاة و حج و عمرة و صدقات و ذكر الله و قراءة القرآن الكريم ، جمال و زينة لا يشعر بهما سوى من كابدهما ليل نهار، الحياة هي الفضاء الذي إختاره الله عز وجل لعباده من أجل العمل للدنيا و الآخرة و هي ساحة للإبتلاء و الإمتحان و الإختبار ، و الحياة هي عمر الإنسان الذي لا يتكرر مرتين و العاقل هو الذي يعرف كيف يستغل

هذه الفرصة التي لا تتكرر إطلاقا ، في طاعة الله و تقواه و الإلتزام بأداء الواجبات الدينية و الإكثار من النوافل و الصدقات بقدر المستطاع و التخلق بالأخلاق الحسنة أخلاق الرجال ، و إجتناب المعاصي و الكبائر و الإبتعاد عن كل ما يسيىء الى طبائع الرجال من أخلاق سيئة و تصرفات مشينة ، و عندما يقول الله سبحانه و تعالى في كتابه العزيز أن الحياة الدنيا هي متاع الغرور و هي أيضا تفاخر في الأولاد فهي حقيقة كذلك كما وصفها الله و هو أحسن القائلين ، حيث نشاهد في الواقع كيف يتنافس معظم الناس في الماديات و يعيشون حياتهم بنوع من الشراهة تصل في بعض الأحيان لدى الأوساط المخملية الأوروستوقراطية درجة قد لا يتخيلها البشر ، حصل ذلك عند المسلمين قبل غيرهم من الأمم في العصور التي تلت فترة الخلافة الراشدة ، فعن الأمويين و العباسيين و حتى العثمانيين ، تروي قصص و حكايات واقعية قد لا يصدقها العقل البشري ، عن البذخ و الإسراف و المبالغة في الإستمتاع بكل ملذات الحياة الدنيا من مأكل و ملبس و مسكن و زوجات و جواري ، يروى مثلا أن مهر أحدى بنات خليفة عباسي كان حمولة مائة ناقة ذهبا ، و أن وليمة زواج إبن خليفة تضمنت ٣٠ نوعا من الأكل كانت منتشرة في ذلك الوقت عبر العالم الإسلامي ، إفراط كبير و إستمتاع مفرط بملذات الحياة الدنيا ، يقابله تفريط في آداء أبسط الواجبات الدينية و أسهلها كالصلاة مثلا ، فعندما يذكرنا الله سبحانه و تعالى في كتابه العزيز بأن الدنيا لعب و لهو و متاع الغرور و هو الله العليم الحكيم بجاذبية الحياة الدنيا و قدرتها على الإغراء و الإطاحة بأعقل الناس ، فإنه ينبهنا الى ضرورة التوازن الدقيق في تعاملنا و موقفنا من الحياة الدنيا ، بحيث لا نجعلها هي الغاية الوحيدة من وجودنا و هي الهدف الأسمى الأخير أي كما قال الكفار ـ نموت و نحيي و ما يهلكنا الا الدهر ـ و لكن ليكون موقنا منها كما قال الصديق رضي الله عنه ، موقفا متوازنا و رؤية معتدلة ـ أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا و أعمل لأخرتك كأنك تموت غدا ـ و في الدعاء المأثور يقول المسلم و هو يناجي ربه صباح مساء ربنا لا تجعل الدنيا أكبر همنا و لا مبلغ علمنا ، الحياة الدنيا هي فترة جميلة من عمر الإنسان يستحب أن يعيشها بتوازن كبير و دقيق من دون إفراط ولا تفريط ، و قوله تعالى أنها متاع الغرور هو وصف دقيق و راق لطبيعة الحياة الدنيا ، و لا يفهم منه توجيه للبشر للزهد السلبي في الحياة الدنيا و عدم الإهتمام بها و إهمالها و تركها للكفار و المشركين يعبثون بها فيصنعون من الجبال بيوتا و يخترقون الفضاء بالأقمار الصناعية ، و يبقى المسلمون يتفرجون و يعيشون عالة على غيرهم ، في مقابل تلك الآية الكريمة يقول الله عز وجل في سورة الرحمن (**يا معشر الجن و الإنس إن إستطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات و الأرض فإنفذوا**) و هي دعوة عامة للبحث والإكتشاف والإنجازو العمل

الفصل السادس (6)

الإنسان

عندما نحاول دراسة النفس البشرية و تحليل مكنوناتها من خلال القرآن الكريم فلابد أن نقبل على كتاب الله مجردين من أية خلفية ثقافية أو فكرية ، و من الضروري أن نتخلى عن كل المعطيات و المعلومات و المعارف التي إكتسبناها من قبل من خلال قراءاتنا في مختلف المصادر ، القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي يحمل الحقيقة الدينية و الفكرية و العلمية و هو الكتاب الخالد الذي تضمن كبرى اليقينيات الكونية ... القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي بين حقيقة الإنسان و طبيعته و خصائصه و مكوناته ، و فصل في كل مراحله ، من يوم الولادة بل قبل ذلك شرح لنا الظروف و الأجواء التي سادت قبل خلق الإنسان في حوار شيق بين الله عز و جل و الملائكة ، الى غاية وفاته ثم بعثه من جديد للمحاسبة فإما الثواب أو العقاب ، و هذه المراحل و الأطوار التي مر بها الإنسان من خلال القرآن الكريم هي التي ستكون محور دراستنا في هذا الفصل ، و قبل ان نبدأ في عرض و تتبع أطوار خلق الإنسان كما يقدمها التصور الإسلامي ، لابد أن نحاول الإجابة قدر الإمكان على ذلك السؤال الهام الذي حير العلماء و الفلاسفة و المفكرين منذ بدء الحياة و هو السؤال المشكل ، ما هو الإنسان ؟ و قد هام الفلاسفة و أصحاب الرأي في محاولات يائسة لتفسير معنى الإنسان و تحليل خصائصه فمنهم من إعتبره حيوان ناطق ، و منهم من قال بأنه من سلالة متطورة من القرد ، و منهم من إعتبره ملاكا و مهم من إعتبره شيطانا ، الإنسان في التصور الإسلامي هو من أكرم مخلوقات الله ، مخلوق ميزه الله عن كل المخلوقات الأخرى و بالأخص عن الحيوان بميزة العقل ، و التكريم و الدفن ، و من أهم خصائص الإنسان هي التفكير و التمييز بين الخير و الشر و الحق و الباطل و الجمال و القبح ، و الفضيلة و الرذيلة و الماء و النار ، و الضوء و الظلام و الحر و البرد ، و كل المتناقضات المادية و المعنوية ، و قد يستطيع الإنسان عن طريق العقل و التأمل و التفكير أن يصل الى إكتشاف بعض الحقائق العلمية و الكونية ، و قد يهتدي الى معرفة الحق أو الإقتراب منه ، وقد يمكنه إستعمال العقل بروية و مرونة للوصول الى معرفة الله سبحانه و تعالى من خلال التأمل المكثف في مخلوقاته التي لا تخفى على أحد ، فالإنسان بحد ذاته و النفس البشرية و الكون و مخلوقاته العجيبة هي من الدلائل المباشرة على وجود خالق قوي مدير حكيم قادر على كل شيء ، و من خلال تعاقب الليل و النهار و الموت و الحياة بستطيع الإنسان بعقله إدراك سر الوجود و طبيعة الحياة الفانية التي ليست سوى ممر الى الحياة الأخرى الخالدة و جسر عبور الى العالم الثاني ... الإنسان بغض النظر عن عرقه أو لونه أو دينه ، و بغض النظر عن إلتزامه أو عدم إلتزامه بالقيم و الشعائر الدينية هو الإنسان الذي كرمه الله و فضله على كثير من خلقه و سخر له الكون و منحه فسحة من العمر ، لكن العقل

يحتاج دائما الى الوحي ليعرف الله و الكون و يدرك حقيقة وجوده و نهايته و مصيره ، و في اللغة أن الإنسان إسم جنس ، يطلق على بني آدم من الذكور و الإناث ، و الخطاب الإسلامي يستعمل أكثر من خمس مستويات لمخاطبة الإنسان ، فتارة يستعمل لفظ . بني آدم ـ لمخاطبة البشر فجاءت أكثر من آية مسبوقة بحرف نداء كقوله تعالى ـ يا بني آدم ـ

{ يَا بَنِي آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنّكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } الأعراف35

و جاءت آيات كثيرة مسبوقة أيضا بحرف النداء تتوجه بالخطاب الى الناس ـ يا ايها الناس ـ و خاطبت آيات كثيرة الإنسان هكذا مباشرة دون حواجز أو ممهلات و دائما مسبوقة بحرف النداء يا أيها الإنسان ـ كما خاطبت آيات كثيرة أصحاب الأديان السماوية و الكفار و المشركين حب إنتماءاتهم الدينية و معتقداتهم ، يا أيها الذين أمنوا ، قل يا أهل الكتاب ،

{يَا أَيّهَا النّاسُ اعْبُدُواْ رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ } البقرة21

{ يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنتُم مّسْلِمُونَ }آل عمران102

و بينت آيات أخرى طبيعة خلق الإنسان ، و حددت بوضوح تام كل المراحل التي تمر

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64

بها عملية الخلق ، التي كانت بالنسبة للنموذج الأول سيدنا آدم من تراب ، ثم تكونت سلسلة البشر بشكل طبيعي بداية من إلتقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة ، مرورا بتكوين العلقة ثم المضغة المخلقة و غير المخلقة ، ثم تناولت مختلف المراحل العمرية و هي الطفولة ، فالشباب ، ثم الرجولة و الكهولة فالموت ،

{يَا أَيّهَا النّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مّنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُم مّن تُرَابٍ ثُمّ مِن نّطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِن مّضْغَةٍ مّخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ لّنُبَيّنَ لَكُمْ وَنُقِرّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مّسَمّى ثُمّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ وَمِنكُم مّن يُتَوَفّى وَمِنكُم مّن يُرَدّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) الحج 5

ـ قصة آدم : تلخص قصة سيدنا آدم عليه السلام كما يرويها القرآن الكريم ، و كل مراحل خلق الإنسان ، حقيقة التصور الإسلامي للإنسان و طبيعته و خصائصه و مقوماته ، فالإنسان كما يحدثنا الخطاب القرآني هو مخلوق بداية من طين ، من تراب ، من صلصال كالفخار ، و كلها ألفاظ و كلمات تؤدي معنى واحد هو أن الإنسان مخلوق من مادة تسمى ـ تراب ـ و الإنسان منذ خلق الله سيدنا آدم كنموذج أول أو نسخة أولى هو الإنسان بشكله الحالي الذي نعرفه عن الإنسان مع فروقات شكلية بسيطة ، فهو منذ الأزل مخلوق متميز عن المخلوقات الأخرى كالشياطين و الملائكة و الحيوانات بشكله الحالي الرأس ، و الجذع و اليدين و الرجلين ، و الوجه و العينين و الأنف و الفم ، و صحيح أن هناك تفاوت في الطول و العرض و الوزن و اللون و الجمال بين إنسان و آخر رجلا كان أو إمرأة ، و صحيح أن هنالك إختلافات في الطبائع و التصرفات بين البشر و لو كانوا من عائلة واحدة لكن أبدا الإنسان هو الإنسان سلالة واحدة توارثت و تناسلت من سيدنا آدم و أمنا حواء ، و لم يتطور الإنسان من مخلوقات أخرى كما تقول نظرية دارون التافهة ، و قصة أدم هي قصة الإنسان و قصة بداية الخلق ، تبدأ كما يحدثنا القرآن بحوار بين الله سبحانه و تعالى يخبر فيه ملائكته الكرام عن قرب ولادة مخلوق جديد هو الإنسان ، و يطلب منهم تكريمه و الإحتفاء به و الترحيب به و تحيته بالسجود إكراما له ، سجود محبة و تكريم ، و نفس الخطاب يخبر الله ملائكته الكرام بأهم خصائص المخلوق الجديد و هي ، الطبيعة البشرية ، مخلوق من مادة الطين ، و من النفخة الإلهية ، و في أحسن صورة و أجمل شكل ، و بطبيعة الحال فإن الملائكة الكرام تفاجؤوا بهذا الخبر الجديد و لم يستوعبوه و لم يستقبلوه بالشكل المطلوب ، فالمفاجأة كانت كبيرة و عظيمة و راحوا يتساءلون في حيرة و إشفاق من هذا المخلوق العزيز عند الله لدرجة يطلب منا تحيته بالسجود و هم أكرم خلق الله ، و حاولت الملائكة أن تقدم لله سبحانه و تعالي بعض الأسباب و الشواهد التاريخية على أن ولادة هذا المخلوق لن يزيد الأرض سوى ظلما و فسادا و سفكا للدماء ، بناء من دون شك على سوابق تاريخية ، يقول عنها العلماء أن الملائكة الكرام كانت تخشى من تكرار تجارب سابقة حولت فيها مخلوقات لله لا نعرفها نحن البشر و لم يحدثنا عنها القرآن الكريم ، و تناولتها بعض كتب التاريخ القديم على شكل خرافات و أساطير ، الأرض الى مسرح للفساد و القتل و النهب . لكن الله

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } البقرة30

سبحانه و تعالى عالم الغيب و الشهادة لم يكن إخباره للملائكة الكرام عن قرب قدوم هذا المخلوق الجديد الذي يدعى الإنسان الى الأرض ، على سبيل الإستشارة و هو يعلم سبحانه و تعالى أن ملائكته الكرام لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ، و لكن كان كرم الله و فضله الذي يجب أن نقتدي به هو وضع ملائكته في الصورة حتى لا يتفاجؤوا بوجود المخلوق الجديد في الأرض ، و بالنسبة لحكاية الأرض و السماء و الجنة ، لذلك يجيء التعقيب القرآني ليؤكد للملائكة أن معلوماتها عن هذا المخلوق الجديد لا تؤهلها للحكم عليه بذلك الحكم القاسي الذي يضعه في إتجاه واحد هو الشر، فيعقب الله سبحانه و تعالى تعقيبا مفحما يغلق المناقشة في الموضوع و يطوي الملف بصورة نهاية ، وكأنه يعاتب الملائكة الكرام و يقول لهم لم أخبركم عن قدوم هذا المخلوق الجديد المكرم لأطلب منكم الإذن أو المشورة أو القبول أو الإعتراض ، فالله هو الخالق القوي المتين و عندما يريد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ، و لا يمكن لمخلوق مهما كان قربه من الله و مهما كانت منزلته أن يعترض على قدر الله و على مشيئته ، و يكفي هذا الرد المفحم لتستفيق الملائكة من هول المفاجأة و تعود الى طبيعتها و تستسلم للأمر طائعة .

{ ..... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } البقرة30

- الإختبار : الخطوة الثانية في مسيرة خلق الإنسان هي الإختبار الذي أجراه الله سبحانه و تعالي بين أدم و الملائكة ، حيث أنهم كانوا يعتقدون عن حسن نية ، و بحكم طيبة معدنهم و فطرتهم السليمة التي فطرت على الطاعة و الإمتثال لأمر الله و عدم عصيانه ، أن الهدف الأسمى من وجود المخلوقات هو فقط تسبيح الله و تقديسه في كل وقت و في كل حين ، و أن هذه الشعيرة هي العبادة الوحيدة المطلوبة من جميع المخلوقات ، وان المخلوق الجديد الذي سيرى النور و يعيش في الأرض هو بالضرورة متخصص في الفساد و الإفساد و سفك الدماء ، اي أنه مجبول فطريا على إتجاه واحد هو طريق الشر ، و بالتالي فإنهم تمنوا من الله في رجاء و إبتهالا ان يعدل عن فكرة خلق الإنسان ، و لكي يبين الله سبحانه و تعالى للملائكة أن المخلوق القادم الذي سيرى النور ليعيش في الأرض و يحقق أهداف معينة هو نوع من المخلوقات التي ستحتل الرتبة الأولى في التكريم و العناية و يستحق من الملائكة تحية إستقبال و السجود له أكراما و إحتراما ، و حتى تدرك الملائكة أن هذا المخلوق الجديد الذي سيعمر الأرض قد زوده الله سبحانه و تعالى بالعقل كجهاز للحفظ و التخزين و التفكير و التحليل ، و زوده بمعارف و معلومات تساعده على أداء أدواره في الأرض ، يجري بينهما إمتحان مصيري يثبت للملائكة الكرام عجزهم بالمقارنة مع المخلوق الجديد الذي ستكون الأرض مستقرا

له ، فأقتضت حكمة الله سبحانه و تعالى أن يحرم الملائكة الكرام من علم الأسماء كلها ، في الوقت الذي يمنحه لسيدنا آدم عليه السلام و هو النسخة الأولى من السلالة البشرية ، و تعليم أدم الأسماء كلها كما يقول اهل التفسير هو كناية عن السر الألهي الذي منحه الله للإنسان أي القدرة على إستعمال الرموز و الكلمات و تسمية الأشياء ، و هي مسألة عظيمة و جديرة بالإهتمام ، و أولى خطوات المعرفة التي يمكن أن نسميها في عصرنا الحالي بعلم المصطلحات ، و من دون معرفة أسماء الأشياء لا يستطيع الإنسان ان يعيش في هذه الحياة مع الناس و داخل مجتمع ، و معرفة أسماء الأشياء يؤدي حتما الى معرفة مكوناتها و خصائصها و كيفية إستعمالها و الإستفادة منها ، و الإنسان الذي خلقه الله منذ البداية ليكون خليفة لله في الأرض بنص الآية الكريمة الواضحة الدلالة **(إني جاعل في الأرض خليفة)** في الأرض نعم و ليس في الجنة أو في السماء أو أي كوكب آخر ، و الخلافة منصب سام و مسؤولية عظيمة و مهمة ليست سهلة و ليست مستحيلة ، تطلب شروطا و مؤهلات نفسية و معنوية و قدر معين من العلوم و المعارف و المعلومات و الحكمة و القدرة على الترجيح و كثير من المرونة ، و الله سبحانه و تعالى خالق الكون و الوجود و الإنسان ، يعرف طبيعة الإنسان و نفسيته و ما يحتاجه في هذه الرحلة الدنيوية من معارف و معلومات لتأدية مهمته على أكمل وجه ، فهو يحتاج لمعرفة الأسماء كلها و هذه العبارة الجميلة و الأنيقة و الراقية **(الأسماء كلها)** يجب أن لا نمر عليها مرور الكرام ، و لابد أن نتوقف عندها لنستنطقها لعلها تعطينا بعض المعاني و المدلولات التي تعيننا على فهم السر الإلهي الذي زود به الإنسان من اليوم الأول الذي خلق فيه الله سبحانه و تعالي سيدنا أدم عليه السلام ، في تقديري و بعد الإطلاع على عدة تفاسير قديمة و حديثة يمكنني بكل تواضع أن أقول أن ـ الأسماء كلها ـ بالإضافة الى معناها الظاهري المباشر و هو الرموز و أسماء الأدوات و الحيوانات و الأماكن و كل الأشياء التي يحتاجها الإنسان في حياته و يستعملها في يومياته و لياليه ، فهي في تقديري كناية أو رمز للعلوم و المعارف التي يحتاجه الإنسان في كل زمان و مكان منذ خلق الله سيدنا آدم الى أن يأذن الله بنهاية الحياة الدنيا ، بمعنى أن الله سبحانه و تعالى منح الإنسان أي إنسان بغض النظر عن معتقداته مؤمنا أو كافرا أو جنسه أو لونه ، الضوء الأخضر للتأمل و البحث و التفكير و الإبداع و الإختراع في مختلف العلوم و المعارف التي تفيد الإنسان في دنياه و آخرته ، بالإستثناء منطقة واحدة خطيرة منعه من الإقتراب منها و هي قضية البحث في ذات الله و ما يرتبط بها من مواضيع و هي التي تسمى في علم العقيدة ـ علوم ما وراء الغيب ، أو الغيبيات ـ و هو العلم الذي تاه و غرق فيه علماء و فلاسفة كبار من المسلمين و من غير المسلمين في العصور القديمة

و الحديثة ، فالإنسان في التصور الإسلامي و حسب ما يستفاد من الآيات الكريمات من سورة البقرة

١ . هو أكرم المخلوقات عند الله بعد الملائكة الكرام .

٢ . ان الله سبحانه و تعالى خلقة لعدة وظائف أساسية في الأرض ، منها الخلافة

٣ . ان الله سبحانه و تعالى زوده بمؤهلات مادية و نفسية و معنوية تساعده على أداء مهمته في الأرض على أحسن وجه ،

٤ . انه مخلوف يملك العقل الذي يؤهله لتخزين المعلومات و التأمل و البحث .

٥ . ان الإنسان يملك الإرادة و الإختيار و الإستعداد للسير في طريق الخير أو الشر.

٦ . أن الله سبحانه و تعالى أراد بحكمته أن يبين للملائكة ن هذا المخلوق الجديد هو نوع خاص من المخلوقات لا تعرف الملائكة طبيعته و لا خصائصه ، و أنه مزود بإستعدادات فطرية و مؤهلات علمية لا تملكها الملائكة بل لا تحتاجها بالنظر الى طبيعتها و مهمتها الأساسية و هي التسبيح و التقديس و تنفيذ أوامر الله .

و تتجلى أهم مظاهر تكريم الله للإنسان في طبيعة خلقه و خصائص التكوين التي يعتبر العقل من أهمها ، و بواسطة العقل يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بل يمكنه السيطرة على بعضها . بإستثناء الملائكة . و إستغلالها لمصلحته ، فيمكن للإنسان إستغلال ما تتيحه الشمس و القمر و الرياح و الأمطار من طاقة لتسيير وسائل التدفئة و الإنارة و الآلات و المصانع ، كما يمكنه إستغلال الأرض و الجبال و مياه البحر و الأنهار و إستخراج المعادن و للزراعة و إنتاج مختلف الحبوب و الخضر و الفواكه ، و إستغلال مختلف الحيوانات كوسائل نقل و حرث في القرون البدائية الأولى و مصدر للتموين باللحوم و الجلود لإستغلالها في صناعة الملبوسات و المنتوجات الجلدية ، و منذ بدء الخليقة حاول الإنسان بقدر طاقته و معارفه إكتشاف أسرار الكون و إستغلال مكوناته لمصلحته و في سبيل راحته ، و في العصر الحديث تمكن الإنسان من غزو الفضاء و الإقامة عدة أيام فوق سطح القمر ، وبلغ أشواطا كبيرة في إستغلال الكون لمصلحة الإنسانية جمعاء و تسهيل سبل الحياة و تقريب المسافات بين البشر ، و الإنسان المعاصر يفكر الآن في غزو المريخ و الإقامة فيه ، و الآية الكريمة التي تشير الى ـ الأسماء كلها . تشيه في مضامينها المتعددة قوله تعالى في سورة الرحمن **(يا معشر الجن و الإنس إن إستطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات و الأرض فأنفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان)** فالله سبحانه و تعالى لم يجعل لحرية للعلم و المعرفة و البحث والإختراع سقفا معينا

و زود الإنسان بمفاتيح العلوم و أهله لإكتشاف أسرار الكون ، عندما رزقه ـ آلة العقل . و حرية الإرادة و القدرة على التفكير و التحليل و الإختيار و كل ما يكتسبه الإنسان في حياته من علوم و معارف و معلومات مصدرها هو الله العليم الحكيم ، و العلم الذي يكتسبه الإنسان هو جزء ضئيل و محدود في الزمان و المكان ، بينما علم الله غير محدود وواسع ومحيط بكل شيء ، و الإنسان كل إنسان يولد و يخرج من بطن أمه لا يعرف شيئا ، لكن مع مرور الأيام يتعرف على بعض الأشياء بالتدريج خلال نموه و تطور مراحله العمرية فيبدأ في إكتشاف العالم المحيط به و يتعرف على الأشياء و مسمياتها ، و في الآية ٧٨ من سورة النحل تركيز على السمع و البصر و القلب ، و هم الأدوات الثلاث التي يستعملها الإنسان في البحث و الإستطلاع و التعلم و التفكير و التحليل ، الأذن و العينين و القلب ، و السؤال الذي يمكن أن يطرح بهذه المناسبة و في إطار الإمتحان الذي أجراه الله سبحـــانه و تعالى بين أدم

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } النحل78

و الملائكة الكرام ، و السؤال هو لماذا زود الله العليم الحكيم سيدنا آدم عليه السلام بمعطيات سمحت له بالتفوق على الملائكة في هذا الإمتحان المصيري ، و في نفس الوقت لم تستفد الملائكة و هم عباد الله المكرمين من نفس الإمتياز ؟ الحكمة من ذلك و الله أعلم قد تأخذ عدة أبعاد منها مثلا أن الله سبحانه و تعالى أراد أن ينبه الملائكة الكرام أن هذا المخلوق الجديد الذي سيكون خليفة في الأرض هو افضل مخلوقات الله على الإطلاق و لذلك حظي بالتكريم الألهي من خلال عدة مظاهر ذكرناها من قبل و منها ألزام الملائكة بالسجود له تحية و إكرام ، و تعليمه الأسماء كلها دون الملائكة ، و تزويده بالعقل و الإرادة الحرة و التمييز بين الخير و الشر و الحق و الباطل و النار و الماء ،

ـ الأرض هي أم الإنسـان و حاضنته : في حديث نبوي طويل و مشهور يعاتب سيدنا موسى سيدنا آدم و يقول له لو لم تخطأ أنت و أمنا حواء و تأكلا من الشجرة المحرمة عليكما في الجنة ، لبقينا نحن البشر في تلك الجنة و لم ننزل الى الأرض لنشقى و نعرى ، فيجيبه سيدنا آدم عليه السلام ، أتلومني على شيء كتبه الله لي ـ و القصة تثار في موضوع القضاء و القدر على أي حال ، لكن نحن نستعين بها لنحاول إماطة اللثام عن قضية معقدة و إشكالية عويضة ظلت راسخة في المخيال الشعبي و حتى لدى النخب المتعلمة و المثقفة ، و هي قضية إخراج سيدنا أدم و أمنا حواء من الجنة ، و من هو السبب في ذلك ؟ هل هو سيدنا أدم أم أمنا حواء أم هما الإثنين ، و الناس يتمنون لو لم يأكل سيدنا أدم و أمنا حـواء من تلك الشجرة التي حرمـها الله

فالآية الأولى من مجموعة الآيات التي تتناول بداية خلق آدم عليه السلام تشير صراحة الى أن الإنسان خلق منذ البداية ليكون خليفة في الأرض ، ليس في السماء و لا في أي كوكب آخر ، فالأرض هي مسرح الحياة الدنيا و ميدان العمل ، و الفضاء الذي يمارس فيه الإنسان وظائفه ألأساسية التي سنتحدث عنها بالتفصيل و التحليل في الفقرات المقبلة ، يتحمل فيها مسؤوليته كاملة ، و الإنسان لم يخلقه الله ليسكن الجنة و يأكل من ثمراتها و يستمتع بنعيمها ، و فترة إقامته في الجنة كانت مجرد لحظات إستراحة مؤقتة يكتشف فيها سيدنا آدم بالنيابة عن البشر و الإنسانية جمعاء طعمها و لذائذها و جمالها ، كما كانت فترة إختبار لمدى قدرة أدم عليه السلام على الصبر و مقاومة إغراءات الشيطان ووسوسته ، و إن كان سيدنا آدم عليه السلام نجح في الإمتحان الأول في مواجهة الملائكة بدعم و مساعدة من الله العليم الحكيم ، فإنه فشل في الإمتحان المصيري الثاني في مواجهة الشيطان ، فولادة النسخة الأولى من الإنسان ، سيدنا آدم عليه السلام لم تكن سهلة بالمرة حيث واجهت إختبارين مصيريين مع مخلوقات الله الملائكة و الشيطان و هما يمثلان بطبيعة الحال عنصري الخير و الشر ، الجمال و القبح ، و كل المتناقضات التي ستواجه بني أدم في الحياة الدنيا و الأرض ، منذ البداية كانت الأرض هي المكان

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } البقرة30

الطبيعي الأول الذي خلق ليستقر فيه الإنسان و يمارس حياته الطبيعية و يؤدي فوق مسرحها وظائفه التي خلق من أجلها ، أما الجنة التي عاش فيها سيدنا أدم و أمنا حواء لفترة معينة فكانت مجرد نقطة عبور و تأمل و إمتحان عسير للإنسان ، و علاقة مريرة مع الشيطان الذي سيظل يمارس وظيفته التي خلق من أجلها و هي إغواء البشر و أغرائهم و الوسوسة إليهم و تظليلهم عن الطريق المستقيم ، و إستغلال عناصر الضعف في الإنسان و هي نفس العناصر التى إستغلها الشيطان الرجيم في سيدنا آدم عليه السلام ـ الخلود و الملك الذي لا يفنى ـ و هي نفس العناصر التي تتصارع من أجلها البشرية منذ فجر التاريخ و قد حاول الفلاسفة و الأطباء تفسير ظاهرة الموت و كان الملوك و الأمراء و أصحاب المال مستعدون لدفع أموالا باهظة لهؤلاء العباقرة لو كللت جهودهم و أبحاثهم بالنجاح في إيجاد طريقة للخلود في الأرض لكن كل محاولاتهم باءت بالفشل ، كما إستعمل الملوك و الأمراء و أصحاب المال كل السبل لمحافظة على أموالهم و أملاكهم و أوضاعهم الإجتماعية ، و حاولوا قد المستطاع تجنب حالات الإفلاس و العودة الى الفقر أو البداية من الصفر ، سيدنا آدم و هو بشر تعتريه كل عناصر الضعف

البشري ، تعرض لأغراء قوي و مفاجيء من مخلوق سابق عنه لا يعرف طبيعته و خطورته و موقفه منه ، و هكذا لم يستطع سيدنا آدم مقاومة إغراءات الشيطان الملعون ووقع في الخطيئة الكبرى هو و زوجنه ، و بالتالي يتحملان المسؤولية وحدهما دون بقية البشر ، لأن المسؤولية في التصور الإسلامي فردية

{ ... وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .... }الأنعام164

{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }المدثر38

ـ المعصية و الغفران

إستغلت المسيحية المحرفة من طرف بولس و أتباعه على مر العصور قصة الخطأ أو الخطيئة التي وقع فيها سيدنا آدم و أمنا حواء ، بسب غواية إبليس اللعين الذي إستغل بمكر و خبث طمع الإنسان و رغبته في الخلود و البقاء الدائم و في الملك الذي لا يزول ، فعزف على هذا الوتر الحساس و نجح في إقناع سيدنا آدم بالأكل من الشجرة المحرمة في الجنة ، و هناك خلاف بين العلماء حول طبيعة الجنة التي عاش فيها سيدنا آدم و أمنا حواء قبول هبوطهما الى الأرض هل هي الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين ،كما في قوله تعالى

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة82

أم مجرد حديقة غناء من حدائق الأرض ؟ أم نموذج مصغر من الجنة التي وعد الله؟

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ{15} فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ{16} ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ{17} سبأ

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً{32} كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً{33} وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً{34} وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً{35} وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً{36} قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً{37} لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً{38} الكهف

و الذي أميل إليه بعد مطالعتي في أهم كتب التفسير القديمة و الحديثة ، انها كانت نموذجا مصغرا للجنة التي وعد المتقون ، إستقر فيها سيدنا آدم و أمنا حواء لفترة مؤقتة كمحطة عبور ، لإجتياز الإمتحان العسير الذي يعلم الله نتيجته مسبقا ، قلت إستغل أتباع بولس المسيحي المزيف هذه القضية التي تبدو لنا في الخطاب القرآني و في التصور الإسلامي واضحة أشد الوضوح و لا لبس فيها ولا تعقيد ، و إستثمروها في إبتزاز المسيحيين المغفلين من خلال حكاية صكوك الغفران ، و حولوها من قضية خاصة بسيدنا أدم و أمنا حواء بصفتهما بشرين كاملي الإرادة وقعا تحت تأثير الشيطان الرجيم الذي أغواهما و دفعهما لإرتكاب خطيئة الأكل من الشجرة المحرمة ، و هي خطيئة كبيرة بالقياس الى مكانة الشخصيتين - آدم و حوا - في التاريخ الإنساني و موقعهما و صفتهما ، فسيدنا أدم في حقيقة الأمر هو أبو الأنبياء ، و سيدتنا حواء هي زوجة نبي ، و عندما ترتكب الخطيئة من طرف نبي يكون وقعها كبيرا و صداها ضخما و أثرها عميقا ، و المتأمل في قصة سيدنا أدم يشعر بنوع من الإحباط و القصة فيها دلالات وعبر أهمها أن تكرار نفس القصة أو ما يشبهها مع الأنبياء و الرسل من المستحيلات ، و ان جميع البشر و هم من سلالة سيدنا أدم و أمنا حواء معرضون لغواية الشيطان و النفس الأمارة بالسوء و لا يوجد إنسان على وجه الأرض مهما كانت درجة إلتزامه و تدينه معفي أو محصن ضد الأخطاء و الخطايا ، وما يثير الإحباط في قصة سيدنا أدم هو أنه عليه السلام ضعف أمام وسوسة الشيطان و إغرائه و لم يتمكن من السيطرة على نفسه الأمارة بالسوء فخالف أوامر و تحذيرات الله و أتبع طريق الشيطان ، فالمسؤولية في التصور الإسلامي في هذه الحالة مسؤولية فردية و تبعات الخطيئة يتحملها سيدنا أدم وحده و بصفة شخصية و لا تنتقل أثارها و تبعاته الى أبنائه و سلالته كما يرى التصور المسيحي المنحرف ، زيادة على ان سيدنا أدم عليه السلام لما فاق من الصدمة و إكتشف لعبة الشيطان ، تاب الى الله توبة نصوحا و إستغفر ربه و أناب ، و تقبل الله توبته و غفر له ، حيث تأكد أن القضية كانت عبارة عن إمتحان عسير لمدى قدرة سيدنا أدم و من بعده ذريته على الصبر على البلاء و الإبتلاء و الإلتزام بأوامر الله و إجتناب نواهيه ، و الإبتعاد عن وسوسة الشيطان و إغراءاته ، مهما كانت وعوده المعسولة ، فهو في النهاية في يوم الحشر سيتبرأ من الذين إتبعوه في الدنيا و يبرء نفسه ،

- السيدة حواء: كيف يقدم الخطاب الإسلامي أمنا حواء في هذه الواقعة التي شكلت مرحلة فاصلة في تاريخ البشرية ؟ و ما حقيقة التصور الإسلامي بالنسبة لدور أمنا حواء في مشكلة الأكل من الشجرة المحرمة و عصيان أوامر الله تعالى ؟

الموروث الشعبي و حتى بعض الأفكار و الأراء التي تتردد بين النخب المفكرة تعتقد أن دور أمنا حواء في هذه القضية كان دورا حاسما و بالغ الأهمية ، و هناك من يتهمها و يعتبرها هي التي إنتبهت الى الشجرة المحرمة و شجعت سيدنا أدم على إرتكاب المعصية ، بمخالفة أوامر اله و إتباع الشيطان الرجيم ، و يعللون ذلك من الناحية النفسية بما جبلت عليه المرأة من حب الفخفخة و الزينة و المظاهر، فلنرى كيف يواجه الخطاب الإسلامي هذه المعضلة ، و ماهي نظرة التصور الإسلامي إليها ، و ليس أمامنا سوى القرآن الكريم و هو المصدر الوحيد الصادق المصدوق الذي يمكن أن يمنحنا المعطيات الحقيقة و المعلومات الصادقة حول هذا الموضوع ،

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34} وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ{35} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{36} البقرة

و هذا المقطع الجميل من القرآن الكريم الذي يمتد من الآية ٣٠ الى غاية الآية ٣٦ من سورة البقرة هو الذي يلخص القصة الكاملة لسيدنا آدم و أمنا حواء ، و يلخص مختلف المراحل التي مرت بهما مسيرتهما من قبل الولادة الى غاية هبوطهما الى الأرض بأمر من الله سبحانه و تعالي ، و الآيات التي تتطرق الى موضوع الشجرة تشكل المرحلة ما قبل الأخيرة من حياة سيدنا آدم و أمنا حواء في الجنة ، و فيه تذكير بالحوار الذي جرى بين الله سبحانه و تعالى و سيدنا آدم حيث أمره ربه أن يسكن الجنة و يتمتع بخيراتها الكثيرة ، و نهاه عن الأكل من شجرة واحدة من بين آلاف أو ملايين الشجرات ، و حذره من أن يسلك هذا الطريق فيكون من الظالمين ، لكن سيدنا آدم و هو بشر وقع في حبائل الشيطان الذي أغراه بالخلود و الملك الذي لا ينتهي و هما اهم نقاط الضعف لدى الإنسان في كل زمان و مكان ، و في الخطاب القرآني نجد أن الأمر موجه من الله سبحانه الى الإثنين أي سيدنا آدم و أمنا حواء

و ليس إلى سيدنا آدم فقط ، فهناك تأكيد أن الخطاب موجه إليهما بالعبارات التالية ـ أنت و زوجك ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، فالمسؤولية إذن مشتركة بين الإثنين سيدنا آدم و أمنا حواء ، و ليست محصوره في سيدنا آدم بمفرده ، و كل التهم التي نوجهها بعض الكتابات المغرضة ألى أمنا حواء و تحميلها مسؤولية الخطأ و الوقوع في حبائل الشيطان و الهبوط الى الأرض ، هي تهم باطلة و لا أساس لها من الواقع أو الصحة ، و الجنة التي طرد منها سيدنا آدم لم تكن في حقيقة الأمر سوى نقطة عبور و فترة إختبار و إمتحان لمدى إمتثال بتي آدم لله سبحانه و تعالى و إبتعادهم عن ألاعيب الشيطان الماكر ، و هذه الخطيئة التي إستغلها الأحبار و الرهبان المسيحيون المزيفون في إبتزاز المسيحيين السذج هي في الحقيقة نموذج و عينة و مثال عن التوجه العام للبشرية نحو طريق الشيطان و الإبتعاد عن الطريق المستقيم ، و في القرآن الكريم أكثر من أية توكد هذا الإتجاه ، و في الواقع الذي نعيشه في القرن الواحد و العشرين ، نجد أن ثلثي ٢ من ٣ من البشرية هم من غير المسلمين .

(فدلاّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمّا ذَاقَا الشّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ وَنَادَاهُمَا رَبّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشّجَرَةِ وَأَقُل لّكُمَا إِنّ الشّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مّبِينٌ{22} الأعراف

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِمِينَ{19} فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشّجَرَةِ إِلاّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ{20} وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لَكُمَا لَمِنَ النّاصِحِينَ{21} الأعراف

و خطيئة سيدنا أدم كما ذكرنا سابقا هي مسؤولية فردية تحملها هو و زوجته حواء و لا يمكن أن تورث الى سلالته من البشر ، و حتى و إن كانت هناك إمكانية توريث الخطيئة الى الأجيال المقبلة ، فإن توبة سيدنا أدم و إستغفاره و قبول توبته من الله سبحانه و تعالى تكفي ليمحي ذلك الذنب العظيم من سجل أعمال سيدنا آدم و أمنا حواء ، و التوبة كما يقول العلماء هي علم و حال و عمل ، العلم هو معرفة الذنب ، و الحال هو تألم النفس و قد يسمى ندما ، و العمل و هو الإقلاع الفوري عن الذنب ، و تدارك ما فات .

{فَتَلَقّى آدَمُ مِن رّبّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ }البقرة37

ـ قصة الخلق: كيف خلق الله الأنسان ؟ ما هي مكونات الإنسان ؟ ما هي الأطوار التي مر بها ؟ الإنسان في التصور الإسلامي الصحيح هو أحدى مخلوقات الله العجيبة و الكريمة التي خلقها من التراب ، من أبسط الأشياء في الأرض ، الطين ، و الطين أو التراب أو الأرض و هي المادة التي خلق منها الإنسان في شقه المادي و هي ترمز للجانب المادي من الإنسان ، و الإنسان كذلك مخلوق من روح و نفس ، من نفخة الله ، فهو إذن مخلوق ليس كبقية المخلوقات الأخرى ، مخلوق مزدوج الطبيعة ممزوج بين المادة و الروح ، و الخطاب القرآني يتحدث كثير و في سياقات و صيغ متنوعة عن قصة خلق الإنسان و يحدد بدقة مجمل الأطوار التي يمر بها ، في البداية و بمناسبة إخبار الملائكة الكرام عن قدوم مخلوق جديد يسمى البشر أو الإنسان ، يشير الخطاب القرآني مباشرة الى طبيعة خلق الإنسان الأولى و هي الطين ، فالطين هي المادة الأولى التي خلق منه النموذج الأول للإنسان و هو سيدنا آدم و منه خلقت أمنا حواء .

{هُوَ الّذِي خَلَقَكُم مّن طِينٍ ثُمّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مّسمًّى عِندَهُ ثُمّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ } الأنعام2

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مّن طِينٍ } المؤمنون12

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه55

ثم تأتي المرحلة الثانية و هي التسوية و نفخ الروح ، و تزويد الإنسان بآليات تساعده على القيام بواجباته في الأرض و إستثمار الكون و صناعة الحياة الكريمة ، و هذه هي المرحلة النهائية في خلق الإنسان الأول سيدنا آدم عليه السلام ، و تقديمه الى الملائكة الكرام كضيف جديد وافد الى الدنيا و طلب منهم السجود له ، سجود تحية و تكريم ، لكن إبليس عليه اللعنة و هو مخلوق من نار ، ظن أنه افضل من سيدنا آدم و أن النار أحسن من الطين ، فلم يكن من الساجدين و كان من العاصين .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ{71} فَإِذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ{72} فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{73} إِلّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ{74} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ{75} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{76} ص

فسيدنا آدم عليه السلام هو النموذج الأول للإنسان ، و هو أبو الأنسانية و أصله و هو ما يسميه الخطاب القرآني ب . النفس الواحدة ، و من سيدنا آدم خلقت أمنا حواء و بدأت سلسلة البشرية تمتد بشكل آخر و بطريقة أخرى ، هو التزاوج و عن طريق إلتقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة ، فنستنتج أن خلق الإنسان مر بمرحلتين ، الأولى و تمت بأمر الله و قضائه و ب كن فيكون ، فخلق الإنسان من الطين و من النفخة الألهية ، فكان سيدنا آدم كنموذج و مثال للبشر ، للإنسان ، ثم خلق الله سبحانه و تعالى أمنا حواء من سيدنا أدم ، فالنفس الإنسانية الواحدة هي أصل الإنسانية كلها ، و هذه الحقيقة البسيطة وحدها تكفي ليعيش البشر إخوة سعداء متعاونين متحابين رغم إختلافاتهم العقائدية و الفكرية ، و ترتيب مراحل الخلق واضح بشكل كبير في نص الآية الكريمة من سورة النساء و هي موجهة للناس ، لكل الناس ، و ليس للمسلمين فقط ، فبداية الخلق تم بواسطة النفس الواحدة و هي إشارة الى سيدنا آدم عليه السلام ، ثم خلق منها زوجها و هي أمنا حواء ، ثم تأتي المرحلة الثالثة و هي التناسل و التكاثر و التوالد التي يأتي بحكمة الله من الذكور و الإناث ، و في التراث الفكري و كتب التاريخ حكايات طويلة و عريضة لا تنتهي عن كيفية تناسل البشر من سيدنا آدم و أمنا حواء ، فيها القليل من الحقائق التاريخية و العلمية و الكثير من الأساطير و الخرافات و الإسرائيليات ، و لذلك ضربنا عنها صفحا فهي لا تعنينا في هذا السياق الذي يتناول التصور الإسلامي للإنسان ، و التصور الإسلامي ينبغي أن يبنى على حقائق تاريخية و علمية و ليس على الخرافات و الأساطير ، و الذي يعنينا أن نفهم مدلول الأية الكريمة و النص الشرعي كما هو ، و هو على أي حال واضح جدا و لا يحتاج الى تأويل ، إنما يحتاج الى تذوق و إحساس و فهم عميق ، فالله سبحانه و تعالي خلقنا كبشر من نفس واحدة هي سيدنا آدم عليه السلام ، و من سيدنا آدم خلقت أمنا حواء ، و بعد عملية التزاوج خلق الله السلسلة الأولى من البشرية من الذكور و الإناث ، ثم تكاثرت البشرية بالطريقة الطبيعية المعروفة منذ بداية الحياة و هي التزاوج بين الرجل و المرأة و الإنجاب ، و هذه الحقيقة العلمية و التاريخية الناصعة التي يشير إليها الخطاب القرآني ، تدحض بما لا يدع مجالا للشك كل الفرضيات و النظريات الوضعية حول اصل الإنسان ، فالإنسان هو الإنسان منذ خلق الله أدم الى اليوم .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } النساء1

ـ أطوار خلق الإنسان في بطن أمه:

. عرفنا أن الإنسان الأول و هو سيدنا آدم عليه السلام ، خلقه الله من طين ثم سواه و نفخ فيه من روحه و جعله بشرا ، ذلك هو النموذج الأول للإنسان ، ثم خلق الله سبحانه و تعالى أمنا حواء من سيدنا آدم ، كان هذا مع الإنسان الأول ، أما السلسلة الثانية من البشر فمرت بعدة أطوار بدايتها هي التزاوج بين الرجل و المرأة ، و الخطاب القرأني يتحدث بتفاصيل كثيرة عن مراحل خلق و نمو الجنين في بطن أمه ، حتى لا يترك أي مجال لتدخل الخرافات و الأساطير اليونانية و الإسرائلية في حقيقة خلق و نمو الإنسان و هو في بطن أمه ، فيتحول الحديث من الطين الى الماء المهين ، و نطفة إذا تمنى ، و ما يخرج من بين الصلب و الترائب ، فيخبرنا القرآن الكريم عن حقائق علمية لا مجال لإنكارها أو تكذيبها و هي أن الإنسان يولد بعد إلتقاء الرجل و المرأة في زواج شرعي لقضاء حاجة بيولوجية فطرية هي الجماع كما يسمى في الخطاب الإسلامي أو ممارسة الجنس بطريقة شرعية كما يسمى في الأدبيات الفكرية العامة ، و من خلال إلتقاء الزوجين لممارسة حقهما الطبيعي و الشرعي في المتعة الجنسية يفرز كل منهما عند نهاية العملية الجنسية مادة طبيعية تسمى المني بالنسبة للرجل و الهادي بالنسبة للمرأة و تكون المرأة مجهزة مسبقا ببويضات موجبة أو سالبة بمعنى قابلة لتلقيح بماء الرجل أو ميتة ، و نفس الأمر بالنسبة للرجل قد تكون قطرات المني التي يفرزها في جهاز المرأة موجبة أو سالبة ، أي حية و سليمة و قابلة للإنتاج و إنجاب الأطفال او ميتة و لا حياة فيها و من هنا ينشا ما يسمى بالعقم سواء بالنسبة للرجل أو المرأة ، فقد تكون المرأة سليمة و الرجل عقيم ينتج سائل منوي لا يحتوى على مقومات الحياة و التطور و الإنجاب ، و قد تكون المرأة عقيمة تنتج بويضات ميتة غير قابلة للتلقيح بماء الرجل ، و في الخطاب القرآني تأكيد صريح على أن الرجل أو بالأحرى ماء الرجل هو الذي يملك مقومات الذكورية أو الأنوثة و بالتالي هو المسؤول عن شكل الإنسان ذكرا أو أنثى ، و ماء الرجل و بويضة الزوجة ينتجان الخلية الموحدة التي تحافظ على السيمات الوراثية للأب بالدرجة الأولى و للأم بالدرجة الثانية فيولد الطفل و هو يحمل في كيانه العديد من الصفات الخلقية بفتح الخاء و الخلقية بالضم ، لأبويه ، وقد تكون صفات الآب هي الغالبة أحيانا كما قد تكون صفات الأم ، و في بعض الأحيان تكون صفات الأم واضحة بالنسبة للبنات و صفات الآب واضحة لدى الذكور .

{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً }الإنسان2

{خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }النحل4

و أهم المراحل و الأطوار التي يمر بها الإنسان و هو في بطن أمه هي

. الإتصال الشرعي بين الزوجين الرجل و المرأة .

. إفراز المني في رحم المرأة .

. إلتقاء المني ببويضة المرأة .

. تحويل ماء الرجل و بويضة المرأة الى مضغة .

. خلق العظام .

. خلق اللحم الذي يغطي العظام .

. الصورة النهائية للإنسان ذكر أو أنثى .

و الآية السادسة من سورة الزمر تشير الى ظلمات ثلاث يمر بهم الإنسان في بداية نشأته في بطن أمه ، حتى يخرج الى الحياة الدنيا ، و هذه الظلمات هي ظلمة البطن ، و ظلمة الرحم ، و ظلمة المشيمة ، كما تؤكد الآية ال ١٤ من سورة نوح حقيقة الأطوار أي المراحل التي مر بها و يمر بها خلق الإنسان ، و الإنسان ذكرا أو أنثى هو أجمل مخلوقات الله على الإطلاق ، و قد خص الله المرأة لأسباب بيولوجية بمظاهر الإغراء و الجذب ، و غرس في الرجل و المرأة غريزة الحب و خلق في جسديهما آليات ساحرة تساعدهما على العيش معا تحت سقف واحد دون ملل للمحافظة على النسل و إستمرار الحياة على الأرض ، و غريزة الجنس هي أقوى الدوافع لإستمرار الحياة بين الزوجين بالإضافة الى دافع الإنجاب و تكوين الأسرة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ {13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14} المؤمنون

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الروم21

{خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ }الزمر6

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{5} خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ{6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7}

ـ مظاهر تكريم الله للإنسان

لا يحتاج المرء لتفكير طويل حتى يدرك أهم مظاهر التكريم التي خص الله بها الإنسان أي إنسان ، بغض النظر عن درجة إيمانه و مدى إلتزامه ، فالإنسان هو الإنسان كافرا أو مسلما ، و في سياق التكريم الإلهي للإنسان يتحدث الخطاب القرآني متوجها الى الإنسان بإعتباره من سلالة سيدنا آدم ، فيخاطبه بهذه الصفة مباشرة بني آدم ، و الخطاب الموجه الى الإنسان بهذه اللفظة الجميلة المحببة الى القلوب ، يحمل في طياته الكثير من معاني الرحمة و الرأفة و الإحسان و الإشفاق و حتى الدلال ، فالإنسان هو أفضل مخلوق عند الله بعد أو قبل الملائكة الكرام و في هذه المسألة بعض الخلاف ، و نعمة الله على الإنسان لا تعد و لا تحصى و لكنا نكتفي بإبراز أهم مظاهر العناية و التكريم التي خص بها الله عز وجل عباده .

ـ سجود الملائكة: لم يحظ أي مخلوق من مخلوقات الله الكثيرة بهذه الميزة و هي إستقباله بالسجود تحية و إكراما له من طرف الملائكة بأمر الله عز وجل ، و عندما يأمر الله سبحانه و تعالى أكرم مخلوقاته و هم الملائكة بالسجود لأدم عليه السلام ، فمعنى لك أن منزلة هذا المخلوق الذي يسمى الإنسان و قيمته عند الله عظيمة ووزنه كبير .

ـ العقل: الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين مخلوقات الله الكثيرة الذي زوده الله سبحانه و تعالى بالعقل و هو جوهرة الجسم البشري و أعز ما يملك الكائن البشري به يستطيع الإنسان ان يعرف كثير من الحقائق ، يقرأ و يتعلم و يبحث و يكتشف ، و بواسطة العقل يستطيع الإنسان التمييز بين الحق و الباطل ، الإيمان و الكفر ، الخير و الشر ، و قد يهتدي الإنسان بواسطة العقل الى وجود الله ، لكنه يحتاج الى الوحي لمعرفة الله حق المعرفة ، معرفة يقينية لا تشوبها اية شكوك ، فالإيمان الذي يهتدي إليه الإنسان بصورة تلقائية من دون إطلاعه على الوحي هو في الحقيقة إيمان ناقص و غير يقيني تحيط به الشكوك و الأوهام ، و الإيمان بالله قضية كبرى تحتاج الى حقائق علمية و فكرية و الى يقينيات ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان

ـ الفطرة : الفطرة هي الطبيعة ، أو الخلقة ، أو الجبلة و هي الإسلام ، بمعنى أن الإنسان أي إنسان عندما يخرج من بطن أمه يكون مشحونا بالإيمان بالله فهو من أول يوم يعرف ربه ، و لو أننا وضعنا مولودا داخل حجرة معينة و زودناه بكل إمكانيات ووسائل الحياة و النمو من مأكل و مشرب ، و تركناه وحده من دون مؤثرات ، سوف يتعرف على ربه بنفسه و بصورة تلقائية ، سيدرك بفطرته و بعقله انه مخلوق ، صحيح هو مولود خارج من بطن أمه بعد لقاء حميمي بين والديه ، لكن هناك خالق أزلي قادر على كل شيء هو الذي يمنح القدرة على الإنجـــاب ، و لذلك

قال الرسول ﷺ يولد المولود على الفطرة ـ أي على الإسلام ـ و أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، الفطرة هي الطبيعة ، و الدين الطبيعي هو الإسلام .

ـ حرية الإرادة و الإختيار:

الإنسان هو المخلوق العجيب من بين مخلوقات الله الكثيرة الذي إستفاد من إمكانية إزدواجية الإتجاه ، بحكم و جود أجهزة جبارة و خارقة للعادة مثل العقل و المخ و القلب و هي أجهزة تعمل بكفاءة عالية و نادرة و تقوم بنفس المهمة تقريبا ، و العقل يهتم و يتخصص عادة بالقضايا المادية التي تحتاج الى تفكير عميق و دراسة و تحليل ، أما القلب فمهمتة هي الإهتمام بالقضايا المعنوية و الروحية ، و يبقى المخ في حالة إستنفار دائمة و هو يعتبر بمثابة جهاز التخزين و الترتيب و التصفية ، ثم هنالك الذاكرة و هي جهاز مختص فقط بتحزين المعلومات ، و بواسطة تلك الأجهزة العجيبة و الجبارة يستطيع الإنسان أن يميز و يختار بين الحق و الباطل ، الخير و الشر ، النفع و الضر ، و الله سبحانه و تعالى رحمة بهذا المخلوق العجيب و تكريما له لم يحجر عليه و يضعه في قالب واحد لا يخرج منه و لو كان خيرا كله كما هو الشأن بالنسبة للملائكة ، لكن رزقه آليات التخزين و التفكير و التحليل و وضع أمامه طريقين ، طريق الجنة و طريق النار ، سبيل الهدى و سبيل الضلال ، و الإختيار الحر يعني بكل بساطة مسؤولية الفرد عن إختياره ، و قد وقع جدال طويل و عريض بين الفلاسفة و المفكرين و المنظرين و الكتاب المسلمين حول قضية الإختيار و مشيئة الله و حدود إرادة الإنسان ، و إختلف الناس و ظهرت مدارس و مذاهب شتى ، و هي قضية مبسوطة على أي حال في كتب العقيدة وليس موضوعنا هو بحث هذه القضية بأكثر تفاصيلها و لكن مجرد إثبات الإرادة الحرة للإنسان و هي مسألة يتفق عليها مبدئيا كل مدارس العقيدة و الفكر الإسلاميين .

ـ علمه البيان

البيان لغة هو النطق و الكلام و القدرة على التعبير ، و هذه الخاصية لم تتوفر لأي مخلوق من مخلوقات الله سوى الإنسان ، بواسطة هذه الآلية يستطيع الإنسان أن يعبر عن كل مكنوناته نثرا و شعرا ، و يطالب بحقوقه و يدافع عنها ، و يدلي بآرائه و يجادل عن أفكاره ، و الكلام أو البيان هو وسيلة النضال و عرض الأفكار و الرسالات و المشاريع الفكرية و الدعوات ، و وسيلة الجدال و النقاش ، و يحتاج الإنسان للكلام و الحديث أحيانا و لو في مواضيع بسيطة لمجرد تفريغ المكبوتات و الإفراج عن الترسبات و رفع الضغط النفسي ، و من دون الكلام أي في حالة الكبت و المنع تصاب المجتمعات بأمراض نفسية رهيبة ، و تنتشر فيها الجرائم و المنكرات و الفساد .

ـ اللبـــــــاس

في الخطاب القرآني إشارات كثيرة الى أن سيدنا آدم و أمنا حواء و هما عنوان الإنسان الأول لم يكونا يرتديان اللباس في بداية خلقهما ، لكن بعدما ذاقا من الشجرة المحرمة ظهرا على حقيقتهما الطبيعية حفاة عراة ، و من خلال العقل و الفطرة إكتشفا أن العري عيب و أن بعض المناطق الحساسة من جسم الإنسان رجلا أو إمرأة و خاصة المرأة لا ينبغي أن تكون مكشوفة للناس و لابد من سترها ، و أول منطقة تم سترها من جسم الإنسان هي منطقة العورة ، و في القديم و حتى عصور متقدمة في الشرق و الغرب ، كان الناس يكتفون فقط بستر العورة ، و لما أكتشفوا أنواعا جديدة من اللباس تكفي لستر الجسم بأكمله ترسخت هذه العادة لدى جميع الناس ، فاللباس او الستر هو مظهر من مظاهر تكريم بني أدم ، و أول لباس إرتداه سيدنا أدم و أمنا حواء كان مصنوعا من ورق الجنة

{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ }الأعراف22

ـ الدفـــــن

الدفن هو من بين أهم مظاهر تكريم الله سبحانه و تعالى للإنسان ، و الدفن هو مواراة الإنسان في التراب ، و العودة الى الأم الحنون ، الى الحضن الدافئ ، الى النبع الأول ، فالإنسان مخلوق من تراب ، من الأرض و هي مستقره و مأواه بعد الموت **(منها خلقناكم و فيها نعيدكم و نخرجكم منها تارة أخرى)** و في الحديث النبوي الشريف ـ إكرام الميت دفنه ـ و الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي أكرمه الله بهذه الخاصية ، و لنا أن نتصور لو لم تكن هذه النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان كيف تكون النفس البشرية رخيصة و كيف تهون لدرجة أن ترمى في الشارع أو في المزابل أو في أي مكان في الصحراء أو الجبال أو البحار و تترك عرضة للكلاب الضالة و الذئاب و وحوش الغابة ، الدفن هو أسمى مظاهر تكريم جسم الإنسان و النفس البشرية ، و قصة الدفن ظهرت مع أول جريمة قتل يقترفها الإنسان ضد أخيه الإنسان ، يستعرضها القرآن الكريم بأسلوب رائع و بلغة أنيقة راقية ، فيها إشارات دقيقة لضعف الإنسان و عجزه ، و كيف تصور أن التخلص من أخيه الإنسان عملية سهلة ، و عندما وجده أمامه جثة هامدة لم تسعفه قدرته على إيجاد طريقة تمنع القتيل من أن يكون لقمة سائغة لوحوش الغابة ، فكانت رحمة الله و حكمته و عنايته أن قدم للإنسان نموذجا لعملية الدفن بواسطة الغراب الذي علمه الله كيف يقوم بعملية الدفن ، و في القرآن توضيح للحكمة من الدفن غير الخـوف

من التعفن أو تتحول لقمة سائغة للذئاب و الكلاب و الوحوش الضارة و هي أن جسم الإنسان كريم عند الله حيا أو ميتا و هناك منطقة حساسة و عزيزة على كل إنسان ذكرا أو أنثى ، و هي الشرف المقدس الذي قال فيه الشاعر

ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

و الله سبحانه و تعالي هو الذي علم أدم عليه السلام الأسماء كلها و هي كما أوضحنا مفاتيح العلوم و المعارف ، و رؤوس أقلام و مصطلحات و عناوين ، و تسمية و صفات لكل ما يحتاجه الإنسان في إدارة حياته و تسيير يومياته ، و الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خصه الله سبحانه و تعالى باللباس من دون المخلوقات الأخرى ، و حتى بالنسبة للحيوانات فلم يترك الله عزوجل عوراتهم هكذا مكشوفة للعيان و إنما وضع فوقها غلافا ساترا يحول دون رؤيتها من الغير ، و حسب ما يفهم

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } الأعراف22

من الأية ٢٦ من سورة الأعراف فإن الهدف من اللباس هو ستر العورة و هي منطقة حساسة في جسم الإنسان ، و بقي أن نذكر من بين مظاهر تكريم الإنسان هي

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلّهُمْ يَذّكّرُونَ } الأعراف26

الجمال ... جمال الخلقة و حسن التصوير و سحر الصنعة و قد تكلمنا عن هذا الموضوع في الفقرات السابقة بكثير من الإسهاب و لا بأس أن نضيف هنا بعض الأفكار و بما فتح الله علينا ، فنقول أن الجمال ليس ميزة بشرية خاصة به دون الخلائق و إنما جمال الإنسان في شكله و في ملامحه و صورته و وجهه و عينيه و فمه و شفتيه هو جزء من جمال الكون الكبير بسماواته و أراضيه و جباله و أنهاره و أشجاره ، و في الغالب تبدو المرأة أكثر جمالا من الرجل و الجمال مطلوب في المرأة و ضروري بالنسبة لها سواء أكان طبيعيا أو مصطنعا ، و الجمال يحقق في المرأة نرجسيتها و غرورها و هي مطالبة بالإهتمام بجمالها من اليوم الذي تصل فيه درجة البلوغ حتى تصل مرحلة الشيخوخة ، و جمال المرأة لا ينعكس على نفسيتها فقط بل يزيد من راحة الزوج و عفافه و معنوياته ، و كلما كانت المرأة جميلة و على قدر كاف أو طاغ من الأنوثة كانت سعيدة و إنعكست سعادتها على زوجها فيصبح هو الآخر من أسعد الناس ، لكن الجمال الطبيعي الذي يعرفه كل الناس هو

جمال الشكل أي الجسد و الملامح و الوجه و العينين و الشفتين و مظاهر الأنوثة التي يعرفها الرجال و النساء ، و يحمل ديوان الشعر العربي منذ زمن إمرىء القيس الى يومنا هذا الكثير من القصائد التي تشيد بجمال المرأة وكان الشاعر العربي يبدأ دائما قصيدته مهما كان موضوعها بمقدمة غزلية و بالبكاء على الأطلال و بذكر الحبيب الذي رحل دون وداع ، و تختلف نظرات و مواقف الرجال و النساء بالنسبة للجمال و هناك مقاييس معينة تحددها الأعراف و التجارب و الخبرات الطويلة يعتمد عليها الرجال خاصة في إختيار زوجاتهم ، و بعكس المرأة فإن جمال الرجل غير مطلوب كثيرا و يكفي أن يكون عاديا و بملامح طبيعية و حواس سليمة صالحة للإستعمال يقول الأستاذ سيد قطب في معرض تعليقه على الأية ال ٢٦ من سورة الأعراف التي تتناول قضية اللباس و ستر العورة و هي أغلى ما يملك الإنسان رجلا أو أمرأة ـ هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة .. مشهد العري و تكشف السوءآت و الخصف من ورق الجنة ، لقد كان هذا ثمرة للخطيئة .. و الخطيئة كانت في معصية أمر الله ، و تناول المحظور الذي نهى الله عنه ، و في مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ، و مواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية ، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر و قد علمهم و يسر لهم ، و شرع لهم كذلك اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة بهذا الستر و جمالا ، بدل قبح العري و شناعته ، و لذلك يقول أنزلنا أي شرعنا لكم في التنزيل ، و اللباس قد يطلق على ما يواري السوأة و هو اللباس الداخلي ، و الرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله و يتجمل به و هو ظاهر الثياب ، كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد و النعمة و و المال ... فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات و الزينة ، و بين التقوى كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب و يزينه ، و ذاك يستر عورات الجسم و يزينه ، و من لا يستح من الله و لا يتقه لا يهمه أن يتعرى ، وأن يدعو الى العري ـ ـ ـ إن ستر الجسد ليس مجرد إصطلاح و عرف بيئي كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس و عفتهم لتدمير إنسانيتهم ـ في ظلال القرآن ـ إذن القضية كلها تتعلق هنا بستر الجسم ووضعه تحت التراب ، حماية له و تكريما و تقديرا و الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعتبر دفنه واجبا مقدسا ، و القرآن الكريم يركز في هذا السياق على قضية السوأة فيذكرها عدة مرات في نص قصير نظرا لأهميتها بالنسبة للإنسان حيا أو ميتا ، و إبن أدم الذي قتل أخيه يتحسر لأنه لم يكن في مستوى ذلك الغراب ليدرك كيف يواري ـ سوأة أخيه ، تكريم بني أدم في قضيتي اللباس و الدفن هو أسمى مظاهر التكريم الإلهي ، و يمتد هذا التكريم في مواقع و مظاهر أخرى كثيرة يمكن إكتشافها من خلال التـــــدبر العميق في كتاب الله .

ـ الجسد و الروح

الإنسان ... هذا المخلوق العجيب الذي كرمه الله من بين كل الخلائق ، هو مخلوق متميز و ممتاز ، متميز عن الملائكة و الشياطين و الحيوانات ، و ممتاز لأنه مزدوج الخلقة ، فإذا كانت الملائكة مخلوقة من نور ولا يراها البشر بالعين المجردة ، والشيطان مخلوق من نار و لا يمكن للإنسان رؤيته بصورة مباشرة ، و أن كان لكليهما أي الملائكة و الشياطين القدرة على التشكل في صور الإنسان ، و التأثير بطرق كثيرة عليه ، فإن الإنسان يمتاز بخاصية إزدواجية الخلقة حيث جمع بين المادة أي الطين أو التراب أو الصلصال ، و النفخة الإلهية العجيبة التي تجعل له إمكانية الإرتقاء روحيا و خلقيا حتى يكاد يدنو من طبائع الملائكة ، كما يمكنه الهبوط الى أسفل سافلين فيتحول الى شيطان بل أكثر من ذلك أستاذا للشياطين ، و إزدواجية طبيعة الإنسان تجعله مؤهلا بضورة آلية للخير أو الشر، و الجسد هو ما نعرفه اليوم من شكل الإنسان سواء أكان رجلا أو إمرأة و هو الشق المادي الذي خلق منه الإنسان ، و مع التقدم العلمي لم يعد هنالك مشكل يقف أمام معرفة طبيعة الإنسان من حيث الشكل ، فقد إستطاع الطب الحديث معرفة أدق التفاصيل عن جسم الإنسان و حركته و وظائف الحواس و جميع الأعضاء و طبيعتها ، و كيف يتم إسعافها و علاجها في حالة المرض ، بل ذهبت الأبحاث الطبية آمادا بعيدة في إمكانية تعويض الأعضاء المريضة أو التالفة بأعضاء جديدة أو إصطناعية ، بدأت العملية بطاقم الأسنان الإصطناعي و تطورت الى الأرجل و الأيد الإصطناعية و وصلت الى زرع الأعضاء ، و الآيات القرآنية التي تشير الى طبيعة الإنسان كثيرة جدا ، ورغم التقدم العلمي مازلت أسرار الإنسان مجهولة ، و كما ذكرنا في

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{21} الروم

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى{36} أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{37} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{38} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{39}

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7} أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ{10} فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11}

(يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7} فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ{8} الإنفطار

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } التين4

الفقرات السابقة فإن الجانب المادي من الإنسان أي مظهره و أجهزته و حواسه يكاد العلم الحديث يعرف أدق أسرارها بفضل علم التشريح ، فهو يعرف مثلا العين تركيبتها و وظائفها و يعرف الأسباب التي تؤثر على أداء وظيفتها الطبيعية و هي الرؤية ، كما توصل الى علاج الكثير من الأمراض التي تصيب العين ، بل ذهب أكثر من ذلك و منذ زمن طويل الى إجراء العمليات الجراحية الدقيقة على العين ، كما نجح في زرق القرنية و العيون الإصطناعية ، و نفس الشيء ينطبق على الأذن و المعدة و القلب ، حيث أكتشف العلم الحديث أدق اسرار مكونات و تركيبة القلب ووظائفه و تمكن من التعرف على أسرار و تفاصيل الأمراض التي تصيب القلب و صنع لها الدواء ، كما تمكن العلم الحديث من إجراء عمليات جراحية دقيقة على القلب و كذلك زراعة القلوب ... و رغم التقدم الهائل في أبحاث العلوم الطبيعية و الطب و الفيزياء فلا تزال مناطق كثيرة من جسم الإنسان مجهولة للعلماء ، و الدراسات التي أنجزت حول الإنسان سواء من طرف علماء و كتاب الغرب أو من العرب المسلمين قليلة جدا ، و يعتبر كتاب ــ الإنسان ذلك المجهول لمؤلفه ألكسيس كاريل هو اهم مرجع تقريبا لكنه قديم نسبيا حيث مرت أكثر من خمسين سنة على تأليفه ، و في تلك المدة حصلت تطورات كثيرة و تم إكتشاف حقائق كثيرة عن طبيعة الإنسان سواء بالنسبة للجانب المادي أو المعنوي و النفسي من ، و مع ذلك نجد أنفسنا مضطرين لنقل بعض الفقرات من كتاب الأستاذ كاريل ــ ... و لكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ـ و الإنسان بصفة خاصة ـ لم يصب مثل هذا التقدم ، إنه لا يزال في المرحلة الوصفية ، فالإنسان كل لا يتجزأ ، و في غاية التعقيد ، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، و ليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه ، أو في أجزائه ، في وقت واحد ، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي ... و لكي نحلل أنفسنا فإننا مضطرون الى الإستعانة بفنون مختلفة ، و الى إستخدام علوم عديدة ، و من الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم الى رأي مختلف ، في غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط و بعد أن تضاف المستخلصات بعضها الى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة ، إنها تخفى وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها ... و في الحقيقة لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبار لكي يعرف نفسه ، و لكن بالرغم أننا نملك كنزا من الملاحظات التي كدسها العلماء و الفلاسفة و الشعراء في جميع الأزمان ، فإننا إستطعنا أن نفهم جواب معينة فقط من أنفسنا ، إننا لا نفهم الإنسان ككل ، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، و حتى هذه الأجزاء إبتدعتها وسائلنا ، فكل واحد منا مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ــ ألكسيس كاريل ـ نعـــم لقد إكتشف العلـــم

الحديث حقائق كثيرة عن طبيعة الإنسان ساعدته على معرفة أدق أسرار الحواس ووظائفها ، كما ساعدت على إكتشاف الأمراض و العلل و اسبابها و بالتالي إكتشاف العلاج و الأدوية ، و قد بذلت الإنسانية جهودا جبارة لتشريح الإنسان ماديا أي من ناحية الجسم و نفسيا من ناحية معرفة أسرار النفس الإنسانية مكوناتها و خصائصها ، و إن كانت الدراسات و الأبحاث التي تمحورت حول الجانب المادي للإنسان قد إتخذت مسارات موضوعية علمية لا غبار عليها و توصلت بالتالي الى أكتشاف الكثير من الحقائق عن الإنسان ، فإن الدراسات النفسية التي قام بها فلاسفة و علماء الغرب غرقت كثيرا في الخيال و تطرفت الى أبعد الحدود - - . فالإنسان من الناحية المادية هو كتاب مفتوح يمكن للعلم و الأبحاث المتقدمة أن تكتشف كل يوم المزيد من الحقائق التي تدل على عظمة الخالق سبحانه و تعالى ، فالإنسان كمادة و كروح هو في نهاية المطاف آية من آيات الله ، و إن كان الجانب المادي من الإنسان هو كما ذكرنا كتاب مفتوح يمكن للعلماء فك طلاسمه و معرفه أسراره ، فإن في الجانب الروحي و النفسي و المعنوي من الإنسان تكمن بعض الإشكاليات التي حارت فيها عقول البشرية منذ فجر التاريخ و لم تصل رغم أبحاثها و إنجازاتها الكثيرة و المعمقة الى الحقيقة . . - حقيقة الروح ، و حقيقة النفس و حقيقة العقل . . . و حتى القرآن الكريم يغلق الأبواب و النوافذ و لا يترك أي منفذ لمعرفة حقيقة الروح و يتركها هكذا مبهمة معرفتها غير متاحة للبشر ، الروح من الأسرار الكثيرة لتي إستأثر الله بعلمها و كما يقول الأستاذ سيد قطب في معرض تفسيره لقوله تعالى **(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** و ليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل ، و لكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في حدوده و في مجاله الذي يدركه ، فلا جدوى من الخبط في التيه ، و من إيقاف الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه ، لأنه لا يملك وسائل إدراكه ، و الروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، و سر من أسراره القدسية ، و علم الإنسان محدود بالقياس الى علم الله المطلق و أسرار هذا الوجود اوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، و الإنسان لا يدير هذا الكون فطاقته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه و بقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، و يحقق فيها ما شاء الله أن يحققه في حدود علمه القليل ، و لقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ، و لكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدري ما هو ، و لا كيف جاء ،و لا كيف يذهب ،و لا أين كان ، و لا أين يكون ، إلا ما أخبر به العليم الخبير في التنزيل ، و ما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير ـــــ فالروح إذن سر من الأسرار العظيمة التي أخفاها الله عن البشر ، لحكمة ربانية يعلمها ، و لمصلحة الإنسان ذلك المجهول الظلوم الجهول

ـ النفس البشرية بين الدين و العلم

لقد حاول الفلاسفة القدامى معرفة طبيعة النفس البشرية من خلال دراسة و تحليل مختلف مساراتها و حالاتها ، و قد تضاربت أقوال الفلاسفة حول ماهية و طبيعة النفس البشرية ، لكنهم إتفقوا على أنها جوهر روحاني بسيط مجرد من المادة قائم بذاته لا حيز فيه ، لا يتغير بتغير الظواهر النفسية و لا يتبدل بتبدلها ، و النفس هو الجهاز الأعلى المسير للجسم ، لكنه من حيث طبيعتها و تكوينها فهي مخالفة و مغايرة لطبيعة الجسم المتكون من لحم و عظم و دم ، و النفس البشرية هي الجهاز أو الوعاء المسؤول عن مختلف الأحوال النفسية التي تعتري الإنسان في كل حال و هي مركز الإحساسات و المشاعر و العواطف ، و كل ما يصدر عن الإنسان من مشاعر و أحاسيس و آهات و أحلام ، و اتفق الفلاسفة على أن هذا الجوهر الصميم الذي يسمى النفس يملك عدة قوى أهمها الذاكرة ، الإرادة ، التخيل ، الإستدلال ، الإدراك ، و في العصور القديمة إلتبست على الفلاسفة و المنظرين قضيتي النفس و الروح و كانت معظم الآراء ترى أنهما شيء واحد النفس هي الروح و الروح هي النفس ، لكن مع مجيء الإسلام إتضحت الفكرة بعد قوله تعالى **(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** حيث أكد القرآن الكريم أن هذه القضية هي أسرار و غيبيات ليست في متناول العقل البشري ، و هي مسألة إستفرد الله بها و إستخلصها لنفسه ، و في العصر الحديث ظهر ما يسمى بعلم النفس مهمته ووظيفته هي دراسة و تحليل النفس البشرية و تتبع مساراتها و تطوراتها و كل حالاتها الإيجابية و السلبية ، و إيجاد الحلول و العلاج لبعض الحالات المرضية من خلال ما يسمى بالطب النفسي.

ـ النفس عند اليونانيين

تأثر فلاسفة اليونان في نظرتهم و تحليلهم للنفس البشرية بما كان سائدا من أفكار و آراء حول هذا الموضوع في الفلسفة الشرقية القديمة المصرية و الهندية و الفارسية ، فالنظرية الزرداشتاية ترى أن هناك نفسين إثنين تسيطران على العالم ، واحدة تمثل الخير و الأخرى تمثل الشر ، أما الفراعنة في مصر فكانت فلسفتهم تؤمن بخلود النفس و لو بعد ممات صاحبها و لذلك إخترعوا فكرة تحنيط الأجسام تحسبا لعودة الروح و النفس إليها ، لكن فلاسفة اليونان الكبار لم يكتفوا بتبني تلك الآراء التي تبدو بدائية جدا ، فحاولوا تحليلها و إحاطتها بسياج من العلم و الفكر فأنشأوا تصوراتهم الخاصة عن النفس البشرية ، فالفيلسوف سقراط اصر على كتابة الشعار التالي في مدخل معبد دلفي ـ أعرف نفسك بنفسك ـ و قد أصبح هذا الشعار مبدأ و حكمة ترددها الأجيال من كل الشعوب و القوميات و الأديان ، فلا أحد

يمكنه معرفة تفاصيل و تضاريس نفسك و أسرارها كما تعرفها أنت ، أما أفلاطون فقال أن النفس هي جوهر الحياة وهي تنقسم الى ثلاثة أنواع ، النفس الغضبية ، و النفس الشهوانية ، و النفس العاقلة ، و أفلاطون كما بقية فلاسفة اليونان يعتبرون النفس هي الروح و يعتقدون بعودة الروح أو النفس الى الجسد بعد الموت ،أما تلميذه أرسطو فقام بتطوير افكار أستاذه و حاول صياغة نظرية متكاملة عن النفس البشرية و إعتبرها جزءا من علم الطبيعة ،

ـ النفس البشرية في الفكر الإسلامي

تأثر الفلاسفة العرب بالفلسفة اليونانية الى درجة أن عددا كبيرا من المفكرين المعاصرين المسلمين و الغربيين لا يعترفون بوجود ـ فلسفة إسلامية ـ بل كل ما هنالك أنها فلسفة يونانية مترجمة الى اللغة العربية أو أعيد صياغتها بروح عربية إسلامية ، و ذلك رغم محاولات يائسة بذلها الكندي و إبن سينا خاصة للتوفيق بين الفلسفة اليونانية و الفكر الإسلامي ، و قد برع الفيلسوف إبن سيناء في تحليل النفس البشرية و أبهرت أبحاثه و دراساته العالم و أثرت في العديد من الأبحاث النفسية الغربية الحديثة ، و إشتهر إبن سيناء ببراهينه و إستدلالاته حول وجود النفس البشرية ، فبواسطة البرهان الطبيعي يؤكد أن الحركة في الجسم لا تأتي من فراغ ، و بالتالي فهي تتحرك بواسطة النفس ، و دليل الخصائص الذي يؤكد بواسطته وجود مشاعر و إنفعالات و أحاسيس نفسية لدى الإنسان هي طبعا غير موجودة لدى الحيوان ، كالضحك ، و الخجل ، و البكاء ، و يعتبر أن النفس هي مصدر تلك الإنفعالات و الأحاسيس و المشاعر ، و كذلك برهان الإستمرار و يقصد به أن النفس ذات طبيعة ثابتة و مستمرة ، بينما الجسم قابل للنقصان و التحلل ، أما برهان وحدة النفس فيرى من خلاله الفيلسوف إبن سيناء أنه رغم وظائف النفس المتعددة و المتنوعة ، لكنها نفس واحدة جامعة مهمتها الأساسية هي الإشراف على تنظيم تلك الوظائف و التنسيق بينها ، مما يكون في نهاية المطاف وحدة واحدة ، و النفس البشرية بالنسبة لإبن سيناء هي جوهر مغاير للجسم ، يمكنها الإستعناء عنه ، و هي موازية له ليست قبله و لا بعده ، و هي تملك خاصية البقاء بعد فناء الجسم ، و هي على ثلاثة أنواع ، النفس النباتية ، و هي مكملة للجسم الطبيعي ، و النفس الحيوانية و هي مستفزة شهوانية و غضبية ، و مدركة و منها المفكرة و الوهمية ، و النفس الإنسانية و هي تجمع بين العقل النظري و العقل العملي ، و تعمل النفس البشرية بواسطة محورين هما الإدراك الحسي الظاهري عن طريق الحواس الخمس ، السمع ، الشم ، اللمس ، الذوق ، او بالإدراك الحسي الباطني أي الإدراك العقلي و مركزه الدماغ ، وقد إستفاد فلاسفة الغرب كثيرا من

الأفكار و الأراء التي قدمها إبن سيناء و منهم من إكتفى بإعادة صياغتها و منها على سبيل المثال نظرية الحدس التي تنسب الى برغسون ، و دليل الرجل الطائر التي أعاد صياغتها ديكارت ـ أنا أفكر أنا موجود ـ و من أبرز العلماء الغربيين الذين قاموا بمحاولات لدراسة النفس البشرية الطبيب النمساوي اليهودي الأصل . سيقموند فرايد ـ لكنه ركز على محور واحد و هو اللاشعور ، و أعتمد على قضية الجنس و إعتبرها المحرك الأساسي للنفس البشرية في كل إتجاهاتها يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم . دراسات في النفس البشرية ـ معلقا على الدراسات النفسية الحديثة ، مؤكدا أنها إتسمت بعيبين رئيسين هما

. ألأول أنه جعل هذه الدراسات على غير وعي الإنسان المتكامل ، الإنسان الواقعي الذي يعيش بحقيقته المتكاملة في دنيا الواقع ، فإنحرف معظمها الى دراسة أجزاء متفرقة من الإنسان على أنها هي الإنسان ، فأدت تلك الصورة الجزئية الى إعطاء صورة خاطئة و مشوهة عن الإنسان، كما ترتب عليها إنتشار كثير من المفاهيم الخاطئة في الإقتصاد و الآداب و الفنون ، و التعامل الفردي و الجماعي .

. الثاني أنه جعل هذه الدراسات لا تميز كثيرا بين الحالات السوية و الحالات المنحرفة ، لأنها فقدت المقياس الذي ترجع إليه لمعرفة الإستواء و الإنحراف ، و عاملت كل شيء على أنه هو الواقع النفسي الذي تستخلص منه النظريات و التطبيقات . . . إن الخطأن المنهجيان يظللان معظم الأبحاث النفسية في الغرب ، و يجعلان كثيرا من الحقائق الجزئية التي يتوصل إليها العلماء لا تصل الى دلالتها الحقيقية التي كان يمكن أن تؤخذ منها لو إرتكزت هذه الأبحاث على القاعدة السليمة للبحث و هي الإنسان ـ إنتهى ، و كما تاهت الفلسفة القديمة في محاولاتها الوصول الى معرفه كنه النفس البشرية ومعرفة الخيط الرفيع الذي يربطها أو يفصلها عن الروح ، تاهت الفلسفة الحديثة و غرق الفلاسفة قبل أن ينفصل علم النفس عن الفلسفة و يصبح علما قائما بذاته وظيفته هي دراسة و تحليل حركات النفس البشرية و سكناته و تتبع تفاصيلها و أحوالها في جميع الظروف ، و متابعة ردود أفعالها من فرح و غضب و أمل و يأس و اشواق و أحلام ، و إستعمل طريقتين لمعرفة أسرار النفس البشـــرية و إكتشاف حالاتها المتفرقة و أطوارها المختلفة و هما التنويم المغناطيسي و التحليل النفسي ، إلا أن الأبحاث و التجارب كما يقول الأستاذ سميح عاطف الزين في كتابه معرفة النفس الإنسانية في الكتاب و السنة قد أثبتت عدم قدرة الطريقتين على معرفة حقيقة الأحوال النفسية ، حيث تبين أن التنويم المغنطيسي مثلا لا يؤثر في جميع الأشخاص على حد سواء ، و هناك نوعية من الناس لا يمكن تنويمهم مغناطيسيا كما أكد ذلك الطبيب اليهودي فرايد نفسه

ـ النفس البشرية في القرآن الكريم

في القرآن الكريم حديث طويل و عريض عن النفس البشرية في كل تجلياتها ، و تتبع وفي لمساراتها و تقلباتها ، و تحليل عميق لمختلف إتجاهاتها ، إنتصاراتها ، إنكساراتها ، أحلامها ، ، آمالها و خيباتها ، لكن هناك اربع آيات قد تشكل عند تجميعها و تحليلها ما يمكن أن نسميه نواة لنظرية إسلامية في النفس البشرية ، و الخطاب القرآني رغم تناوله لحالات مختلفة من تقلبات النفس البشرية فهو يركز على تلك الحالات التي يعتبرها رئيسية و أساسية ، و تعتبر مفاتيح جيدة لفهم النفس البشرية و سبر أغوارها ، هناك إذن أربع أنواع من النفس البشرية ، هي النفس الملهمة ، و النفس الأمارة بالسوء ، و النفس المطمئنة ، و النفس اللوامة ،

1 ـ النفس الملهمة: هي النفس الطبيعية العادية التي نجدها في كل جسم بشري ، هي النفس التي خلقها الله من الطين و نفخة الروح و عدلها ثم سواها و صورها فأحسن صورها، ثم زودها بالإرادة و الحرية و العقل و القدرة على التمييز بين الخير و الشر ، الحق و الباطل ، و بين كل المتناقضات ، و منحها إمكانية الإختيار بين الفجور و التقوى ، و إلهام النفس البشرية القدرة على إنتهاج إحدى الطريقين أو المنهجين ، و هما منهج الفجور أو التقوى ، فيه إشارة ذكية الى الطبيعة المزدوجة للإنسان ، فالإنسان مخلوق متميز و مختلف عن الملائكة و عن الشياطين ، فالملائكة و الشياطين لهما طبيعة واحدة ، النور و الخير بالنسبة للملائكة و الشر و الظلام بالنسبة للشيطان ، أما الإنسان فقد رزقه الله سبحانه و تعالى طبيعتين ، واحدة خيرية و الأخرى شرية ، حيث منحه الله نفس طبائع الملائكة و الشياطين ، و هو حر في خياراته و إختياراته ، قد يسمو و يرتقي في مراتب العلا و مسالك الدارجين في طريق الله فيقترب من طبيعة الملائكة الكرام ، و قد ينحدر الى الأسفل فيكون سيدا و أستاذا للشياطين ، يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير الآيات ٧ و ٨ و و ٩ و ١٠ من سورة الشمس ــ ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم مرتبطة بالكون و مشاهده و ظواهره ، و هي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق ـ ـ ـ و من خلال هذه الآيات و أمثالها تبرز نظرة الإسلام الى الإنسان بكل معالمها ، إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الإستعداد ، مزدوج الإتجاه ، و نعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه ـ من طين الأرض ونفخة الله ـ مزود بإستعدادات متساوية للخير و الشر و الهدى و الضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير و ما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه الى الخير او الشر ، و أن هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبر عنها القرآن تارة بالإلهام **(فألهمها فجورها و تقواها)** و تارة بالهداية **(فهديناه النجدين)** في ظلال القرآن ص ٣٩١٧ ـ و من خلال

العقل الواعي و الفطرة السليمة و التفكير الناضج يستطيع الإنسان أن يهتدي بسهولة الى الطريق القويم ، و مع وجود الطبيعة المزدوجه للإنسان و الإستعداد الطبيعي الفطري للخير و الشر و مع وجود الإرادة و الحرية في الإختيار يكون الإنسان بطبيعة الحال مسؤولا بصفة فردية و شخصية عن خياراته و إختياراته ، فالنفس الملهمة إذن هي تلك النفس التي يكتسبها كل إنسان منذ يوم ولادته أوعلى الأقل منذ بلوغه سن التكليف و التمييز بين الخير و الشر ، و من أهم مظاهرها و خصائصها أنها مزودة بآليات الإخيار بين الخير و الشر بكل حرية و إرادة و مسؤولية ، و النفس الملهمة تحيلنا الى الإدراك العفوي أن هنالك نوعين مختلفين من النفس البشرية ، هما النفس الخيرة التي قد تقترب من طبيعة الملائكة ، و النفس الشريرة التي تقترب من الشياطين عليهم لعنة الله ، و العالم يعج بالنوعين منذ الأزل .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا {10} الشمس

2 ـ النفس الأمارة بالسوء: هي النفس التي إختارت عن طواعية و بإرادة حرة طريق الشر و الضلال ، و قصة النفس الأمارة بالسوء تبدأ من أول معصية إرتكبها الإنسان في حق الله ، تبدأ من رسوب الإنسان في أول إمتحان له ، و في وقوعه في أحابيل الشيطان الرجيم ، النفس الأمارة بالسوء هي التي تتبع خطوات الشيطان و تضرب صفحا عن تعاليم الله ، عندما خلق الله سيدنا آدم جهز له الجنة كموقع للعيش الرغد و الحياة الطيبة الجميلة و وضع تلك الجنة بكل ما فيها من خيرات و أنهار و أشجار تحت تصرفه و في خدمته ، لكنه أوصاه بعدم الإقتراب من شجرة معينة في تلك الجنة من بين ملايين الشجر ، أوصاه بعدم الإقتراب منها أو الأكل منها دون أي يكون ملزما سبحانه و تعالى بتقديم مبررا أو تفسيرا لتلك التحذيرات فيكفي أن ينهى الله أو يأمر ليكون في نهييه و أمره خير و بركة و حكمة قد نعلمها و قد تخفى علينا ، معصية سيدنا أدم و أمنا حواء هي أول مظهر من مظاهر النفس الأمارة بالسوء التي إنطلت عليها بكل سهولة وسوسات الشيطان و أحابيله ، و النفس الأمارة بالسوء تجد سهولة و رغبة في تصديق الشيطان و التحالف معه و الإنجرار في طريقه الضالة ، و لذلك وقع سيدنا آدم بسهولة في شباك الشيطان ، لأن النفس الأمارة بالسوء إنهارت و سارت دون تفكير أو تؤدة مع الشيطان الذي عرف كيف يعزف على الوتر الحساس في النفس البشرية ، و هو الخلود و الملك الذي لا يبلى ، الخلود و البقاء ، تلك الرغبة التي لازمت البشرية منذ ولادة خلـــق الله البشر

و هي نفس الرغبة و الأمل في البقاء و عدم الفناء مع الرزق الوفير الذي لا ينفذ ابدا ، التي تلازم الإنسان في كل زمان و مكان، و قد حار الفلاسفة القدامى و المعاصرين و ضلوا الطريق بمجرد محاولات التفكير في هذا الإتجاه الصعب و الخطير ، و مظاهر النفس الأمارة بالسوء تتجلى أيضا في أول جريمة يقترفها الإنسان ضد أخيه الإنسان هي جريمة قابيل ضد أخيه هابيل ، و النفس الأمارة بالسوء تكون دائما فريسة سهلة للشيطان بحكم قابليتها الطبيعية للشر و المنكر و كل الأفعال القبيحة ، فهي منذ البداية مهيأة نفسيا للسير في طريق الضلال و الشر بل قد تعمى بصيرتها لدرجة تنعكس في نظرها للألوان و الأشياء ، فتحسب الضلال هدى و الشر خير ، و الباطل حقا ، تتجلى تلك النفس ألأمارة بالسوء في أسمى صورها في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ... قصته مع إخوته و كيف حاولوا قتله ثم تراجعوا عن ذلك في لحظة إستيقاظ مؤقت للضمير فرموه في البئر للتخلص منه الى الأبد ، لمجرد أنه محبوب من طرف أبيهم و أنه يخصه بجرعة زائدة من الحنان و الحب و الإهتمام ، ربما لأنه يتيم من ناحية الأم و ربما كان أبوه النبي يعقوب عليه السلام يشعر بأن هذا الإبن الصغير سيكون له شأن عظيم في المستقبل خاصة بعدما قص عليه تلك الرؤية العجيبة حيث أدرك بحس الأب أنها ستزيد من غيرة إخوته و تجعلهم يفكرون في الكيد له و التخلص منه بأية طريقة ، و قد تأكدت توقعات النبي يعقوب فيما بعد ، حيث تحالفت النفوس الأمارة بالسوء مع الشيطان الرجيم ، فدبر إخوة يوسف حيلة لإبعاده عن المنطقة و هم يعتقدون أن وجود يوسف بينهم ينقص من منسوب الحب و العاطفة الأبوية تجاههم ، و العكس صحيح فعندما يتخلصون من يوسف سيرتفع منسوب العاطفة الأبوية تجاههم و كأن وجود يوسف بينهم قد أدى إلى هذه الحالة النفسية التي يشعرون بها و هي غير موجودة أصلا في الواقع ، بل هي مجرد وهم ، لأن العاطفة الأبوية السليمة تكون في أغلب الأحيان عادلة و تنظر الى الأبناء بنفس المنظار ، و بنفس المقدار ، كما تتمظهر النفس البشرية الأمارة بالسوء في تلك العلاقة المشينة التي أرادت إمرأة العزيز ربطها مع فتاها الذي إشتراه زوجها عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا ، و هي

لّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لّلسّائِلِينَ{7} إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ{8} اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ{9} قَالَ قَآئِلٌ مّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السّيّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{10} يوسف

و هي القصة التي يروي القرآن الكريم بعض فصولها بدقة و تركيز شديدين - - - عندما تحاول سيدة متزوجة ذات حسن و جمال تعيش في قصر من أجمل قصور العالم بين الخدم و الحشم ، في بحبوحة من العيش هي أقرب الى الحلم منها الى الواقع ، عيشة الملوك و السلاطين لا ينقصها أي شيء بمجرد أن تطلب ما تشتهيه يكون حاضرا أمامها في اللحظة و الحين ، حيث كانت السيدة زليخة من سيدات المجتمع الفرعوني في ذلك الوقت يل هي السيدة الثانية في الدولة بعد الملكة إمرأة فرعون ، و كان زوجها هو الرجل الثاني في الدولة يشغل منصبا هاما يقابل في زماننا منصب الوزير الأول أو رئيس الحكومة ، أنظر ماذا تصنع النفس الأمارة بالسوء عندما تكون فارغة من الإيمان و التقوى و لا تملك الحد الأدنى من الوازع الديني و الضمير الحي و الفطرة السليمة ، السيدة زليخة كما يذكر القرآن الكريم كانت زوجة عزيز مصر، وتقول الروايات التاريخية أن زوجها لا يقرب النساء و ليس لدية الرغبة الطبيعية نحوهن كأي رجل و المرأة المتزوجة تحتاج لتمارس حياتها الحميمية بشكل طبيعي كأي إمرأة متزوجة و الهدف الأول من الزواج عند كل الأمم الشعوب هو تلبية الرغبة الجنسية المتبادلة بين الرجل و المرأة ثم يأتي الهدف الثاني و هو إنجاب الأطفال ، و تشاء الأقدار أن يشتري زوجها عزيز مصر ذلك الغلام العبراني الذي حاول إخوته قتله بسبب الغيرة و الحسد ، و ينصحها بأن تقوم على حسن تربيته و الإهتمام برعايته ليكون لهما بمثابة الإبن الذي لم ينجباه ، فكان من المفروض و من الطبيعي أن تكون عاطفتها تجاهلك الصبي الذي ربته و هو صغيرا ، كعاطفة أية سيدة أشرفت على تربية و رعاية صبي و عاشت معه أجمل لحظات طفولته و شبابه ، و هي العاطفة الطبيعية التي لا تبتعد كثيرا عن عاطفة الأمومة ، لكن ... لكن عندما تنتكس الفطرة ، وتتغلب الغريزة الجنسية المحرومة من حقها الطبيعي في تلبية أشواق الجسد و مطالب الرغبة الطاغية ، تتحول مشاعر الأمومة الطبيعية من حنان و رحمة و شفقة ولهفة و خوف ، الى عشق ممنوع و حب مدمر ، زليخة عاشت مع يوسف و هو صبي صغير و رأته كيف يكبر و ينمو أمام عينيها و كلما إزداد في العمر سنينا إزداد جمالا فوق جماله ، فكان أجمل خلق الله ، و كلما إستيقظ في الإنسان أي إنسان جانب الشر و كشر عن أنيابه كان محركه هو الشيطان اللعين ، ولم تدرك السيدة زليخة أنها كانت على خطأ و في ضلال مبين ، رغم أن المجتمع المخملي الأوروسطوقراطي الذي كانت تعيش بين

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{23} وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ{24} يوسف

أحضانه أجمع على إستنكار هذه الجريمة و إعتبراها حالة شاذة يسنوجب دفنها في التراب الى الأبد ، و لم تفق السيدة زليخة من سكرة الحب إلا بعد فوات الأوان عندما يئست من تحقيق مرادها و تيقنت أن لقائها بيوسف مرة أخرى في نفس الظروف و الملابسات أصبح من رابع المستحيلات ، فتقرر الإعتراف بالخطأ و هي تفعل لك بغريزة الأنثى و كأنها تسدي معروفا لسيدنا يوسف و تعتذر بطريقتها الخاصة ، و كأنها تشفق على ذلك الفتى الوسيم و الرشيق و المهذب الذي قضى سنوات من عمره في السجن ظلما و عدوانا ، و دون أن يرتكب أي ذنب يعاقب عليه القانون ، بل خضع لقانون الغاب حيث القوي يأكل الضعيف ، و الزج به في السجن هو ضمن خطة لطمس معالم الجريمة التي حاولت إرتكابها السيدة الثانية في الدولة ، ومحو آثار الفضيحة التي زكمت الأنوف في مجتمع مخملي ينام و يصح على الفضائح الجنسية و الفساد المالي و الأخلاقي ، يأتي الإعتراف و هو سيد الأدلة ليؤكد للعالم كيف تتحول النفس البشريـــة عن طبيعتها عندما تتحالف مع الشيـــــطان ، كيف

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{26} وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ{27} فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ{28} يوسف

البشرية عن طبيعتها عندما تتحالف مع الشيطان ، و كيف تتراجع في النهاية عندما يحصحص الحق و لم يبق أمامها مجال للعب أو المراوغة ، قصة السيدة زليخة نموذج حي للنفس الأمارة بالسوء ، النفس البشرية عندما ترتد الى أسفل سافلين ، هذه هي أهم معالم النفس الأمارة بالسوء حسب النماذج القرآنية ، تجلت في البداية في قصة سيدنا آدم و كيد الشيطان اللعين و الشجرة المحرمة ، فكان سيدنا أدم و أمنا حواء من ضحايا النفس الأمارة بالسوء و الشيطان اللعين ، ثم قصة الأخوين قابيل وهابيل ، كيف تحالفت النفس الأمارة بالسوء مع الشيطان فأزهقت روحا بريئة و غير مذنبة سوى أن الله سبحانه و تعالى تقبل منها و لم يتقبل من الآخر ، ثم قصة سيدنا يوسف و السيدة زليخة و هي تمثل أقصى ما تصل إليه النفس الأمارة بالسوء من حالات الضلال و البعد عن الفطرة و التفكير السليم و مراعاة العرف ، ثم

(... قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ{51} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ{52} وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رحِم ربِّي إِنَّ ربِّي غفُور رحِيم{53} يوسف

هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة ، نفس الإنسان الذي يريـــد أن يفجر و يمضي

قدما في الفجور ، و الذي يكذب و يتولى و يذهب الى أهله يتمطى دون حساب لنفسه و دون لوم و لا تحرج و لا مبالاة .

3 ـ النفس المطمئنة وتأتي في الجهة المعاكسة للنفس الأمارة بالسوء ، و هي تعبر أحسن تعبير عن حالة نفسية و شعورية تسبق رحلة الإنسان الى الدار الآخرة ، بدقائق قليلة ، و الشعور بالإطمئنان يعني الثقة الزائدة في النفس ، يعني الغرور و هما أي الثقة الزائدة في النفس و الغرور صفتان مذمومتان تؤديان الى الهلاك في الدنيا و الآخرة ، فالنفس المطمئنة كما يستشف من مدلول ا لآيات الكريمة من سورة الفجر ، هي تعبير دقيق عن حالة النفس البشرية المسلمة في اللحظات الأخيرة التي تودع فيها الدنيا لتستقبل حياة البرزخ في إنتظار يوم القيامة و بداية حياة أبدية أخرى ، النص القرآني فيه خطاب ثقة و إطمئنان موجه من الله سبحانه و تعالى الى النفس المسلمة يبشرها بالرضى المزدوج ، رضى الله و رضى النفس و الدخول الى جنة الرضوان ، و يظهر لي أن النفس المطمئنة هي ذاتها النفس اللوامة الحائرة الحساسة التي تلوم صاحبها صباح مساء عن كل كبيرة و صغيرة و لا تستصغر الذنوب مهما صغرت و تندم بسرعة على كل ما فاتها قل او كثر ، النفس اللوامة و هي في اللحظات الأخيرة من عمرها على الأرض و في الحياة الدنيا ، تأتيها رسالة علوية تطمئنها و تبشرها برضى الله عنها فتشعر بدورها بالرضى و الإطمئنان على حسن الخاتمة و على الثبات و التثبيت بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة ، و بتلك العبارات الراقية و الكلمات الحانية و الألفاظ الجميلة يطلبها الله سبحانه و تعالى بعبارة أرق من النسيم و أطيب من العسل و ألذ من التمر، فيخاطبها بصفة مباشرة بأن تعود الى الله الى ربها راضية عن نفسها و عن خاتمتها و عن ما قدمت في حياتها مرضية و مقبولة ، مرحب بها مع عباد الله الصالحين في جنة النعيم ، و دليلنا على أن المقصود بالنفس المطمئنة هو النفس البشرية في حالة الإحتضار أو الإستعداد لمغادرة الحياة الدنيا ، يمكن أن يتخذ بعدين أساسيين ، الأول أن القول بوجود نفس مطمئنة هادئة راضية مرضية ضامنة لرضى الله و مطمئنة على مستقبلها في الحياة الدنيا قول لا يقبله العقل السليم و المنطق الصحيح ، بإستثناء الأنبياء و الرسل و أولياء الله الصالحين و الصحابة العشرة الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة ، فمهما عمل الإنسان المسلم من خير و مهما إلتزم بأداء الشعائر و الواجبات و السنن فهو في حاجة الى رحمة اله و عفوه و كرمه ، البعد الثاني نستشفه من قوله تعالى و هو يخاطب النفس المطمئنة **(إرجعي الى ربك)** بمعنى أنه يخاطبها و هي في اللحظات الأخيرة من عمرها على وجه الأرض ، فما أقساها من لحظات عسيرة و صعبة على كل نفس بشرية ... لحظات الإحتضار

التي يسميها القرآن الكريم سكرات الموت ، و مصيبة الموت ، و الموت هو في الحقيقة احد الأسرار الكونية الهائلة التي لم و لن يتم فك شفرتها من طرف البشر رغم المجهودات العلمية الهائلة التي تكبدتها البشرية منذ العصور الأولى من أجل الوصول الى حقيقته ، و الموت حق وواجب ، و مصيبة ، يشكل لحظة فاصلة بين حياتين بين الحياة الدنيا و الحياة الأخرى ، تعقبها فترة فاصله بينهما هي البرزخ ، في هذه اللحظات التي تتهيأ فيها الروح و النفس لمغادرة الجسد إيذانا بإنتهاء عمر الإنسان في الأرض ، تأتي نسائم الرحمة و تباشير السلام و المبشرات بالخير من الرحمن الرحيم عبر ملائكته الكرام ، في هذه اللحظات الحاسمة من عمر الإنسان و هو في سكرات الموت يجود بآخر أنفاسه ، و هو يستعد لمغادرة الدنيا بكل ما فيها من أموال و جمال و زوجات و أولاد ، تأتي البشرى عن طريق الملائكة الكرام ، تبشر النفس المؤمنة بالخير و الفلاح في دار البقاء و توعدها بجنة الرضوان ، و النفس المطمئنة بطبيعة الحال ليست هي كل نفس و لو كانت مسلمة ، بلى ، النفس المطمئنة لها مواصفات و شروط و مقومات و مظاهر ذكرت في القرآن الكريم كسبب مباشر إستدعى نزول الملائكة الى الأرض ، و حضور لحظات إحتضار النفس المؤمنة و تبشيرها بأن لا تخاف و لا تحزن و تطمئنها على موقعها في الجنة ، و من أهم شروط الحصول على هذه الميزة و هذا التميز و الظفر بتلك المكانة العلية و الدرجة الممتازة عند الله سبحانه و تعالى هي توحيد الله سبحانه و تعالى توحيدا خالصا ، و الإيمان الصادق بالملائكة و الأنبياء و الكتب و اليوم الآخر و القضاء و القدر ، هذه العناصر الستة للإيمان هي الميثاق الذي بين الله و عبده ، ثم الإستقامة و معناها بكل بساطة هو الإلتزام بتجسيد حقيقة التوحيد في الأرض و على الواقع و لا يبقى مجرد أفكار و مشاعر تتجول في النفس و داخل الجسم و ليس بينها و بين الواقع اية علاقة ، و التوحيد الخالص هو تجسيد معنى لا إله إلا الله على الأرض ، و الإستقامة على النهج الصحيح ، القيام بكل الواجبات و تأدية الشعائر الدينية بكل صبر و محبة و في كل الظروف و الأحوال ، لكي تصل النفس البشرية الى مقام النفس المطمئنة هنالك طريق طويل و تضحيات جسام و ضريبة و تكالبف باهظة قد تدفعها للوصول الى تلك المرتبة التي تقترب من مرتبة الأنبياء و المرسلين و الصالحين ، و يا لها من مرتبة شريفة و مقام كريم ، و لك أن تتخيل عزيزي القارىء و أنت في حالة توديع الدنيا بكل جلالها و جمالها و الناس حولك يبكون ، تقترب منك الملائكة و ترفرف بأجنحتها حولك و تحيطك بجلالها و جمالها و و تزف اليك البشرى و توصيك بعدم الخوف أو الحزن و تبشرك بالجنة الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين ... الجنة و دار الخلود التي يتمناها كل

مسلم ، إنها من دون شك أجمل اللحظات في عمر الإنسان المسلم ، و أي إنسان مسلم هذا الذي يحظى في حياته بهذا التكريم الرباني و التبشير الملائكي بعدم الحزن لمغادرة الدنيا ، و مفارقة الزوجة و الأولاد و الأهل و الأقارب و ،الأرض التي ولدت فيها و عدم الخوف من الموت و أهوالها ، وحشة القبر وحدته ، ظلمته ، عذاب القبر ، السؤال ، منكر و نكير .

{إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }فصلت30

{وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ }ق19

4 ـ النفس اللوامة : النفس هنا بمعنى الضمير الحي ، اليقظ ، أو النفس الحية المتقدة ، هي النفس التقية ، النقية ، النظيفة ، الطاهرة ، الجميلة ، الشفافة ، اليقظة ، المتيقظة ، هي النفس المتحفزة التي لا تغفل كثيرا و إن غفلت لا تلبث أن تستفيق ، هي النفس التي لا تأمر صاحبها بالسوء و لا تشجعه على الشر ، و إن أخطأت لأسباب قاهرة و عوامل ضاغطة و تحت ظروف غير طبيعية ، لا تركن كثيرا الى ذلك الموقع غير الطبيعي و غير المناسب لها فتسارع بالعودة الى الطريق الصحيح ، النفس اللوامة هي تلك النفس اليقظة الشفافة القلقة المضطربة الحساسة التي تلوم صاحبها صباح مساء على ما فرط في جنب الله ، و اللوم هو العتاب الشديد مع الندم و البكاء و العزم على التغيير و عدم البقاء في مواقع الشر و الباطل ، النفس البشرية هي النفس البشرية و قد يجتمع في جسم الإنسان كل أنواع النفس ، الملهمة و الأمارة بالسوء و اللوامة ، و الصراع يحدث دائما بين النفس الأمارة بالسوء و النفس اللوامة ، فالأولى تمثل جانب الشر المركوز في جسم الإنسان عندما تموت الفطرة و ينخفض مستوى تدخل الضمير الحي ، فيصبح هو الآخر لاشيء و كأنه ميتا ، فالنفس الأمارة بالسوء تخضع دائما لأوامر و تعليمات و إيعازات الشيطان الذي يجري في جسم الإنسان مجرى الدم في العروق و هو دائما مرافقا له في حركاته و سكاناته ، اما النفس اللوامة فتأتي في اتجاه المعاكس و هي بمثابة الرقيب الذي يشرف على مراقبة تصرفاتها و يقوم بتحليلها و تصفيتها فإن كانت في الإتجاه السليم يوافق عليها و إن كانت في الإتجاه الخطأ ، يقوم بتشغيل آلة اللوم و العتاب ، فيستيقظ الضمير الحي و يقوم بعملية الوخز و التأنيب و هي عملية نفسية مؤلمة شديدة الإيلام و عسيرة جدا على النفس و الروح و الجسم معا ، و لكن نتائجها سريعة و فعالة و جد إيجابية ، و النفس اللوامة نتاج الفطرة السليمة و العقل الواعي و الروح الشفافة و القلب العامر بالحب لله و الخوف من الله ، و الشوق لرؤيته و التطلع لرحمته ، نفس يقظة قلقة غير مطمئنة تشتغل

في كل وقت و كل حين و لا تتوقف عن العمل في أية لحظة مهما كانت الظروف و الملابسات ، و توقف النفس اللوامة عن العمل لحظة لا يعني سوى أنها غفلت الى حين فما تلبث أن تستيقظ و تعود الى عملها ، كمراقب عام على النفس البشرية ، و موقع النفس اللوامة و مكانتها عند الله هو كمكانة النفس المطمئنة أو أكثر فهي الحارس الأمين الضامن لعدم الإنزلاق و الوقوع في الخطأ ، فهي تقوم بنشاط قبلي أحيانا و بعدي أحيانا أخرى ، فبالنسبة للعمل القبلي فهي تضع الإنسان في حالة إرتباك ، و تردد مشوب بالخوف و الرعب أحيانا ، فيتحول الى كومة من القلق و الإضطراب بمجرد أنه يفكر في عمل لا ترضى به النفس البشرية السوية الطبيعية ، و في هذه الحالة تشكل النفس اللوامة جهاز فرملة الإنسان و منعه من المضي في طريق المعصية ، و النشاط البعدي و هو أكثر إيلاما للنفس و الجسم و الروح لأنه يورث الندم ، و الندم الشديد حالة نفسية صعبة قد تؤدي بصاحبها الى الهلاك لولا أن تتداركه رحمة الله ، النفس البشرية السوية و حتى في حالة الوقوع في الخطأ و العصيان تدرك ان رحمة الله قريب من المحسنين و أن الله يغفر الذنوب جميعا ، ويقبل التوبة عن عباده ، و هو أشد فرحا بتوبة عبده من صاحب الدابة التي وجدها بعد طول عناء و بحث ، النفس اللوامة حبيبة الى لله كريمة و محبوبة و تحظى بمكانة عالية عنده سبحانه و تعالى ، لأنها تصنع التوازن المطلوب في الحياة و تخضع تصرفات الإنسان لمراقبة و تنظيم و محاسبة قبلية و بعدية ، و هي التي تمثل الجانب الإيجابي في الإنسان و الضمير الحي الذي ينتفض كلما أحس بمجرد تفكير الإنسان في معصية الله ، و قد بلغ من قوة و مكانة النفس اللوامة عند الله أن أقسم بها مقرونة بيوم القيامة ، ذلك اليوم العظيم الذي تتغير قبله معالم الحياة و الكون ، اليوم الفاصل بين الحياة الدنيا و الآخرة ، و النفس اللوامة كذلك تأتي في مرتبة مقابلة و معاكسة للنفس الأمارة بالسوء التي تمثل الضمير الميت ، و النفس المستهترة التي لا تعني لها القيم و المبادىء و المثل شيئا ، هي نفس تعيش ليومها بل لساعتها و أحيانا تعيش فقط للحظات ، هي نفس غارقة في الملذات الحلال و الحرام تجري و تلهث وراء كل المتع الرخيصة لا يهمها أن تسأل مجرد سؤال عن الحلال و الحرام و يمثل هذا النوع من البشر أغلبية سكان العالم من الكفار و المشركين و الملحدين ، و جزءا كبير من العالم الذي يسمى على الورق إسلامي و أهله مسلمون ، بينما تمثل النفس اللوامة القلة القليلة من البشر ، يمكن أن نسميهم عباد الله المخلصين ، أولياء الله ، أحباب الله ، ووجود هذه النفس في جسم الإنسان هو الضمانة الوحيدة لبقاء الخير على وجه الأرض ، و لهذه المقام العالي للنفس اللوامة عند الله ، أقسم بها مقرونة بيوم القيامة أعظم أيام الله .

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ{1} وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{2} القيامة

ـ وظائف الإنسان في الحياة

لم يخلق الله الإنسان هكذا عبثا و لمجرد الخلق ، و قد عرفنا في قصة خلق الإنسان كيف أحتجت الملائكة بلطف و أدب و عبرت عن تحفظها من خلق هذا المخلوق الجديد الذي يسمى في الخطاب القرآني بشرا و إنسانا و بني آدم ، و خلق الإنسان و تكريمه و تفضيله على بقية خلق الله ، و تزويده بأجهزة و آليات و إمكانيات لم تتوفر لبقية المخلوقات ، كالعقل و نعمتى التفكير و التحليل ، و الذاكرة و آلية التسجيل و الإستحضار ، و الإرادة الحرة ، و القابلية للخير و الشر ، و فضله على كثير من خلقه باللباس و الستر حيا و ميتا ، و مخلوق يهذا الزخم و الضخامة المعنوية و الإهتمام الذي سبق مجيئه الى الأرض ، و تكريمه من الله و سجود الملائكة له و تعليمه الأسماء كلها ، لا يمكن أن يكون وجوده في الأرض وجودا رمزيا عبثيا لا أثر له ، و لابد أن يكون لهذا المخلوق الكريم على الله و المحبوب إليه الذي خلقه على أحسن ما يكون الخلق و صورة فأحسن صوره حتى أصيح هو أجمل مخلوق على وجه الأرض ، ذكر أو أنثى دور مهم في الجياة ... دور واضح و هدف محدد فطبيعة تركيبة الإنسان جسديا و نفسيا ، و تزويده بمؤهلات نادرة و متميزة و غير متوفرة عند بقية المخلوقات توحي بأن هذا المخلوق القادم الى الأرض في صورته النهائية التي لا تشبه غيره من المخلوقات و في شكله الجميل المثير ، تشير الى طبيعة وظائفه في الأرض و أهمها في تقديرنا ست وظائف رئيسية هي ، الخلافة ، العلم ، العبادة ، إعمار الأرض ، التعارف و التعاون ، الأمانة .

ـ الخلافة: الخلافة هي ممارسة الحكم و أدارة أمور الدولة و تنظيم شؤونها و تسيير الحياة و الحكم بين الناس ، و فك النزاعات و توفير أسباب العيش و تحقيق الحد الأدنى من المساواة و العدالة الإجتماعية بين الناس من جهة ، و بين الناس و الدولة أو موظفي الدولة ، و الحيلولة دون تكون طبقات إجتماعية متباينة ماديا و فكريا ، و المحافظة على التجانس و السلم الإجتماعيين ، و القيام بهذه المهمة تتطلب رجال بمكونات علمية و نفسية و مادية خاصة ، صحيح أن الله خلق البشر متشابهين في الصورة و الشكل ، و أهم الخصائص البشرية ، لكن لحكمة يعلمها سبحانه و تعالى زود طوائف من البشر بمواهب فكرية و قدرات عقلية ، و نوعا من الكاريزما و حتى القدرات البدنية و النفسية غير متوفرة عند بقية البشر ، و الخلافة هي أول مهمة كلف الله بها الإنسان و أعلن عنها قبل مجيئه الى الجنة الخلافة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان و مفاهيم ، هي الوظيفة الأولى للإنسان على وجه الأرض و الخطاب القرآني يتحدث عن هذه المهمة بشكل مباشر و كأنها الوظيفة ألأولى و النهائية و الحصرية للإنسان على وجه الأرض حيث قال ﷻ

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .... }البقرة30

موجها كلمه للملائكة الكرام على سبيل الإعلام و التذكير و مجرد وضعهم في الصورة . و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ـ الأرض بكل ما فيها من مكونات الحياة من جبال و بحار و عيون و جنات ، لا ينبغي أن تبقى هكذا من دون مخلوقات يقومون عليها و ينظمون الحياه و يسوسون البشر ، و قد ترددت كلمة خلافة و خلفاء و خلائف في القرآن الكريم في أكثر من مناسبة ، مما يعطي الإنطباع على أهمية هذه الوظيفة و على الدور المنوط بالإنسان على وجه الأرض ، و الخلافة كما قلنا هي نوع من الحكم و إدارة الدولة ، تأتي في سياق الوفاء بالعهد و الميثاق الذي قطعه أجدادنا مع الله من خلال شهادتهم بوحدانية الله التي هي في الحقيقية من أولى مظاهر تطبيق الخلافة و الحاكمية في الأرض ، و لما كانت الخلافة هي المهمة الأولى التي كلف بها البشر ، كان الأنبياء و الرسل هم أكرم

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172

البشر الذين تحملوا أعباء هذه المهمة بوفاء و إخلاص و صبر و معاناة ، ولاقوا في سبيل ذلك كل المصاعب و المتاعب ، فلم تكن المهمة سهلة و بسيطة على أي حال ، و هناك عدد قليل من الأنبياء الذين جمعوا بين النبوة و الملك منهم سيدنا إبراهيم وعدد من إبنائه و أحفاده ، حيث آتاهم الله الكتاب و هو الصحف ، و الحكمة و هي التحكم الجيد و المدروس في شؤون النفس و الحياة و التسيير الجيد و المواقف المعتدلة ، و الملك العظيم ، و قد إمتد ملك آل إبراهيم الى سيدنا يوسف عليه السلام فهو الكريم بن الكريم بن الكريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ

{ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا } النساء54

و الملك مرتبط إرتباطا عضويا بالخلافة و الحكم بما أنزل الله ، و في سورة ص ، أمر مباشر من الله سبحانه و تعالى الى سيدنا داوود يعلن فيه تعيينه خليفة في الأرض ، و يأمره بأن يحكم بين الناس بالحق ، و لا يتبع أحكام النفس و أهوائها

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } ص26

وردت كلمة خليفة مرتين فقط في القرآن الكريم ، في سورة البقرة الأية ٣٠ و في سورة ص الآية ٢٦ ـ أما كلمة خلائف فقد وردت أربع مرات و يكون الجمع خلفاء و يصح خلائف ، و تنتقل الخلافة بالضرورة من الإنبياء الى البشر ، و الخلافة

{وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }الأعراف74

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }الأعراف69

{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ }النمل62

{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } يونس14

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }الأنعام165

كما ذكرنا سابقا ، هي شكل من أشكال الحكم في الإسلام ، لم تعرفه البشرية من قبل ، و الرسول ﷺ كان نبيا مرسلا و خليفة و حاكما و مؤسسا لدولة ، و الإسلام بطبيعته دين و دولة و عقيدة و شريعة ، و الآيات التي تشير الى هذه الحقيقة لا تعد و لا تحصى .

{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً }النساء65

{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } المائدة48

ـ العـــلم :

لما كانت وظيفة الإنسان الأولى على وجه الأرض هي الخلافة ، و هي المهمة التي كلف بها الصفوة الممتازة و المختارة من البشر ، و بشر بها الملائكة قبل أن يولد هذا المخلوق ، و هي وظيفة هائلة و خطيرة ، و مهمة كبيرة صعبة و ليست مستحيلة ، لا يقدر على تحمل تبعاتها في الدنيا و الأخرة إلا عباد الله المتقين ، و لا يصبر على مغرياتها و متاعبها الا عباد الله الصالحين، هذه الوظيفة التي تتمثل في سياسة الدين و الدنيا كما يقول الكتاب القدامى ، أي تسيير شؤون الدنيا و الحفاظ على الدين ، و بالرغم من أن هذا المخلوق الذي كلف بآداء هذه المهمة قد زوده خالقه الله سبحانه و تعالى بكل متطلبات النجاح في هذه المهمة الصعبة سواء من الناحية المادية أي الجسمية أو المعنوية أي النفسية كصفات و مؤهلات فطرية ، لكن ضمان القيام بتلك المسؤولية الثقيلة يتطلب إمكانيات أخرى يكتسبها الإنسان بنفسه و أول هذه المتطلبات هو العلم و المعرفة ، و العلم في التصور الإسلامي هو شأن آخر ، و قضية مغايرة تماما للتصورات الوضعية القديمة و الحديثة للعلم و المعرفة ، العلم في التصور الإسلامي هو ما تحدده بالتفصيل سورة العلق ، و لذلك يمكن القول أن أول مهمة كلف بها الإنسان في حقيقة الأمر هي طلب العلم . و العلم بمفهومه العام هو الحصول على المعرفة الدقيقة في تخصص من التخصصات أو عدة تخصصات ، هو التحكم في جانب من جوانب العلم و المعرفة و إستغلال تلك المعرفة الدقيقة للسيطرة على الكون ، أرض و سماء ، جبال و بحار ، غابات و سهول و إستغلاله و إستخراج كنوزه و الإستفادة منها في بناء الحياة و الحضارة ، العلم في التصور الإسلامي هو الذي ينطلق من بسم الله و ينتهي عند بسم الله ، المنطلق هو الله و المنتهى هو الله ، و سورة العلق توضح كما قلنا بشكل جلي و عميق طبيعة العلم و المعرفة في المنظور الإسلامي ، و ليس غريبا و لا عجيبا أن تكون أول آية من القرآن الكريم ، نزلت على سيدنا محمد ﷺ تتعلق بالقراءة ، بطلب العلم و المعرفة ، و ليس بالتوحيد أو العبادة ، أو الزواج ، لم تكن تتعلق تلك الآية الكريمة بقضية العقيدة و لا بموضوع العبادة ولا بمسألة المعاملات ، كانت فقط بمثابة أمر للرسول ﷺ و أتباعه من المسلمين المؤمنين بالقراءة ، بطلب العلم و المعرفة ، لكن أية قراءة و أي علم و أية معرفة ؟ عندما نقوم بطواف عابر في سورة العلق تتضح أمامنا الصورة بشكل جيد و نتعرف على طبيعة و خصائص العلم الإسلامي و على نظرة الإسلام الى العلم و المعرفة ، و هي بطبيعة الحال تختلف الى درجة التناقض مع تصورات الأديان المحرفة ـ اليهودية و النصرانية ـ و المرجعيات الوثنية اليونانية و الرومانية و الفارسية و الهندية و الصينية و الغربية الحديثة ، و الغايـــة الأساسية

من العلم و المعرفة هي الوصول الى الحقيقة الكبرى في الحياة و الكون و هي الله ، الوصول الى اليقين العلمي بوجود الله خالق الكون المحي المميت ، و قد لا يصل الإنسان الى هذه الحقيقة كاملة بجهوده الفكرية و العقلية و أبحاثه و تآملاته و لكنه قد يحوم حولها و يدرك بعضا من أطرافها ، و هو ما حدث بالنسبة لعدد من الفلاسفة الإغريق الذين إقتربوا نوعا ما من جوهر التوحيد ، لكنهم لم يصلوا الى حقيقته ، لأن معرفة الله حق المعرفة تتطلب الوحي و العلم الإلهي و النور الرباني ، الذي ينير طريق السالكين و يضيء المسارات و السبل و الأنفاق المظلمة ، و الآيات الكريمة لتي تتحدث عن العلم كثيرة و متنوعة ، تؤشر الى قيمته و مكانته عند الله ، و سنتعرض إليها بعد ما نتجول قليلا في سورة العلق التي وردت فيها أول آية من القرآن الكريم نزلت على سيدنا محمد ﷺ و هو في غار حراء ، و في هذه الآيات

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}

الخمس الكريمة و هي أول ما نزل من القرآن الكريم بإجماع نخبة الأمة ، تتضح لنا بداية حقيقة التصور الإسلامي للعلم و المعرفة ، فهذه الآيات الكريمات تقرر أول ما تقرر و في حسم ظاهر و دون تردد ، أن العلم و المعرفة و وسيلتهما الطبيعية و المبدئية الأولى هي القراءة ، يجب أن تنطلق من الله و تنتهي عنده سبحانه و تعالى ، و كل علم لا يراعي هذه الحقيقة في منطلقاته و أهدافه فهو علم باطل و تافه ، كالذي قال به دروين و فرويد و غيرهم من فلاسفة عصر التنوير من خزعبلات ، فالأية تحتوي على أمر بالقراءة ، أمر للرسول ﷺ و أتباعه من المؤمنين ، للقراءة بإسم الله بإسم الرب الواحد الأحد ، و إرتباط القراءة بالله بالرب الخالق إشارة أولية و لفت نظر الإنسان الى الحقيقة الكبرى في الوجود كله وهي الله سبحانه و تعالى و جل جلاله ، من خلال الإشارة العابرة الى صفة من أجمل و أعظم صفات الله و هي الخلق ، فالله هو الخالق و لا أحد من البشر يستطيع أن يخلق ذبابة ، وصفة الخلق صفة عظيمة و جليلة توحي بالرهبة و الجلال و الجمال ، فمن يخلق هو الذي يملكك و هو الذي يصنعك و يصوغك و يصممك كيف ما يشاء ، و الذي يميتك فيسترد أمانته ، ثم تأتي إشارة علمية أولية خفيفة و سريعة لجزئية من جزئيات خلق البشر و هي العلق بالجمع ... و العلقة هي كتلة من دم أو الدم الجامد ، تأتي كمرحة ثانية في مشوار خلق الإنسان الذي يبدأ كما هو في الخطاب القرآني من إلتقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة ، فتتكون العلقة ثم تصبح مضغة و هي تشبه لقمة من الطعام ممضوغة ، ثم يتكون الإنسان في صورته النهائية الجميلة سواء أكان رجل أو إمرأة فهو في النهاية إنسان كريم عند الله مهما كانت عقيدته

إقرأ يا أيها الإنسان ، و ضع نصب عينيك ، و ضمن إهتماماتك الأولى و أولوياتك ، أن الله أكرمك بمجرد أن خلقك على تلك الصورة ، و بتلك الأعضاء التي ستؤدي وظيفتها بشكل طبيعي و تلقائي و فطري ، و لا تحتاج منك لأي توجيه ، ستؤدي وظيفتها متى وصلت الى وقتها المناسب و المحدد ، فاللسان سينطق بمجرد ما يخرج الولد من بطن أمه ، و سينطق عندما يجوع و عندما يعطش و عندما يشعر بالألم أو بالبرد أو بالحرارة ، و بكاء الصبي هو نوع من الكلام بالعينين و اللسان و الشفتين ، وفي السورة إشارة لطيفة الى الوسيلة الأولى التي إكتشفها الإنسان في العصور الغابرة و إستعملها في الكتابة و تدوين العلوم و المعارف ، و للقلم عند الله شأن عظيم و إن كان عرب الجاهلية الذين نزل القرآن في زمانهم لم يعرفوا معنى هذه الكلمة ، لكن عصر التدوين الذي بدأ في حياة الرسول ﷺ بكتابة القرآن الكريم قد يكون هو عصر إكتشاف القلم على الأقل بالنسبة للمسلمين ، و القلم هو الوسيلة الأولى لتحصيل العلم و المعرفة ، و من خلال الكتابة يستطيع العالم أن ينشر علمه و أفكاره و أرائه على أكبر عدد ممكن من الناس ، و من دون القلم يبقى العلم محصورا في دائرة ضيقة و لا يستفيد منه جميع الناس ، و لذلك نجد في القرآن الكريم سورة بكاملها تسمى سورة القلم ، تفتتح بالقسم بالقلم و تؤكد على وظيفة القلم و هي الكتابة و التدوين و التسجيل ، للعلوم و المعارف و الأفكار و الأحداث و الوقائع هي سورة القلم ، و كما يقول العلماء فإن الله سبحانه و تعالى عندما يقسم بمخلوقاته فذلك دليل حي على التكريم و المحبة و التبجيل ، و منذ إكتشاف القلم

{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ }

بأشكاله البدائية القديمة ، إلى العصر الحديث حيث نفننت المصانع و تنافست في صناعة أنواع مختلفة من الأقلام ، أقلام الرصاص ثم الأقلام الجافة ، و الريشة و أقلام الحبر ، و هناك أنواع راقية و خرافية من الأقلام تصنع خصيصا للملوك و الأمراء ، و رغم التطور الهائل الذي حصل في السنوات الأخيرة ، لا تزال البشرية في حاجة الى القلم للكتابة و التسجيل ، و رغم وجود الكومبيوتر بمختلف اشكاله و أحجامه ، لا تزال مختلف المؤسسات الإدارية والتجارية تستعمل القلم سواء في الجزائر أو حتى في أرقى دول العالم ، و القلم هو الوسيلة الوحيدة التي يوقع بها رؤساء الدول و الحكومات و المدراء العامون للشركات و أصحاب المصانع ، المراسيم و القرارات و مختلف الوثائق و المستندات الرسمية ، و من خلال القلـــم

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}

و هو أبسط و أهم وسيلة لتدوين العلم و اكتسابه ، لكن من أين يأتي العلم ؟ العلم في الإسلام ، و كل العلوم و المعارف الصحيحة و الدقيقة و النافعة و المفيدة ربانية المصدر تبدأ بإسم الله و تنتهي باسم الله ، العلم في الإسلام هو كل معرفة تحمل خلفية إسلامية فطرية أو مكتسبة ، و ليست العلوم الإسلامية هي ما يسمى بالعلوم الشرعية أو علوم الدين ، كما يعتقد بعض الناس من النخبة و العامة عن حسن نية ، صحيح هي جزء من العلوم الإسلامية تتصل بالجانب الشرعي الديني عامة أوتخصص في فرع من علوم الدين ، و إنما العلوم الإسلامية فهي تشمل كل العلوم النافعة و المفيدة التي عرفتها البشرية في القديم و الحديث التي تنطلق من خلفية إسلامية صحيحة و متفق عليها ، و تنتهي الى غاية إسلامية ربانية مباركة فلا يكفي مثلا أن ندرس علوم الدين و هي بطبيعتها علوم إسلامية تنطلق من خلفية إسلامية ، في الوقت الذي يتم تدريس الأدب أو علوم الإدارة أو القانون و العلوم السياسية و الطب و الصيدلة و الإقتصاد و العلوم العسكرية و غيرها من العلوم القديمة و الحديثة النافعة و المفيدة من منطلق و مرجعيات و فلسفات وضعية علمانية أوثنية أو مسيحية أو يهودية محرفة ، لكن يجب أن يتم تدريس كل العلوم الأخرى من منطلق إسلامي و من خلفية إسلامية ، و حيث أن مسيرة العلم و المعرفة قد توقفت لدى المسلمين تقريبا بعد القرن السادس عشر الميلادي الذي مهد في نفس الوقت لما يسمى بعصر التنوير ثم الثورة الصناعية التي غيرت وجه العالم و بلغت به درجة كبيرة من التقدم ، و هو نفس العصر الذي توقف فيه العقل المسلم عن التفكير و الإبداع و الإختراع في كل الميادين ، عصر الحواشي و الشروحات على الحواشي في النحو و الصرف و العقيدة و الفقه و غيرها من العلوم ، مع العلم أن النهضة الغربية و بشهادة المنصفين من الفلاسفة و المفكرين الغربين قد بنيت فوق الأساسات التي وضعها العلماء العرب العباقرة الكبار في العلم التجريبي و في الطب و الهندسة و الفلك و علم الإجتماع و الإقتصاد ، و لما كان الغرب قد إبتعد عنا بمسافات ضوئية ، فلم يبق للمسلمين سوى تكييف العلوم و التكنولوجيا مع المرجعية الإسلامية و الإستفادة منها في مقابل تصدير العقيدة الصحيحة و دعوة الغرب الى الإسلام بالحكمة و الموعظة الحسنة ، و قد قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي المتواجد بأمريكا ، و مراكز أخرى بالإضافة الى جهود فردية ، بعمل جيد فيما يتعلق بقضية أسلمة العلوم و المعارف ، و يبقى على الدول و الحكومات التي تنتمي تاريخيا و جغرافيا الى ما يسمى بالعالم الإسلامي أن تتبنى مناهج و برامج إسلامية في مختلف أطوار التعليم و التكوين من التحضيري الى الجامعي ، فليس يعقل مثلاً أن يدرس أبناءنا الإقتصاد الرأسمالي و الإشتراكي و لا يدرسون الإقتصاد الإسلامي ، و كذلك التربية و علم النفس و الأدب و الصحافة

و الطب و الهندسة و العلوم الإدارية ، حيث لا يخفى على الخاص و العام أن هذه العلوم الحديثة التي نشات و ترعرعت في الغرب ـ بلاد الكفر ـ هي علوم مبنية على خلفية إما وثنية ترجع بجذورها الى الاساطير اليونانية أو الرومانية الوثنية ، و هو الغالب و الأعم ، أو أنها تتكىء على التراث اليهودي و المسيحي المحرف ، و في الخطاب القرآني إحتفاء كبير و إهتمام ملفت للإنتباه بالعلم و العلماء ، و قد أفرد الإسلام للعلم و العلماء مكانة مرموقة و موقعا حسنا بإعتبارهم ورثة الأنبياء لدرجة أنه رتب العلم بالله و هو ما يسمى بالعقائد و علم الكلام كشرط لصحة عقيدة المسلم المتعلم ، و لذلك يرى كثير من العلماء أن إيمان المقلد الذي يعرف القراءة و يمكنه الإطلاع و البحث في كتب العقيدة ، هو إيمان فاسد و ناقص ، و إستثنوا إيمان الأميين من و هو ما يسمى بإيمان العجائز ، حيث تحل النية الحسنة محل الإدراك و الوعي ، و المعرفة ، و كما عرفنا فإن أول آية نزلت من القرآن الكريم فيها أمر بالقراءة ، و لذلك يسمى المسلمون بأمة إقرأ ، و في الخطاب القرآني الكثير من الآيات التي تناولت موضوع العلم و العلماء ، و رجل العلم في الإسلام ليس كما يظن الكثير من الناس هو إمام المسجد أو شيخ الزاوية حافظ القرآن الكريم و ملم بمبادىء العلوم الشرعية ، أو على الأكثر الأستاذ المتخصص في العلوم الشرعية ، العلم في الإسلام لا يقتصر على ما يسمى بالعلوم الشرعية فقط و لكن يجمع كل العلوم و المعارف تحت ظلاله ، و قد يسميهم القرآن الكريم أهل الذكر ، و عندما يقول سبحانه و تعالى في كتابه العزيز **(فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)** فهو بطبيعة الحال لا يقصد بأهل الذكر تلك الجماعات التي تسمى بالصوفية أو كل فرد أو جماعة عرف عنه الإكثار من ذكر الله ، أهل الذكر في هذه الآية يقصد به العلماء المذكورين في تاريخ العلم و المعرفة أو الذين يذكرهم الناس بآرائهم و أفكارهم و مواقفهم ، و أهل الذكر ليسوا فقط رجال الدين ، و لكن كل المتخصصين في مختلف العلوم و المعارف ، وكما يحتاج المرء غير المتعلم لفتوى أو رأي أو نصيحة من رجل الدين ، يحتاج الى رأي الطبيب لتشخيص حالته الصحية ، و يحتاج لمهندس البناء ليخطط له مشروع مسكنه و يحتاج لخبير الحسابات لينجز له خبرة محاسبة ، و الى النجار و الحداد ، و العلم هو أيضا التفكر و التأمل ، و التدبر في آيات الله المكتوبة و في الكون الفسيح ، و في مخلوقات الله .

{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ } محمد19

{... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } الزمر9

ـ فلسفة العبادة في التصور الإسلامي

العبادة هي الوظيفة الثالثة للإنسان على وجه الأرض ، بعد وظيفتي الخلافة و العلم و ترتيب الوظائف ربما يصبح غير مهم لأن تلك الوظائف قد يمارسها الإنسان في دفعة واحدة ، و بعض الوظائف تحتاج الى تكوين و تدريب ، ، فقد تكون وظيفة العلم هي الأولى بدل الخلافة لأنها هي الوظيفة التي تسمح للإنسان بممارسة وظيفة الخلافة ، و هي وظيفة هائلة و خطيرة و مهمة تحتاج كما ذكرنا سابقا الى مؤهلات علمية و نفسية و جسمية و مواهب فطرية ومكتسبة لأنها تعلق بسياسة و رعاية البشر وفق نظام خاص ، و رغم اني رتبت وظيفة الخلافة في المرتبة الأولى قبل وظيفة العلم ، إحتراما للآية الكريمة التي تضمنت حوارا بين الله و الملائكة حول وظيفة الزائر الجديد الى الأرض ، لكنني في قرارة نفسي مقتنع ان العلم هو الوظيفة الأولى و المهمة الأساسية للإنسان على وجه الأرض ، ثم تأتي في المرتبة الثالثة وظيفة العبادة ، و العبادة ... عبادة الله الواحد الأحد الرحمن الرحيم كانت ضمن جدول أعمال و أجندة كل الأنبياء و الرسل ، و كانت هي المهمة الرئيسية التي كلفوا بها ، لإعادة الناس الى جوهر التوحيد الخالص و الى عبادة الله الواحد الأحد و نبذ الشرك و التخلي عن عبادة الأشياء من دون الله ، سواء أكانت تلك الأشياء حيوانات ، أو أفلاك ، أو أصنام كما هو الشأن بالنسبة لعرب الجاهلية ، و توحيد العبادة كما رأينا في المحور المتعلق بهذا الموضوع قضية في غاية الخطورة و الأهمية ، وهي في الإسلام قضية ذات شأن عظيم ، يسخر لها الله سبحانه و تعالى ثلاثة عشر سنة من عمر الوحي ، و معظم القرآن المكي ، حتى يحسم هذه القضية لصالحه بشكل نهائي ، و لذلك و جدت لها موقعا كبيرا و هاما في الخطاب الإسلامي حيث يمكن تصنيفها كقضية أولى و أولوية الأولويات ، لأن قضية وجود الله هي قضية متفق عليها مبدئيا بين جميع الأجناس و في كل زمان و مكان ، و مفروغ منها ، حيث أن الإنسان و منذ بدء الخليقة أدرك بفطرته و بعقله و بما بلغه من الوحي الذي أنزله الله على أنبيائه و من خلال ملاحظاته و تأملاته في نفسه و جسمه و الكون من حوله و من حقيقة الموت و الحياة ، ان لهذا الكون ربا خالقا قويا قادرا ، حفيظ عليم ، و قد توصلت الأبحاث العلمية الحديثة أن في مخ الإنسان خلية صغيرة جدا لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة هي المسؤولة عن قضية الإيمان و هي التي تحث النفس البشرية عن البحث عن الله ، و قد عانت البشرية الضالة و تعاني في كل زمان ومكان و هي في حيرة نفسية و آلام و متاعب و شقاء روحي و نفسي و تعطش لمعرفة حقيقة الوجود و الكون و الحياة و الإنسان

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } يونس47

و الدعوة لتوحيد الله و عبادته كانت إذن هي مهمة مقدسة قام بها الأنبياء من سيدنا نوح الى سيدنا محمد عليهم الصلاة و السلام ، وكل الرسالات السماوية كانت تحمل النداء الإلهي الخالد أن أعبدوا الله و لا تشـــــركوا به شيئـا ، و في {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّـا أَنَـا فَـاعْـبُـدُونِ } الأنبياء25

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ }المؤمنون23

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } فصلت6

التصور الإسلامي تتجلى عبادة الله الواحد الأحد لا شريك له كحاجة فطرية تستدعيها النفس و تطلبها الروح و ترتاح به القلوب و العقول و الأجسام ، عبادة الله مسألة فطرية و نداء رباني خالد ، و سر عميق في أغوار النفس البشرية تلبي دعوته بصفة تلقائية كل نفس لا زالت على فطرتها النقية و طبيعتها النظيفة اللطيفة و روحها الشفافة اللماعة ، و كل إنسان سواء في العصور البدائية القديمة في أدغال إفريقيا ، أو في جبال الهيملايا بالهند أو في أبراج واشنطن و ناطحات السحاب بنيويورك ، ذكرا أو أنثى صغيرا أو كبيرا يشعر بأنه بحاجة الى رب يعبده ، لأن العبادة هي في الأصل إحساس عميق بالرغبة و الرهبة من جهة و بالآمان و الإطمئنان و الراحة النفسية و الهدوء و الإستقرار من جهة ثانية ، و الإنسان الذي لا يعرف الله حق المعرفة و لا يعبده صباح مساء بما شرع ، و الإنسان الذي عرف الله و شهد له بالوحدانية و بكل الصفات الجميلة و الجليلة ، ثم لا يعبده بما شرع أو يعبد آلهة غيره ، هو في الحقيقة إنسان ناقص أهلية - - إنسان غير طبيعي و متجرد من إنسانيته فحقيقة الإنسانية هي العبودية ، و كلما عبد الإنسان ربه حق عبادته بتجرد عميق و إخلاص تام كلما حقق إنسانيته و كرامته .. - عبادة الله وفق ما شرع من عقائد و شرائع و شعائر هي بلسم الروح و شفاء العليل و روح الروح - - . هي الصفاء و الطهر و النقاء ، و الخضوع لقوة الله ... القوة القاهرة فوق عباده و الرحمة غير المتناهية ، و لقد ضل قوم فبحثوا عن الله في إتجاهات مختلفة ، و لم يدركوا الطريق الصحيح الموصل إليه ، فحاولوا و حاولوا لكن عقولهم القاصرة لم تسعفهم فضلوا الطريق ... عبادة الله وحده لا شريكه هي تنفيذ للعهـــد المقـــدس {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }الأنعام48

الذي قطعه على أنفسهم أجدادنا الكرام في الزمن الأول مع الله ، و شهدوا بأنه هو الرب لا إله إلا هو ، و ما دام هو الرب لا شريك له فهو وحده المعبود ، و عبادة الله بما شرع في آخر رسالة و هي الإسلام ، حيث نجد جملة من الشعائر و العبادات التي يتعبد بها عباد الله ليل نهار كالصلاة و الصيام و الحج و العمرة و الأضحية و الصدقات التطوعية ، و الذكر بمختلف أنوعاه و أشكاله ،

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172

و العبادة في اللغة هي الطاعة ، و أصلها الخضوع و الذل ، فيقال طريق معبد أي ممهد و صالح للسير ، و العبادة هي الطاعة و التعبد و التنسك و هي في الإصطلاح الإذعان الكلي و الخضوع التام ، و الطاعة المطلقة لله ، سواء أدرك الإنسان معرفة الله بما تيسر او لم يدرك ،لأن عبادة الله تأتي في مرتبة ثانية بعد العلم بالله سبحانه و تعالى ، إذ قدم العلم بان لا إله إلا الله على الإستغفار و هو نوع من العبادة ،

{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ } محمد19

قال الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير المنار حول سورة الفاتحة ـــ و إننا إذا تتبعنا آي القرآن ، و أساليب اللغة ، و إستعمال العرب لفعل ـ عبد ـ و ما يماثلها أو يقاربها في المعنى ، كخضع ، و خنع ، و أطاع ، و ذل ، نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي لفظ ـ عبد ـ و يحل محلها ، و لذلك قالوا أن لفظ ـ العباد ـ مأخوذ من العبادة ، فتكثر إضافته الى الله تعالى ، و لفظ ـ العبيد ـ تكثر إضافته الى غير الله تعالى ، لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، و فرق بين العبادة و العبودية ، و من هنا قال العلماء أن العبادة لا تكون إلا لله ... و يبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء و الملوك و الأمراء ، فترى في خضوهم لهم ، و تحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المحنثين القانتين ، و سائر العابدين ، و لم تكن العرب يسمون من هذا الخضوع عبادة ، فما هي العبادة إذن ؟ تدل الأساليب الصحيحة ، و الإستعمال العربي الصراح ، على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ النهاية ناشىء عن إستشعار القلب عظم المعبود ، و إعتقاده بسلطة يدرك تفهمها و ماهيتها ، و قصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، و لكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهي الى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، و إن قبل موطىء أقدامه ، ما دام سبب الذل و الخضوع معروفا ، و هو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء في كرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة الى الذين يعتقدون أن للملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك ـــ

ـ العبودية لله هي قمة الحرية

جاء الإسلام ليخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، إن الإيمان الصادق الذي لا تزعزعه الحوادث و الذي تنبثق عنه عبادة صادقة لله ، هو منتهى الحرية ، العبادة الحقيقية الصادرة عن نفس مؤمنة خالصة الإيمان بالله سبحانه و تعالى تحرر الجسد من عبادة الأشياء و العباد و الحيوانات ، تحرره من عبادة الدنيا و المال و النساء ، قد يظن كثيرا من الناس أنهم بمجرد ما ينطقون بشهادة أن لاإله إلا الله و أن محمد رسول الله ، قد أصبحوا مسلمين ، نعم ذلك حق فهم مسلمون بصفة رسمية و لا نقول عنهم غير ذلك فالنطق بالشهادتين عن إيمان و قناعة هو مفتاح الدخول في الإسلام ، كما يحسب بعض الناس أنهم بمجرد آدائهم للشعائر الإسلامية من صلاة و صيام و زكاة و جح فإنهم أصبحوا من عباد الله الصالحين ، صحيح أيضا انهم بأدائهم للأركان الأربعة يدخلون في قائمة الطائعين العابدين ، نعم فكل من نطق بالشهادتين واعيا بمدلولهما معترفا بوجود الله و بوحدانيته و بصفاته الجليلة ، وبمحمد عبده و رسوله فقد دخل في عداد المسلمين بصفة رسمية ، و من أدى الأركان الأربعة الأخرى من أركان الإسلام فهو من المسلمين الملتزمين ، و هذا هو الحد الأدنى من الإلتزام كما رد ذلك الأعرابي على رسول الله ﷺ بانه سيكتفي بأداء الفرائض و لن يزيد عليها فعلق الرسول ﷺ على موقفه قائلا أفلح إن صدق ، و لذلك نقول أن الإلتزام العملي بالإسلام مراتب و مقامات هي

1ـ مرتبة الأنبياء و المرسلين : و هو المقام الذي يقترب من مقام الملائكة و يمكن أن نسميه مقام الشاكرين ، لقوله ﷺ لما سئل عن إكثاره من النوافل في الليل و النهار مع أنه غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر ـ افلا أكون عبدا شكورا ـ و مقام الشاكرين هو مقام لا يدانيه مقام لأن الأنبياء و المرسلين هو خير الناس و اكرم عباد الله بعد الملائكة ، و مهما إجتهد البشر فلن يصلوا الى هذه المرتبة العلية ، و الأنبياء و الرسل هم أقرب الناس الى الله و هم أكثر الناس إيمانا و إحساسا بوجود الله و بقدرته و بحكمته و رحمته ، و هم أكثر الناس خشية لله و طاعة له ، و قبل ذلك هم أيضا أكثر الناس معرفة بالله ، لأنهم و هم أكرم الناس يمتازون على بقية البشر بأن الله أصطفاهم و إختارهم من بين جميع الناس ، و هم يمتازون عن بقية الناس بصفات الأنبياء التي لا يشاركهم فيها بقية الناس و هي الأمانة و التبليغ و الفطنة ، و أهم ميزة تميزهم عن بقية الناس هي إتصالهم بالله بصفة مباشرة ـ كحالتي سيدينا إبراهيم و موسى عليهما السلام أو عن طريق الملائكة ، و سيدنا جبريل المكلف بنقل أوامر الله ووحيه الى الأنبياء و المرسلين ، وقد إجتهد بعض المسلمين للوصول الى هذا المقام الكريم لكنهم فشلوا و منهم من ضلوا الطريق و خرجوا عن السبيل المستقيم كبعض فرق الصوفية مثلا

ـ مقام الأولياء و الصالحين: يختلط في أذهان العامة من المسلمين مفهوم أولياء الله الصالحين ، فيعتقدون حسب ما تعلموه من الموروث الشعبي و القصص الخيالية و الأساطير ، أن أولياء الله الصالحين هم أولئك الدراويش العاطلين عن طلب الرزق ، و العاكفين في زوايا يعبدون الله صباحا و مساء ليلا و نهارا ، أو هم أولئك الذين تحولت قبورهم بعد وفاتهم الى مزارات و ملتقى طالبي الحاجات ، و هو ما يعتبره العلماء المحققون إنحراف خطير عن حقيقة الزهد ، حيث تدخلت فيه عوامل موضوعية و ذاتية كالجهل بحقيقة التصوف الإسلامي السني ، و التحايل لتحقيق منافع دنيوية محضة و التلاعب بمشاعر العامة الجاهلين خاصة من النساء الأميات ، و التصوف الإسلامي السني حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها أوتجاهلها بمجرد أن بعض الناس إنحرفوا به عن جادة الصواب عن جهل و حسن نية في كثير من الأحيان ، فالتصوف أو الإحسان هو مقام أولياء الله الصالحين ، مقام المتقين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم سبحانه و تعالى ، و التصوف علم قائم بذاته يحتاج الى مجلدات و مجلدات ، و لكن سنكتفي بالقول أن إعتكاف سيدنا محمد ﷺ في غار حراء للتعبد و التحنث و الإبتعاد عن مظاهر الدنيا ، و إعتزال الناس مدة معينة في كل سنة هو نوع من التصوف العفوي ، و الإعتكاف كشعيرة من شعائر الإسلام داوم عليها الرسول الكريم ﷺ و زوجاته و أهل البيت من بعده هو بداية التصوف السني المبارك ، و في عهده ﷺ كانت جماعة من فقراء الصحابة لا مأوى لها تقيم بمسجد الرسول ﷺ و تستغل وجودها الدائم به لتكثر من الصلاة و الذكر و قراءة القرآن ، فسموا بأصحاب الصفة ، و التصوف الإسلامي كظاهرة دينية و إجتماعية ترسخ مع سيدة المتقين رضي الله عنها رابعة العدوية ، تلك المرأة التي غاصت من شعر رأسها حتى أخمص قدميها في وحل الرذيلة و مارست كل أنواع الفاحشة ، لكن ضميرها إستيقظ ذات يوم و بث الله في قلبها نور الهداية ، فأدركت أنها كانت من الخاطئين ، كانت تسير في طريق الضلال و إبتعدت كثير عن الطريق المستقيم ، السيدة رابعة العدوية تلقت إشارات من التواب الرحيم ، فهمت الإشارات ... إستوعبت المضمون ـ ـ ـ بكت ثم بكت و ظلت أياما و ليال عاشقة للبكاء و لسان حالها يردد يا حسرة على ما فرطت في جنب الله ، بكت رابعة العدوية حتى جفت عيونها و نفذ الدمع ثم أفاقت من صدمتها و إغتسلت و تطهرت ، و إرتحلت من قريتها الى حيث لا يعرفها الا الله و لا تعرف إلا الله و بدأت حياة جديدة ، تابت لله توبة نصوحا و بدأت صفحة جديدة مع الله و مع النفس ، طبعا مشكلة السيدة العدوية هو الوسط الذي كانت تعيشه و كان يستغلها أبشع إستغلال ، يستغل جسدها لتحقيق أرباح و منافع مادية على حساب دينها و شرفها و أخلاقها ، رابعة العدوية هي أول إمرأة مسلمة متصوفة في الإسلام و منها

إنطلق التصوف الإسلامي السني ، و بالإضافة الى تأسيسها لفن التصوف و الزهد ، إبتكرت غرضا جديدا يضاف الى أغراض و مواضيع الشعر العربي ، هو الشعر الذي يتناول موضوع حب الله سبحانه و تعالى ، رابعة العدوية عاشت حياتها الجديدة في ظل الطهر و العفاف و الزهد و العبادة ، فقالت شعرا كثيرا لم يصلنا منه الا القليل و إشتهرت بقصيدة تقول فيها

يا ليت الذي بيني و بينك عامر و بيني و بين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكـــل هين و كل الذي فوق التراب تراب

التصوف السني المبارك حقيقة تاريخية و ظاهرة دبنية إجتماعية أخلاقية ، لا يمكن إنكارها بجرة قلم كما يحاول أدعياء السلفية من الوهابيين و المداخلة ، الذين لا يفرقون بين التصوف السني و أنواع التصوف الدخيلة عليه كالدروشة و التصوف الفلسفي الحلولي الذي أخرج أهله من الإسلام و أغلب الذين تبنوا هذا النوع من التصوف قتلوا حدا من طرف الخلفاء و الأمراء ، وينسى بعض السلفيين هذه الحقائق و يضعون التصوف الإسلامي السني في سلة واحدة مع الظواهر السلبية التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، نتيجة للجهل و غياب الوعي و الثقافة الإسلامية الأصيلة و الصحيحة ، صحيح أن ظاهرة التجمع حول بعض الأضرحة و الإستغاثة بهم و طلب الحاجات من الأموات ، كشفاء المرضى و تزويج العوانس ، و إنجاب الذرية ، و إيجاد الوظائف و تحسين المداخيل ، هي ظاهرة سلبية تحتاج الى دراسة و تحليل و إرشاد و توجيه ، و ليس مجرد الإكتفاء بوصف المتورطين فيها عن جهل أو عن تعمد بالكفر ... و كلمة أولياء الله ذكرت في القرآن الكريم مرة واحدة ، و أغرب ما في مسألة الموقف من التصوف الإسلامي ان شيوخ السلفية و مرجعياتها الكبرى في القديم الشيخ إبن تيمية و تلميذه إبن القيم هما اللذان كتب أهم المصنفات التي تناقش و تحلل و تنظر لظاهرة التصوف الإسلامي ، أنظر مثلا كتب ، العبودية ، روضة المحبين ، مدارج السالكين ، و قد ألف الشيخ الدكتور يوسف لقرضاوي كتابه القيم ـ العبادة في الإسلام ـ في سبعينيات القرن الماضي ، و إعتمد فيه بصورة خاصة على مؤلفات الشيخين إبن تيمية و إبن القيم ، و في هذا الكتاب القيم يحلل الشيخ القرضاوي بطريقته الخاصة السهلة الممتعة و يشرح فلسفة العبادة في الإسلام ، و الكتاب في نظري يعتبر أحسن المصنفات الحديثة التي تناولت هذا الموضوع الحساس ، الذي يؤسس لعلاقة العبد مع ربه ، ألف القرضاوي كتابه في زمن كان الإسلام واحد ، و كنا لا نفرق بين إبن تيمية و إبن القيم و الأشعري و الغزالي و حسن البناء و سيد قطب ، و نضعهم في خانة واحدة متساوية أما الان فقد تغيرت المواقف و كل فرقة ترى أنها هي الناجية و أن ما سواها من الفرق المخالفة هم من الضالين المضلين يا سبـــحان الله

ـ مقام أفلح إن صدق: هذه المرتبة من الإلتزام هي ما يمكن أن نسميها مرتبة العامة و بسطاء الناس ، حيث لا تتجاوز عبادتهم آداء الصلوات الخمس في المسجد أو في البيوت أو في أماكن العمل ، و صيام رمضان و الحج و العمرة ، لكن ما يلاحظ على آداء هذه الفئة و هي تشكل مع الأسف الشديد أغلبية المسلمين ، أنه آداء ينطلق من فراغ و يرتكز على إيمان بسيط أقرب الى الإيمان التقليدي إيمان العجائز بالرغم أن نسبة كبيرة منهم متعلمة و ذات مستوى لا بأس به ، زيادة على أن طبيعة أدائهم لتلك العبادات تبدو جافة ، أوتوماتيكية و خالية من الصدق و الحماس اللذين يبثهما الإيمان الصادق و القوي في النفس البشرية ، و هناك مسألة أخرى و هي الإنفصال النفسي و المعنوي بين آداء تلك الشعائر بتلك الطريقة الجافة ، و الأخلاق و الآداب و الإلتزام الديني في ما يخص علاقاتهم بالغير في المعاملات اليومية التجارية و المهنية و العادية ، فهم مسلمون ملتزمون داخل المساجد و في المناسبات الدينية الكبرى و خاصة في شهر رمضان ، لكنهم خارج المسجد يتحولون الى بشر من نوع آخر، و بالتالي فيمكن تصنيف هذه الفئة في خانة الإسلام الشكلي و الإيمان النمطي الذي يعتمد على التقليد و هو مجرد تسجيل حضور و إتباع لتقاليد إجتماعية و عادات و أعراف أكثر منه إلتزام ديني منضبط بقيود و شروط و قواعد ثابتة ، و بالتالي فهي نوعية من العبادات الشكلية الجوفاء الفارغة من كل معاني السمو و الترفع عن الصغائر و الكبائر ، و المشكلة بالنسبة لهذه الفئة ليست في الإلتزام بالحد الأدنى من العبادات و تأدية الفرائض فقط إقتداء بذلك الأعرابي ، لكن المشكلة تكمن في عدم الإلتزام بالإسلام في تعاملاتها اليومية مع الناس ، مما يجعل الأهداف و الغايات و الحكم التي من أجلها فرضت تلك العبادات لا تتحقق بالمرة ، فللصلاة مثلا حكم و غايات كثيرة أن هي أديت على أحسن ما يرام ، فهي التي تفتح الأبواب و النوافذ و تجعلك أمام الله مباشرة و أنت قائم تصلي ، و هي تنهى عن الفحشاء و المنكر ، و لصلاة الجماعة و الجمعة و العيدين فوائد و حكم إجتماعية و إنسانية منها التجمع التلقائي اليومي بين المسلمين على الأقل خمس مرات في اليوم ، فيتعرفون على بعضهم البعض و يتعرفون على الأخبار و الأحوال ، فيدركون المرضى و الذين غابوا لأسباب مختلفة و من خلال صلاة الجماعة يعرف المسلمون أحوال بعضهم البعض و و يتعرفون على إحتياجاتهم و همومهم و أفراحهم و أتراحهم يتضامنون مع بعضهم ، و للصيام أيضا حكم و منافع نفسية و معنوية و إجتماعية ، فهو العبادة الوحيدة التي يبقى شكلها و طبيعتها سر بينك و بين الله و هي العبادة الوحيدة اتي تتجلى فيها مراقبة الله عز وجل ، و يتضاءل فيها الرياء الى الدرجة الصفر ، و في شهر رمضان ترى الرجل وحده في مكان خال ، و لا يمكنه أن يأكل أو يشـــــرب خـــوفا من الله .

{ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ }فاطر32

{يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصّبْرِ وَالصّلاَةِ إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ }البقرة153

{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاَةَ إِنّ الصّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }العنكبوت45

{يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ }البقرة183

{الْحَجّ أَشْهُرٌ مّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنّ الْحَجّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوّدُواْ فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى وَاتّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }البقرة197

و للأستاذ فيلسوف الإسلام في العصر الحديث الشهيد رمضان البوطي كلمات طيبة في موضوع العبادة و العبودية ، فصلها في كتابه القيم ـ حرية الإنسان في ظل عبودية الله ـ يقول فيه ـ إذا ذكرت ألوهية الله عز وجل للكون ، ذكرت معه عبودية الإنسان لله ، و العبودية تعني منتهى الذل الصادر عن منتهى الضعف و العجز ، و إذا تأملت ، وجدت أن بين ألوهية الله للكون ، و عبودية الإنسان لله تلازما بينا ، فلا يكون الله إلها إلا حيث يكون الإنسان عبدا له ، و العكس أيضا صحيح ، فلا يكون الإنسان عبدا لله إلا حيث يكون الله إلها له ، و لكن هل الإنسان متصف بهذه العبودية فعلا ؟ أي هل الإنسان بعاني فعلا من منتهى الضعف و العجز تجاه ذي قوة مطلقة ، يعلم أو يجهل حقيقته ؟ قد يلتبس الجواب العلمي الدقيق عن هذا السؤال ، على كثير من الناس لسبب واحد ، هو إلتباس الفعل الإختياري الذي يصدر عن الإنسان بالإنفعالات القسرية التي يتلبس بها ، فأكثر الناس يحسبون الإنفعالات القسرية التي يتلبسون بها ، أفعالا إختيارية صادرة طواعية عن ذواتهم أي دون تدخل خارجي ، و من ثم فإنهم غير مستعدين لتصور أنهم عبيد مملوكون لكائن ما ، و لكن الحقيقة الثابتة ، هي أن الإنسان من حيث التصرفات المتنوعة التي تصدر عنه ، أشبه ما يكون بجهاز إستقبال تتجلى عليه الحركات و الصور و الأشكال ـ ـ ـ كذلكم الإنسان إنه يفكر و يعقل ، و يبني على أفكاره كثيرا من الإبداعات ، و يحقق من ورائها كثيرا من الفوائد ، غير أنه منفعل بالفكر و العقل و ليس فاعلا لشيء منه ، ذلك لأن الوعي أشرق في دماغه دون أي تسبب أو قصد منه ، و غدا سيذبل أو يغيب ربما هذا الوعي دون أن يملك حيال ذلك أي تصرف ، و دون أن يملك سبيلا الى

أستبقاء هذه النعمة لديه ، حتى لمدة جزئية محددة ... و أنظر كم تتجلى هذه الحقيقة في قوله عز و جل

{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً }مريم93

غير أن المشكلة التي قد تثور لدى هذا الفريق ، عندما يواجه بهذه الحقيقة و يدعى الى الإذعان لها ، قد تتمثل في التساؤلات التالية

- فأين هي حرية الإنسان إذن ؟ و هل علينا أن نجزم بأنها وهم زائف ؟

- و إذا كانت كينونة الإنسان تتسع لكلا حقيقتي الحرية و العبودية ، فكيف يتم التنسيق بينهما ؟

إذن علينا أن نحاول الإجابة عن كل من هذين السؤالين ، ما الذي نعنيه بكلمة - الحرية - أهو التخلص من القسر الخارجي الذي يتمثل في عدوان الناس بعضهم على بعض ، أم هو التخلص من القسر الداخلي المتمثل في النواميس المهيمنة على حياة الإنسان ، أم المراد بالحرية التخلص منهما معا ؟ قد يراد بالحرية أن يملك الإنسان إصدار قراراته السلوكية في حق نفسه بمقتضى إرادته الشخصية دون أن يعارضها أي قسر من أشخاص أمثاله ، بقطع النظر عن وجود أو عدم وجود عوائق داخلية أي نفسية أو طبيعية مثلا ، و قد يراد بها أن يملك الإنسان التوفيق بين قراراته و رغائبه النفسية ... و بكلمة وجيزة قاطعة نقول إن الحرية بهذا المعنى الثاني وهم لا وجود له لأن الإنسان لا يملك من أمر نفسه و التحكم بذاته شيئا ، و هو محكوم عليه في جميع تصرفاته و شؤونه ، بسلطة أنظمة صارمة لا مفر منها ، سواء منها ما يهيمن عليه داخل كينونته البشرية ، أو ما يحيط به من السنن الكونية الصارمة ، كذلكم الإنسان ، إنه يفكر و يعقل ، و يبني على أفكاره كثيرا من الإبداعات ، و يحقق من ورائها كثيرا من الفوائد غير أنه منفعل بالفكر و العقل و ليس فاعلا لشيء منه ، ذلك لأن الوعي أشرق في دماغه دون أي تسبب أو قصد منه ، و غدا سيذبل أو يغيب ربما ، هذا الوعي عن دماغه ، دون أن يملك حيال ذلك أي تصرف ، و دون أن يملك سبيلا الى إستيقاء هذه النعمة لديه حتى لمدة جزئية محددة ... و هذا ما يزيدنا يقينا بأن الإنسان محكوم عليه بالعبودية .. العبودية لمن هو مستقر في قبضته من خلال خضوعه الحتمي لهذه النواميس المهيمنة عليه إن في داخل كيانه أو الكون الذي يتقلب في فضائه ، ومهما بحث عشاق الحرية في القيود الكونية أو البشرية في إمكان العثور على سبيل للتغلب عليها ، فلن تهديهم بحوثهم إلا الى وجود خالق لهذا الكون و مبدع لنظمه و قوانينه ، و لسوف يقفون خلال بحوثهم هذه على كثير من صفاته ، و إن كان مقضيا عليهم بالعجز عن

الوصول الى كنهها ... و مما ألزم الله عز و جل عباده بمعرفة أنهم عباد مملوكون له ، و بالإذعان لهذه الحقيقة ، إلا لأن هذا اليقين الذي يتحلى به الإنسان هو الضمانة الوحيدة لإمتلاكه حريته الخارجية من جانب ، و للمحافظة على حريات الآخرين من جانب آخر ، فالإسلام إنما يواجه الإنسان بواقع عبوديته الحتمية لله عز وجل ، ليفتح أمامه بذلك آفاق التحرر من آصار العبودية للآخرين ، و ليصده في الوقت ذاته عن استعباد من قد يكون حوله من المستضعفين ، و إذا تأملنا أدركنا أن لا سبيل الى هذا التحرر إلا الإذعان الحقيقي لتلك العبودية ، و قد أبرز القرآن الكريم هذا التلازم ببيان واضح لا لبس فيه ،و ذلك في قوله تعالى

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64

إن المعنى الذي يقرره هذا الكلام الرباني واضح للغاية ، ألا ترى الى الذين كانوا و لا يزالون ينادون بالحرية و التمرد على القيود ، و هم معرضون عن واقع عبوديتهم لله عز وجل ، و الإذعان لها ، كيف يجعلون من تمردهم على القيود ، قيودا و أغلالا يصفدون بها من حولهم من المستضعفين - - - نقول بكل تأكيد أن حل المشكلة رهن بمعرفة الإنسان هويته و إدراك أنه عبد مملوك لله ، و من ثم التهيؤ للإصغاء الى تعاليم الله و منهجه الذي رسمه لعباده للتعامل على أساسه مع الكون و الإنسان و الحياة ، فإذا ساد هذا اليقين في المجتمع الإنساني ، و هيمن على أفئدة أفراده تخلى الكل عن الصراع و الخصومة و تحرير الجميع عن إستبداد الأقلية و الأكثرية ، ودانوا جميعا لحاكمية الله و سلطانه ، بثقة و إطمئنان - - - إن هذا هو أساس الحل و مصدره ، ذلك لأن هذه الثقة عندما تكون حقيقية و تامة ،تجعل صاحبها يتجه بمحض إرادته الى الخضوع لنظام الله و حكمه ، إذ هو يوقن بأن ذلك هو الخير الذي لا ريب فيه ، فكأن إنضباطه بتعاليم الله تعالى ينبع من إختياره الداخلي و لا يقبل إليه من أي قسر خارجي ، و هكذا فإن قيود النظام الإلهي لا تعد محجمة أو مضيقة لشيء من مجال حرية الإنسان الذي عرف ربه ، ثم وثق بعدله و رحمته ، و في أشد الأحوال التي تتخالف فيها هذه الأنظمة مع رغائبه و رعوناته ،فإنه يستسلم لها إستسلام المريض لطبيبه الذي أيقن ببراعته العلمية و تأكد من إخلاصه له في الرعاية و التطبيب .. أجل إنه بإستسلامه هذا إنما يمارس حريته ، و لا ينتقص من أطرافها شيئا ، كل ما في الأمر أنه يجب البدء بترسيخ العقيدة و اليقين القلبي أولا ، إذ هو لا غير مصدر الثقة و الإطمئنان ، و مع هذا فإن الله جلت حكمته ، قد متع الإنسان في حياته الدنيا ، بالقدرة على إتخاذ القرار الذي يشاء ، و على السير بسلوكه ما يريد ، من الإنصياع لأمر الله أو الإعـــراض عنه -

(و مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ{25}

{لّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً }النساء172

{إِن كُلُّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلّا آتِي الرّحْمَنِ عَبْداً }مريم93

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشّمَآئِلِ سُجّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ }النحل48

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطّاغُوتَ فَمِنْهُم مّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مّنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ }النحل36

{وَالّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبّهِمْ سُجّداً وَقِيَاماً }الفرقان64

{إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبّكُمْ فَاعْبُدُونِ }الأنبياء92

{إِنّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الّذِينَ إِذَا ذُكّرُوا بِهَا خَرّوا سُجّداً وَسَبّحُوا بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }السجدة15

{مّحَمّدٌ رّسُولُ اللّهِ وَالّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاء عَلَى الْكُفّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكّعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مّنْ أَثَرِ السّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّارَ وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ مِنْهُم مّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }الفتح29

{وَالنّجْمُ وَالشّجَرُ يَسْجُدَانِ }الرحمن6

{وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }يس22

{قُلْ إِنّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ مُخْلِصاً لّهُ الدّينَ }الزمر11

قُلْ يَا أَيّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مّا عَبَدتّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}

و قد كتب الأستاذ أحمد عماري مقالة جيدة عن حقيقية العبادة ، نشرها عبر الفضاء الأزرق ، ننقله كما هي ، دون تصرف

... فإن العبادة في الإسلام تختلف عن كل عبادة في غيره من الديانات، في حقيقتها ومقاصدها ونتائجها فهي الحق، وما سواها باطل وهي الهدى، وما سواها ضلال وهي النور، وما سواها ظلام فمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ يونس ٣٢ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ آل عمران ٨٥

العبادة في الإسلام ليست طقساً من الطقوس التي يمارسها المرء متى شاء وكيفما شاء؛ وإنما هي الغاية الكبرى والهدف الأسمى الذي خلق الإنسان من أجله، كما قال ربنا سبحانه وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ الذاريات ٥٦

العبادة في الإسلام حق واجب من حقوق الله تعالى على عباده؛ ففي الصحيحين عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قال كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ »يَا مُعَاذُ؛ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ «قلتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ »فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا« فقلت يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ »لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا

. والعبادة في الإسلام تشمل حياة الإنسان كلها؛ أقواله وأفعاله، حركاته وسكناته، ظاهره وباطنه، علاقاته الأسرية والاجتماعية والدولية قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ الأنعام ١٦٢، ١٦٣ إنها حق لازم على العبد حتى يموت، وقد قال سبحانه وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ الحجر ٩٩

. العبادة في الإسلام أشرف المقامات، وأعلى المراتب شرُفتْ بها ملائكة الله، كما قال الله عنهم وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ الأنبياء ١٩، ٢٠

وشرُف بها الأنبياء والمرسلون، كما قال عنهم رب العالمين وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ الصافات ١٧١ - ١٧٣ وقال عز وجل وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ص ٤٥ وأفضل الرّسل وأشرف الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شرّفه ربه بوصف العبودية في مقام التكريم والتشريف، فقال عنه في مقام النّبيّين . **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من إياتنا) الإسراء 1**

فبالعبادة تسمو الرّتب، وبالعبادة يترقى العبد في مدارج السالكين، ويلتحق بعباد الله المنعّمين وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا النساء ٦٩

. العبادة في الإسلام لها مقاصد وغايات، فيها منافع ومصالح للعباد في الدارين قال تعالى مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ النحل ٩٧

. العبادة في الإسلام غايتها وقاية النفس والأسرة والمجتمع من كل الآفات والمهلكات يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ البقرة ٢١ لعلكم تتقون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتقون أنفسكم مما يضرها ويهلكها في الدنيا، ومما لا تطيق تحمّله من العذاب المهين في الدار الآخرة

ومن تأمل في أمهات العبادات في الإسلام وجدها تهدف إلى تزكية النفس وتحليتها بكل فضيلة، وتطهيرها وتخليتها من كل رذيلة

الإيمان بالله يطهر القلب، ويوجه السلوك، ويهذب الأخلاق قال تعالى وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ التغابن ١١ وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال »ثلاثٌ مَنْ كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليْهِ ممّا سواهما، وأنْ يُحبّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يكْرَهَ أنْ يعود في الكُفْرِ بعْدَ إذْ أنقذهُ الله منْهُ، كما يكْرَهُ أنْ يُقْذف في النّار «وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال »لا يُؤْمِنُ أحدُكمْ حتّى يُحبّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنفْسِهِ«

الصلاة تغرس في النفوس محبة الله وتعظيمه، وتحجز المرء عن كل رذيلة قال تعالى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ العنكبوت ٤٥ وفي موطإ مالك عن نافع مولى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله إنّ أهمّ أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومَنْ ضيّعها فهو لما سِواها أضيع

الزكاة تطهر النفس من الشح والبخل، ومن الحقد والغل، وتزرع في النفوس المودة والمحبة والتراحم والتعاطف خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ التوبة ١٠٣

الحج يربي النفوس على الوحدة والتعارف والتعايش والتعاون والتراحم، ويطهرها من الأنانية والعصبية والتفرقة والنزاع قال تعالى الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ

البقرة ١٩٧ وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »مَنْ حَجَّ هَذا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ«

الصيام يربي على الصبر، ويحمل على العفو والصفح، ويغرس في النفوس التقوى يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ البقرة ١٨٣ وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ«

وغيرُ ذلك من العبادات فيه خير كثير ومنافع لا تعدّ؛ ومما ورد في ذلك، ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم »الطُّهُورُ شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها«

العبادة في الإسلام طريق إلى مغفرة الذنوب ومحو السيئات، ورفع الدرجات؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كان يقول »الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ «رواه مسلم ويقول ربنا سبحانه وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى طه ٧٥، ٧٦

. العبادة في الإسلام طريق الفوز والفلاح، وسبيل النجاة من عذاب الله؛ قال تعالى قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ المؤمنون ١ - ١١ وقال سبحانه إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فصلت ٣٠

فكل ما في العبادة يعود بالنفع على العباد في دنياهم وفي أخراهم، ويهدف إلى جلب المصلحة للعباد، ودرء المفسدة عنهم والمشقة في العبادة غير مقصودة، والتعب فيها ليس غاية، والحرج فيها مرفوع وقد قال تعالى مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ المائدة

ـ إعمار الأرض و بناء الحضارة

لكي يكون الإنسان خليفة لله في أرضه ، يعبد الله بما شرع ، و يحكم بما أنزل الله ، يجب أن يكون فاعلا في هذه الأرض و مؤثرا فيها ، و مسيطرا على الكون كله و متحكما فيه و مستغلا له في سبيل تحقيق الرفاهية و بناء الحضارة ، و بما أن الله قد زود هذا المخلوق الذي سجدت له الملائكة سجود تحية بأمر من الله سبحانه و تعالى ، بكل الحواس و الأجهزة العقلية و النفسية التي تساعده على التحكم في الكون ـ الأرض و السماء و الجبال و البحار و كل ما يدب فيه لصالحة ، فهو مطالب بأن يبسط سيادته على الكون و يكون سيدا فيه و عبدا لله ، و من هنا تأتي قضية الإعمار أو بناء الحضارة و تحقيق الرفاهية في الدنيا كوظيفة أساسية من الوظائف التي كلف بها الإنسان ، فالله سبحانه و تعالى لم يخلق الإنسان في الأرض عبثا لمجرد اللهو ، و تحقيق الكثير من المتعة الجنسية كيفما أتفق حلالا او حراما ، كما يقول عالم النفس اليهودي المريض و الشاذ ـ فرايد ـ و التعبير القرآني يستعمل كلمة ـ إستعمار ـ و هي ترادف الإستثمار و البناء و الإستغلال الأمثل ـ و هي بمعنى أوسع بناء الحضارة بما أتيح للإنسان في زمانه و بحسب ظروفه و الإمكانيات المادية التى توفرت لديه ، و الإختراعات التي توصل إليها مهما كانت بسيطة فهي بالقياس الى زمانها تعتبر نقلة نوعية و درجة في سلم الحضارة المتصاعد ، فالمحراث اليدوي بالنسبة لإنسان القرن السابع عشر مثلا كان قمة التحضر و التقدم بالمقارنة مع ما كان يستعمل في حرث الأرض من وسائل بسيطة كالفأس أو القادوم ، و الدراجة الهوائية كانت تعتبر في زمانها فتح مبين و تقدما كبيرا ووسيلة جديدة تساعد الإنسان على الوصول الى مكان عمله أو الى بيته في وقت أقل من الوقت الذي يستعمله راجلا ، زيادة على الجهد المستعمل في كلا الحالتين ، و قد تقلب الإنسان مع الحياة منذ نشأتها وتمكن من التأقلم معها من خلال العديد من الإكتشافات و الإختراعات ، حيث إكتشف في البداية الماء و النار و عرف أنهما عصب الحياة ، فالماء هو أهم عنصر في الحياة ومنه جعل الله كل شيء حي ، و النار و هي نقيض الماء هي الوسيلة الوحيدة التي تساعد على جمال الحياة و طيبتها ، من خلالها يستطيع الإنسان إضاءة بيوته البسيطة في الليل و تسخين الماء في أيام البرد للنظافة و الغسل و تطهير الجسم ، و تنظيف الخضر و الفواكه و اللحوم ، و من خلال النار إكتشف الإنسان الأول أن لحوم الحيوانات تكون أجمل و أطعم و ألذ عندما توضع فوق نار هادئة حتى تستوي و تصبح جاهزة للأكل ، و من خلال النار و الماء إستطاع الإنسان أن يذوب المعادن من حديد و ذهب و فضة ، و يصنع منه الأسلحة و وسائل الزراعة كالمحراث و العجلات ، الى ان وصل في العصر الحديث الى إختراع السيارة و الطائرة و الباخرة و في هذا العصـــر

وصل الإنسان الى السيطرة شبه الكلية على الكون ، و الحضارة ـ عند إبن خلدون هي ـ التفنن في الترف و إحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ، من المطابخ و الملابس و الفرش و الأبنية و سائر عوائد المنزل و أحواله ، و هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة و تفاوت الأمم في القلة و الكثرة ـ أما المؤرخ الأمريكي ديورانت . صاحب الموسوعة الضخمة المعنونة ب ـ قصة الحضارة . فيرى أن ـ الحضارة نظام إجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، و تتألف الحضارة من عناصر أربعة ، الموارد الإجتماعية ، النظم السياسية ، التقاليد الخلقية ، متابعة العلوم و الفنون ، و الحضارة تبدأ عندما ينتهي الإضطراب و القلق ـ و قد عرفت الأمم و الشعوب كثيرا من الحضارات التي تعاقبت ثم إنقرضت بحكم سنة الحياة التي تخضع لها كل الكائنات المادية و المعنوية فالحضارات تشبه الكائن الحي ، و تمر بنفس المراحل التي يمر بها ، مهما طالت مدة بقائها على وجه الأرض ، الولادة ، الطفولة ، الشباب ، الكهولة ، الشيخوخة ، الموت و الزوال ، ثم تنهض حضارة أخرى ة تمر بنفس المراحل ، فلا يخلو زمان و مكان من حضارة ما مهما كانت طبيعتها و قوتها ، و قد مرت الشعوب و الأمم بحضارات ، الفرعونية المصرية أو الهندية و الفارسية و هي ما يسمى بالحضارات الشرقية القديمة و الحضارات اليونانية و الرمانية ، ثم جاءت الحضارة الإسلامية و إستمرت أكثر من ثلاثة عشر قرنا حيث سيطرت على العالم و بسطت أجنحتها عليه و كونت أمبراطورية إسلامية عالمية ، بدأت بوادرها مع بزوغ شمس الرسالة المحمدية الخاتمة ثم إزدهرت خلال العصر الأموي في المشرق و الأندلس ، ثم العصر العباسي و العثماني ، حيث أصبحت الخلافة العثمانية على علاتها و مساوئها و بعدها عن الخط الإسلامي العام و إنعدام الشورى و إعتماد النظام الملكي الوراثي الذي ما أنزل الله به من سلطان ، فقد كانت قوة عسكرية هائلة ، خاصة في المجال البحري ، و أصبحت البحرية العثمانية سيدة العالم ، وزالت الحضارة الإسلامية بسبب نفس العوامل التي ساهمت في زوال الحضارات السابقة ، لأنها تأخرت عن الركب في الوقت الذي تقدم الغرب ، فالخطاب الإسلامي عندما يتناول موضوع عمارة الأرض و حسن إستغلال موارد الكون في سبيل تحقيق أقصى ما يمكن من رفاهية الإنسان فهو يوجه الخطاب الى الإنسان ، حيثما كان و حيثما وجد بغض النظر عن دينه و جنسه ، و لكن الإنسان المسلم حري قبل غيره بالإنصات الى الخطاب القرآني و السعي لتنفيذه على الأرض ، و لذلك يتفق العلماء و المنظرون أن الحضارة هي إرث إنساني مشترك ، و من حق كل البشر الإستفادة مما تتيحه من مظاهر التقدم و الرقي السياسي و الإقتصادي و الإجتماعي ، و كما إستفادت الحضارة الإسلامية من الحضارات التي سبقتها ، إستفادت الحضارة الغربية

الحديثة من التراث الإسلامي و من الحضارة الإسلامية ، خاصة فيما يتعلق بالعلم التجريبي الذي إخترعه المسلمون ، و الكثير من النظريات الغربية الحديثة في السياسة و الإقتصاد و علم الإجتماع و القانون و الطب ، هي ترديد و أعادة صياغة لنظريات و بحوث و إشارات و رؤوس أقلام وردت في كتابات العلماء و الفلاسفة والمفكرين المسلمين في مختلف العصور ، إعمار الأرض إذن هو إستعمال أفضل الوسائل التقنية الممكنة لحسن إستغلالها و إستثمارها في سبيل تحقيق رفاهية الإنسان في الحياة الدنيا ، و تحسين ظروفه الإقتصادية و الإجتماعية التي تساعده بدورها على شكر الله على نعمه و حسن عبادته ، و إذا كان أجدادنا الأولون قد إستجابوا لدعوة الله بتعمير الأرض و السيطرة على الكون و التحكم في البحار و الجبال ، فإن المسلمين اليوم مطالبون بان يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، الأمة الشاهدة على الأمم الأخرى ، الأمة التي تجر قطار الحياة ،، قطار الأمم الأخرى و تكون دوما في مقدمة الركب الحضاري و ليس في مؤخرته ، و قد بدأت و الحمد لله تتبلور بعض الأفكار و المشاريع في الأفق لإعادة سكة الأمة الإسلامية الى الطريق الصحيح و إنطلاق البعث الحضاري الإسلامي من جديد من خلال محاولات بناء الوحدة الإقتصادية بين الأقطاب الإسلامية الأسيوية الثلاثة ــ ماليزيا و تركيا و باكستان ـ في إنتظار الوحدة السياسية و الإقتصادية و الإجتماية الإسلامية الشاملة التي ستعيد من دون شك للمسلمين قوتهم و مجدهم ، ليس كما كانوا في العصور الذهبية فذلك غرق في الخيال ، و لكن و على الأقل حجز مكان محترم تحت الشمس و بين الأمم ، ليكون للمسلمين كلمتهم و موقفهم في كل القضايا الإقليمية و الدولية ، و قد يتيح التعاون الإسلامي لو توفرت النية الحسنة و الإرادة السياسية الحرة البعيدة عن التأثير و التدخل الأجنبي الأمريكي و الأوروبي ، فرصا كثيرة لإعادة بناء الأمة الإسلامية من جديد في إطار سياسي و إقتصادي معاصر يستلهم من التجارب القديمة و الحديثة الناجحة و يستفيد منها ، فتعمير الأرض و حسن إستغلال مواردها لصالح الإنسان ، هو احد متطلبات الوظيفة الأولى للإنسان على وجه الأرض و هي الخلافة ... فلا تصح خلافة من دون السيطرة على الكون و بسط سيادة الإنسان المسلم عليه ، كما أن عمارة الأرض و التحكم في خيراتها و حسن إستغلالها تكون ناقصة و من دون طعم و لا لذة إذا كانت الخلافة الإسلامية مهما كان شكلها ، غائبة تماما عن الأرض الإسلامية و عن المسلميـــــن ، و كمـا

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ هُـوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنّ رَبّي قَرِيـبٌ مّجِيبٌ }هود61

كانت الحضارة و التقدم و الرقي و تحقيق الخيرية و الشهادة على الناس ، هاجسا أرق كل ألمسلمين نخبا و شعوبا عبر مختلف العصور ، فقد كان هو الأمل الأكبر الذي تشبث به العلماء و الفلاسفة و المسلمون و الشعوب المسلمة منذ سقوط الخلافة العثمانية على علاتها سنة ١٩٢٤ ، و كانت قضايا الوحدة الإسلامية ، و عودة النظام الإسلامي العالمي بأي شكل من الأشكال مطلبا و آمالا لشعوب العالم الإسلامي . و قد كتب أستاذنا مالك بن نبي فيلسوف الحضارة الإسلامية ، سلسلة كتب قيمة حول الوحدة الإسلامية و النظام الإسلامي ، و الحضارة الإسلامية - - . إعمار الأرض و بناء الحضارة و التحكم في الكون و إستثماره و إستغلاله بعقلانية و ذكاء و براغماتية لصالح الإنسان بغض النظر عن جنسه و دينه ، هي وظيفة أساسية لهذا المخلوق العجيب الذي يسمى الإنسان ، و هي بالنسبة للإنسان المسلم وظيفة أساسية و واجب ديني و إلتزام أخلاقي و عهد مع الله مقطوع مع أجدادنا و أسلافنا يجب الوفاء به ، واجب ديني لا يقل أهمية عن الواجبات و الشعائر الأخرى كالصلاة و الزكاة و الحج ، و هو بالنسبة للنخبة الإسلامية التي نعني بها رجال السياسة و الحكم و المسؤولين التنفيذيين فرض عين ، و بحكم وظائفهم و مسؤولياتهم فهم مطالبون بتحقيق الخيرية و الشهادة و تعمير الأرض و إستغلال كل مواردها من أجل رفاهية الإنسان المسلم و من أجل الخروج من التبعية للغرب الكافر ، خاصة و أن بلاد المسلمين قد حباها الله سبحانه و تعالى بكل الخيرات الباطنية و السطحية ، من بترول و غاز و طاقات متجددة كالرياح و الشمس و البحار و المحيطات ، و النخب الحاكمة مسؤولة مسؤولية عظيمة في الدنيا و الآخرة عن حالة التخلف و التمزق و التشرذم والنزاعات السياسية و العسكرية التي تعيشها الأمة الإسلامية ، و بعض الأنظمة السياسية الحاكمة في ما يسمى بالعالم الإسلامي ، كدول الخليج مثلا و التي رغم ما توفر لها من كنوز في باطن الأرض و ظاهرها لم تتمكن من التخلص من الهيمنة الأمريكية و الأوروبية على قراراتها السيادية ، حيث يعتبر الملوك و الأمراء مجرد موظفين لدى الرئيس الأمريكي أو الدولة الأمريكية ، و أمريكا هي التي تملك القرار النهائي و الفاصل في تنصيب هذا الملك أو الأمير أو عزلهم ، و رغم كل الإمكانيات المادية و التقنية و الموارد البشرية و الكفاءات التي تملكها الأمة الإسلامية من المحيط الى الخليج لم تتمكن من تحقيق أية خطوة في سبيل الوحدة و لم تنجح في التخلص من شبح التبعية للغرب في كل مجالات الحياة فهي تستورد كل شيء من الإبرة الى الدبابة ، و كان من المفروض أن تستغني عن الخارج و نبني حضارتها الإسلامية بإمكانياتها الذاتية ، فالعالم الإسلامي بحاجة الى تنمية شاملة تستفيد من مختلف التجارب

ـ التنمية في التصور الإسلامي

إستثمار الأرض ظاهرها و باطنها و إستخراج خيراتها ، و إستغلال الكون المسخر بطبيعته للإنسان ، و لفائدة الإنسان ، هو الترجمة العصرية لمعنى الإعمار أي إستعمار الأرض الذي ورد في سورة هود في سياق الحديث عن قبيلة ثمود قوم النبي صالح عليه السلام ، و إعمار الأرض لا يعني في المفهوم الحديث سوى التنمية الشاملة التي تعمل في كل الإتجاهات ، و التنمية في التصور الإسلامي تبدأ بطبيعة الحال ببناء الإنسان الفاضل ، المؤمن التقي من كل الجوانب ، ماديا و معنويا ، جسميا و خلقيا ، و تكوينه و تزويده بالعلوم و المعارف التي تجعل كل حركاته و وسكاناته لله و في سبيل الله ، حيث تتحول العادات و المعاملات اليومية العادية الى عبادات بتوفر النية الحسنة ، فبناء الإنسان الصالح هو الخطوة الأولى في مسار التنمية الإسلامية ، بناء العقيدة الصحيحة و الأخلاق الحسنة ، و تكوين ملكة التقوى التي من دونها يكون الإنسان بعيدا عن الله ، التقوى وهي خشية الله و مراقبته و الإحساس الصادق و الجاد بوجوده معك في كل مكان و زمان ، فالإنسان هو العنصر الفاعل في كل مسار تنموي و في كل تحول سياسي أو إقتصادي أو إجتماعي ، و في كل حضارة من الحضارات التي سبقت كان الإنسان هو الفاعل الأول ، و هو الغاية ، فالغاية من كل تنمية أو تقدم أو حضارة هي تحسين نمط معيشة الإنسان و الرقي و التقدم ، و كل تغيير نحو الأحسن ينطلق من الذات من الإنسان ، بمعنى أن الإنسان هو وحده الذي يملك قرار التغيير إن أراد ، و التغيير قد يبدأ بمجرد خواطر و هواجس نفسية و أحلام يقظة ما تلبث أن تتحول الى أفعال وواقع على الأرض و بين الناس ، و نرى في الآية ٥٥ من سورة النور كيف يرتبط الإستخلاف في الأرض و التمكين و الأمن و الإستقرار ، بشرط واحد ضروري و حاسم و مهم ، و هو توحيد الله و عبادته ، أي أن نجاح الحضارات و ديمومتها مرتبط بصلاح الفرد و المجتمع والأمة ، فكل المشاريع التنموية العالمية الكبرى

وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُم مّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{55}

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنّ رَبّي قَرِيبٌ مّجِيبٌ }هود61

والحضارات القديمة و الحديثة ، إرتكزت على تصورات فلسفية و عقائدية و فكرية ، وضعية كتجارب الإتحاد السوفياتي و الصين ، أو التجربة اليابانية الرائدة أو الحضارة الغربية الحديثة التي بنت دعائمها على خليط من الفلسفات اليونانية و بقايا اليهودية و المسيحية المحرفة ، فالعنصر الأساسي لكل تنمية ناجحة هو الإنسان، و كل مجهود تنموي ناجح سيصب في مصلحة الإنسان و في رفاهيته ، و لكي يقوم الإنسان بوظيفته في أعمار الأرض على أحسن وجه و بطريقة تقترب من الكمال ، فقد زوده الله بالعقل و هو جهاز عظيم و هائل ، و بواسطة هذا الجهاز الفخم يستطيع التعلم و اكتساب التقنيات و المعارف التي تعينه على التحكم في الكون و تسخيره لصالحه و بناء الحضارة التي تستفيد منها الإنسانية قاطبة و ليس الجنس أو الأمة التي صنعتها ، فثمار الحضارة و التقدم في النهاية هي ملك مشاع لكل البشرية ، و كما استفاد الغرب قبل الثورة الصناعية من الحضارة الإسلامية و تمكن من إستغلال العلم التجريبي الذي أبدعه العقل المسلم ، و استفاد من التراث اليوناني الذي نقله إليه العرب مترجما و مفصلا ، يستفيد المسلمون و كل سكان المعمورة من مظاهر و مكتسبات الحضارة الغربية بصفة عامة و الحضارة الأمريكية بصفة خاصة ، و هي حضارة مبنية على المنفعة الذاتية و عديمة الروح الإنسانية

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } النور55

ـ الأرض

الأرض أو المكان و الزمان هما من أهم عناصر و أسس بناء الحضارة ، فلا يمكن أن تقوم حضارة من دون الحيز الجغرافي و الزماني، و إلا تحولت الى فلسفة و كلام و خيال في خيال ، فالواقع هو عنصر هام في بناء الحضارة و هذه مسألة متفق عليها بيم كل المفكرين و المنظرين القدامى و المعاصرين ، و لذلك يأتي التأكيد على هذا العنصر في أكثر من موقع في القرآن الكريم ، حيث تحتل كلمة الأرض مكانة مرموقة في الخطاب القرآني بإعتبارها هي الفضاء الذي إختاره الله للإنسان ليعيش فيه و يستقر و يبنى الحضارات و يشيد التقدم و الإزدهار ، و لأهمية الأرض و مكانتها و دورها في صناعة الحضارات ، كانت دوما سببا مباشر للصراعات و الحروب المدمرة التي كانت تستهدف توسيع الجغرافيا و زيادة النفوذ و الهيمنة كما هو حاصل اليوم في القرن الواحد و العشرين بين دول العالم من صراعات .

{الّذِي جعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الّذِينَ كَفَرُواْ إِنّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مّبِيناً }النساء101

{هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُم مّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاء فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة29

{وَلَقَدْ مَكّنّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ } الأعراف10

{إِنّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ }يونس24

{وَقَالَ الّذِي اشْتَرَاهُ مِن مّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف21

{وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ شَيْءٍ مّوْزُونٍ } الحجر19

{الّذِينَ إِن مّكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلَاةَ وَآتَوُا الزّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }الحج41

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }الشعراء7

ـ التمكين

التمكين يعني تدخل القدر الإلهي لدعم شخص أو مجموعة من الناس ، أو أمة من الأمم من أجل وضع الأسس المتينة للحضارة ، بعد توفر شروط النهضة و متطلبات قيام الحضارة ، و أهمها هي العناصر التي ذكرناها سابقا و هي الإنسان المؤمن التقي النقي ، و المرجعية الفلسفية الواضحة ، و الأرض ، و التمكين قد يأتي من الله لغير المتقين كما هو شأن الحضارة الغربية الحديثة التي لا تربطها أية صلة بالله ، و قد بنيت على فلسفات و أفكار و مبادىء وضعية عبثية كافرة ، أو بقايا أديان سماوية منحرفة ، و قد تحدث الخطاب القرأني عن قضية التمكين كإحدى أهم مظاهر نجاح الحضارات ووصولها الى غاياتها النهاية و هي إسعاد الإنسان ، و في القرآن الكريم يقترن التمكين المادي الذي يعني السيطرة على الكون و التحكم فيه و إستغلاله الإستغلال الأمثل لصالح البشرية جمعاء، ب التمكين للإنسان جسديا و نفسيا ، و هو أهم عنصر في صناعة الحضارة و التقدم ، من خلال تزويده بآلات مساعدة على التحكم في الكون و من دونها لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئا و هي العينين و الأذنين و القلب ، و هذه الحواس التي تؤدي وظائف الرؤية و السمع و التفكير هي أيضا مسؤولة عما يقدمه الإنسان في حياته من خير و شر و التمكين

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }الإسراء36

{وَلَقَدْ مَكّنّاهُمْ فِيمَا إِن مّكّنّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَحَاقَ بِهِم مّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون }الأحقاف26

في المفهوم القرآني هو إمتلاك القدرة المادية و المعنوية التي تساعدك على إمتلاك العالم و السيطرة على مكوناته و حسن إستغلال ما سخر لك الله في الكون ، و في القرآن الكريم نماذج لعباد الله الصالحين الذين مكنهم الله فصنعوا حضارات راقية منهم ذو القرنين و سيدنا يوسف على وجه الخصوص ، كما مكن الله سبحانه و تعالى لأنبيائه الكرام ، إبراهيم ، و داوود ، و سليمان ، و مكن لأقوام آخرين كالسيدة يلقيس و أصحاب الجنتين ، ففي قصة ذي القرنين يذكر القرآن الكريم كيف مكن له الله سبحانه و تعالى و ألهمه هندسة بناء السدود و إستغلال الحديد السائل في الإنجاز ، و في قصة سيدنا يوسف تبدو مظاهر الكرم الإلهي واضحة المعالم ، عندما ينتقل ذلك الفتى العبري من غيابة الجب الى القصر الملكي في مصر ، ثم يلهمه الله الحكمة و التأويل ، و تتسارع الأحداث و تحدث الأزمة ، فتكون مفاتيح حلها عند سيدنا يوسف عليه الصلاة و السلام ، فتتغير حياة النبي يوسف و تتغير معها أوضاع

البلد و الناس ، و تتغير الحالة الإجتماعية و الإقتصادية لذلك الفتي الذي إشتراه عزيز مصر ليتخذه ولدا ، فيصبح نبيا و رئيسا للوزراء في مصر الفرعونية ، و هو أعلى منصب سياسي و تنفيذي بعد الملك ، حاكم البلاد .

{أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }الأنعام6

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ }
الأعراف10

{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }
يونس14

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف21

{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف56

{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً }الكهف84

{الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }الحج41

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }الأحقاف26

مفهوم الحضارة: الحضارة في اللغةِ مأخوذٌ من الفعل حضر، فالحضارة هي عكس البداوة التي يعيش فيها النّاس حياة قبليّة، حيث ينتهجون من حياة التّنقل من منطقة إلى أخرى نمطا للحياة ، وهذا عكس الحياة المدنيّة أو الحضريّة التي يمارس النّاس فيها الزّراعة، وغيرها من النشاطات الحضرية، ويعيشون في المدن، فالحضارة هنا تعني الاستقرار .

تعريف الحضارة اصطلاحاً: الحضارة اصطلاحاً تعني مجموعة المظاهر العلميّة، والأدبيّة، والفنيّة ، وكذلك الاجتماعيّة ، الموجودة في المجتمع وتعتمدِ الحضارات الإنسانيّة المختلِفة على بعضها البعض ، فكلّ حضارة جاءت متمّمة للحضارة التي سبقتها ، وتسهم هذه الحضارات في البناء و التعمير و تحقيق التطور الإنساني للعالم بأكمله ، فكانت الحضارة الإغريقيّة وغيرها من الحضارات القديمة التي تميّزت بوضع أساسات البناء الحضاري، ثم جاءت الحضارة الإسلاميّة وعملت على ازدهار هذا البناء الحضاري ، ومن بعد المسلمين جاء الأوروبيون وطوّروا هذا البناء الحضاري مرة أخرى ، في تبادل غير مقصود للأدوار.

ـ صفات الحضارة: لا بدّ أن يكون هناك صفات للحضارة، وهذه الصفات تتمثّل فيما يأتي٣ إنّ الحضارة تتغيّر تدريجيّا وليس بشكلٍ مفاجئ من صفات الحضارة أنّها حضارةٌ إنسانيّةٌ، أي أنّها تختصّ بالإنسان دون غيرِه من الكائنات، وهذا ما يجمع بين مختلف الحضارات على الرغم من اختلافها عن بعضها البعضِ إنّ الحضارة موجودةٌ في عقلِ الإنسان وتفكيره الذي يجعله يعلم أنّ ماضيه مرتبطٌ بحاضره قد تأخذ الأمّة بعضا من حضارات الأمم الأخرى إنّ الإنسان لا يستطيع الابتعاد أو الهروب من مظاهر الحضارة التي يعيش فيها أو يحتكّ بها

ـ شروط الحضارة : أهمّ الشروط التي تؤدي إلى نشوء الحضارة هو الاستقرار يُقصد بالاستقرار عدم الانتقال من مكانٍ إلى آخر، ويُعدّ الاستقرار من العوامل الأساسيّة لتطوّر وازدهار الحضارات ، التعاون إنّ استقرار الإنسان في مكانٍ ما يجعله يحتاج إلى وجود تعاونٍ بينه وبين غيره ممّن يقيمون معه في البقعة الجغرافيّة نفسها، حتى يؤمّنوا سويا الغذاء والحماية من أيّ خطرٍ قد يهددهم الكتابة من أجل أن يقوم الإنسان بالاتصال مع غيره قام باختراع الكتابة، فالكتابة مهمّةٌ ليحفظ الإنسان كلّ ما قام بعمله، وإبداعه، واختراعه، فيقوم بذلك بنقل أفعاله، وتجاربه، وأقواله إلى الأجيال الّتي تأتي من بعده نظريات نشوء الحضارات هناك العديد من النظريات والآراء حول الحضارات وأسباب نشوئها، ومن أهمّ هذه النظريات٤ نظرية فيجر :(Vigor)تتحدّث هذه النّظريّة عن وجود ثلاثة عصورٍ تمرّ بها الحضارة أثناء مراحل تطورها، وهذه العصور هي عصر الأهلّة، وعصرٍ البطولة، وعصر النّاس، وقد حدّد فيجر أنّ هذه العناصر تشترك فيها كل الحضارات أثنـــاء نشوئها

ونموّها نظريّة شبينجلير :(Sehpingler تحدّث الفيلسوف الألمانيّ شبينجلير عن الحضارة في كتابه انحلال الغرب ، حيث ذكر أنّها كالكائن الحيّ الّذي يمرّ بمراحل مختلفة في حياته من طفولة ، وشباب ، ونضوج، وشيخوخة نظرية توينبي :(Twinby Arnoled تحدّث الفيلسوف الإنجليزيّ توينبي عن الحضارة في كتابه دراسة التاريخ، حيث يرى أنّ نشوء الحضارة عائدٌ إلى استجابة الإنسان لتحدّيات الطبيعة نظرية أما ابن خلدون يرى أنّ جميع الحِضاراتٍ التي نشأت كانتٍ في بدايتها تعيش حياة بداوة، إلّا أنّها أخذت بالتوسع شيئا فشيئا حتى صارت عامرة ومزدهرة، ومع مرور الوقت يزول هذا الملك والعمران وينتقل إلى أمم أخرى .

ـ **أسباب انهيار الحضارات** لا بدّ لنا من ذكر أهمّ الآراء حول أسباب انهيار الحضارات وهذه الآراء هي يرى توينبي أنّ اندثار الحضارة يكون بسبب انحلالها، وأنّ انحلال الحضارة يأتي من خلال انشقاق المجتمع أو بسبب البروليتارية الداخليّة للمجتمِع أما شبينجلر فيرى أنّ الحضارة تموت بعد أن تكون قد حقّقت تطورا وازدهارا في شتّى المجالات الدينيّة، والثقافية ، والفنيّة ، وغيرها ، وفي النهاية تعود إلى ما كانت عليه قبل التطور، أي إلى حالتها الأوليّة البدائيّة ، و أنّ هناك عاملان رئيسيان يؤديان إلى اندثار الحضارة ، وهما وجود قوة أكبر من قوة الحضارة نفسها، وكذلك أنّ هذه الحضارة قد وصلت إلى صورتها النهائيّة

ـ **أهم الحضارات :** لابد لنا من ذكر أهم الحضارات الّتي مرت عبر التاريخ والّتي من أهمّهاه حضارة بلاد الرّافدين و هي جزءٌ من حضارات الشرق الأدنى القديم، وأكثر ما يميّز هذه الحضارة أنهارها الكبيرة مثل نهر دجلة ونهر الفرات، هذان النهران لهما أثرٌ كبيرٌ في استقرار الناس، إضافة إلى أنّ وجود نهريّ دجلة والفرات قد ساهم في تطوير حضارة بلاد الرافدين وقد ضمّت حضارة الرافدين العديد من الممالك المهمة مثل مملكة السّومريين، والآشوريين، والبابليين، ولهذه الممالك العديد من الملوك الذين كان لهم أكبر الأثر في تطوير حضارة بلاد الرافدين منهم آشور بانيبال ملك الآشوريين، وكذلك حمورابي المشهور بتشريعاته، وسرجون الملك الأكّادي

حضارة مصر القديمة تتمركز حضارة مصر القديمة على جانبي نهر النيل ، فهي واحدةٌ من أهمّ الحضارات في العالم وأقدمها، وبداية الحضارة المصرية كانت في عام ٣١٥٠ قبل الميلاد، حيث وحّد الملك مينا في ذلك الوقت مصر بعد أن كانت منقسمة إلى قسمين؛ مصر العليا ومصر السفلى، إلّا أنّه كان للمصريين القدماء إنجازاتٌ بالغة الأهمية فقد استطاعوا بناء أهراماتٍ ومعابد، وكان لهمٍ بصمةٌ واضحةٌ في أنظمة الرّي والإنتاج الزراعي، كما أنّهم تركوا إرثا حضـاريّا

وعلمياً، وفنياً حضارة وادي السند عند الحديث عن الحضارات العالميّة العظيمة لا بدّ من ذكر حضارة السّند التي نشأت قبل ٤٥٠٠ سنة، تلك الحضارة التي تمركزت حول نهر السّند، وتعرف هذه الحضارة باسم حضارة هارابا نسبة إلى مدينة هارابا في الباكستان حضارة الصين امتدّت الحضارة الصّينيّة إلى مناطق مختلفة في العصر الحجري الحديث من النهر الأصفر ونهر يانغتزي، وتظهر بعض الآراء ترجيح نشأة الحضارة الصينيّة في البحر الأصفر حضارة الإنديز والإنكا حضارة الإنكا هي أكبر الحضارات في أمريكا الجنوبية وقد كان الهنود الحمر هم من أسّسوا هذه الحضارة، وامتدّت هذه الحضارة حتى وصلت بوليفيا والبيرو وكذلك الأرجنتين والإكوادور، أمّا حضارة الإنديز فقد كانت نشأتها سنة ١١٠٠ قبل الميلاد في جبال الإنديز، إلّا أنّ هذه الحضارة قد زالت على يد الإسبان أثناء غزوهم لأمريكا الجنوبيّة عام ١٥٣٢م الحضارة الإسلاميّة جاءت الحضارة الإسلاميّة لتعيد كثيرا من المعتقدات والأفكار التي كانت سائدة عند الإنسان من قبل، وقد كان للحضارة الإسلاميّة أسسٌ كثيرةٌ أهمها عقيدة التوحيد التي لها دورٌ كبيرٌ في بناء المجتمع، إضافة إلى العدل، والعمل، والعلم . ـ موضوع مختار من الأنترنت

ـ رأي آخر حول الحضارة: الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها و باختصار الحضارة هي الرقي والازدهار في جميع الميادين و المجالات . و ترتكز الحضارة على البحث العلمي والفني التشكيلي بالدرجة الأولى .فالجانب العلمي يتمثل في الابتكارات التكنولوجيا وعلم الاجتماع فأما الجانب الفني التشكيلي فهو يتمثل في الفنون المعمارية والمنحوتات وبعض الفنون التي تساهم في الرقي فلو ركزنا بحثنا على أكبر الحضارات في العالم مثل الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانين عظماء فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أي حضارة ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم **(مختارات من الإنترنت)**

ـ تفاعل الحضارات

الوظيفة الخامسة التي كلف الله بها الإنسان على وجه الأرض ، هي التعارف و التآلف و التعاون مع أخيه الإنسان . بغض النظر عن دينه أو وجنسه أو عرقه ، و الخطاب القرآني يشير بكل وضوح الى هذه القضية في سورة الحجرات على وجه الخصوص و يؤكد أن الله خلق البشر من ذكر و أنثى و هو أصل البشر ، و جعلهم شعوبا و قبائل ، صانعة للحضارات و الإنجازات ، ليتعارفوا و يتعاونوا و يتعاملوا مع بعضهم البعض في شتى المجالات ، و قد كانت التجارة هي النشاط الرائج لدى الشعوب و القبائل القديمة ، و قد إشتهر الفنيقيون مثلا ببراعتهم في التجارة حيث كانت سفنهم سيدة البحر الأبيض المتوسط ، و تمكنوا بفضل ذكائهم و مواهبهم من الإنتقال من صيدا و صور في لبنان الى شمال إفريقيا حيث أنجزوا عدة موانىء لصيد الأسماك بمختلف أنواعها و إستخراج المرجان و تسويقه الى دول جنوب المتوسط ، كما إشتهر عرب الجاهلية برحلتي الشتاء و الصيف التي ذكرها القرآن الكريم ، و تعتبر التجارة وسيلة قديمة للتعارف بين الشعوب و القبائل و نسج علاقات الصداقة و الأخوة و المصاهرة ، و كل الحضارات القديمة التي سجلت بصماتها في التاريخ الإنساني ، إنطلقت بطبيعة الحال من التجارة ، لأن التجارة هي في حقيقة الأمر رأسمال و الرأسمال هو الذي يولد النشاط و يمول الأبحاث و المشاريع التي تنتج عنها في النهاية ما يمكن أن نسميه بالحضارة ، و إذا ألقينا نظرات فاحصة و سريعة على الحضارات التي عمرت في الأرض قديما و حديثا نجد أنها تشترك في خاصية واحدة على الأقل و هي البعد الإنساني لأهداف كل حضارة ، فكل حضارة و بغض النظر عن منطلقاتها الفكرية و مرجعيتها الفلسفية ، هي في النهاية تستهدف سعادة الإنسان ورفاهيته و راحته النفسية و الجسدية ، الإنسان أي إنسان بغض النظر عن جنسه و دينته و موقعه ، فعندما إكتشف الإنسان النار كوسيلة جديدة مساعدة على رفاهية الإنسان ، حيث تمكن بواسطتها من صهر المعادن لصناعة بعض الأدوات ، و تسخين الماء للتطهير و التنظيف و غسل الثياب ، و طهي الطعام ، لم يستفد من هذه الطفرة فقط الإنسان الذي إكتشفها أو المجتمع أو الأمة التي ظهرت فيها هذه الوسيلة الحضارية الجديدة ، و لكن تعدت الإستفادة فعمت كل البشرية و أصبحت النار و الماء و الهواء مكتسبات مشتركة للإنسانية كلها ، و كذلك الشأن بالنسبة للمكتشفات و الإختراعات الحديثة كالسيارة و الطائرة و التلفون ، و الراديو ، و الأدوية المختلفة و الكومبيوتر و الأنترنت و الفيسبوك ، و مختلف وسائل الراحة التي أكتشفتها الحضارة الغربية الحديثة ، لم تعد ملكا لأمريكا أو بعض الدول الغربية ، و حكرا عليها ، و إنما أصبح العالم كله مشتركا في هذه المكاسب و من حقه الإستفادة منها و لذلك قال الرئيس الأمريكي

ألأسبق ـ بيل كلينتن ـ أن أمريكا تستثمر مليارات الدولارات من أجل الإنسانية .

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }الحجرات13

و الأصل في الحضارات كما يقول الكثير من المنظرين هو التعاون و التفاعل ، بحيث تستفيد كل حضارة من الحضارة السابقة و تسعى للتفوق عليها في ميادين مختلفة ، لكن قد يحدث الصراع بينهما على الأرض في حالة ظهور حضارتين أو أكثر مختلفتين في عصر واحد ، و من أهم أسباب الصراع بين الحضارات هو التموقع على الأرض و إكتساب مناطق نفوذ جديدة و زيادة الدخل القومي من خلال توسيع نطاق التجارة ، و يمكن تسجيل أشهر صراع بين الحضارات هو ما حصل بين الحضارة الفارسية الشرقية القديمة و الحضارة الرومانية من تنافس و صراع ، أدى الى إندلاع حروب بينهما ، ذكرها القرآن الكريم و إنتصر للحضارة الرومانية المسيحية على حساب الحضارة الفارسية المجوسية المشركة ، ثم دخلت الحضارتين الرومانية و الفارسية في صراع مرير مع الإسلام .. الديـــن الجديـــد

الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ{2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3} فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ{4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{5} وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{6} يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الروم

و رسالة التوحيد الأخيرة التي إنبثقت عنها حضارة إسلامية عريقة ، و نظام سياسي إسلامي عالمي إمتد حتى بداية القرن العشرين ، كان الصراع بين الحضارتين العريقتين الفارسية و الرومانية من جهة و الإسلام من جهة ثانية صراع ديني ـ ـ ـ صراع بين التوحيد الخالص الذي جاءت به الرسالة الخاتمة ، و الشرك و عبادة النار و المجوسية ، و المسيحية التي تم تحريفها على يد بولس ، و لم تعد دينا سماويا بل تحولت الى خرافات و خزعبلات تدير الرؤوس و تصيب القلوب و العقول بالغثيان ، فالله سبحانه و تعالى الواحد الأحد ، عند المسيحية المحرفة هو ثالث ثلاثة ، و سيدنا عيس عليه السلام و هو نبي من أنبياء الله ، هو تارة نبي الله ، و تارة أخرى إبن الله ، و هكذا إمتزجت مظاهر الشرك و الوثنية مع بقايا المسيحية و تحولت هذه الأخيرة الى خليط من العقائد و الأفكار لا تستسيغه العقول النظيفة ، و بعد إنتصار الإسلام على الروم و الفرس ، بدات معالم الحضارة الإسلامية تظهر للوجود ، حيث كانت هي سيدة الموقف في البر و البحر وحاولت أن تستفيد قـــدر الإمكان

من إيجابيات الحضارتين الفارسية و الرومانية ، و في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ظهرت معالم إلتقاء الحضارات ، كما حاول الفرس و الرومان الإستفادة من الإسلام ، و في العصر العباسي تم ترجمة الفلسفة و العلوم الأجنبية الفارسية و اليونانية و الرومانية ، و الهندية ، و أنفتح الفكر الإسلامي على معارف و علوم إنسانية جديدة ، شكلت رافدا مهما للحضارة الإسلامية التي جاءت على أنقاض الخضارتين الفارسية و الرومانية .

ـ صدام الحضارات بين الوهم و الحقيقة

هل الصراع بين الحضارات حقيقة أم وهم ؟ و هل يمكن أن تتعايش الحضارات المختلفة في زمن واحد دون أن يحدث بينهم إحتكاك و تدافع و تنافس حول النفوذ و المصالح الإستراتيجية ؟ بمعنى هل تتسع الأرض لحضارة واحدة مسيطرة و مهيمنة أم يمكنها أن تتقبل عدة حضارات متصارعة ؟ للإجابة على تلك الأسئلة و على ضوء الواقع والتاريخ يمكن القول أن الصراع بين الحضارات حقيقة تاريخية و واقعية لا يمكن نكرانها ، و الصراع هو حالة طبيعية بالنسبة لكل الحضارات ، إذا إعتبرنا أن الحضارة تشبه الكائن الحي من حيث مراحل النمو و من حيث الغرائز الفطرية ، و أهم غرائز الإنسان التي طرد من أجلها من الجنة هي غريزة حب البقاء و الخلود و السيطرة على الكون و الملك الدائم الذي لا يزول ، و كذلك الحضارات ، فكل حضارة جديدة رغم أنها تحمل في أحشائها بذور فنائها ، و لا بد أن تزول في يوم من الأيام عندما تستنفذ كل مراحلها العمرية ، فإنها تسعى للبقاء أطول مدة ممكنة على وجه الأرض ، و تحاول الهيمنة و التفوق على الحضارات الأخرى المنافسة لها ، و هناك شواهد تاريخية كثيرة تدعم هذا الإتجاه ، وقد شاعت في الفلسفات القديمة عدة شعارات تعبر عن هذه الغرائز الطبيعية مثل البقاء للأقوى ، و البقاء للأصلح ، و قد جرت بين الأمم السابقة حروب مدمرة و طاحنة من أجل البقاء و السيطرة على العالم ، و في العصر الحديث أيضا وقعت الحربين العالميتين الأولى و الثانية ، فقتلت الملايين من البشر و شردت الملايين من العائلات و يتمت الملايين من الأطفال ، و قد مثلت تلك الحروب قمة الصراع من داخل الحضارة الواحدة أي الحضارة الغربية التي وصلت مع بداية القرن ثم مع منتصفه الى قمتها و عنفوانها ، و مع إنتهاء الحرب العالمية الثانية إنقسم العالم الغربي الى نصفين بين الرأسمالية و الإشتراكية ، و دخلت الحضارات السوفياتية و الأمريكية و ألأوروبية في حرب باردة و صراع صامت و ومرير حول النفوذ و السباق نحو التسلح و التنافس حول المصالح الإستراتيجية و الحيوية ، و بعد نهاية الحرب الباردة مع سقوط جدار برلين و إنهيار الإتحاد السوفياتي و معه الكتلة الشرقية ، إختـــرع

الغرب المسيحي المتصهين بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عدوا جديدا هو الإسلام ، لمحاصرته و مواجهته بكل الوسائل المشروعة و غير المشروعة ، الإسلام كدين و كتعبير عن حضارة خالدة ، لئن تأخرت كثيرا عن الركب العالمي نتيجة لعدة عوامل ذاتية و أخرى خارجة عن نطاق المسلمين ، فإنها حضارة تملك مقومات الإسترجاع و العودة و النهوض من جديد ، و لئن لم تكن تملك حاليا من المقومات المادية ما يسمح لها بمنافسة الغرب ، فإنها تملك من المقومات الروحية القابلة للتصدير التي تسمح لها بإحداث التوازن العالمي بين المادة و الروح - - - في العصر الحالي نشهد صراعا مريرا بين الحضارات الأوربية الغربية و الأمريكية من جهة ، و بين الحضارة الروسية و الصينية و الهندية وبدرجة أقل الحضارة اليابانية ، و هناك حراك إسلامي هادىء يبشر بإرهاصات حضارة إسلامية قادمة و نواة وحدة إسلامية في طور التشكل من جديد بين عدة أقطاب إسلامية أسيوية .

ـ مقاربة الأمريكي صامويل هنتنجتون

شاعت منذ نهاية الحرب الباردة و بداية القرن الواحد و العشرين في الأوساط الفكرية و الإعلامية مقولة ـ صدام الحضارات ـ التي بشر بها الكاتب الأمريكي . صامويل هنتنجتون - في كتاب بنفس العنوان ، عبر فيه بأسلوب و مضمون فلسفي عن رأيه في التغيرات العالمية المحتملة بعد نهاية الحرب الباردة و سقوط جدار برلين و العالم على مشارف القرن الجديد ، و يمكن تلخيص مجمل الأفكار التي وردت في مقاربة الأستاذ الأمريكي في النقاط التالية ، أن القرن الواحد و العشرين سيشهد صداما بين الحضارات ليس على أساس إقتصادي و تنافس على مناطق النفوذ كما هو معتاد و لكن لأسباب حضارية ثقافية و دينية ، نهاية القطبية الأحادية الحالية ـ الأمريكية . و ظهور أقطاب عالمية جديدة ، نهاية الحداثة و مشتقاتها ، تغير ميزان القوى بين الحضارات المختلفة ، تراجع التأثير الغربي في العالم الإسلامي الذي أصبح قوة حقيقية ، و هو عامل تهديد للحضارات المجاورة له بسبب تزايد عدد المسلمين و الأسيويين بصفة خاصة ، و الإمتداد الإسلامي جغرافيا ، ظهور تكتلات إقتصادية عالمية جديدة وفق أسس حضارية هي حسب رأيه تعبر عن خمس . ٥ . حضارات ، حضارة الغرب و تضم أمريكا الشمالية و أوروبا الغربية و هي تجمع بين المسيحية و العلمانية ، الحضارة الأورتودكسية و تضم مجموعة الكاراييب ، روسيا ، أوروبا الشرقية ، الحضارة الهندوسية ـ الهند ، الحضارة الكونفشيوسية و تضم الصين و اليابان ، و الحضارة الإفريقية ، الحضارة الإسلامية و تضم جميع الدول التي تنتمي الى ما يسمى بالعالم الإسلامي ، تحالف محتمل بين الحضارتين الإسلامية و البوذية ، لمواجهة الحضارة الغربية .

ـ ملاحظات حول مقاربة صامويل هنتنجتون

ـ أولا: أن الأفكار التي وردت في مقالة ثم كتاب صدام الحضارات للكاتب الأمريكي صامويل هنتجتون ، هي كما يري الكثير من المفكرين و المنظرين المسلمين ، مجموعة أفكار ليست جديدة بل قديمة و كانت متداولة في الأوساط الفكرية و العلمية و الإعلامية و متفرقة هنا و هناك ، و كانت مهمة هنتنجتون فقط هي التجميع و التركيب و إعادة الصياغة و من المفكرين المسلمين الذين إنتقدوا هذه المقاربة ، المفكر المغربي محمد الجابري حيث أعتبرها مجرد ترديد لإفكار سابقة و متداولة ، أما المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد فقد أكد عدم وجود منهجية علمية في كيفية تصنيف الحضارات ، حيث أن الكاتب لم يلتزم بمعيار ثابت في تصنيفه للحضارات ، فتارة يصنفها على أساس ديني ، كالحضارة الإسلامية و تارة على أساس جغرافي كالحضارة الغربية .

ـ ثانيا: مقاربة الأستاذ الأمريكي صامويل هنتجتون التي إنتشرت في العالم كما تنتشر النار في الهشيم بفضل الدعاية الأمريكية و الغربية الهائلة ، هي في الحقيقة مجرد أراء و أفكار لم تصل يعد الى مصاف النظرية ، بل إن المقاربة في مجملها لا تملك المواصفات الفكرية و العلمية و حتى الثقافية لكي تصنف في خانة النظرية العلمية الجديدة . بمعنى أنها مجرد آراء و أفكار قابلة للصواب و الخطأ .

ـ ثالثا: صحيح ان الصراع بين الحضارات في القديم قد إتخذ في بعض الأحيان بعدا دينيا ثقافيا ، لكن في غالب الأحيان كان الإقتصاد و التجارة و البحث عن مواقع النفوذ و التوسع التجاري هي أسباب الحروب التي إندلعت بين الحضارات المختلفة الفرس و الروم سابقا ، الحربين العالميتين الأولى و الثانية في القرن العشرين ، و كل الصراعات التي إتخذت طابعا دينيا ثقافيا إندلعت داخل الحضارة الواحدة ، كالصراع الدموي العقائدي بين المسيحين حول الموقف من السيد المسيح ، و الخلافات و الصراعات التي تنشب بين حين و حين بين مختلف أتباع المذاهب العقائدية و الفقهية الإسلامية ، و بالتالي فإن مقولة الصدام بين الحضارات لأسباب دينية و ثقافية و حضارية ، تبدو غير منطقية و غير محتملة ، و العكس هو الصحيح و مع إزدياد عدد سكان العالم سيكون الصراع دائما إقتصاديا تجاريا و ستحاول كل حضارة توسيع مناطق نفوذها و فتح أسواق عالمية جديدة لتصريف منتجاتها من خلال تشجيع الإستهلاك بمختلف الإغراءات المباشرة و غير المباشرة

ـ رابعـــا : إعتبار المسلمين قوة حقيقية تهدد الحضارات المجاورة ، مقولة دعائية تحريضية غير مؤسسة ، لأن المسلمين في القرن الواحـــد و العشرين قد إبتعـــدوا

بمسافات ضوئية عن الإسلام ،سواء كأنظمة و حكومات أو كشعوب ، و لم يعد الإسلام في أحسن الأحوال سوى شعائر تعبدية يؤديها بعض المسلمين و ليس كلهم في رتابة و روتين ، و تحول الإسلام في غالب الأحيان كما خطط له أعداء المسلمين ، مجرد علاقة روحية بين العبد و ربه ، و العالم الإسلامي لم يعد قوة تخيف الحضارات المجاورة منذ أن تخلى عن الوحدة الجغرافية بعد سقوط الخلافة الإسلامية ، و لم يتمكن حتى من تحقيق وحدة إقتصادية أو ثقافية - و أصبح التشرذم و الخلافات السياسية الحادة هي القاسم المشترك بين الدول التي تنتمي الى العالم اللإسلامي، و حتى التجمعات السياسية الإقليمية الواعدة كالإتحاد المغاربي و مجلس التعاون الخليجي ، التي كانت تشكل بصيص أمل في إمكانية الوصول الى وحدة سياسية بين دول ما يسمى بالعالم الإسلامي ، ماتت بمجرد توقيع ميثاق تأسيسها ، أما منظمة التعاون الإسلامي و هي أكبر تجمع سياسي إسلامي فتحتاج الى تفعيل و إرادة سياسية و نية حسنة حتى تتمكن من وضع أسس الوحدة السياسية و الإقتصادية و الثقافية الإسلامية على الطريق الصحيح بالتدريج ، بل هي تحتاج الى جيل جديد من الحكام و المسؤولين يؤمنون إيمانا راسخا بأهمية الوحدة السياسية الإسلامية و التعاون الإقتصادي و الثقافي الإسلامي الفعال ، و تكوين الكتلة السياسة الإسلامية العالمية التي تتفاوض مع الكتل و التجمعات العالمية الأخرى من موقف و موقع قويين ، خاصة أن العالم الإسلامي و الحمد لله يملك من الطاقات البشرية و الكفاءات و الثروات الطبيعية ، و الإمكانيات المادية ما يؤهله ليكون قوة فاعلة في العالم ، تضمن للمسلمين مكانة مرموقة تحت الشمس و بين الأقوياء.

- خامسا : إمكانية التحالف بين الحضارة البوذية و الحضارة الإسلامية لمواجهة الحضارة الغربية ، تشكل تناقضا حادا في رؤية الكاتب الأمريكي ، فهو من جهة يعتبر الصدام بين الحضارات في القرن الواحد و العشرين سيتخذ طابعا دينيا ثقافيا و ليس إقتصاديا تجاريا كما هو معلوم عن صراع الحضارات ، و من جهة أخرى يتنبأ بإمكانية التحالف بين الحضارة الإسلامية المبنية على التوحيد الخالص و الحضارة البوذية التي تعبد الأصنام التي جاء الإسلام لمحاربتها و تخليص العالم منها ، و ربما وقع صامويل هنتجتون في الخطأ نتيجة التسرع في عرض أفكاره قبل مراجعتها ، ويمكن تصحيح رؤيته بالقول ان التحالف الإقتصادي و التقني و التجاري بين الصين و اليابان كممثلتين للحضارة البوذية الحديثة ، و بعض أو أغلبية دول العالم الإسلامي كلا على حدة و غير مجتمعة ، هو ممكن جدا و قد بدأت بوادره منذ زمان و هو أمر واقع و معلوم لدى الجميع ، حيث أن أمريكا و معظم الدول الغربية تنظران الى العالم الإسلامي كأســـواق مفتوحة لا أكثر و لا

أقل ، و تضع موانع و شروط عسيرة و معقدة لنقل التكنولوجيا الى العالم الإسلامي، كما يوجد تحالف إستراتيجي قديم بين الحضارة الروسية و حضارة أوروبا الشرقية و العالم الإسلامي، إستفاد منه المسلمون في مجال التكنولوجية الحديثة المدنية و العسكرية ، بغض النظر عن الفوارق و التناقضات و الصدامات المحتملة ببن المرجعيات الفكرية و الفلسفية التي بنيت عليها الحضارت في روسيا و أوروبا الشرقية و الصين خاصة ، و المرجعية الفكرية و الدينية الإسلامية التي أساسها التوحيد ، و في هذه الحالة كان الدافع الإقتصادي أو التجاري المحض هو الأهم و يأتي في الدرجة الأولى بالنسبة للإتحاد السوفياتي و دول المعسكر الشرقي و حتى كوبا ، ثم تأتي المصالح السياسية في الدرجة الثانية خاصة بالنسبة للإتحاد السوفياتي و دول الكتلة الشرقية في إطار ما كان يسمى بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بزعامة الإتحاد السوفياتي و الغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية .

ـ سادسا : لم يأت الكاتب الأمريكي صامويل هنتجتون ، بأي جديد فيما يتعلق بتصنيف الحضارات الجديدة ، و كل ما في الأمر انه حاول الحاق كل حضارة بأساسها الديني ، و جاء بمعلومات متداولة في الكتب المدرسية التي تشير الى أن عالمنا الحديث تتقاسمه و منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عدة حضارات متصارعة حول النفوذ و الأسواق العالمية ، و هي نفس الحضارات التي ذكرها الكاتب و الأستاذ الجامعي الأمريكي ، و هي الحضارة الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية و تضم دول أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية ، و الحضارة الروسية و تضم أيضا دول المعسكر الشرقي الشيوعي سابقا ، و الحضارة الكونفوشسة و تضم الصين و اليابان ، و الحضارة الهندية ، و جدير بالملاحظة ان مصطلح الحضارة قد ينطبق على تلك الحضارات المذكورة التي تتنافس فيما بينها حول النفوذ و الأسواق العالمية ، و قد بلغت درجة من الرقي و التطور الإقتصادي خاصة يجعلها تتبوأ مرتبة مرموقة في العالم ، و هذه الدول المذكورة قد توصلت الى تحقيق أهم أسباب و شروط النهضة و التقدم و بلوغ درجة الحضارة المتميزة من خلال الإكتفاء الذاتي التام و الذي يشمل كل المنتوجات و المواد الضرورية ، كما أن حديث الكاتب الأمريكي عن حضارتين إسلامية و إفريقية لا وجود لهما في أرض الواقع ، هو نوع من الخيال ، أو الإندار المبكر للغرب بصفة عامة و الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة ، لكي تكون على أهبة الإستعداد لتدمير أية نواة لحضارة إسلامية محتملة ، وتفكيك أي تجمع سياسي أو أقتصادي أو حتى ثقافي يمكن أن يبنى على أسس إيديولوجية إسلامية يكون مقدمة لوحدة أو تجمع إسلامي جديد .

ـ الأمانة

الأمانة في اللغة هي الوديعة ، و هي المسؤولية ، و هي الشهادة بوحدانية الله ، تنفيذا للعهد الذي قطعه أجدادنا مع الله يوم خلقهم فأشهدهم على أنفسهم و سألهم و هو أعلم العالمين ألست بركم ؟ قالوا بلى ، و لفظ الأمانة يأتي في الخطاب القرآني في عدة صيغ و دلالات و معان ، و في الغالب يقدم الأمانة كقيمة أخلاقية عالية المقام ، تقابل الخيانة و الغدر ، و الرسول محمد ﷺ لفرط أمانته و صدقه في معاملاته مع الناس سمي من طرف قومه قبل البعثة بالأمين ، و كانوا عندما يسافرون للتجارة أو للسياحة يضعون عنده أماناتهم ، و لذلك يطلق على الأمانة الوديعة و هو ما يودعه الإنسان عند إنسان آخر يثق فيه من أموال أو أشياء لفترة معينة ثم يستردها ، كما يعبر بالأمانات بصيغة الجمع عن الحقوق ، حق الله و رسوله و حق الوالدين ، و حق الزوجة ، و حق الأبناء ، و يربط بين آداء الحقوق الإجتماعية و المالية و الحكم بين الناس بالعدل ، فالذي لا يؤتمن على دينار أو درهم ، و الذي لا يؤدي حق والديه و زوجته و أبنائه بالمعروف و حسب طاقاته المادية و المعنية ، لا يمكن أن يكون حاكما بالعدل ، و لا يمكن أن يتجرد من أنانيته ، الأمانة هي إقامة الدين بكل ما تحمل كلمة دين في التصور الإسلامي من معان و دلالات ، الدين و هو كلمة الله العليا الى الإنسان عبر الرسل و الدين هو العقيدة و الشريعة ـ ـ الأمانة بالمفهوم الوارد في أواخر سورة الأحزاب ليست هي الأمانة بالمفهوم المعتاد الذي يعرفه العام و الخاص ، كقيمة أخلاقية و صفة نبيلة .. الأمانة دعوة لتنفيذ العهد و إقامة الدين ، كما ورد في السنة النبوية الشريفة تشديد على ضرورة تحلي المسلم بفضيلة الأمانة ، بإعتبارها قيمة أخلاقية عظيمة لها تأثير كبير على العلاقات الإجتماعية ، بحيث تفقد تلك العلاقات الطبيعية بين أفراد الأسرة و الأهل و الجيران و المجتمع و زملاء العمل ، و أبناء الأمة الواحدة ، حرارتها إذا أصبحت الأمانة عملة نادرة ، فتصاب الأجواء بالتسمم و تنعدم الثقة بين أفراد الأسرة الواحدة أو المجتمع الواحد ، و تصبح الحياة صعبة و غير ممكنة على الإطلاق بهذا الشكل البشع .

{إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء58

{يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }

{وَالّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } المؤمنون8

أنواع الأمانة

الأمانة في العبادة وذلك بأن يؤدي المسلم الفرائض كما يجب؛ فيحافظ على الصلاة والصيام وبر الوالدين الأمانة في حفظ الجوارح وذلك بأن يحافظ المسلم على الجوارح وكل الأعضاء، ويتجنب استخدامها فيما يغضب الله، فاليد أمانة يجب على المسلم أن يجنبها الحرام، والعين أمانة يجب أن يغض بصره عن الحرام الأمانة في حفظ الودائع وذلك بأن يؤدي المسلم الودائع لأصحابها عندما يطلبونها

الأمانة في العمل: وذلك بأن يؤدي الإنسان عمله بإتقان وعلى خير وجه الأمانة في الكلام أن يعرف المسلم قدر الكلمات، ويلتزم بالكلمات الجادة، فالكلمة قد تدخل صاحبها الجنة، كما يجب تجنب الكلمات التي تدل على الكفر والمعصية، والتي تكون سببا في دخول النار .

الأمانة في المسؤولية: كل إنسان سواء كان حاكماً أم أباً أم ولداً أم أماً راع ومسؤول عن رعيته .

أمانة النبي محمد ﷺ أمانة الرسول في حمل رسالة الإسلام ائتمن الله سبحانه وتعالى الرسول عليه السلام على رسالته، وجعله خاتم الأنبياء والرسل، وأدى الرسول الأمانة على أكمل وجه، حيث كانت الأمانة أول ما دعا الناس إليه في بعثته و وصاهم بها ، لقب عليه الصلاة والسلام بالصادق الأمين تعتبر الأمانة من أكثر الأوصاف التي اتصف بها منذ نشأته وقبل بعثته، حيث كانت تنعته قريش بالصادق الأمين وكانوا يحتكمون عنده في خصوماتهم، ويستودعونه أماناتهم

أمانته مع السيدة خديجة: استأمنته السيدة خديجة على أموالها قبل أن يتزوجها، فتاجر بها، وجاء لها بأرباح مضاعفة، وعندما تزوجها كانت أول من صدقه واتبعه من الناس ، والأنبياء هم أمناء الله في أرضه على دينه وشرائعه، لذلك كانت الأمانة واجبة لهم، ومن الأمثلة على ذلك قول هود عليه السلام أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ الأعراف ٦٨ قول العزيز لسيدنا يوسف قال إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ يوسف ٥٤ قول ابنة شعيب عليه السلام في وصف موسى عليه السلام قالتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ القصص ٢٦ ـ منقول من الأنترنت بتصرف يسير ـ هذه أهم أنواع الأمانات التي يجب على كل مسلم الوفاء بها و هي تتضمن كل الأبعاد الدينية و الإجتماعية و الإقتصادية و الثقافية ، و كما يؤتمن الإنسان المسلم على الدينار و الدرهم ، و على جاره ، يؤتمن على إحترام الملكية الفكرية و العلمية ، و يجب أن يكون الإنسان المسلم أمينا و مؤتمنا في كل أحواله ، في بيته و عمله ومع جيرانه .. إلخ

أضواء على سورة الأحزاب

ما يهمنا في هذا المحور المتعلق بالأمانة ، و بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية و دورها في حفظ كيان المجتمع الإسلامي و الدولة المسلمة و الأمة المسلمة ، و أهميتها كقيمة أخلاقية راقية في الواقع الإجتماعي و الإقتصادي و الثقافي ، ما يهمنا كثيرا و نحن نتناول قضية التصور الإسلامي لله و الحياة و الإنسان ، هو الأمانة بالمفهوم الوارد في سورة الأحزاب ، الأمانة اتي عرضها الله سبحان و تعالى على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منه و حملها الإنسان ، فكان ظلوما جهولا ، فما هي طبيعة هذه الأمانة ، و ما هي مظاهرها و مضامينها ؟ هل هي مجرد قيمة خلقية مفروضة على الجميع مهما كان موقعه داخل المجتمع أو الدولة أو الأمة ؟ أم هي نوع آخر من الأمانات مغايرا تماما لما يعرفه الناس من أنواع الأمانات التي ذكرنا و التي لم نذكر ؟ لا شك أن الأمانة التي تتحدث عنها القرآن الكريم في خواتم سورة الأحزاب التي تعرضت في مجملها لتفاصيل عديدة و تطورات كثيرة شهدها المجتمع الإسلامي الفتي في المدينة المنورة ، هي أمانة من نوع خاص ... سورة الأحزاب صورت لنا بدقة متناهية و بشفافية تامة واقع المجتمع الإسلامي الجديد و بداية تأسيس الدولة الإسلامية ؟ و كما يقول الأستاذ سيد قطب فإن هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة في فترة

{ إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } الأحزاب72

تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى الى ما قبل صلح الحديبية ، و تصور هذه الفترة من حياة المسلمين تصويرا واقعيا مباشرا ، و هي مزدحمة بالأحداث و التنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع المسلم الناشىء ... و هذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة ، فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة و في حياة الدولة ، و السورة تتولى جانبا من تنظيم الجماعة المسلمة وفق أصول جديدة من العقيدة و التشريع ، كما تتولى تعديل الأوضاع و التقاليد و إبطال بعضها و إخضاعها للتصور الإسلامي الجديد ،ـ في ظلال القرآن ص٢٨١٨ و يمكن تلخيص أهم الأحداث و المواقف التي تناولتها سورة الأحزاب حتى نأخذ فكرة عامة عن مضامينها لنصل في النهاية لتحليل لغز ورود قضية الأمانة في خواتيمها ، تبدأ السورة بتوجه الرسول ﷺ الى تقوى الله و عدم طاعة الكافرين و المنافقين و إتباع ما يوحى إليه ، و التوكل على الله وحده ، ثم يجيء التأكيد على ، و حدة التصور و الموقف و إستحالة الجمع بين النقيضين في موقف واحد و لحظة واحدة و التأكيد على دور القلب كجهاز مساعد للعقل

على التفكير و التأمل و إتخاذ القرار ، و ما دام الإنسان يملك قلبا واحدا فلا يستطيع أن يعبد إلهين في نفس الوقت بنفس القوة و الإيمان و الصدق ، ثم إبطال عادة الظهار و محوها من الخريطة الإجتماعية الإسلامية ، ثم تأسيس الولاية العامة للرسول ﷺ فإبطال المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار و هو الإجراء المؤقت الذي فرضته ظروف و أحداث إستثنائية ، ثم الحديث عن معركتي الأحزاب و بني قريظة ، ثم يأتي موضوع تخيير نساء النبي اللواتي طالبنه بزيادة النفقة ، بين متاع الحياة الدنيا و الله ورسوله و الدار الآخرة ، فإخترن الله و رسوله و الدار الآخرة ، و يعرج على قضية زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش إبنة عمته ، التي تزوجها من قبل زيد بن حارثة ، و هو الإبن بالتبني للرسول ﷺ و فيه إشارة الى أبطال عادة جاهلية قديمة و هي إعتبار الإبن المتبني كالإبن الأصلي ، فإشارة خفيفة و سريعة لحكم المطلقات من النساء قبل الدخول بهن ، ثم دخول مباشر في الحياة الخاصة للرسول ﷺ فيقدم إرشادات و توجيهات قيمة للصحابة الكرام بضرورة إحترام الحياة الشخصية للرسول الكريم و عدم إحراجه ، ثم يأتي موضوع اللباس الشرعي للمرأة المسلمة و يبدأ التطبيق العملي بزوجات و بنات الرسول ﷺ و في الفصل الأخير من السورة يجيء السؤال الذي يحير العقول و القلوب و يتناول موضوع الساعة أي القيامة ، و في نفس الوقت الإجابة عته بأن علمها عند الله و هي من الأسرار التي إحتفظ الله بها و لم يخبر بها أو عنها أحد من الناس مهما كان شأنه ملكا أو نبيا أو وليا أو بشرا عاديا ، يعرض بعده مباشرة مشهدا مروعا هائلا مخيفا من مشاهد يوم القيامة و لهذا المشهد حسب تقديري المتواضع أنا العبد الضعيف لله علاقة عضوية بقضية الأمانة التي تعرضها السورة فيما بعد ، و هو المشهد الذي يصور مشاعر و مواقف و حالة الكفار و المنافقين و هم يواجهون مصيرهم النهائي ، كما يصور بدقة حالة الندم و الحسرة التي تنتابهم و هم يسترجعون الأيام الخوالي ، ايامهم و يومياتهم في الدنيا و هم يترفعون عن الإستماع الى صوت الحق - - - الى الله و الرسول و يرفضون الطاعة و الإلتزام بأوامر الله و الرسول .. هذا المشهد الواقعي المخيف الذي يبدأ بهذا الوعيد الصادق **(يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسول)** و في الشطر الثاني يصور القرآن الكريم تصويرا دقيقا الحالة النفسية للكفار و المنافقين و هم ناقمون على السادة و الكبراء و هم الحكام و الرؤساء و الملوك و الأمراء الذين ضلوا أتباعهم في الدنيا و الآخرة ، فأنظر كيف ينقل القرآن الكريم بصدق و بالتصوير العميق أعترافهم بالخطأ و يرمون المسؤولية على سادتهم و يتمنون لهم مصيرا اسودا تتخلله اللعنة و البوار و الخلود في النار **(ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيل ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب و ألعنهم لعنا كبيرا) الأحزاب ،** و يأتي المقطع المتعلق

بالأمانة في آخر السورة ، و تأخيره ليكون مسك الختام لم يأت هكذا صدفة أو أعتباطا ، بل إن وجوده في آخر السورة له دلالات عميقة و معان و إشارات بعيدة المدى .

ـ الأمانة العظمى

الأمانة التي تتحدث عنها خواتم سورة الأحزاب تأخذ في تقديري المتواضع مفاهيم أخرى و ابعاد مغايرة تماما لما يعرفه المسلمون عن مفهوم الأمانة بصفتها قيمة خلقية ذات إعتبار كبير في الحياة الإجتماعية و الثقافية و السياسية و الإقتصادية ، الأمانة هنا و كما يعبر عنها الخطاب القرآني مسألة كبيرة وواجب عظيم و مسؤولية ضخمة و خطيرة و مهمة صعبة ... شديدة الصعوبة لدرجة ان السموات و الأرض و الجبال و هي من مخلوقات الله العظيمة و الهائلة بالمقارنة مع طبيعة و حجم و دور و تأثير الإنسان في الوجود ... رفضن تحمل مسؤوليتها و أشفقن منها و أعتذرت تلك المخلوقات الكبيرة و الضخمة و الهائلة و هي السماوات و الأرض و الجبال إعتذرت لله بلطف و محبة و خوف و رهبة عن تحمل هذه المسؤولية ، فما هي هذه الأمانة التي أشفقت من تحملها السماوات و الأرض و الجبال و أبين أن يحملها ؟ و لماذا تحملها الإنسان و هو يدرك أنه لا يستطيع الحفاظ على هذه الأمانة و القيام بتبعاتها في الأرض على أحسن ما يرام ؟ هذه الأمانة التي عرضها الله سبحانه و تعالى على السماوات و الأرض و الجبال ، فرفضن تحملها و اشفقن منها و إعتذرن لله بأدب و خوف و وقار و جحل و حياء ، في تقديري المتواضع هي ليست فقط الأمانة بمفهومها الوارد في الأيات القرآنية الكريمة التالية ، التي تعتبر الأمانة خلقا رفيعا و صفة جميلة تقوم بدور الضامن للأمن الإجتماعي و الإقتصادي و السياسي و الثقافي ، و توفر الإستقرار التام في المجتمع ، و هي نوع من الأمانة يمكن للإنسان المسلم و حتى غير المسلم أن يقوم بها و كما رأينا في الفقرات السابقة فإن الرسول الكريم محمد ﷺ كان يلقب قبل بعثته بالأمين ، و الأمانة كصفة خلقية كانت منتشرة في المجتمعات الجاهلية سواء عند العرب او الفرس أو الروم ، و الكثير من المسلمين صحابة و تابعين و مسلمين عاديين أشتهروا عبر التاريخ الإسلامي بالأمانة بمفهومها الإجتماعي على الأقل ، كما أشتهر الكثير من العلماء و الفقهاء و المفكرين المسلمين بالأمانة الثقافية و العلمية ، و الكثير من الخلفاء و الأمراء بالأمانة السياسية و الأقتصادية .

{إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء58

الأمانة بالمفهوم الذي تقدمه سورة الأحزاب و هي السورة التي تناولت بإسهاب و تفصيل عدة قضايا مصيرية عاشها المجتمع الإسلامي الوليد و هو يضع حجرات الأساس للدولة الإسلامية بالمدينة المنور ، هي ما يمكن أن نسميه ب الأمانة العظمى ، و المسؤولية الكبرى التي تشمل كل الوظائف و المهام التي كلف به الإنسان على وجه الأرض ، و هي كما تناولناها بالتفصيل في الفقرات السابقة الخلافة و العلم ، و العبادة ،و التعارف أو التعاون ، الأمانة في تقديري المتواضع هي ايضا الوفاء بالعهد الذي قطعه أجدادنا مع الله عندما سألهم بعدما خلقهم ألست بربكم فقالوا بلى ، و الشهادة بالربوبية ليست مجرد كلام يقال في خطبة أو مقالة أو منشور في الفيسبوك و ينتهي الأمر ، للشهادة بالربوبية ووحدانية الله تبعات فكرية عقائدية نظرية و إلتزامات شخصية و إجتماعية و إقتصادية و سياسية ، تكبر و تصغر حسب موقع و دور و مسؤولية الإنسان المسلم في المجتمع و الدولة و يبدو لي و الله أعلم

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172

{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب72

أن مفهوم الأية ١٧٢ من سورة الأعراف التي تتحدث عن موضوع إشهاد الله سبحانه و تعالى لبني آدم على ربوبيته ، يقترب من مفهوم كلمة الأمانة الواردة في أواخر سورة الأحزاب ، فهي أمانة ليست كالأمانات المتعارف عليها لدى البشر من مختلف الشرائح و الأديان ... هي الأمانة العظمى و المسؤولية الضخمة التي إعتذرت عن تحملها السماوات و الأرض و الجبال ، إشفاقا و خوفا من الوقوع في الحرج الكبير حر ج الإخلال بهذه المسؤولية العظيمة و عدم الوفاء بها على أكمل وجه و بالشكل الذي يرضي الله سبحانه و تعالى ... الأمانة العظمى هي التكليف الإلهي للإنسان من يوم خلقه و تنفيذ الأمر الإلهي بالوفاء بالعهد و بالإشهاد الذي قطعه على نفسه بأن الله هو رب العالمين هو الله الواحد الأحد لا إله إلا هو و هو المعبود و هو الخالق الرازق ، الأمانة العظمى هي إلتزام الإنسان بأداء الوظائف الخمس التي كلف بها من طرف الله في الحياة الدنيا على أحسن وجه ، هي تأدية واجب الخلافة بتحكيم شريعة الله في الأرض ، و هي عبادة الله بما شرع ، و عبادته سبحانه و تعالى بما شرع تقتضي توحيد الربوبية و الألوهية و الصفات و الأفعال و توحيد الحاكمية و طلب العلم بإسم الله و في سبيل الله ، و التعارف و التعاون من أجل رفاهية الإنسانية ، و الأمانة العظمى يشترك في ضرورة آدائها و الوفاء بها كل البشر بغض

النظر عن عقائدهم و تصوراتهم و أفكارهم ، و بغض النظر عن أوضاعهم المادية و مستوياتهم الثقافية و العلمية ، و بغض النظر كذلك عن مسؤولياتهم في الأرض ، لأن هناك تفاوت بينهم في حجم المسؤولية و كلفة التبعية بين إنسان و آخر بحسب الموقع في الأرض و طبيعة المسؤولية و المهام التي أنيطت بها ، و هناك فرق شاسع بين الإنسان الحاكم أو الرئيس أو الملك أو الأمير و بين الإنسان البسيط الموظف العادي المجرد من أية مسؤولية ، أو المسؤول التنفيذي المركزي أو المحلي الذي يخضع في كل أعماله لتوجيهات المسؤول الكبير ، الأعلى منه درجة ، يقول الأستاذ سيد قطب تعقيبا على الآية التي ذكرت موضوع الأمانة في خواتم سورة الأحزاب ـ و تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة و التأثير... و هو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، و على عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ، و هي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى ،أمانة العقيدة و الإستقامة عليها ، والدعوة و الصبر على تكاليفها ، و الشريعة و القيام على تنفيذها في أنفسهم و في الأرض و من حولهم ـ في ظلال القرآن ـ

. هل إلتزمت الأمة المسلمة بأداء الأمانة العظمى؟

و يمكن صياغة هذا السؤال بشكل آخر حتى لا نظلم كل الأجيال المسلمة التي تعاقبت مع مرور السنوات و الأيام ، فنقول هل إلتزمت كل الأجيال المسلمة بأداء الأمانة العظمى التي كلفت بها من طرف الله سبحانه و تعالى ، على أكمل وجه ؟! إن المتأمل في تاريخ الإسلام و المسلمين منذ نشأة الدولة المسلمة في المدينة المنورة على يد الرسول ﷺ الى يومنا هذا ، يدرك من دون شك أن المسلمين حكاما و شعوبا لم يلتزموا بأداء الأمانة العظمى و الوفاء بالعهد مع الله سوى في فترات قصيرة لا تتجاوز الثلاثين سنة هي فترة الخلافة الراشدة ، و حتى هذه الفترة المباركة تخللتها أحداث أليمة و مؤسفة ، بدأت بخلاف عميق بين الصحابة الكرام ـ المهاجرين و الأنصار ثم داخل معسكر المهاجرين نفسه بين عدة أقطاب ، مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ ثم بتمرد القبائل المحيطة بالمدينة و خلافات الصحابة الكرام حول الطريقة المثلي للتعامل مع هذا الحدث الطارىء و غير المتوقع ، و من بين أربعة خلفاء راشدين تم إغتيال ثلاثة منهم و هم عمر و عثمان و علي ، و حتى من يلقب في التاريخ الإسلامي بالخليفة الراشد الخامس و هو عمر بن عبد العزيز مات مقتولا بالسم حسب أصح الروايات ، و يمكن تسجيل ملاحظة حول عمليات إغتيال الخلافاء الراشدين الثلاث و تتعلق بوجود ثغرة في الجانب الأمني المتعلق بحراسة الخلفاء راجعة أساسا الى حداثة التجربة و الى طبيعة الحياة السياسية الإسلامية في ذلك الوقت التي كانت تتسم بالبساطة في كل شيء و عدم التكلف و حسن الظن

بالناس ، و النظام الإسلامي الفتي لم يكتسب تجربة كبيرة في الحكم و لم يتأثر في بعض الجوانب الشكلية و البروطوكولية بالأنظمة المجاورة كالفرس و الرومان التي كانت تقيم وزنا كبيرا للجانب الأمني ، و إن كان الخلاف الذي نشب بين الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ و هو خلاف سياسي بالدرجة الأولى و تشكلت إثره نواة لعدة أقطاب سياسية ، يمكن إعتباره طبيعيا بالنظر الى غريزة حب الظهور و حب السلطة المستحكمة في كل نفس بشرية ، حيث كان الأنصار يعتقدون أنهم بإستقبالهم للرسول ﷺ و المهاجرين معه و إحتضانهم للرسالة هي ميزة تمنحهم أحقية خلافته ، فإن المهاجرين الذين تركوا ديارهم و أموالهم و أهلهم و هاجروا مع الرسول ﷺ إعتقدوا أنهم أولى بخلافته ، بالإضافة الى أهل البيت و أهل الرسول ﷺ و أقربائه الذين كانوا يطمحون لخلافته ، هذه كلها مسائل طبيعية قد تحدث في كل المجتمعات ، لكن ما يثير الإنتباه هو قضيتي تمرد قبائل الأعراب المحيطة بالمدينة المنورة و دخولها في حرب شرسة مع جيش الخليفة الراشد أبوبكر الصديق ، حول دفع الزكاة ، و الإغتيالات التي راح ضحيتها الخلفاء الثلاثة و يظهر لي أن مؤشر إنحراف الأمة الإسلامية بدأ من لحظة أغتيال الخليفة عثمان رضي الله عنه ، إذا إعتبرنا أن حادثة أغتيال الخليفة عمر تمت على يد شخص أجنبي مجوسي حاقد و مدسوس ، بغض انظر عن الخلل الأمني الذي ذكرناه سابقا و الذي يرجع الى حداثة التجربة و بساطتها و الثقة المطلقة في الناس ، فعندما يتم إغتيال خليفتين مسلمين من طرف مسلمين ليس بينهم و بين النبوية سوى عهد قريب ، و مهما كانت الأسباب و الخلافات و هي مادية بحتة حول المنافع و المصالح الدنيوية ، ربما خضعت لإجتهادات خاصة من طرف الخليفة الراشد عثمان بن عفان الذي دفع نصف ماله في سبيل تمويل نشاطات الرسالة المحمدية الخاتمة ، عندما يغتال خليفة راشد تجاوز الثمانين من العمر ، داخل بيته و هو صائم يتلو القرآن الكريم ، فقد سجل المسلمون اولى بدايات الإنحراف السياسي و الإجتماعي و الأخلاقي ، ثم يأتي الشوط الثاني من الإنحراف السياسي و الأخلاقي مع فترة خلافة سيدنا علي رضي الله عنه و لنفس الأسباب مع الأسف الشديد ، التهافت على الدنيا و الصراع حول المناصب و السلطة و المنافع التي يجرها الحكم أو القرب منه ، و نلاحظ كيف ورط خصوم علي السيدة عائشة و زجوا بها في معركة تقرير المصير، و كيف تقابل المسلمون لقتال بعضهم البعض ، قد يشير بعض المؤرخين الى الدور الأجنبي أو ما يسمى حديثا بالمؤامرة الخارجية ، و دورها في تأجيج الخلافات بين المسلمين و الزج بهم في معارك وهمية و حروب قاسية ، قد يكون ذلك صحيحا لكنه لا ينفي المسؤولية السياسية و القانونية و الأخلاقية عن المسلمين المتورطين في قضية التمرد والإمتناع عن دفع الزكاة و إغتيال الخليفتين عثمان و علي رضي الله

عنهما ، و ضمن المجموعة التي تكالبت على سيدنا عثمان و أصرت على إغتياله رغم كبر سنه يوجد العديد من الجيل الثاني من أبناء الصحابة الكبار ، كما أن المجموعة الثانية التي دخلت في صراع سياسي و عسكري مع سيدنا علي كرم الله وجهه كانت تضم هي الأخرى العديد من الصحابة الكرام ؟

ـ معاوية بن أبي سفيان . . . و الإنحراف الكبير

رغم ما شاب الخلافة الراشدة التي إمتدت على مدار ثلاثين سنة ، من خروج عن النص و خلافات سياسية من منطلقات و بأهداف و غايات مادية دنيوية ، فقد كانت على أي حال نموذجا للحكم السياسي و الإجتماعي و الإقتصادي و الثقافي الإسلامي الراشد ، و صلت في بعض الأحيان الى تحقيق نظام حكم إسلامي مثالي عجزت البشرية عن إعادته في الواقع خاصة فترة حكم سيدنا عمر رضي الله عنه ، فقد أتسم إنتقال السلطة من خليفة الى آخر عن طريق الإنتخاب و البيعة في المرة الأولى ، ثم بواسطة الإستخلاف ، ثم العودة الى الشورى و البيعة بعد إغتيال الخليفة عمر من طرف المجوسي الخائن أبو لؤلؤة ، بوصية من عمر الذي حرص على حضور إبنه عبد الله للشهادة و الترجيح دون الحق في الترشح ، ثم العودة الى الشورى و التعيين و البيعة ، لكن في خلافة على كرم الله وجهه بدأت تظهر بوادر تمرد سياسي و إنحراف عن الخط العام للخلافة الإسلامية الراشدة ، حيث تمرد معاوية بن أبي سفيان الوالي الذي عينه الخليفة عثمان بن عفان بالشام ، و رفض تنفيذ قرار إعفائه من منصبه الذي أصدره الخليفة الجديد على بن أبي طالب ، و من هنا بدأت مشكلة الصراع حول السلطة في العالم الإسلامي ، و دون أن ننسى ما وقع بين معاوية و سيدنا على كرم الله وجهه من معارك ، و كيف إحتال معاوية بحكاية رفع المصاحف على رؤوس السيوف و الرماح ، و بعد إستشهاد سيدنا علي تحايل معاوية على سيدنا الحسن و إغتصب منه السلطة و حولها من خلافة راشدة أساسها الشورى و الإختيار الحر عن طريق البيعة ، الى ملك عضوض يتوارثه أفراد الأسرة الواحدة ، فوقع الإنحراف الكبير، و تحول الحكم الإسلامي من الخلافة الربانية التي تحكم بما أنزل الله و تقيم دعائم الدولة على الشورى و البيعة و النظام الرباني ، الى نظام ملكي وراثي أسري عائلي ، أصبح منذ خلافة الغلام الفاسق يزيد بن معاوية لعبة تتناقلها الأبناء عن الآباء و الأجداد ، و بدل أن تسمى خلافة إسلامية سميت خلافة أموية ثم عباسية ثم عثمانية ، و في إثناء ذلك التاريخ الذي يسمى مجازا إسلاميا وقعت إنحرافات خطيرة عن الطريق المستقيم إرتكبها ملوك و أمراء بإسم الإسلام ، و هكذا ضيعت النخب الإسلامية التي حكمت في العالم الإسلامي الأمانة العظمى و تخلت عن واجباتها الأساسية ، التي كلفت بالقيام بها إستجابة لله

سبحانه و تعالى ، ضيعت الأمة الإسلامية منذ ذلك الوقت حتى اليوم الأمانة العظمى و تخلت عن أداء دورها كأمة شاهدة ، و امة خيرية ، أمة شاهدة على الناس ، أمة الخير التي تقود قطار الحياة ، و تحفظ مكانها في مقدمة الصفوف بين الأمم ، ضيع المسلمون الأمانة و تخلوا عن منصب الشهادة ، و تركوا المبادرة للأمم الكافرة ، و ننظر في الأفق فلا نرى اليوم في سنة ٢٠١٩ للمسلمين نخبا حاكمة و شعوبا أي دور في الحياة و أية قيمة بين الأمم ، رغم أن الله سبحانه و تعالى قد رزق الامة المسلمة بكل المؤهلات المادية و المعنوية التي تجعلها كما قال خير أمة أخرجت للناس ، و أمة الوسط الشاهدة على الناس ، و تبحث في التاريخ عن أسباب الإنحراف في السابق ، و أسباب الهزيمة الحضارية اليوم فتجد أن من بين أهم أسبابها صعف الوازع الديني و نقص الإيمان و إنعدام اليقين في الله ، و بعبارة واحدة و بسيطة هي عدم وجود التقوى بمعناها الصحيح و الصادق في قلوب المسلمين شعوبا و حكاما ، فعندما كان المسلمون الأوائل مسلمين شكلا و مضمونا و بإمكانيات بسيطة فتحوا العالم و تغلبوا على الفرس و الروم و بلغوا بفرسانهم مشارف أوربا و شواطىء المحيط الأطلسي ، و حتى من خلال حكم الأسر المسلمة و هو شكل من الحكم لا تقره الشريعة الإسلامية و لا يقبله عاقل ، فقد حقق المسلمون بعض الإنتصارات التي تكتب لهم في ميزان حسناتهم ، فقد تم فتح المغرب العربي و الأندلس و القسطنطينية ، و كان النظام السائد هو الشريعة الإسلامية و يقيت تلك الأوضاع الى غاية سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ و هو الحدث الذي حضر له أعداء الأمة الإسلامية بجدية و مكر كبيرين ، و نجح الغرب الصليبي المتصهين في ، إحداث شروخات جغرافية كبيرة في العالم الإسلامي ، جعلت من الأمة الإسلامية الواحدة من المحيط الى الخليج عدة دويلات صغيرة تتنافس مع بعضها و تتصارع ، ثم نجح الغرب في إقناع قادة تلك الدويلات المصطنعة بضرورة تبني النظام العلماني بإعتباره أقصر طريق نحو التقدم و الحضارة ، و ترك العمل بالشريعة الإسلامية التي لم تعد صالحة في الزمن الحديث ، و هكذا بواسطة تقسيم العالم الإسلامي و دخول العلمانية كمرجعية فكرية و نظام سياسي و إقتصادي ، سقطت معظم الدول التي كانت تنتمي لما يسمى بالعالم الإسلامي في فخ اليهود و النصارى ، و إستطاع الغرب أن يتغلغل في العالم الإسلامي سواء عن طريق الإستعمار المباشر أو غير المباشر من خلال إشرافه على تكوين القيادات السياسية و العسكرية و النخب الثقافية و العلمية التي تولت إدارة الشأن العام في العالم الإسلامي ، و الأدهى من ذلك أن بعض الحكومات التي تنتمي جغرافيا للعالم الإسلامي أصبحت تقوم بدور اليهود و النصارى و تتصدى لأية تجربة سياسية أسلامية ، كما حصل في مصر و ليبيا و معظم الدول التي شهدت ثورات شعبية

ـ الإنسان في التصورات الوضعية

في القرآن الكريم تشريح دقيق لطبيعة الإنسان و لطبيعة النفس البشرية في كل أطوارها و حالاتها و مراحلها ، و في هذا المحور المخصص لموقع الإنسان في القرآن الكريم ، نحاول تتبع و تحليل الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الإنسان و نستخلص التصور القرآني الكامل للإنسان ، و قبل أن نستعرض صورة الإنسان و نفسيته في الخطاب القرآني و التصور الإسلامي ، يجدر بنا أن نلم إلمامة سريعة ، بموقع الإنسان في الفلسفات و الحضارات القديمة و الحديثة ، فالإنسان بالنسبة للفلسفة الإغريقية و الرومانية هو عبد لهواه و شهواته يصارع الآلهة و يسرق النور و المعرفة ، و الإنسان بالنسبة للمسيحية المحرفة هو إنسان تائه بين الأقانيم الثلاثة مشتت الذهن ، غارق هو أيضا في بحر الرذيلة و الشهوات عابد للجنس و المرأة ، حائر بين الإفراط في الملذات أو الرهبنة التي تخفي وراءها الكثير من المهازل و المآسي ، و الإنسان في عصر النهضة و التنوير هو عبد لنفسه و جسده و عقله ، إنسان ثائر على الإله المسيحي و الذي حاول أن يجعل من العقل تارة و من الطبيعة تارة أخرى و من المادة تارة ثالثة آلهة ، فهو مشتت الفكر حائر و تائه بين الأقانيم المسيحية الثلاثة ، و الأقانيم الروحية الأخرى العقل و الطبيعة و المادة ، و إنسان الحضارة الغربية الحديثة ـ أمريكا و أوروبا و اليابان و الصين و روسيا ـ هو إنسان الضياع ، الإنسان الذي لا ينام الليل من دون أدوية مهدئة و منومة ، الإنسان المترف و المتخم الذي وصل الى درجة كبيرة من الرفاهية و التقدم و لكنه يعجز أن يعيش حياة طبيعية هادئة ، الإنسان الغربي حصدته الحضارة الغربية و قتلت فيه إنسانيته حتى أصبح عبدا لشهواته غارقا حتى أذنيه في وحل الجنس و الرذيلة بمختلف أشكالها ، فهو يعاني من فراغ روحي و معنوي رهيب ، رغم تفوقه و نجاحه المادي ، الإنسان في الغرب نموذج للإنسان المتمرد على الله و على كافة التعاليم و الوصايا الدينية ، عدو لنفسه و للطبيعة و عابد للمادة الصماء ، هو أيضا إنسان مخترع أسلحة الدمار الشامل و الأسلحة النووية و الكمياوية التي يمكن أن تدمر العالم و تفني البشرية في لحظات قليلة ، لكن هناك جوانب إيجابية للإنسان الغربي و للحضارة الغربية هو جانب التقدم المادي و التكنلوجي الذي إستفادت منه البشرية جمعاء في مختلف أنحاء العالم ، و قبل أن نختم هذه الفقرة حول التصورات البشرية الوضعية للإنسان ، نعرج قليلا على موقع الإنسان في التصورات الجاهلية التي سبقت الإسلام ، حيث كان الإنسان تائه في الصحراء كل رأس ماله ناقة أو فرس و قطيع من الغنم أو الماعز و خيمة من الصوف ينتقل بها من مكان الى مكان بحثا عن الماء و الكلاء لأنعامه ، الإنسان في العصر الجاهلي ـ رجل أو إمرأة ـ كان

عبدا لشهواته و نزواته البهيمية ، و كانت الفوضى الجنسية هي سيدة الموقف و ساعدت حرارة الجو على إنتشار بيوت الدعارة و الخمارات و أماكن اللهو ، و كانت العلاقات الإجتماعية مبنية على نوع من الأروسطوقراطية البدائية حيت إنقسم المجتمع الى سادة أغنياء و ملاك و أصحاب جاه و نفوذ ، و عبيد مساكين يشتغلون ليل نهار لدى سادتهم مقابل المبيت و الطعام ، أما المرأة و هي إنسان شقيقة الرجل و لا تستقيم الحياة من دونهما أو في غياب أحد الأطراف ، فقد كانت تدفن حية خشية العار ، و قصة و خلفيات مأساة وأد البنات في العصر الجاهلي و هي مذكورة في عدة مصادر تاريخية جديرة بالتأمل و أخذ العبرة ، ووضع المرأة في العصر الجاهلي كان يتشابه مع وضعيتها لدى اليونان و الإغريق و الهنود ، ومشابه لوضعها في العصر الحديث ، حيث أعتبرت مجرد سلعة يتاجر بها في الأسواق كجارية ، و هي الآن في الغرب تستغل في التجارة و الإشهار و البيزنس و الجنس و إنتاج الأفلام الإباحية ، الإنسان في العصر الجاهلي ، هو نفسه الإنسان في العصر الحديث مع بعض الفوارق المادية البسيطة ، همه الوحيد هو تحقيق حاجاته الطبيعية و البيولوجية من مأكل و مشرب و جنس ، و تنتهي طموحاته عند هذا الحد ، فهو تائه في هذا الوجود و غارق في بحور و محيطات ، لا يعرف من أين أتي و كيف أتى ، و الى أين يذهب ، و يعتقد أن الحياة الدنيا هي الوسيلة و الغاية و لا حياة بعدها ، نفس التفكير و المنطق الجاهلي ، الذي حكى عنه القرآن الكريم ــ نموت و نحي وما يهلكنا إلا الدهر ـ و في الخلاصة أن موقع الإنسان في التصورات الوضعية القديمة و الحديثة كما تقول مجلة دعوة الحق المغربية هو الإنسان الحيوان الناطق ، الإنسان الذي تطور خلال العصور من فصيلة حيوانية و ترقى حتى أصبح على صورته الإنسانية الجميلة كما ـ يخرط داروين ــ و أتباعه ، و هو الإنسان المهووس بالجنس و عالم المرأة و حتى الشذوذ الجنسي ، حيث يمكن تفسير كل حركاته و سكناته و خلجات نفسه و أهاته بالكبت الجنسي و الجوع العاطفي و الحرمان من متعة معاشرة النساء ، كما يتصور ذلك العالم اليهودي الشاذ ـ فرايد ــ و هو الإنسان المادي الذي يضع مصلحته المادية و التجارية قبل كل إعتبار ، و هو مستعد لإشعال حروب مدمرة تقتل البشرية من أجل منفعته الإقتصادية و مصلحته التجارية كما هو واضح في النظرية الرأسمالية الليبرالية البراغماتية ، و هو الإنسان الذي يجعل المادة هي البداية و النهاية و أن الصراع بين البشر و الحضارات هو في حقيقته صراع طبقي أساسه البحث عن المادة و الإستحواذ عليها من أجل لقمة العيش فقط ، كما الحيوان ـ حسب نظرية الشيوعية التي قدمها ماركس و طورها من بعده لينين ... هذا هو الإنسان في الفكر الوضعي القديم و الحديث ، إنسان متجرد من إنسانيته ، متمرد على الله ، كافر بالأخلاق و المبادىء و المثـــل

ـ الإنسان في القرآن الكريم

موقع الإنسان في القرآن الكريم يتخذ مسارين هامين و دقيقين ، في المسار الأول يذكر القرآن الكريم الإنسان عندما يفقد صلته بالله و يتخلى عن الفطرة التي فطره الله عليها ، و يرفض الإستماع الى صوت العقل و القلب و العاطفة اللذين يرشدانه الى الطريق المستقيم ، حيث يقدم الخطاب القرآني عدة نماذج و أصناف من البشر في تعابير بليغة و تشبيهات جميلة تصورهم في مختلف حالاتهم الإنتكاسية عندما يخرجون من طابعهم الإنساني و يتحولون الى أشياء و مخلوقات أخرى ، و في المسار الثاني يصور الخطاب القرآني طبيعة الإنسان في مختلف حالاته ووضعياته و ينقل صور دقيقة تعبر بصدق عن مختلف تطورات الإنسان في علاقته مع الله ، و لنبدأ بالمسار الأول مستأنسين كما هي عادتنا في هذا الكتاب بآيات الله و كتب التفسير و ما كتب حديثا عن التصور الإسلامي للإنسان .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{175} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{176} سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ{177} الأعراف

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {179} الأعراف

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{198} الأعراف

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }النحل78

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46

{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45

{76} أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79}

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ }الأعراف176

في القرآن الكريم نماذج كثيرة و صورة متعددة ، يجسدها أحيانا بالتصوير الحركي من خلال ما تتيحة البلاغة العربية من تشبيه و كناية و إستعارات ، كما يصورها أحيانا بما يشبه الرسوم الكاريكاتورية التي تنشرها الصحف و المجلات ، و القرآن الكريم عندما يقوم برسم صور و رسومات مختلفة للإنسان فهو يراعي فيه الجوانب الإيجابية و السلبية و لا يركز فقط على ناحية دون أخرى ، و نلاحظ في الآية ١٧٧ من سورة الأعراف كيف يصور بتقنية عالية و دقيقة ذلك الإنسان الذي أتاه الله الآيات البينات فأعرض عنها و لم يكتف بذلك بل تحول بمعصيته تلك الى أستاذ و إمام للشياطين ، و إستعمال كلمة أو فعل إنسلخ بحروفه المجلجة و إرتداداته المخيفة و رنينه القوي الذي يحدث في القلب إرتدادات موازية - - - الإنسلاخ فعل مدهش و مخيف يعني في أبسط معانيه إنفصال الجلد عن اللحم بعدما كان في جسم واحد ، و كم هي مؤلمة عملية الإنسلاخ هذه و بشعة خاصة عندما نتصور هذا المشهد و كأنه يحدث أمام أعيننا في الواقع .. إنسلاخ جلد الإنسان عن عظمه و هو حي ، أرأيت كيف يحشد القرآن الكريم الحروف و الألفاظ و يصنع بتلك الكلمة البسيطة و العادية بالنسبة لنا نحن البشر البسطاء في عقولنا و في مستوى تفكيرنا ، ذلك المشهد العظيم الذي يعبر عن خروج الإنسان عن الفطرة السليمة و المنهج السوي و الطريق المستقيم و هو تشبيه للفطرة السليمة و الرؤية الحسنة و الموقف الصائب ... للإنسان الطبيعي و السوي الذي يحترم فطرته و لا يحيد عنها قيد أنملة ... الإنسان المؤمن الذي يولد على الفطرة مؤمنا بالله موحدا يؤتيه الله تعالى الآيات البينات الدالة على ألوهيته و ربوبيته و وحدانيته فينظر إليها الإنسان المنسلخ عن فطرته نظرة عابرة و لا يعيرها الإهتمام اللائق بها ، و ينغمس في طريق الضلال فيصبح بمثابة العربة التي تجر وراءها الشياطين ، و في النص نوع من الإستهزاء و السخرية بذلك الإنسان الذي يسقط و يتردى الى الحمأة و الى أسفل سافلين لدرجة يصبح الشيطان أقل منه في الدرجة فيتخلى عن نشاطها الطبيعي في الإغواء و أغراء و تضليل البشرية و يحيل مهمته الى الإنسان ، يقول الأستاذ سيد قطب تعقيبا على هذه الآيات الكريمات من سورة الأعراف ـ إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات و التصويرات ، إنسان يؤتيه الله آياته ، و يخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، و يعطيه الفرصة كاملة للهدى و الإتصال و الإرتفاع ... لكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله إنسلاخا ..

فهو ينسلخ منها بعنف وجهد و مشقة ، إنسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه ، أوليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟ ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، و يتجرد من الغطاء الواقي ، و الدرع الحامي ، و ينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ، و يهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضا للشيطان لا يقيه منه واق ، فيتبعه و يلزمه و يستحوذ عليه ـ في ظلال القرآن ص ١٣٩٦ ـ ثم هناك النموذج الثاني الذي يصور الإنسان الضال في أبشع صوره ، في صورة هيكل من حجر لا يعي و لا يسمع و لا يبصر ، تعطلت فيه مهمة الحواس الخمس ، و لم تعد قادرة على آداء وظائفها الطبيعية في التفكير و التدبر و الرؤية الجيدة و الإستماع السليم ، و تقديرا و إدراكا للمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق الإنسان في الأرض ، مسؤوليته نحو بيته زوجته و أولاده و أهله و مسؤوليته نحو مجتمعه و نحو وطنه ، و مسؤوليته الشخصية قبل كل ذلك أمام الله سبحانه و تعالى ، و لم يعد جسمه يشتغل بشكل طبيعي كبقية أجسام البشر ، أمثال هذه النماذج البشرية التي يذكرها القرآن الكريم بأسلوب فيه الكثير من السخرية و التهكم و الإستهزاء المضحك ، كثيرة جدا في الواقع البشري في كل زمان و مكان ، فالإنسان الذي تتعطل فيه أو بالأحرى يحرص هو بنفسه على تعطيل وظائف حواسه الرئيسية المسؤولة عن تصرفاته و هي القلب و العينين و الأذنين ، فتتحول الى أجهزة شكلية من دون نشاط أو فاعلية ، فينتج عن ذلك تحول الإنسان ذاته الى مخلوق آخر لا يحمل من الإنسان الحقيقي و الطبيعي سوى شكله ، و يكون في تصرفاته أقرب الى الحيوان ، و في هذا النموذج الحي كذلك يستعمل الخطاب القرآني آلية التشبيه البليغ مستعملا أداة التشبيه حرف الكاف ـ أولئك كالأنعام ـ ثم يستدرك فيؤكد أنهم أضل من الإنعام ، لأن الحيوانات خلقت لحكمة يعلمها الله من دون عقل ، و الإنسان هو الوحيد من بين مخلوقات الله الذي زوده الله سبحانه و تعالى بالعقل ليفكر و يتدبر في مخلوقات الله و يتأمل و يحلل و يستنتج ليصل في نهاية المطاف الى تقدير قوة و حكمة العزيز العليم ، فبالعقل يمكن الإنسان أن يتعرف على الله ، لكن لابد من مرافقة الوحي للعقل حتى تتم المعرفة الحقة و اليقين الصادق ، و في كثير من الأحيان يظن أولئك الناس الضالين عن الطريق المستقيم أنهم في جنات النعيم ، فيستهزؤون بالمؤمنين العابدين الراكعين الساجدين لله ، فيرد عليهم القرآن و يؤكد أنهم هم الضالون المغفلون الذين تعطلت حواسهم الرئيسية ، عندما تنكروا للفطرة السليمة التي جبلوا عليها

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {179} الأعراف

ثم أنظر الى ذلك التصوير العجيب و الدقيق للبشر الذين أختاروا طريق الضلال و البعد عن الله ، إنها أناقة عجيبة في رسم صورة كاريكاتورية مضحكة للإنسان الذي يصادم الفطرة السليمة ويعاكس المنطق الصحيح ، إنهم في هذه الحالة أيضا يعطلون بصفة متعمدة نشاط الأجهزة المكلفة بإستقبال الهدى ، كما يعطلون وظيفة جهاز الرؤية السليمة للأشياء و الواقع ، هاهم قد أغلقوا عن أنفسهم الأبواب و النوافذ حتى لا يتسرب شعاع الهدى الى نفوسهم ، أغلقوا نفوسهم و أرواحهم و عقولهم بصفة نهائية لكي لا تشم رائحة الإيمان ، فأصبحت الأجهزة التي يتمتعون بها بشكل طبيعي كبقية خلق الله مجرد أجهزة شكلية من دون وظيفة و لا مهمة ، فهم رغم تمتعهم بجهاز السمع سليما لا يسمعون لنداء الفطرة ، و رغم تمتعهم بجهاز الرؤية الصحيحة و هو العينين لا يبصرون لاحظ تلك الدقة و الأناقة في التعبير و تصوير المشهد ، فالبصر يختلف كثيرا عن الرؤية أو النظر العاديين ، و هو يتعلق بالرؤية القلبية التي تنفذ الى أعمق الأعماق .

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{198} الأعراف

و في مشهد آخر مثير و مخيف و مضحك في نفس الوقت يصور القرآن الكريم حالة الإنسان الكافر الذي كذب بآيات الله .. الإنسان حينما تنحرف فطرته و يتبع سبل الشيطان ، فهو يفوت على نفسة فرصة الإرتقاء في معارج الإيمان و الإقتراب من الكمال الروحي و النفسي ، و يفضل الهبوط في أسفل سافلين ، و في الآية ١٧٦ من سورة الأعراف يقيم القرآن الكريم مقابلة لفظية و مقارنة جميلة بين الإرتفاع الذي يمنحه الله لعباده الصالحين و هو السمو و الرفعة و العلو في ملكوت الله ومدارج السالكين في طريق الله ، و بين الإنحدار الذي يعبر عنه بكلمة غليظة شديدة سميكة و قوية و ذات رنين خشن يزلزل القلوب و العقول هي كلمة ـ أخلد ـ التي تعني في السياق الحالي أكثر من الإلتصاق بالأرض ، و هي كناية لطيفة و أنيقة عن أنحدار الفطرة الإنسانية و تردي النفس البشرية و سقوطها في الهاوية ، ثم يأتي التصوير الفني و الحركي للمشهد كما يقول سيد قطب ، من خلال التشبيه البليغ لهذا الإنسان بالكلب أكرمكم الله ، و نعم التشبيه حين يصدر من الله العليم الحكيم فالإنسان الذي يترفع على آيات الله البينات في الأنفس و في الآفاق و يتكبر على الإيمان بالله و عبادته ، هو في الحقيقة يشبه الحيوان الضال الذي لا يدرك طبيعة الأشياء ، و كل ما يهمه هو الأكل و الشرب و ممارسة الجنس ، و تحسب بعض النظريات الحديثة مع الأسف الشديد أن تلك المتطلبات البهيمية هي أهم المكتسبات الثمينة التي تحقق رفاهية الإنسان المعاصر و سعادته في هذه الحياة

و يقدم الخطاب القرآني هذا الإنسان الذي يشبه الكلب الضال ، كنموذج للإنسان الذي كذب بآيات الله و أتبع هواه ، و يعطي من خلاله صورة مفزعة للإنسان عندما يضل الطريق المستقيم و يحيد عنه و هو مدرك وواع بما يقوم به و فخور بذلك

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ } الأعراف176

كما يرسم القرآن الكريم صور جميلة و مشاهد مثيرة نابضة بالحياة و القوة ، لنماذج إنسانية راقية و جميلة ، تتمثل في الأنبياء الكرام و عباد الله الصالحين - - . من الأنبياء الكرام نختار النموذج الوارد في سورة ص الآية ٤٥ و ما بعدها ، حيث يرسم لنا القرآن الكريم صورة الأنبياء إبراهيم و بنيه إسحاق و يعقوب و هم من الصفوة التي إختارها الله و قربها منه بالوحي و فضلها على كثير من خلقه ، الإنبياء هم النموذج و المثل و القدوة ، و هم يأتون في مقدمة البشرية خلقا و أخلاقا و علما و قوة ، في الآية الكريمة تنويه بالقوة المادية و المعنوية للأنبياء و بالرؤية الصحيحة ... الرؤية القلبية التي تعني حسن التصرف و الإدراك و التحليل و الموقف ، و هي التي يعبر عنها في النص القرآني ب ـ الأيدي و الإبصار ـ فالأيدي في البلاغة العربية تعني القوة و التملك أو الملك أو السيطرة ، و الإبصار من البصيرة و هي الرؤية القلبية التي تتجاوز مجرد النظر العادي ، و هنا يمكن أن

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ{45} إِنّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرِى الدَّارِ{46} وَإِنّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ{47} وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ{48}

نلاحظ الفارق الشاسع بين تلك الصور البشعة و المشاهد المفزعة و المخيفة التي رسمها القرآن الكريم لتلك النماذج السيئة من البشر ، من الذين ضيعوا فرص الإرتقاء و السمو في ظلال الإيمان و التقوى و محبة الله و عبادته و الخوف منه و رجاء المغفرة و الثواب ، من خلال الإيمان الصادق بألوهيته و ربوبيته و حاكميته و عبادته بما شرع ، و إقامة الشعائر و الطقوس التي فرضها على عباده من صلاة و صيام و زكاة و حج ، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الحكم بما أنزل الله بالنسبة للنخب السياسية و العسكرية و الحكام بصفة خاصة ، و كيف تكون مكانتهم عند الله لا تختلف في شيء عن مكانة الحيوانات ، و كيف رسم القرآن الكريم صورا جميلة راقية للأنبياء و هم أكرم خلق الله ، و في القرآن الكريم صور و نماذج كثيرة جميلة و مبهرة لعباد الله الصالحين ، فيها عبر و دروس قيمة

و في المسار الثاني ذكر القرآن الكريم تقريبا كل الحالات النفسية التي يمكن أن تلم بالإنسان . . . الإنسان كإنسان بغض النظر عن مستوى علاقته بالله قربا أو بعدا ، و هذه الحالات و هي كثيرة جدا في القرآن يمكن أن تكون كما قال الأخوين سيد و محمد قطب ، نواة نظرية أصيلة في علم النفس الإسلامي ، و بالفعل فقد ، تطورت الدراسات النفسية الإسلامية في السنوات القليلة الماضية ، و قد إجتهد الكثير من العلماء و الكتاب في محاولات جادة لبلورة مدرسة إسلامية في علم النفس الحديث ، تضرب صفحا بكل الخرافات و الأباطيل التي حاولت المدرسة الغربية الفرويدية و ما بعد الفرويدية تقديمها للناس على أساس أنها حقائق لا يرقى إليها الشك ، و نذكر على سبيل المثال مجهودات الدكتور عثمان نجاتي و الأستاذ سميح عاطف الزين ، و قد إستفدنا من أفكارهما كثيرا في أعداد هذا الكتاب ، كما ننوه بالجهود التي بذلها المعهد العالمي للفكر الإسلامي من خلال دعوته و نشاطاته في مجال أسلمة العلوم الحديثة ، و هناك محاولات جادة و محتشمة لتأسيس علم تنمية إسلامي ، من دون شك سيستفيد منه المسلمون في العصر الحديث من خلال ما يتيحه من حلول نفسية مبتكرة و غير مكلفة لمختلف المشاكل و الصعوبات التي يواجهها الإنسان المسلم في عصر التوتر العالي و السرعة الشديدة و نحن في تقديمنا لهذه الحالات التي ذكرها القرآن الكريم كتاب الله ، الصادر من لدن حكيم خبير ،و هي كثيرة ، نحاول أن نسير مع النصوص القرآنية كما هي مرتبة في القرآن الكريم ، من خلال عرض للأيات الكريمات مع تفسير مختصر و بسيط لمدلولاتها ، حتى نقرب الفهم من كل شرائح القراء التي قد تطالع هذا الكتاب المتواضع . . . فالإنسان جسم و روح هو بالقياس الى قدرات الله إنسان ضعيف ـ . ضعيف ماديا و معنويا و نفسيا ، و هو لا يملك لنفسة ضرا و لا نفعا هو بين يدي الله و تحت تصرفه ، و يتجلى ضعفه في مظاهر كثيرة منها عدم قدرته على دفع البلاء ، المرض ، العجز ، الفقر ، المصائب ، فيقف حائرا أمام التقلبات الجوية التي تحدث في كل وقت ، هو ضعيف أمام نفسه الأمارة بالسوء ، و ضعيف أمام هواه و أمام الشيطان ، و قد يضعف أمام الزوجة و الأولاد و المال و حتى النساء ، و في العقائد الإسلامية و التشريعات و الشعائر ، هناك تخفيف من الله على عباده المؤمنين ، فالعقائد في مجملها سهلة و بسيطة و قابلة للإستيعاب بمجرد القراءة الواعية ،و هي حقائق مباشرة و ليست طلاسم و أحجية ، كل العبادات المفروضة من صلاة و صيام و زكاة و حج ، سهلة ميسرة و في متناول جميع الناس ، وكلها صممت لتكون متناسبة مع طبيعة و ضعف الإنسان . . . ذلك المخلـــوق المسكين . . .

{يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً }النساء28

قد يتعرض الإنسان أي إنسان مسلما أو كافرا في هذه الحياة الدنيا للمرض الذي يقعده الفراش و يعطل مصالحه ، و قد يتناول بعض الأدوية لكنها لا تفيد في إستعادة صحته كما كانت من قبل ، فيلجأ في نهاية المطاف الى الله بالدعاء و يكرر الدعاء و يلح في الدعاء بنية حسنة ... لكن بمجرد ما يستجيب الله لدعائه و يرزقه الشفاء ينسى فضل الله و لا يذكره و لا يشكره و يعود الى حياته الأولى ، هذا الإنسان يتعامل مع الله سبحانه و تعالى بطريقة إحتيالية ، فيصنفهم الله في خانة المسرفين الذين ذكرهم في آية أخرى ـ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ـــ و الإسراف هو في هذه الحالة هو الإكثار من المعاصي و الذنوب ، و إتباع الشيطان الذي يزين لهم أعمالهم و يوهمهم بأنهم في الطريق السليمة .

{وَإِذَا مَسّ الإِنسَانَ الضُّرّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّهُ مَرّ كَأَن لّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرّ مّسّهُ كَذَلِكَ زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } يونس12

الإنسان كما يصفه الخطاب القرآني ، إنسان أناني يحب مصلحته بشدة و تطرف و دون توازن مع مصالح الآخرين ، و لا يستطيع التأقلم مع كل الأحوال ، و يحسب أن الدنيا كلها خير و راحة و نعيم ، و طالما انه في بحبوحة من العيش و السعادة تراه مؤمنا هادئا مطمئنا مستريحا ، و بمجرد ما يصطدم بأزمة مالية إقتصادية أو تتأثر مداخيله الشهرية يتحول الى إنسان آخر يائس من رحمة الله كافر بالله .

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ }هود9

تاريخ الإنسانية الذي يمتد من خلق سيدنا آدم الى يومنا هذا مليء بالكفر و الفساد و معصية الله ، بدليل أن عدد سكان العالم الآن يقترب من رقم ستة ـ ٦ ـــ ملايير من بينهم تقريبا إثنين مليار مسلم بالكلمة و بشهادة الميلاد فقط ، أغلبية سكان العالم كفار و مشركين و ملحدين ، و أغلبية المسلمين غير ملتزمين بشكل كامل بالإسلام ، الإنسان ظلوم كفار لأنه لم يقدر نعمة الله عليه و هي كثيرة لا يمكن عدها ، و قد جاءت في القرآن الكريم بالتاء المفتوحة رمزا للإستمرارية و الزيادة و البقاء ، ورغم ذلك فالإنسان يظلم نفسه و يسب الله خالقه و يكفر به و يشرك به .

{وَآتَاكُم مّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ }إبراهيم34

خلق الإنسان بشكله المتعارف عليه و زوده بالعقل و الحواس الخمس و الإرادة و القدرة على الإختيار و التمييز ، ليس مسألة هينة ، و الخطاب القرآني إذ يذكر الإنسان بطبيعة خلقه ، فإنما ليؤكد له في كل طبيعته المزدوجـــة القابلة للخير

و الشر ، و في الخطاب القرآني آيات كثيرة تناولت موضوع خلق الإنسان ، و أجابت عن مختلف الأسئلة الشائكة التي حيرت الفلاسفة و الحكماء و الجمهور منذ غابر العصور ، و لم يترك الخطاب القرآني الإنسان حائرا تائها يتخبط خبط عشواء لا يدري كما قال الشاعر الجاهل المسيحي المزيف إيليا أبو ماضي ، لا أدري من أين جئت و الى أين أنا ذاهب ، الخطاب الإسلامي حسم هذه القضية منذ الأيام الأولى و لم يترك البشرية تتيه في الخرافات و الأساطير ، و قدم إجابات واضحة عن كيفية و طبيعة و مكونات خلق الإنسان ، بدايته و نهايته بكل وضوح ، و مراحل خلق الإنسان أصبحت معروفة للخاص و العام ، و هي مذكورة في عدة سور من القرآن الكريم ، بداية خلق الله النموذج الأول للإنسان و هو سيدنا آدم من التراب أو الطين أو الصلصال و كلها كلمات تحمل مدلولا واحدا ، و مع قبضة الطين تأتي النفخة الربانية العلوية لتصنع في الإنسان الجانب الروحي العاطفي و المعنوي ، بعدما صنعت فيه الطين جانبه المادي ، و خلق من أدم زوجته حواء ، ثم تبدأ مرحلة جديدة من التناسل الطبيعي بعد إلتقاء نطفة الرجل بيويضة المرأة ، و بين الطين و روح الله يظل الإنسان يتراوح في حياته و حتى مماته بين الصعود و الإرتقاء حتى يقترب من الملائكة ، وبين الهبوط و الإنحدار الى أسفلين حتى يقترب من الشياطين ، و قد تدركه رحمة الله فيختم له بخاتمة حسنة ، و هذا الإنسان الذي

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }الحجر26

خلقه الله من طين و نفخ فيه من روحه ، و صوره فأحسن صوره ، و أكرمه و نعمه و جعل له عينين و لسانا و شفتين ، هو منذ غابر العصور وحتى اليوم ، يحاول ان يكون خصما لله ، غير مؤمن به ، يعتبر الحياة الدنيا هي نهاية المطاف ، لا آخرة و لا حساب و لا عقاب ، وكأن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ قد خلق العباد عبثا ـ

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ{115} فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{116} المؤمنون

و لذلك نجد صورا كثيرة للإنسان المغرور الذي يتكبر على نعم الله و على العباد ، و يحسب أن الله الذي خلقه و لم يك شيئا ، قد يعجز. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ عن إحياء الموتى و بعثهم للحساب و العقاب ، فالإنسان و هو في غمرة زهوه و لهوه ، و هو غارق في نعيم الحياة و عسل الدنيا الذي يحسبه لا يزول ، ينسى و قد يتجاهل أن الحياة هي مجرد جسر أو ممر الى الحياة الأخرى ، و أن الله الذي خلق الإنسان من علق قادر على ان يحي الموتى ، بل العظام و هي رميم ، و نلاحظ في الآيات ٧٧ ، ٨٣ من سورة يس كيف يقيم الله عز و جل الحجة على الإنسان في

تذكيره بقوة الله و قدرته غير المتناهية على الخلق و إقرار الموت أو إعادة الإحياء ، و يعقد مقارنة بسيطة تتناسب مع طبيعة و عقلية و خلفية الإنسان البسيط أو الإنسان العالم النخبوي ، و بإستعمال نوعا من الجدل المنطقي يؤكد الله سبحانه و تعالى أن الذي خلق السماوات و الأرض ، و هي مخلوقات هائلة و عظيمة يستطيع بطبيعة الحال أن يعيد خلق الإنسان بعد مماته و يستطيع أن يحيي العظام و هي رميم ، و الذي يستطيع أن يجعل من الشجر الأخضر نار منه توقدون ، هو الذي يملك مفتاح الكون فيقول للشيء كن فيكون .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{81} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{82} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{83}

الإنسان متسرع ، عجول ، قليل الصبر ، يستعجل الحصول على كل ما يطلبه أو يتمناه في هذه الحياة الدنيا ، و قيل في الأمثال و الحكم ـ في التأني السلامة و في العجلة الندامة ـ العجلة من الشيطان و التأني من الإيمان .

{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً }الإسراء11

البخل صفة ذميمة لكنها مع الأسف الشديد يشترك فيها الكثير من الناس ، و في الآية ١٠٠ من سورة الإسراء ، صورة واقعية واضحة المعالم عن الإنسان البخيل ، و تفسير دقيق لمعنى البخيل ، فالبخيل طبعا ليس هو ذلك الإنسان الذي لا يملك ما يجود به على الآخرين ، أو لا تكفي مداخيله للإنفاق على نفسه و أسرته ، فلا يفكر إطلاقا في الصدقة على الآخرين ، إنما البخيل هو ذلك الإنسان الذي رزقه الله من خيراته الكثير و الكثير ، لكنه لا ينفق منها كثيرا او قليلا ، و في الآية الكريمة نوع من صيغ المبالغة ، تشبيه بليغ للرحمة و هي معنوية بالمال و هو مادة محسوسة .

{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً }الإسراء100

الجدل بالحق أو بالباطل ، صفة راسخة في الإنسان منذ قديم العصور ، و الجدل قد يكون في كثير من الأحيان إيجابيا ، لتسويق العقيدة الإسلامية الصحيحة و الفكر

التربوي الإصلاحي ، و قد خاض الأنبياء و المرسلون ، كما خاض سيدنا محمد ﷺ معارك فكرية مع خصومه من الكفار و المشركين لإثبات وحدانية الله و أنه لا معبود سواه ، فالجدل العقائدي بين كل الأنبياء و خصومهم لم يكن يدور حول وجود الله فهذه حقيقة بديهية فطرية ، و إنما كان المحور هو وحدانية الله في ألوهيته و عبوديته و حاكميته ، و الجدل لإثبات العقيدة الصحيحة أو إثبات فكرة جميلة هو نوع من الجدل المطلوب ، جدال الخصوم و الأعداء بالتي هي أحسن و دعوتهم بالحكمة و الموعظة الحسنة ، أما الجدل المذموم الذي تتحدث عنه الآية التالية فهو الكلام الفارغ الذي لا يقدم و لا يؤخر ، الذي يدور في حلقة مغلقة و لا هدف له سوى الترف الفكري و اللهو و المبارزة اللفظية لإسقاط الخصم و إفحامه بالحق أو بالباطل ، و قد كان مثل هذا الجدل شائعا عند البيزنطيين و لذلك يضرب بهم المثل في كثرة الجدل فيقال ـ جدال بيزنطي ، و من أكثر الأنبياء الذين قضوا مدة طويلة في محاولة إقناع خصومهم هو سيدنا نـــــوح عليه السلام

{قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } هود32

و القرآن كتاب الله الذي تضمن كل ما يحتاجه الإنسان من تعاليم و تعليمات لممارسة حياته ضمن الإطار الدي حدده الله سبحانه و تعالى لعباده ، و يمكن للمسلمين الإستغناء به عن كل المرجعيات الوضعية ، لكن رغم ذلك ، فإن الإنسان المسلم و غير المسلم قد إبتعد عن القرآن الكريم بألاف الأميال ، و هو يظن أنه سيجد السعادة و الخير و الرفاهية في غير القرآن الكريم ، فيضل و يتيه ، و الإنسان

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } الكهف54

سيجد في القرآن الكريم الكثير من التعاليم و الوصايا التي تنير له طريقه في الحياة الدنيا ، كما أن الإنسان ومهما أوتي من علم و من سعة العقل و الفكر فهو يحتاج الى الوحي ، فالوحي هو كلمة الله الصادقة ، هو الحقائق العلمية و الدينية و الفكرية الصحيحة التي لا تقبل الشك أو الجدال ، من ذلك العلاقة الجدلية بين الأبناء و الآباء ، حي نجد الخطاب القرآني يلح في كثير من الآيات على قضية الإحسان الى الوالدين ، ويركز فقط على موضوع علاقة الأبناء بالآباء و يضرب صفحا عن تلك العلاقة في الإتجاه الأول ، فالله سبحانه العالم بالقلوب و النفوس و العقول ، يعلم طبيعة الآباء و الوالدين بما خلق فيها من حب فطري للأبناء و إهتمام و رعاية للأطفال ، وبالتالي فهم ليسوا بحاجة الى النصيحة أو الموعـــــظة الحسنة

و نادرا ما تجد أبا أو أما يفرط في فلذة كبده ، مهما كانت وضعيته المادية ، لكن و في المقابل نجد الكثير من الأبناء المسلمين و في العالم الذي يسمى إسلامي مع الأسف الشديد يتخلون عن آبائهم و هو في مرحلة حرجة من حياتهم ، و في حاجة ماسة الى الرعاية و الإهتمام و الدفء العائلي ، و أسوأ من ذلك من يرمون ب آبائهم و أو أمهاتهم في دور العجزة ، لإرضاء زوجاتهم ، و من هنا يأتي إهتمام الخطاب القرآني بهذه القضية الحساسة التي يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ،لإثارة إنتباه الأبناء نحو آبائهم ، و تذكيرهم بأن فترة الشباب و القوة و الصحة لن تدوم ، و كل شاب سيصبح في يوم من الأيام كهلا ثم شيخا كبيرا يحتاج الى أبنائه لرعايته كما كان هو يرعاهم و يقوم على تربيتهم لما كانوا أطفالا صغارا ، و الوصية في القرآن الكريم هي بمثابة علامة توجيه و إرشاد للإنسان الى التصرف اللائق و الصحيح ، و هي منارة هداية الى الطريق المستقيم ، و عندما تأتي الوصية للإنسان هذا المخلوق الضعيف من عند الله القوي الجبار ، فهي دليل رعاية الله لهذا المخلوق

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }العنكبوت8

و يظل الإنسان دائما متصلبا متمسكا بعناده لله تعالى ، غير مؤمن بقدرة الله الخلاق العليم على ، إعادة الروح الى الجثة الميتة ، و ينسى أن من صفاته و أسمائه الحسنى التي يجب أن نؤمن بها إيمانا خالصا و صادقا لا يرقى اليه الشك هي المحيي و المميت ، لكن الإنسان هو الإنسان في كل زمان و مكان ، و إنسان الحضارة الحديثة و التكنولوجية و الأقمار الإصطناعية و التقدم الهائل لا يختلف في هذه القضية مع إنسان العصور الغابرة عصر سيدنا نوح مثلا ، و البشرية في كل زمان و مكان و هي تمر بفترات قليلة من الإيمان الصادق بالله الذي ينبعث شعاعه مع فترات وجود الأنبياء و أتباعهم و حواريهم ، لكن بمجرد وفاة الأنبياء يعود الإنسان الى الوراء في إنتكاسة جديدة يفقد معها نكهة الإيمان و صفاء الروح و القلب و الوجدان ، يعود الى التكذيب باليوم الآخر و يشكك في قدرة الله عز وجل الخالق القادر على كل شيء ، في إحياء الموتى ، ثم يتساءل في غباء عن يوم القيامة .. يوم الحساب و العقاب و هو يتمنى أن تكون حياته الدنيا هي نهاية المطاف ، و من الآية ٣ الى الآية ١٥ من سورة القيامة تتكرر كلمة الإنسان خمس مرات كاملة ، و تردد تساؤلات حائرة للإنسان ، أيحسب الإنسان ، يريد الإنسان ، يقول الإنسان ، ينبأ الإنسان ... الإنسان غير مؤمن بحقيقة البعث و الإحياء بعد الممات و هي كما يذكر القرآن أهون عند الله عز و جل من خلق السماوات و الأرض ، و هو دائما مهووس بالسؤال عن نهاية العالم **(فإذا برق البصر و خسف القمر و جمع الشمس و القمر و جمـــع الشمس و القمر -)**

هي أهم علامات الساعة الكبرى ، و هي بداية إنهيار منظومة الكون التي يعرفها الناس ، فيصور القرآن الكريم تلك الحالة النفسية الدقيقة التي يشعر بها الإنسان و هو يرى بعينيه كيف تبدأ نهاية العالم تدريجيا ، من خلال تغير نواميس نشاط الكون ، هنا يتساءل الإنسان بصورة جدية عن مصيره ، و عن مستقبله و يسارع للبحث عن مكان آمن يأوي اليه ، لعله ينقذه من أهوال القيامة، لكن هيهات ، يأتيه الجواب الحاسم و الرد الحازم من الله ـ كلا لا وزر ـ أي لا مفر و لا ملجأ الا الى الله ، إنها العودة الحتمية الى الله ، العودة للحساب و العقاب أو الثـــواب . و يواصـــل

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ{3} بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ{4} بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ{5} يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ{6} فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَـرُ{7} وَخَسَفَ الْقَمَرُ{8} وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ{9} يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ{ 10} كَلَّا لَا وَزَرَ{11} إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ{12} يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ{13} بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ{14} وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ{15} القيامة

القرآن الكريم عرض صور واقعية عن الإنسان ، ذلك المخلوق العجيب ، فيذكره هذه المرة و في كل مرة ، بأصل خلقته ، و بأنه لم يكن شيئا مذكورا ، حتى يزيح عنه غلالة الترفع و التكبر على الله و على خلق الله ، يذكره بأنه مخلوق من نطفة الأب و ماء الأم ، يعني أن وجودك جاء نتيجة لذة جنسية و متعة حميمية شرعية بين أبويك ، هذا الخليط بين ماء الأب وبويضة الأم يسميه الخطاب القرآني ـ أمشاج ، و نفس السورة ... سورة الإنسان و في بدايتها ، يذكر الله الإنسان برحمته الواسعة التي جعلت منه أفضل المخلوقات ، و يركز على حاستي السمع و البصر ، نظرا لدورهما الحاسم في تحديد خيارات الإنسان العقائدية و الفكرية و الروحية و إتجاهاته العامة نحو الخير أو الشر ، فالسمع هو الإلتقاط الجيد للأفكار و القيم و المبادىء و المثل و العقائد الصحيحة التي توصل الى النهاية السعيدة في الدنيا و الآخرة ، و البصر هو جهاز الرؤية القريبة و البعيدة المدى ، رؤية الأشياء و الأمور و القضايا على حقيقتها و دراستها و تحليلها بعمق و صفاء و حياد ، و في الايات الكريمات تذكير للإنسان بإحدى غايات وجوده التي يغفل عنها كثير من الناس ، و أنه في هذه الحياة الدنيا مخلوق للإبتلاء بالخير و الشر ، و يذكره برحمته الواسعة ، أن فضله على كثير من خلقه بالإرادة الحرة ، و الإختيار المستقل .

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا{1} إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا{2} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا{3} الإنسان

و ترسم سورة الزلزلة على صغرها ، صورة حقيقية واقعية ، نابضة بالحياة للإنسان الغافل ... الإنسان الحائر ... الذي يكذب بيوم الدين و بيوم القيامة ، و لا يستعد لهذا اليوم العظيم الذي إستأثر الله بعلمه و وقته ، حتى يكون مفاجئا لجميع الناس ، سورة الزلزة تصور بأناقة و دقة حالة الإنسان الغافل الذي ظل طوال حياته يعيش عيشة البهائم و الأنعام يأكل و يشرب و يمارس الجنس و كل الضروريات البيولوجية التي يمارسها الحيوان غير العاقل ، حتى بدأت مظاهر القيامة تحدث في الأرض ، و دكت الأرض دكا دكا ، و زلزلت زلزالها ، و أخرجت ما في بطنها من جثث إستعدادا لإعادة إحيائها و تقديمها في يوم الحشر للحساب ، و هذا هو التفسير الواقعي لمعنى ـ أخرجت أثقالها ـ خلافا لمن يرى بأن الأثقال هنا تعني الكنوز ، فلا معنى لوجود كنوز الذهب و الفضة و الدنيا توشك أن تودع أهلها الى الأبد ، و ترى الإنسان الغافل ، غير المسلم ، و حتى الإنسان المسلم بالإسم فقط و ببطاقة التعريف و مكان الميلاد ، ، هو ما نسميه بالمسلم الشكلي فقط ، الذي لا تفرق تصرفاته و أعماله عن أي إنسان آخر غير مسلم ، فكيف يكون الإنسان مسلما و هو لا يصلي و لا يصوم و لا يزكي أمواله ، و لا يذكر الله ، و كيف يكون مسلما من يداوم على شرب الخمر و المخدرات و الزنى و ممارسة الفواحش ما ظهر منها و ما بطن ، هذا الإنسان الغافل سواء أكان مسلما أو غير مسلم هو الذي يتفاجأ عند بداية ظهور أولى علامات الساعة الكبرى ، ومنها كما هو ظاهر من سياق السورة الزلازل العنيفة التي لا تنتهي ، و خروج جثث الموتى من تحت الأرض الى سطحها إستعدادا ليوم العرض و الحساب، أما الإنسان المؤمن الذي يخاف ربه فهو متأكد بأن كل ما ذكره الله في كتابة العزيز عن علامات الساعة الكبرى ، وكل ما ذكره الرسول الكريم ﷺ أيضا ، من مظاهر و علامات تسبق يوم القيامة ، و هي حقائق علمية تدخل ضمن عقيدة المسلم التي يجب الإيمان بها إيمانا جازما لا يرقى إليه الشك أبدا

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{1} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{2} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{3} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{4} بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{5} يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ{6} فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ{8} الزلزلة

أهم النماذج و الصور التي ذكرها القرآن الكريم عن الإنسان في مختلف تجلياته و أحواله ، و هي بطبيعة الحال صور و نماذج واقعية ، و صادقة ، لأنها صادرة عن العليم الحكيم خالق الإنسان و يعلم ما توسوس به نفسه ، و هي بطبيعة الحال تختلف عن كل التصورات الوضعية التي توصل اليها الإنسان الظلوم الجهول ...

المراجع

و معظمها طبعات إلكترونية PDF

القرآن الكريم ـ المصحف الرقمي

تفسير إبن كثير ،

أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري ،

تيسير الكريم المنان ، الشيخ السعدي

تفسير في ظلال القرآن سيد قطب

التوحيد ، عمر العرباوي

عقيدة المؤمن أبو بكر جابر الجزائري

، العقائد الإسلامية سيد سابق

، تبسيط العقائد الإسلامية ، حسن أيوب ، عقيدة المسلم محمد الغزالي

التصور الإسلامي و مقوماته ، سيد قطب

، الإيمان و الحياة ، أسماء الله الحسنى فصول في العقيدة بين السلف و الخلف ، العبادة في الإسلام يوسف القرضاوي

كبرى اليقينيات الكونية سعيد رمضان البوطي

، التمهيد في العقيدة الإسلامية و الإلهيات في العقيدة الإسلامية د محمد المسير ،

ركائز الإيمان . دراسات في النفس الإنسانية محمد قطب

العقيدة الإسلامية ، محمد أبو زهرة

المبادىء الأساسية أبو الأعلى المودودي

الحاكمية في الفكر الإسلامي د حس لحساسنة

الموسوعة الكونية الكبرى ، د ماهر الصوفي

صراع الحضارات ، د جعفر إدريس

معرفة النفس الإنسانية من القرآن و السنة ، سميح عاطف الزين

فلسفة الإنسان عند إبن خلدون ، الجيلالي بن التهامي مفتاح

صدام الحضارات صاموئيل هننتجون

نهاية التاريخ ، فرنسيس فوكوياما

الحقيقة الكبرى ، التاوحيد وواقعنا المعاصر ، إشراقة الإيمان ، الأمانة ، الإنحراف ، حتى نغير ما بأنفسنا ، د النحوي

الإيمان ، شرح كتاب الإيمان ، التوحيد ، شرح كتاب التوحيد ، عبد المجيد الزنداني

مدخل الى العقيدة الإسلامية ، د عثمان جمعة ضميرية

التنمية المتكاملة ، رؤية إسلامية ، د عبد الكريم بكار

العقيدة الإسلامية و علم الكلام ، د محمود عياش الكبيسي ،

المدخل لدراسة علم الكلام د حسن الشافعي

علم الكلام الجديد ، شبلي النعماني

علم الكلام المعاصر ، حيدر حب الله

الكلام الإسلامي المعاصر ، د الشيخ الحسين خسريوناه

دراسات في علم الكلام الجديد ، حسن يوسفيان

الفهـــرس

المقدمة : .....ص : 3

الفصل الأول : التصور الإسلامي ، طبيعته و خصائصه ..... ص: 5

معنى التصور ، العقيدة ، الإنسان و العقيدة ، ركائز التصور الإسلامي أحاديث الآحاد ، الآشاعرة و أدعياء السلفية ، و المداخلة .

الفصل الثاني : الله جل جلاله ..... ص: 24

التصورات الوضعية لله عز و جل ، عقائد اليهود ، التصورات المسيحية لله عز و جل ، الله في القرآن الكريم ، لاإله إلا الله هي الحقيقة الكبرى ، الإسلام النسبي ، الإيمان و الحياة ، العبودية لله قمة التحرر و الإستقلالية ، ما معنى توحيد الربوبية ؟ مظاهر توحيد الربوبية ، توحيد الألوهية ، توحيد أسماء الله و صفاته ، إشراقة الأسماء الحسنى ، صفات الله و أفعاله ، الصفات النفسية ، الصفات السلبية ، الصفات المعنوية ، حقائق إعتقادية .

الفصل الثالث: توحيد الحاكمية ..... ص: 96

الحاكمية ، الحاكمية الإلهية ، الحاكمية التشريعية ، حاكمية الوحي ، أهم مظاهر الحاكمية الشرعية ، إختصاصات العقل و النقل ، المودودي و فكرة الحاكمية ، الحاكمية عند سيد قطب ، الحاكمية و التوحيد ، الحاكمية في الفكر الإسلامي الحديث ، الشيخ رمضان البوطي ، لا حاكمية إلا لله ، وظيفة الإنسان ، رأي الشيخ القرضاوي ، رأي الأستاذ محمد قطب ، الحاكمية من قضايا الأصول أم الفروع ؟ الفريضة الغائبة، المبادرة بالحاكمية .

الفصل الرابع : الكون ص:127

إن في خلق السماوات و الأرض ، بعض الظواهر الكونية في القرآن الكريم ، أصل الحياة ، نشأة الكون ، السماء ، تساؤلات حائرة ، خلق السماوات و الأرض و تقدير الأقوات ، خلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس ، كواكب أخرى فير الأرض ، حقيقة الكون .

الفصل الخامس: الحياة ص:155

الحياة في القرآن الكريم ، الحياة الدنيا بين العلم و الواقع ، نظريات نشأة الحياة الفيروسات و نشأة الحياة ، تطور الحياة على وجه الأرض ، ظهور البرمائيات .

الفصل السادس: الإنسان ..... ص: 178

قصة آدم ، الإختبار ، الأرض هي أم الإنسان و حاضنته ، قصة الخلق ، مظاهر تكريم الله للإنسان ، حرية الإرادة و الإختيار ، علمه البيان ، اللباس ، الدفن ، الجسد و الروح ، النفس البشرية بين الدين و العلم ، النفس الملهمة ، النفـــس

، النفس الأمارة بالسوء ، النفس اللوامة، النفس المطمئنة ، وظائف الإنسان في الحياة ، الخلافة ، العلم ، فلسفة العبادة في التصور الإسلامي ، العبودية لله هي قمة الحرية ، مراتب العبودية . إعمار الأرض و بناء الحضارة ، التنمية في التصور الإسلامي ، الأرض ، التمكين ، أسباب إنهيار الحضارات ، تفاعل الحضارات صدام الحضارات بين الوهم و الحقيقة ، ملاحظات حول مقاربة صامويل هنتنجتون ، الأمانة، أنواع الأمانة ، الأنة في العبادة ، الأمانة في العمل ن الأمانة في المسؤولية ، أمانة النبي ﷺ ، أمانته مع السيدة خديجة ، أضواء على سورة الأحزاب ، الأمانة العظمى ، هل إلتزمت الأمة المسلمة بآداء الأمانة العظمى ؟ معاوية بن أبي سفيان و الإنحراف الكبير ، الإنسان في التصورات الوثنية ، الإنسان في القرآن الكريم .

مطبوعات

دار القبس للنشر الإلكتروني

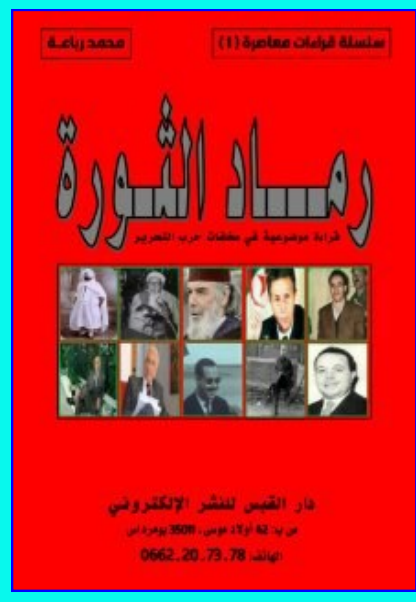

الكـاتب

محمد رباعة ، من مواليد ٢١ . أكتوبر - ١٩٦٣ بقرية القراح . القرزي . بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، صحفي محترف و كاتب عصامي ، درس في (ثانوية الحياة الجديدة ، و جامعة العلم و الإيمان متزوج و أب لأربع أطفال ، مقيم منذ أواخر سنة ٢٠٠٤ ببومرداس ، يسير حاليا دار القبس للنشر الإلكتروني ، ومديرا للنشر و التحرير لمجلة القبس السياسية الثقافية الإلكترونية - من مؤلفاته . الإتصالات السرية بين العرب و إسرائيل ، إسرائيل من الداخل ، أمريكا الوجه و القناع ، رماد الثورة ، السلطة الجديدة و الثورة المضادة . الشموخ و التحدي ، و كتب أخرى تنتظر النشر .

من الكتـاب

يتميز التصور الإسلامي عن مختلف التصورات الوضعية البشرية بعدة خصائص و مزايا ، و هي الربانية و الوضوح و البساطة و الواقعية ، التوازن و الوسطية ، و الثبات ، و التناسق مع الفطرة ، و الإقناع و الشمول ، فهو عقيدة ربانية المصدر ، صادرة من لدن عالم الغيب و الشهادة ، الحكيم الخبير ، موثوقة و صادقة تتميز بمصداقية عالية ، واضحة المعالم و بسيطة يمكن فهمها و إستيعابها بسهولة مهما كانت مستويات العلم و التفكير ، واقعية بمعنى أنها غير خيالية فتعجز العقول عن إدراك أبسط مدلولاتها و معانيها ، ثابتة لا تتغير و لا تتحول و لا تتبدل ة غير قابلة للتطوير و التحديث كما الشأن بالنسبة للتصورات و الإيديولوجيات و الفلسفات البشرية ، التي تنقض بعضها البعض ص: 7 .